السيرة النبوية

أبو الحسن علي الحسني الندوي

الطبعة الثامنة
مزيدة ومنقحة

دار الشروق جدة
للنشر والتوزيع والطباعة

بسم الله الرحمن الرحيم

السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

الطبعة الثامنة
١٤٠٩ / ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م

دار الشروق جدة
للنشر والتوزيع والطباعة

الادارة - كيلو ثلاثة - طريق مكة - هاتف ٦٨٧٣٠٧٧
ص.ب ٤١٤٦ جدة - الرمز البريدي ٢١٤٩١
برقيا - مشكاتنا - تلكس SHORCO, SJ ٦٠١٢٠٩
فاكس - ٦٨٧٣٠٧٧
المكتبة - شارع البغدادية - هاتف ٦٤٤٣٥١٨ - ٦٤٢٦٦١٠
المكتبة - كيلو ثلاثة - طريق مكة - هاتف ٦٨٧٢٨٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة السابعة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد - فقلب المؤلف وقلمه يسجدان لله شكراً ويلهجان بحمده نطقا وكتابة، على تقديم الطبعة السابعة «للسيرة النبوية» فقد صدرت الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧ م) والطبعة السادسة في ١٤٠٥ هـ (١٩٨٤ م)، من دار الشروق بجدة، ولقي الكتاب من القرّاء والمعنيّين بالموضوع، ورجال التربية والمؤسسات العلمية، عناية يحمد الله عليها المؤلف، ونقلت إلى عدة لغات غير العربية مثل الأردية والهندية (اللغة الرسمية في الهند القريبة الى السنسكريتية) والانجليزية والتركية والاندونيسية، وعُنيَ بها الدارسون في اطار هذه اللغات المنتشرة في نطاق واسع.

وقد سنحت للمؤلف فرصة الإطّلاع على ما كتب في السيرة النبوية وما يتصل بها تاريخيا، وجغرافيا وحضاريا، واجتماعيا، ودراسات مقارنة، خصوصاً في اللغات الثلاث، العربية، والأردية، والانجليزية، في هذه الفترة، فالتقط منها بعض ما يزيد في المواد الموضوعية، وشرح

خلفيات الحوادث والدراسة المقارنة، ويلفت نظر المؤلف إلى إيضاح بعض الجوانب التاريخية والعلمية، والدعوية في السيرة النبوية فاستفاد من ذلك، وقام بضمّ زيادات ذات قيمة يبلغ عددها إلى عشرين زيادة، بين موجزة ومستفيضة، يجدها القارىء في مكانها.

ولم يقتصر المؤلف - من أول عهده بتأليف هذا الكتاب، إلى استئناف نظر فيه والزيادة والتنقيح - على عرض الوقائع والأخبار ومجرّد التاريخ والتوقيت كقائمة معلومات رتيبة خشيبة، بل عُنِيَ كذلك باستنتاج نتائج عميقة المَعنى بعيدة المدى، ذات قيمة في دراسة سير الأنبياء ودعواتهم، لاسيما سيرة سيدهم وخاتمهم صلّى الله عليه وآله وسلم - ودعوته، وفي النفسيات البشرية، وعلم الإجتماع والأخلاق، وهي من وحي السيرة ومن حقوقها وواجباتها على الدارس المؤمن والمَعنيّ بتربية الأجيال المسلمة، وتوجيه الـمُربّين والدعاة، والمؤلفين والباحثين في موضوع السيرة.

وقد جاءت هذه الطبعة - بتوفيق الله تعالى وتيسيره - جامعة بين مواد السيرة الأصيلة الموثوق بها، وبين أحدث ما كُتِبَ وتوصّل إليه الباحثون في هذا الموضوع، وبين الأمانة التاريخية والتحقيق العلمي، وبين تغذية الإيمان والعاطفة بما لا سبيل إليه إلاّ في السيرة وهي غاية أكبر عدد من قرّائها، وحاجة الجميع من أفراد البشر، وذلك من غير تفخيم أو تلوين، فالسيرة غنيّة عن كل هذا، فائقة في روعتها وجمالها، قائمة بذاتها في التأثير على النفوس والعقول.

وأخيرا المؤلف يحمد الله على أنه فسح في أجله، وهيّأ له الأسباب، حتّى يتمكّن من النظر في كتابه وتناوله بالتنقيح والزيادة، ويشكر «دار الشروق» العزيزة وصاحبها الحبيب الفاضل سعادة الاستاذ محسن أحمد باروم على عنايتها بنشر هذا الكتاب وإصداره طبعة بعد طبعة،

والعناية بحسن اخراجه، ويسأل الله لهما التوفيق الدائم وحسن القبول.

أبو الحسن علي الحسني الندوي
أمين عام ندوة العلماء لكهنو (الهند)
بومباي الهند ١٧/من ربيع الثاني ١٤٠٧هـ
٢٠/١٢/١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب للطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين، محمد وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم باحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فقد كانت السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - المدرسة الأولى التي تعلم فيها مؤلف هذا الكتاب، وقد دخلها في سن مبكرة، لا يدخل فيها الأطفال في عامة الأحوال، والفضل في ذلك يرجع إلى الجو الذي كان يسود بيته وأسرته، فقد كانت السيرة تُكوِّن عنصراً أساسياً في الثقافة التي يتلقاها أبناء الأسرة وأطفال البيت، وإلى المكتبة الصغيرة البسيطة المؤلفة من منظوم ومنثور، التي كانت تنتقل من يد إلى يد، ثم إلى تربية أخيه الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسني، وتوجيهه الحكيم، فقرأ في صباه أفضل ما كتب في السيرة النبوية في «أردو» لغة مسلمي الهند، وهي أغنى لغات العالم الإسلامي بعد اللغة العربية في موضوع السيرة، وهي تحتوي على أقوى وأجمل ما كتب فيها في العصر الأخير[1].

---

(١) اقرأ قصة صلة المؤلف بكتب السيرة، وتأثيرها في ثقافته وعقليته وسيرته في كتاب «الطريق إلى المدينة» المقال الأول بعنوان «الكتاب الذي لا أنسى فضله».

ثم لما صار يشدو باللغة العربية عكف على كتب السيرة، التي ألفت فيها، وكانت في مقدمتها السيرة النبوية لابن هشام، و«زاد المعاد في هدي خير العباد» لابن قيم الجوزية، ولم يدرسها دراسة علمية فحسب، بل عاش فيها زمناً طويلاً، يذوق بها حلاوة الإيمان، ويغذي بما جاء فيها من القصص والأخبار عاطفة الحب والحنان، ومن المقرر أن السيرة أقوى العناصر التربوية وأكثرها تأثيراً في النفس والعقل بعد القرآن، ثم قرأ ما وصلت إليه يداه من كتب السيرة المؤلفة قديماً وحديثاً، وفي لغات مختلفة، وكانت السيرة هي المادة الأولى التي يعتمد عليها في كتاباته ومحاضراته، يستمد منها القوة في البيان، والتأثير في العقول والقلوب، والدلائل القوية، والأمثلة البليغة، لإثبات ما يريد إثباته، وهي التي كانت ولا تزال تفتق قريحته، وتشعل مواهبه، وما من كتابة ذات قيمة من كتاباته إلا وعليها مسحة من جمال السيرة، وفضل لدراستها والتأمل فيها، وقد جمع ما كتب في جوانب السيرة المختلفة، وعظمة البعثة المحمدية وما ألقاه من محاضرات وأحاديث، في كتاب أسماه «الطريق إلى المدينة»[1].

وقد عاش المؤلف هذه المدة الطويلة وقد ألف عشرات من الكتب لا يفكر في إفراد كتاب في السيرة النبوية، رغم أنه كان يشعر بمسيس الحاجة إلى كتاب كُتب في أسلوب عصري علمي، استفيد فيه من خير ما كتب في القديم والحديث، مؤسساً على مصادر السيرة الأولى الأصيلة، مطابقاً لما جاء في القرآن والسنة الصحيحة، لم يكتب في الأسلوب الموسوعي Encyclopaedic الحاشد للمعلومات في غير نقد وتمحيص، الأسلوب الذي اعتاده أكثر المؤلفين المتوسطين والمتأخرين وقليل من

---

(١) ظهرت لهذا الكتاب ثلاث طبعات من المدينة المنورة ولكهنؤ ودمشق.

المؤلفين المتقدمين، والذي كان مثار كثير من التساؤلات التي برّأ الله السيرة الكريمة منها، وأغنى المسلمين عنها، قد نالته يد التنقيح والتحقيق من غير تقليد للإتجاهات العصرية، وخضوع لكتابات المستشرقين وأقوال المشككين، متمشياً مع المقررات الدينية التي تفهم في ضوئها الكتب السماوية وسِيَر الأنبياء، والمعجزات، والأخبار الغيبية، قائماً على مبدأ أنه سيرة نبي من الانبياء، مبعوث من الله، مؤيد منه، لا سيرة عظيم من العظماء، أو زعيم من الزعماء، يسوغ أن يقدّم إلى كل مثقف منصف من المسلمين وغير المسلمين من غير تحفظ أو استثناء، أو حاجة إلى تأويل، يعتمد فيه المؤلف على الحوادث والوقائع، ومادة السيرة، ويدعها تنطق بلسانها، وتشقّ الطريق بنفسها إلى القلوب والعقول، أكثر مما يعتمد على فلسفته للحوادث وتعليله للأخبار، ومقدماته الطويلة العريضة، فالسيرة النبوية غنية بجمالها وروعتها وسحرها على النفوس والعقول، ووقعها منها موقع القبول، من شفاعة شافع وتدليل حكيم، وبراعة أديب، وجل ما يحتاج إليه المؤلف، هو جمال العرض، وحسن الترتيب، وجودة التلخيص.

ثم يتجلى فيه العقل والعاطفة جواراً بجوار، فلا يكون فيه البحث العلمي والنقد التحليلي على حساب العاطفة والحب والإيمان، الذي لا بد منها في تذوق السيرة والإستفادة منها وفهم قضاياها وأحكامها وحوادثها، فإنه إذا تجرد الكتاب من العاطفة والحب والإيمان، كان خشبياً مصنوعاً لا حياة فيه، وكذلك يجب ألا يكون العنصر العاطفي العقيدي على حساب المتطلبات العقلية السليمة التي نماها هذا العنصر بصورة خاصة، وعلى حساب المنطق السليم الذي لم يتجرد منه عصر من العصور، فيكون كتاب عقيدة وتقليد فحسب، لا يطيق قراءته ولا يسيغ ما جاء فيه إلا الأقوياء في الإيمان، والراسخون في الإسلام، من الذين نشأوا في بيئة دينية خالصة لا شأن لها بالعالم الخارجي، وبالثقافة

العصرية، وذلك وإن كانت موهبة من الله، فإن سيرة نبي أرسل إلى الناس كافة، وأرسل رحمة للعالمين، لا يجوز أن تجعل مقصورة على هذه الطبقة السعيدة المؤمنة محجورة على من لم يسمح ظروفهم بالنشوء في هذه البيئة المسلمة المؤمنة، وأرادت حكمة الله أن يولدوا في بيئات غير إسلامية، ثم يدركهم اللطف الإلهي، وتهب عليهم نفحة من نفحات هذه السيرة العطرة، فينتقلون بقوتها وجاذبيتها إلى حظيرة الإيمان ومعسكر الإسلام، وليس حق غير المسلمين على هذه السيرة وحظهم فيها أقل من حق المسلمين الذين نشأوا في ظلال الإيمان والإسلام، والدواء حاجة المريض أكثر من حاجة السليم، والقنطرة يحتاج إليها من يعيش وراء النهر أكثر مما يحتاج اليها من يعيش دونه.

ثم لا يسع المؤلف في السيرة صرف النظر عن البيئة التي كان فيها وجودها وقيامها، وعن العصر الذي كان فيه طلوعها وبزوغها، فلا بد من وصف الجاهلية العالمية الضاربة أطنابها على الأرض كلها في القرن السادس المسيحي، ومدى ما وصل اليه هذا العصر من الفساد والإنحطاط، والقلق والاضطراب، ووصف حالته الخلقية والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية وما تضافر عليه من عوامل الإفساد والاضلال والتدمير والابادة، من حكومات جائرة، وأديان محرفة، وفلسفات متطرفة، وحركات هدامة، وحين أراد المؤلف أن يكتب فصلاً في تفصيل وتوسع على العصر الجاهلي يقدم به كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» وجد في ذلك صعوبة لا ينساها حتى اليوم، واضطر إلى أن يجمع المعلومات من المراجع الأجنبية والكتب التي ألفت في تاريخ البلاد والأمم، والدول المعاصرة لنشوء الإسلام، في اللغات الأوربية، فالتقطها من ثنايا هذه الكتب كما تلتقط حبات السكر الدقيقة من أفواه النمل (حسب المثل الأردي)، فجاء هذا الفصل

الموسع[1]، الذي ينير الطريق لمن يقرأ كتب السيرة، ويحاول أن يدرك عظمة البعثة المحمدية وضخامة المهمة التي اضطلعت بها والنتائج العظيمة الجسيمة التي أسفرت عنها، وكان كل كتاب يؤلف في السيرة النبوية في العصر الحديث جديراً بهذا النوع من البحث والنمط في التحقيق، وإلقاء الأضواء القوية العلمية على العصر الجاهلي والتصوير الدقيق الأمين لما كان يجيش به من فساد واضطراب، وانهيار وانتحار.

وذلك شأن البيئة التي كانت فيها البعثة، وظهور الإسلام، والبلد الذي ظهرت فيه هذه الدعوة، وولد فيه صاحب الرسالة - عليه الصلاة والسلام - وقضى فيه ثلاثاً وخمسين سنة من عمره، وعاشت فيه الدعوة ثلاث عشرة سنة، فلا بد أن يعرف الدارس للسيرة مدى ما وصل إليه العقل فيه والوعي والمدنية، ومكانة هذا البلد الإجتاعية والسياسية وحالته الدينية والعقائدية ووضعه الاقتصادي والسياسي، وقوته الحربية والعسكرية حتى يعرف طبيعة هذا البلد وعقلية سكانه والعقبات التي كانت تعترض في سبيل انتشار الإسلام وشقه الطريق إلى الأمام.

وقل مثل ذلك وأكثر عن مدينة يثرب التي انتقل إليها الإسلام وهاجر اليها الرسول وأصحابه، وأراد الله أن تكون مركز الإسلام الأول، فلا يقدر مدى قيمة النجاح الذي حققه الإسلام وقدرته على التربية والبعث الجديد، وحل المعضلات، والجمع بين العناصر المتناقضة وعظمة المأثرة النبوية، واعجازها في تأليف القلوب وتربية النفوس، إلا

---

(١) جاء هذا الفصل في ٥٠ صفحة، في كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» بعنوان: «الإنسانية في احتضار» راجع الطبعة الثالثة عشرة ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م، طبع دار القلم الكويتية.

إذا عرف الإنسان وضعية هذه البيئة الغريبة المعقدة التي واجهها الرسول والمسلمون، ولا تفهم كثير من الحوادث والأحكام التي يمر بها القارىء في كتب السيرة والحديث إلا إذ عرف حالة المدينة الإجتماعية والإقتصادية والسياسية، وطبيعة أرضها وجغرافية هذا البلد وما حوله، وما كان يتركب به من عناصر إنسانية واقليمية، وصلات أجزاء عمرانه بعضها ببعض، والأعراف والمعاملات الشائعة قبل الهجرة وانتشار الإسلام فيه، فإذا جهل القارىء كل هذا، وبدأ رحلته في كتب السيرة شعر بأنه يمشي في نفق لا يبصر فيه ما حوله، وكان على غير بينة من الأمر.

وكذلك القول عن الحكومات المعاصرة والبلاد المجاورة، فلا يتبين القارىء خطورة الإقدام الذي قامت به الدعوة الإسلامية، وقوة مغامرتها، إلا إذا عرف حجم هذه الحكومات التي كانت تقوم حوله، والتي خاطبها الإسلام ودعاها الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلى الإيمان برسالته، وقبول حكم الإسلام، وما وصلت إليه من المدنية والثقافة، والقوة الحربية والرفاهية والعمران، وما كان يتمتع به ملوكها من حول وطول، وصولة وشوكة، وقد ألقى العلم الحديث ضوءاً على تاريخ هذه الحكومات والبلاد والمجتمعات التي كانت تعيش فيها ورفع الستار عن كثير مما كان مجهولاً أو غامضاً أو ملتوياً في العصر القديم، فكان من الواجب أن يستعين بكل ذلك المؤلف العصري في السيرة النبوية، ويستعين بالحديث الأحدث مما كتب ونشر من كتب التاريخ والجغرافية، والدراسة المقارنة.

كان المؤلف يشعر بكل هذا مع اعتراف بجهود المؤلفين في هذا الموضوع، وبقيمة ما صدر عن أقلامهم في فترات مختلفة ولغات مختلفة، وفضله في الدعوة الإسلامية، وتحبيب السيرة إلى نفوس القراء وتقريبها إلى أذهان الناشئة، وكان يرى السعادة في تأليف كتاب جديد في السيرة

النبوية لينخرط في سلك المؤلفين النوراني في هذا الموضوع الحبيب الجليل.

ولكنه كان يتهيب الكتابة في هذا الموضوع في توسع وتفصيل، لضيق وقته، وضعف بصره، ولأنه جرب أن كتاب سيرة لعظيم من العظماء فضلاً عن نبي من الأنبياء، فضلاً عن سيد الأولين والآخرين، وأشرف المرسلين، من أصعب الموضوعات التي يعالجها المؤلفون وأدقها، وقد مارس موضوع تأليف السير والتراجم للشخصيات المشهورة وأعلام المسلمين من القدماء والمحدثين والمعاصرين عملياً، فقد اشتغل بكتابة السير وحياة العظماء من أئمة المسلمين وقادتهم، والمصلحين والعلماء الربانيين، بعدما شب عن الطوق، وأمسك القلم، وعرف الكتابة وقد كتب بقلمه آلافاً من الصفحات في سيرة هؤلاء العظماء وعاش بين التراجم والسير منذ الصغر، فقرأ منها الكثير وكتب منها الكثير.

ومن هنا عرف دقة هذا الموضوع، وضخامة هذه المسئولية، فمن المؤلفين من تتغلب عليه نزعة أو اتجاه خاص، فيخضع له من يترجمه من حيث يشعر ومن حيث لا يشعر، فتأتي كتابته صورة لعقليته وعاطفته، ممثلة لاتجاه خاص كان يسيطر على مؤلف الكتاب، ومنهم من يريد أن يصور أحد العظماء فيصور نفسه، ويريد أن ينظر إليه نظرة مجردة، فيبدأ ينظر إليه من خلال ميوله وتجاربه ووجهة نظره ويسلط عليه مقاييسه الخاصة.

إن من درس علم النفس والأخلاق، وعني بدراسة الشخصيات المعاصرة، وعاش معها طويلاً عرف أن النزول في أعماق نفس إنسان والاحاطة بآفاقها، وتصويرها تصويراً دقيقاً شاملاً من أصعب أنواع المعرفة وأساليب البيان وأدقها وأنه لا يحسن ذلك بعض الإحسان، ولا يقدر عليه بعض القدرة إلا من عرف شيئاً كثيراً من خوالج النفس

وخواطرها، وآمالها وآلامها، وأحزانها وأشواقها والتهاب الروح ولوعة القلب، وقد رأى كيف يبيت هذا الإنسان ليله ويقضي نهاره، وكيف يعاشر أهله ويعامل أصحابه، قد رآه في السلم والحرب، والرضا والغضب، وفي العسر واليسر، والضعف والقوة، ومن أحوال النفس الإنسانية ومشاعرها وأحاسيسها، ومن مظاهر الجمال والكمال ما لم توضع له ألفاظ بعد، ولا تفي به ثروة لغوية مهما اتسعت ودقت.

والسيرة النبوية المحمدية تتميز من بين سير أفراد البشر - وفيهم الأنبياء وغير الأنبياء - بدقتها وشمولها، واستيعابها لدقائق الحياة وتفاصيلها وملامحها وقسماتها، وذلك بفضل علم الحديث الذي لا يوجد له نظير، لا في تاريخ الأنبياء ولا في تاريخ العظماء، وكتب السير والشمائل، وما جمع وحفظ من الأدعية[1] والأذكار النبوية، ومناجاته - صلى الله عليه وسلم - لربه آناء الليل والنهار وما حفظ ونقل من جوامع الكلم، وما أثر عن الوصافين الحاذقين من أصحابه وأهل بيته في صفته التي لم تحفظ كتب الآداب والتاريخ والأنساب، صفة أكثر منها دقة، وأعظم منها استيعاباً للملامح البشرية والدقائق الخلقية[2]، ولذلك لم يكن الأمر في تأليف السيرة النبوية من الصعوبة والغموض، والافتراض والقياس، كما هو في سير العظماء الأبطال، وأن سيرته - صلى الله عليه وسلم - أكمل السير كما كانت أجملها، وهي مؤسسة على

---

(١) ليراجع مقال المؤلف في صلة الأدعية النبوية بالسيرة؛ وقيمتها وأهميتها في دراستها وأنها مرآة تجلت فيها خصائص النبوة وأسرارها وصلتها بالله وبالخلق، والمعرفة الدقيقة لحقائق الحياة الإنسانية، وعلم النفس والأخلاق ودقائقها؛ وقد نشر هذا المقال في رسالة مفردة في أردو، ونقلها إلى العربية الأستاذ نور عالم الأميني الندوي، ونشرتها «المختار الإسلامي» في القاهرة بعنوان «دراسة للسيرة النبوية من خلال الأدعية المأثورة المروية».

(٢) اقرأ للتفصيل مقال المؤلف «القدوة الدائمة للأجيال البشرية كلها، وكيف أمكن ذلك؟» في كتابه «النبي الخاتم».

نصوص قرآنية ووثائق تاريخية ودقائق في الخَلق والخُلق، وتفاصيل في العادات والعبادات، والأخلاق والمعاملات، لا يتصور فوق ذلك، وهي أقرب إلى الحقيقة والواقع قرباً لا يتصور فوقه ولا يطمع في أكثر منه، بعد أن مضى على هذه الحياة الطيبة الكريمة مدة طويلة.

ولكن رغم وجود هذا الفارق الكبير بين سيرته ﷺ وبين سير العظماء بل وبين سير الأنبياء، ورغم دقتها التي لا دقة فوقها، وشمولها الذي لا شمول فوقه، لا بد من الاعتراف بأن تصوير حياته وأخلاقه، واستيعاب المعجزات التي اشتملت عليها سيرته ودعوته وحياته الانفرادية والاجتماعية، ومعاملته مع الله ومع الخلق، وآيات الحسن والإحسان في تكوين خلقه وخلقه، وفي حبه ورأفته، وفي دعائه وابتهاله وفي تألمه للانسانية ومصيرها، وفي منطقه وحكمته، وفي جامعيته وكماله، يكاد يكون مستحيلاً، وان ما جاء في كتب السير والشمائل - على جماله وروعته - هو بعض ما خصه الله به من جمال السيرة وكمال الخلق والخلق لا كله، وان جل ما هنالك انها محاولات وجهود يشكر عليها هؤلاء المؤلفون ويؤجرون عليها، وهي ثروة عامة خالدة، يجد فيها كل إنسان وكل جيل من البشر، وكل طبقة من طبقات الناس حظها من الهداية والنور والتقليد والاقتداء ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ (سورة الأحزاب آية ٢١).

لكل ذلك كنت أتهيب الكتابة في السيرة النبوية والتأليف فيها واستعظمها واستصغر نفسي، وقد حثني عدد من الفضلاء وكرام الأصدقاء[١] على أن أؤلف كتاباً في السيرة النبوية في اللغة العربية

---

(١) في مقدمتهم صديق المؤلف فضيلة الشيخ محمد محمود الصواف عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

أراعي فيه عقلية الجيل الجديد وذوقه ومستوى فهمه ونفسيته، وما جد من طلبات وحاجات وأسلوب كتابي ومنهج علمي، فلكل عصر أسلوبه ولغته، ومقادير وترتيبات في الأدوية والأغذية، وذلك كما قدمنا، من غير إخضاع السيرة النبوية للأهواء والأغراض وللنظريات العلمية التي تتغير صباح مساء، والشبه والاعتراضات التي يدفع اليها التعصب الديني أو الجهل العلمي أو الغرض السياسي.

وشرح الله صدري أخيراً لهذا التأليف، فعكفت على هذا الموضوع وعشت فيه، أقرأ كتب السيرة والحديث، وكل ما استعين به في هذا الموضوع من القديم والحديث، وبدأت أكتب معتمداً على أصح ما كتب وألف في هذا الموضوع، واستعنت بما كتب في هذا الموضوع في العصر القديم والعصر الحديث، وبالمراجع الأجنبية التي توضح الكثير من السيرة، والتاريخ المعاصر وتلقي ضوءاً على الحكومات والمجتمعات المعاصرة[1]، وحاولت أن يجمع الكتاب بين الجانب العلمي وبين الجانب التربوي البلاغي، لا يطغى أحدهما على الآخر، وأن يشتمل على أكبر مقدار من القطع النابضة الدافقة بالحيوية والتأثير، الآسرة للقلوب والنفوس التي لا يوجد نظيرها في سيرة إنسان ولا في تاريخ فرد أو جيل، أو دعوة أو دين، وذلك كله من غير تنميق أو تلوين، أو تحبير أو تحسين، فجمال الطبيعة والحقيقة لا يحتاج إلى تجميلات خارجية، أو تزيينات صناعية.

وكان هذا الكتاب شغلي الشاغل ما بين شوال ١٣٩٥ هـ وشوال ١٣٩٦ هـ (أكتوبر ١٩٧٥ م - أكتوبر ١٩٧٦ م) لم أشتغل بغير هذا الموضوع إلا اضطراراً، تتخلل ذلك فترات قليلة من المرض ورحلات

---

(١) وفي آخر الكتاب قائمة للمراجع العربية والأجنبية.

طويلة في الشرق والغرب، حتى يسر الله اتمامه في غرة شوال سنة ١٣٩٦هـ، وها هو الآن بين يدي القراء.

وأرى لزاماً علي أن أشكر صديقين فاضلين لقيت منهما مساعدة كبيرة في تأليف هذا الكتاب وهما فضيلة الشيخ برهان الدين السنبهلي أستاذ الحديث والتفسير في دار العلوم ندوة العلماء، وقد أعانني في تخريج الأحاديث والبحث عنها، والتحقيق في بعض ما جاء في كتب السيرة، جزاه الله خير الجزاء، والأستاذ محي الدين أحمد[1] فقد ساعدني مساعدة غالية في دراسة المراجع الأجنبية، والتقاط المعلومات المفيدة من كتب تاريخ الأمم والبلاد، والموسوعات الأجنبية، والمؤلف شاكر لفضله، معترف لجهوده واخلاصه. ولما كان هذا الكتاب كله املاء لعجز المؤلف عن الكتابة مباشرة استعان ببعض الاخوان في كتابته، وكان في مقدمتهم العزيزان محمد معاذ الأندوري الندوي وعلي أحمد الكجراتي الندوي، وساهم في ذلك الأستاذ نور عالم الأميني الندوي.

وقد كان للأستاذ محمد حسن الأنصاري فضل في وضع الخرائط التاريخية الجغرافية التي زين بها الكتاب، وزاد في قيمته العلمية، كما كان للأستاذ الكبير الدكتور محمد شفيع رئيس قسم الجغرافيا في جامعة «علي كره» الإسلامية ومساعد نائب رئيس الجامعة، وللقسم الجغرافي في الجامعة فضل في تحسينها وإكمالها، والمؤلف شاكر للإخوان جميعاً.

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب وأن يتقبله تقبلاً حسناً، وأن يجعله ذخراً للآخرة ووسيلة لدراسة هذه السيرة الطاهرة والاستزادة منها والانتفاع بها، وكفى للمؤلف شكراً، وللكتاب قيمة إذا أثار كامن

---

(١) وهو الذي وفق أخيراً لنقل هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية وقد صدرت له طبعتان.

الحب والإيمان في نفس مؤمن، وانجذاباً في قلب أحد من غير المسلمين إلى هذه السيرة الطاهرة العطرة وحملته على دراسة الإسلام وتفهمه - إنه ولي التوفيق.

الجمعة ١٣٩٦/١١/٥هـ
١٩٧٦/١٠/٢٩م

أبو الحسن علي الحسني الندوي
رائي بريلي - الهند

الإمبراطوريتان البيزنطية والفارسية

(في القرن السادس المسيحي)

أميال ٨٠٠ ٦٠٠ ٤٠٠ ٢٠٠ ٠

- مناطق تحت الحكم البيزنطي الغربي المباشر
- مناطق تحت الحكم البيزنطي الشرقي المباشر
- دولة عربية غسانية تحت وصاية الحكم البيزنطي الشرقي
- مناطق تحت الحكم الفارسي المباشر
- حكومات عربية تحت وصاية الحكم الفارسي

رسمنا أسماء الأماكن والبحار والبحيرات والأنهار كما كانت تسمى في القرن السادس المسيحي حسب نطقها اللاتيني

العصر الجاهلي

نظرة إجمالية على الوضع الديني في القرن السادس المسيحي:

أصبحت الديانات العظمى، وصحفها العتيقة، وشرائعها القديمة - التي مثلت في أزمان مختلفة دورها الخاص في مجال الديانة والأخلاق والعلم - فريسة العابثين والمتلاعبين، ولعبة المحرفين والمنافقين، وعرضة الحوادث الدامية والخطوب الجسيمة حتى فقدت روحها وشكلها، فلو بعث أصحابها الأولون، وأنبياؤها المرسلون، أنكروها وتجاهلوها[1].

أصبحت اليهودية مجموعة من طقوس وتقاليد لا روح فيها ولا حياة، وهي - بصرف النظر عن ذلك - ديانة سلالية، لا تحمل للعالم رسالة، ولا للأمم دعوة، ولا للإنسانية رحمة.

وقد أصيبت هذه الديانة في عقيدة كانت لها شعاراً من بين الديانات والأمم وكان فيها سر شرفها، وتفضيل بني اسرائيل على الأمم المعاصرة في الزمن القديم وهي عقيدة التوحيد التي وصى بها إبراهيم

---

(١) اقرأ قصة ما تعرضت له صحف الأمم السابقة - صاحبة الديانات الشهيرة - من تحريف وتبديل وضياع وإبادة أحياناً؛ في ضوء الوثائق التاريخية، وشهادات علماء هذه الديانات من أسفار العهد العتيق والعهد الجديد إلى «أوستا» الايرانية، و«ويدا» صحف الهند العتيقة في كتاب المؤلف «النبوة والانبياء في ضوء القرآن» المحاضرة السابعة عنوان «الصحف السماوية السابقة؛ والقرآن، في ميزان العلم والتاريخ» ص١٩٨-٢٠٦ (طبعة دار القلم، دمشق، بيروت).

بنيه يعقوب، فقد اقتبس اليهود كثيراً من عقائد الأمم التي جاوروها أو وقعوا تحت سيطرتها، وكثيراً من عاداتها وتقاليدها الوثنية الجاهلية، وقد اعترف بذلك مؤرخو اليهود المنصفون، فقد جاء في «دائرة المعارف اليهودية» ما معناه:

«ان سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان تدل على أن عبادة الأوثان والآلهة، كانت قد تسربت إلى نفوس الاسرائيليين ولم تستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد قبلوا معتقدات خرافية ومشركة، ان التلمود أيضاً يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود»[١].

ويدل تلمود[٢] بابل الذي يبالغ اليهود في تقديسه، وقد يفضلونه على التوراة وكان متداولاً بين اليهود في القرن السادس المسيحي وما زخر به من نماذج غريبة من خفة العقل وسخف القول، والاجتراء على الله، والعبث بالحقائق، والتلاعب بالدين والعقل، على ما وصل إليه المجتمع اليهودي في هذا القرن من الانحطاط العقلي وفساد الذوق الديني[٣].

أما المسيحية فقد امتحنت بتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، ووثنية الرومان المتنصرين[٤]، منذ عصرها الأول، وأصبح كل ذلك ركاماً، دفنت تحته تعاليم المسيح البسيطة، واختفى نور التوحيد واخلاص العبادة لله وراء هذه السحب الكثيفة.

---

(1) Jewish Encyclopedia, VOL-XII, p. 568-69.

(٢) كلمة تلمود معناها كتاب تعليم ديانة اليهود وآدابهم؛ وهي مجموع حواش وشروح لكتاب «المشنا» «الشريعة» لعلماء اليهود في عصور مختلفة.

(٣) اقرأ للتفصيل «اليهودي على حسب التلمود» «للدكتور روهلنج» وترجمته العربية في «الكنز المرصود في قواعد التلمود» للدكتور يوسف حنا نصر الله (من الفرنسية).

(٤) راجع كتاب «الصراع بين الدين والعلم» للمؤلف الأوربي الشهير «درابر Draper» ص ٤٠-٤١.

يتحدث كاتب مسيحي فاضل عن مدى تغلغل عقيدة التثليث في المجتمع المسيحي، منذ أواخر القرن الرابع الميلادي، فيقول:

«تغلغل الاعتقاد بأن الإله الواحد مركب من ثلاثة أقانيم في أحشاء حياة العالم المسيحي وفكره، منذ ربع القرن الرابع الأخير، ودامت كعقيدة رسمية مسلّمة، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحي، ولم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرها إلا في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي»[1].

ويتحدث مؤرخ مسيحي معاصر عن ظهور الوثنية في المجتمع المسيحي في مظاهر مختلفة وألوان شتى، وتفنن المسيحيون في اقتباس الشعائر والعادات والأعياد والأبطال الوثنية من أمم وديانات عريقة في الشرك بحكم التقليد أو الاعجاب أو الجهل، جاء في «تاريخ المسيحية في ضوء العلم المعاصر»:

«لقد انتهت الوثنية، ولكنها لم تلق إبادة كاملة، بل إنها تغلغلت في النفوس واستكر كل شيء فيها باسم المسيحية وفي ستارها، فالذين تجردوا عن آلهتهم وأبطالهم وتخلوا عنهم أخذوا شهيداً من شهدائهم، ولقبوه بأوصاف الآلهة، ثم صنعوا له تمثالاً، وهكذا انتقل هذا الشرك وعبادة الأصنام إلى هؤلاء الشهداء المحليين، ولم ينته هذا القرن حتى عمت فيهم عبادة الشهداء والأولياء، وتكونت عقيدة جديدة، وهي أن الأولياء يحملون صفات الألوهية، وصار هؤلاء الأولياء والقديسون خلقاً وسطاً بين الله والإنسان يحمل صفة الألوهية على أساس عقائد الأريسيين، وأصبحوا رمزاً لقداسة القرون الوسطى وورعها وطهرها،

---

(١) ملخص ما جاء في دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة، مقال التثليث المقدس، ج ١٤؛ ص ٢٩٥.

وغيرت أسماء الأعياد الوثنية بأسماء جديدة، حتى تحول في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح »[١].

وجاء القرن السادس المسيحي، والحرب قائمة على قدم وساق، بين نصارى الشام والعراق وبين نصارى مصر، حول حقيقة المسيح وطبيعته، تحولت بها المدارس والكنائس والبيوت، معسكرات متنافسة يكفر بعضها بعضاً، ويقتل بعضها بعضاً، كأنها حرب بين دينين متنافسين، أو أمتين متحاربتين[٢]، فأصبح العالم المسيحي في شغل بنفسه عن محاربة الفساد، واصلاح الحال، ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح للإنسانية.

أما المجوس فقد عرفوا من قديم الزمان بعبادة العناصر الطبيعية أعظمها النار، وقد عكفوا على عبادتها أخيراً، يبنون لها هياكل ومعابد، وانتشرت بيوت النار هذه في طول البلاد وعرضها، وكانت لها آداب وشرائع دقيقة، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار وتقديس الشمس، وأصبحت الديانة عندهم عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدونها في أمكنة خاصة، أما خارج المعابد فكانوا أحراراً، يسيرون على هواهم، وما تملي عليهم نفوسهم، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين من لا دين لهم ولا خلاق، في الأعمال والأخلاق[٣].

---

(١) راجع Rev. James Houston Baxter The History of Christianity in the Light of Modern Knowledge, (Glasgow, 1959) p. 407.

(٢) راجع «فتح العرب لمصر» لـ «الفرد بتلر» تعريب محمد فريد أبو حديد، ص ٣٧، ٣٨، ٤٧.

(٣) اقرأ كتاب «إيران في عهد الساسانيين» للبروفيسور «آرتهر كرستن سين» أستاذ الألسنة الشرقية في جامعة «كوبنهاجن» بالدانمارك، المتخصص في تاريخ إيران، و«تاريخ إيران» تأليف «شاهين مكاريوس» المجوسي.

يصف مؤلف «ايران في عهد الساسانيين» الدانماركي الأستاذ «آرتهر كرستين سين» طبقة رؤساء الدين ووظائفهم فيقول:

«كان واجباً على هؤلاء الموظفين أن يعبدوا الشمس أربع مرات في اليوم، ويضاف إلى ذلك عبادة القمر والنار والماء، وكانوا مكلفين بأدعية خاصة، عند النوم والانتباه والاغتسال ولبس الزنار والأكل والعطس وحلق الشعر وقلم الأظفار، وقضاء الحاجة وايقاد السراج، وكانوا مأمورين بألا يدعوا النار تنطفىء وألا تمس النار والماء بعضها بعضاً، وألا يدعوا المعدن يصدأ، لأن المعادن عندهم مقدسة»[1].

وكان أهل إيران يستقبلون في صلاتهم النار، وقد حلف «يزدجرد» - آخر الملوك الساسانيين - بالشمس مرة، وقال: «أحلف بالشمس التي هي الإله الأكبر» وقد كلف التائبون عن المسيحية عبادة الشمس اظهاراً لصدقهم[2].

وقد دانوا بالثنوية في كل عصر وأصبح ذلك شعاراً لهم، وآمنوا بالهين اثنين أحدهما النور أو إله الخير، ويسمونه «آهور مزدا» أو «يزدان» والثاني الظلام أو إله الشر، وهو «أهرمن» ولا يزال الصراع بينهما قائماً والحرب دائمة[3].

يذكر المؤرخون للديانة الإيرانية مجموعة أساطير متصلة بالآلهة (Mythology) لا تقل في غرابتها وتفاصيلها الدقيقة عن الميثولوجيا الاغريقي أو الهندي[4].

---

(١) «إيران في عهد الساسانيين»؛ ص ١٥٥.
(٢) نفس المصدر، ص ١٨٦-١٨٧.
(٣) نفس المصدر باب الدين الزرتشي ديانة الحكومة، ص ١٨٣-٢٣٣.
(٤) «إيران في عهد الساسانيين»؛ ص ٢٠٤-٢٠٩.

أما البوذية - الديانة المنتشرة في الهند وآسيا الوسطى - فقد تحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل «بوذا» حيث حلت ونزلت[1]، ولم يزل العلماء يشكون في إيمان هذه الديانة ومؤسسها بالإله الخالق للسماوات والأرض والإنسان ولا يجدون ما يثبت ذلك، ويحارون في قيام هذه الديانة العظيمة بغير الإيمان بالله[2] فيها.

أما البرهمية - دين الهند الأصيل - فقد امتازت بكثرة المعبودات والآلهة والإلهات، وقد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس فبلغ عدد الآلهة في هذا القرن إلى ٣٣٠ مليون[3] وقد أصبح كل شيء رائع، وكل شيء هائل، وكل شيء نافع، إلهاً يعبد، وارتقت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد، وتأنق فيها المتأنقون.

يقول الاستاذ الهندوكي الفاضل «سي، وي، ويد» في كتابه «تاريخ الهند الوسطى» وهو يتحدث عن عهد الملك هرش (٦٠٦-٦٤٨ م) وهو العهد الذي يلي ظهور الإسلام في الجزيرة العربية:

«كانت الديانة الهندوكية والديانة البوذية وثنيتين سواء بسواء، بل ربما كانت الديانة البوذية قد فاقت الديانة الهندوكية في الاغراق في الوثنية، كان ابتداء هذه الديانة - البوذية - بنفي الإله، ولكنها بالتدريج جعلت «بوذا» الإله الأكبر، ثم أضافت إليه آلهة أخرى مثل

---

(١) راجع كتاب «الهند القديمة» للأستاذ «ايشورا توبا» أستاذ تاريخ الحضارة الهندية في جامعة «حيدر آباد» الهند، وكتاب «اكتشاف الهند» «The Discovery of India» لمؤلفه «جواهر لال نهرو» رئيس وزراء الهند الأسبق ص٢٠١-٢٠٢.

(٢) اقرأ مقالة «بوذا» في دائرة المعارف البريطانية.

(٣) راجع «الهند القديمة» لمؤلفه «آر، سي، دت» ج ٣؛ ص ٢٧٦، و«الهندوكية السائدة» لمؤلفه L.S.S. O'Malley, ص ٦-٧.

Bodhistavas على مر الزمن، لا سيا أرسخت الوثنية قدميها في المدرسة البوذية الفكرية التي تسمى «مهايانا» بالتأكيد، وقد بلغت أوجها في الهند، حتى أصبحت كلمة «بوذا» (Buddha) مرادفة لكلمة «الوثن» أو «الصنم» في بعض اللغات الشرقية[١].

مما لا شك فيه أن الوثنية كانت منتشرة في العالم المعاصر كله، لقد كانت الدنيا كلها من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادىء غارقة في الوثنية، وكأنما كانت المسيحية والديانات السامية والديانة البوذية تتسابق في تعظيم الأوثان وتقديسها، وكانت كخيل رهان تجري في حلبة واحدة»[٢].

ويقول أستاذ هندوكي فاضل آخر في كتابه الذي سماه: «الهندوكية السائدة»:

«ان عملية خلق الآلهة» لم تنته على هذا، فلم تزل تنضم آلهة صغيرة في فترات تاريخية مختلفة إلى هذا «المجمع الإلهي» في عدد كبير، حتى أصبح منهم حشد يفوق الحد والإحصاء، كان كثير منهم آلهة سكان الهند القدامى، ألحقوا بآلهة الديانة الهندوكية، يذكر أن عدد هؤلاء قد بلغ ٣٣٠ مليون[٣].

---

(١) مثل الفارسية واللغات المنشقة عنها كالأردية، فهي تعبر عن الوثن أو الصنم بكلمة «بت» وهذا التعبير منتشر في الشعر والأدب وكلام الناس في إيران والهند، والناس في الهند يطلقون على «بوذا» كلمة «بدها» فيقولون: «جوتم بدها»، وكلمة «بت» متقاربتان نطقاً (المؤلف).

(2) C.V. Vaidya: History of Mediaeval Hindu India, Vol, I (Poona, 1921) p. 101.

(3) L.S.S. O'Malley, C.I.E.I. I.C.S. : Popular Hinduism., the Religion of the Masses (Cambridge, 1935) pp. 6–7.

أما العرب الذين آمنوا في الزمن القديم بدين إبراهيم، وقام في أرضهم بيت الله الحرام، فقد ابتلوا في العصر الأخير لبعد عهدهم من النبوة والأنبياء، والانحصار في شبه جزيرتهم بوثنية سخيفة لا يوجد لها نظير إلا في الهند البرهمية الوثنية، وترقوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة، واعتقدوا أن لهم مشاركة في تدبير الكون، وقدرة ذاتية على النفع والضرر، والايجاد والافناء، وانغمست الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام بأبشع أشكالها، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص، بل لكل بيت صنم خصوصي[١].

وكان في جوف الكعبة - البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وحده - وفي فنائها، ثلاثمائة وستون صنماً[٢]، وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان الى عبادة الحجر، من أي جنس كان، وكانت لهم آلهة من الملائكة والجن والكواكب، وكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، وأن الجن شركاء الله، فآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم[٣].

اطلالة على البلاد والأمم:

هذا شأن الديانات التي ظهرت في زمانها للدعوة إلى الله، أما البلاد المتمدنة التي قامت فيها حكومات عظيمة، وشاعت فيها علوم كثيرة، وكانت مهد الحضارة والصناعات والآداب، فقد كانت بلاداً مسخت فيها الديانات، وفقدت أصالتها وقوتها، وفقد المصلحون، وغاب المعلمون.

---

(١) اقرأ كتاب «الأصنام» للكلبي؛ ص ٣٣.
(٢) الجامع الصحيح للبخاري، كتاب المغازي، باب فتح مكة.
(٣) كتاب الأصنام، ص ٤٤.

الامبراطورية الرومانية الشرقية:

فالدولة الرومانية الشرقية[١]، ازدادت فيها الأتاوات، وتضاعفت الضرائب، حتى أصبح أهل البلاد يفضلون على حكومتهم كل حكومة أجنبية، وحدثت اضطرابات إثر اضطرابات، وثورات إثر ثورات، وقد هلك عام ٥٣٢م في اضطراب واحد في عهد جيستن الأول (Justin, I) ثلاثون ألف شخص في القسطنطينية[٢] - عاصمة المملكة - وأصبح الهم الوحيد اكتساب المال من أي وجه، ثم انفاقه في التطرف، وقد أمعنوا في طرق التسلية، حتى وصلوا فيها إلى الوحشية[٣].

جاء في كتاب «الحضارة ماضيها وحاضرها» تصوير لما كان عليه المجتمع البيزنطي من التناقض والاضطراب والهيام بالتمتع والتسلية، وإن وصلت إلى حد القسوة والهمجية، فيقول المؤلفان الفاضلان:

«كان هناك تناقض هائل في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين، فقد رسخت النزعة الدينية في أذهانهم، وعمت الرهبانية، وشاعت في طول البلاد وعرضها، وأصبح الرجل العادي في البلاد يتدخل في الأبحاث الدينية العميقة، والجدل البيزنطي، ويتشاغل بها، كما طبعت الحياة العادية العامة بطابع المذهب الباطني، ولكن نرى هؤلاء - في جانب آخر - حريصين أشد الحرص على كل نوع من أنواع اللهو واللعب، والطرب

---

(١) الامبراطورية الرومانية الشرقية هي المعروفة بالامبراطورية البيزنطية ويعرفها العرب بالروم، وكانت تحكم في العصر الذي نتحدث عنه، دول يونان وبلقان، وآسيا الصغرى؛ وسوريا وفلسطين، وحوض البحر الأبيض المتوسط بأسره؛ ومصر، وكل أفريقيا الشمالية، وكانت عاصمتها القسطنطينية، وكان ابتداء الامبراطورية المذكورة سنة ٣٩٥؛ وانتهاؤها بغلبة العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م.

(٢) تاريخ العالم للمؤرخين (Historian's History of the World vol. VII p. 73).

(٣) اقرأ كتاب «سقوط دولة روما وانحطاطها» لادوارد جيبون: ٣ - ٥.

والترف، فقد كانت هناك ميادين رياضية واسعة تتسع لجلوس ثمانين ألف شخص، يتفرجون فيها على مصارعات بين الرجال والرجال أحياناً، وبين الرجال والسباع أحياناً أخرى، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين: لون أزرق ولون أخضر، لقد كانوا يحبون الجمال، ويعشقون العنف والهمجية، وكانت ألعابهم دموية ضارية أكثر الأحيان، وكانت عقوباتهم فظيعة تقشعر منها الجلود، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارة عن المجون والترف، والمؤامرات والمجاملات الزائدة، والقبائح والعادات السيئة »[١].

أما مصر - إحدى ولايات الدولة البيزنطية الغنية - فكانت عرضة لاضطهاد ديني فظيع، واستبداد سياسي شنيع، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر، التي كانت مصدراً كبيراً لرخاء الدولة وغناها، وقد اتخذها الروم شاة حلوبا يحسنون حلبها، ويسيئون علفها[٢].

أما سوريا - ولاية الامبراطورية البيزنطية الأخرى - فكانت مطية المطامع الرومانية وكان الحكم حكم الغرباء الذي لا يعتمد إلا على القوة، ولا يشعر بشيء من العطف على الشعب المحكوم وكثيراً ما كان السوريون يبيعون أبناءهم ليوفوا ما كانت عليهم من ديون، وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق[٣].

---

(1) T. Walter Wallbank and Alastair M. Taylor: Civilisation, Past and Present, (1954) pp. 261-62.

(٢) « فتح العرب لمصر » لمؤلفه « الفرد بتلر »، و« تاريخ العالم للمؤرخين »: ج - ٧.

(٣) اقرأ للتفصيل « خطط الشام » للأستاذ كرد علي: ج ١، ص ١٠١.

الامبراطورية الايرانية[1]:

كانت الزرتشتية - وهي التي خلفت المزدائية - ديانة إيران القديمة، ومن المرجح أن «زرتشت» صاحب هذه الديانة ظهر في القرن السابع قبل الميلاد، وكانت مؤسسة منذ أول يومها على الحرب القائمة بين النور والظلام، وبين روح الخير وروح الشر، أو بين إله الخير وبين إله الشر.

وجاء «ماني» في أوائل القرن الثالث المسيحي مجدداً لهذه الديانة، مضيفاً اليها[2]، وتبعه «شاه بور» - الذي خلف أردشير (٢٤١ م) مؤسس الدولة الساسانية، واحتضن دعوته، ثم أصبح معارضاً له، فقد كان «ماني» يدعو إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم، ويعلن أن امتزاج النور بالظلمة شر يجب الخلاص منه، فحرم النكاح استعجالاً للفناء، وانتصاراً للنور على الظلمة، بقطع النسل، وقضى أعواماً في

---

(١) كانت أعظم من الامبراطورية الرومانية الشرقية - بعد انشقاقها عن الامبراطورية الرومانية الكبرى - مساحة وأبهة وثروة؛ وقد تأسست على يد «أردشير» في سنة ٢٢٤ م، وكانت تحكم حين بلغت أوجها، أسيرته، وخوزستان، وميديه، وفارس وأذربيجان، وطبرستان، وسرخس، وجرجان، وكرمان، ومرو؛ وبلخ، وسغد، وسيستان، وهرات، وخراسان وخوارزم، والعراق واليمن من الجزيرة العربية، وقد دخلت بعض ولايات الهند مثل كجه، وكاتيهاوار، ومالوه، في حكمها في بعض الفترات، وقد اتسعت هذه الامبراطورية اتساعاً كبيراً منذ القرن الرابع المسيحي، وقد أوغلت في الشمال والشرق وبلغت أقصى حدودها.

وقد كانت طيسيفون (المداين) عاصمة الامبراطورية، ومقر الامبراطور الايراني، وكان مجموع مداين كما يبدو من اسمها العربي، وقد بلغت أوجها في الرقي والمدنية والبذخ؛ في القرن الخامس إلى ما بعد (راجع للتفصيل) «إيران في عهد الساسانيين» للبروفيسور (آرتهر كرستن سين).

(٢) اقرأ لمعرفة تعليمات ماني ودعوته وفلسفته، الباب الرابع من كتاب «إيران في عهد الساسانيين» (النبي ماني وديانته) ص ٢٣٣-٢٦٩.

النفي، ثم عاد إلى إيران، وقتل في عهد بهرام الأول، ولكن تعاليمه لم تمت بموته، بل بقيت تؤثر في التفكير الإيراني، والمجتمع الإيراني مدة طويلة.

وظهر مزدك في أوائل القرن الخامس المسيحي، فدعا إلى اباحة الأموال والنساء، وجعل الناس شركاء فيها، وقويت دعوته، وكان الناس يدخلون على الرجل في داره، فيغلبونه على منزله وأمواله، لا يستطيع الامتناع منهم، وقد جاء في وثيقة إيرانية تاريخية تعرف بـ «نامة تنسر» تصوير لذلك العصر الذي انتشرت فيه الدعوة المزدكية، وكانت لها السيطرة والنفوذ:

«وانتهكت الأعراض، وعم خلع العذار، لقد نشأ جيل لا كرامة فيه ولا عمل، ولم يكن له رصيد ولا ماض مجيد، وليس له هم لمصير الشعب، ولا اشفاق عليه، ولا يتصف بكمال ومهارة، كانت تسيطر عليهم اللامبالاة والبطالة، وكانوا بارعين في النميمة، والخبث، والافتراء، والبهتان، وقد اتخذوا ذلك وسيلة لكسب القوت والوصول إلى الثروة والجاه»[1].

ويقول «آرتهر كرستن سين»:

كانت النتيجة ان انتشرت ثورات الفلاحين، وكان النهابون يدخلون في قصور الأغنياء وينهبون ما يجدون فيها من أموال وأثاث، ويلقون القبض على النساء، ويستولون على الأملاك والعقارات، فأصبحت الأراضي والمزارع مقفرة خربة، لأن هؤلاء الملاك الجدد لم يكن لهم عهد، ولا معرفة بالفلاحة»[2].

---

(١) «نامه تنسر» طبع مينوى، ص ١٣.
(٢) «إيران في عهد الساسانيين» ص ٤٧٧.

ظهر من ذلك أنه كان في إيران القديمة استعداد عجيب دائماً لقبول الدعوات المتطرفة المغالية، وكانت دائماً تحت تأثير ردود فعل عنيفة، وكانت تتأرجح بين «أبيقورية»[1] جامحة وتنسك مغال حيناً، وبين احتكار سلالي، أو طبقي، أو ديني، وشيوعية متطرفة وفوضوية مطلقة حيناً آخر، أفقدها هذا التأرجح الاتزان والاقتصاد والهدوء.

وكانت الأحوال سيئة جداً في هذه الامبراطورية - الايرانية الساسانية - في القرن السادس المسيحي، فكانت تحت رحمة الملوك الذين كانوا يحكمون بالوراثة، ويرون أنفسهم فوق الناس وفوق بني آدم، وكانوا يخاطبون بكلمة «الإله» وتضاف إليهم كلمة الألوهية بطريق مكشوف، وكان الامبراطور «الإنسان الأول» وكان لا يسمى باسمه عند الخطاب، وكان يعتبر من نسل الآلهة[2].

وكانت موارد البلاد كلها ملكاً لهؤلاء الملوك، وقد تطرفوا في اكتناز الأموال، وادخار الطرف، والأشياء الغالية، والتأنق في المعيشة، والتمتع بالحياة، وقد وصل الولوع بالتلذذ، وترفيه الحياة، والمسابقة في مظاهر الغنى والعظمة، إلى حد الخيال والشعر لا يتصوره إلا من توسع في دراسة تاريخ ايران القديمة، وشعرها وأدبها[3]، واطلع على تفاصيل مدينة «طيسيفون» وايوان كسرى، وبهار كسرى[4]، (بساط الربيع)، وتاج كسرى، وما كان يختص بملوكهم من خدم وحشم، وزوجات وجوار، وغلمان وطهاة، ومربين للطيور والسباع، وأوان وقنص، التفاصيل الأسطورية التي يدهش لها الإنسان[5]، وقد بلغ ذلك الى حد ان

---

(١) مذهب «ابيقور» الفيلسوف الاغريقي الذي قال بأن المتعة هي الخير الأسمى.
(٢) «إيران في عهد الساسانيين»، ص ٣٣٩.
(٣) اقرأ على سبيل المثال «ايران في عهد الساسانيين» ص١٦١ - ١٦٢.
(٤) راجع تاريخ الطبري، ج٤؛ ص١٧٨.
(٥) راجع «تاريخ ايران» شاهين مكاريوس طبع ١٨٩٨م، ص ٩٠.

يزدجرد آخر ملوك إيران لما خرج من عاصمته - المداين - هارباً ينجو بنفسه في الفتح الإسلامي العربي أخذ معه - وهو في حالة الفرار - ألف طاه، وألف مغن، وألف قيم للنمور، وألف قيم للبزاة، وحاشية أخرى، وكان يستقل هذا العدد، ويعتبر نفسه لاجئاً حقيراً، ويتصور انه في حالة يرثى لها من قلة الحاشية، وفقدان اسباب الترفيه والتسلية[1].

هذا بجانب ما كان يعانيه الشعب من بؤس وشقاء، وتعب وعناء، وتذمر وبكاء، فكان أفراد هذا الشعب في جهد من العيش للحصول على ما يسد رمقهم، ويستر عورتهم، يرزحون تحت أثقال الضرائب والأتاوات، ويرسفون في القيود والأغلال، ويعيشون عيش البهائم، حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم، أو دخلوا الأديرة فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية[2] وكانوا وقوداً حقيراً في حروب طاحنة مدمرة، قامت في فترات من التاريخ ودامت سنين طوالاً بين المملكة الشرقية الساسانية والمملكة الغربية البيزنطية، لا مصلحة للشعب فيها ولا رغبة[3].

الهند:

أما الهند التي برزت في العصر القديم في العلوم الرياضية وعلم الفلك والطب والتعمق في الفلسفة، فقد اتفقت كلمة المؤرخين لها على أن أحط أدوارها ديانة، وخلقاً، واجتماعاً، ذلك العهد الذي يبتدىء من

---

(١) راجع للتفصيل «إيران في عهد الساسانيين» ص٦٨١.
(٢) نفس المصدر.
(٣) راجع الباب الخامس من كتاب «إيران في عهد الساسانيين» (مملكة الشرق ومملكة الغرب) ص٢٦٩ - ٣٣٣.

مستهل القرن السادس الميلادي[1]، فانتشرت الخلاعة حتى في المعابد وأصبحت لا عيب فيها، لأن الدين قد أضفى عليها لوناً من القدس والتعبد[2]، وكانت المرأة لا قيمة لها ولا عصمة، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار[3]، وإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوج ولا تستحق احتراماً، وانتشرت عادة احراق الأيامى نفوسهن على وفاة أزواجهن، خاصة في الطبقات الشريفة والأرستقراطية اظهاراً للوفاء، وفراراً من الشقاء، وتسمى هذه العادة بـ «ستى» ولم تزل زولاً كلياً إلا بعد الاحتلال الانجليزي[4]، وامتازت الهند من بين جاراتها وأقطار العالم بالتفاوت الفاحش بين طبقات الشعب، والامتياز بين الإنسان والإنسان، وكان نظاماً قاسياً لا هوادة فيه ولا مرونة، مدعماً بالدين والعقيدة، خاضعاً لمصلحة الآريين المحتلين والبراهمة المحتكرين للديانة والقداسة، قائماً على أساس الحرف والصنائع وتوارثها، والعنصرية والسلالية، وكان ذلك تابعاً لقانون مدني سياسي ديني، وضعه المشرعون الهنديون الذين كانت لهم صفة دينية، أصبح القانون العام للمجتمع ودستور الحياة، وهو يقسم سكان الهند في أربع طبقات:

(١) طبقة الكهنة ورجال الدين، وهم «البراهمة».

(٢) ورجال الحرب والجندية وهم «شترى».

(٣) ورجال الفلاحة والتجارة وهم «ويش».

(٤) ورجال الخدمة وهم «شودر» وهم أحط الطبقات، فقد خلقهم

---

(١) راجع «الهند القديمة» ج٣، لمؤلفه آرسي، دت (R.C. DUTT)

(٢) ستيارته بركاش لديانند سرسوتي ص٣٤٤.

(٣) اقرأ استهلال قصة مهابهارت (الملحمة الهندية الكبرى).

(٤) اقرأ رحلة الرحالة الفرنسي برنير وتاريخ الراجوات والأمراء في القرون الوسطى.

خالق الكون من أرجله، وليس لهم إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث وإراحتها.

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزاً ومكانة لا يشاركهم فيها أحد، والبرهمي رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله، ولا يجوز فرض جباية عليه، ولا يعاقب بالقتل في حال من الأحوال، أما «شودر» فليس لهم أن يقتنوا مالاً، أو يدخروا كنزاً، أو يجالسوا برهميا، أو يمسوه بيدهم، أو يتعلموا الكتب المقدسة[١].

وكانت الهند في حالة فوضى وتمزق تحكمها إمارات وحكومات تعد بالمئات، تضعفها حروب ومنافسات، ويسود الاضطراب وسوء الإدارة واختلال الأمن واهمال شئون الرعية والاستبداد.

وكانت تعيش في عزلة عن العالم، يسيطر عليها الجمود، والتزمت، والتطرف، في العادات والتقاليد، والتفاوت الطبقي، والتعصب الدموي والسلالي، يتحدث مؤرخ هندوكي أستاذ التاريخ في إحدى جامعات الهند، عن عصر سابق لدخول الإسلام في الهند، فيقول:

«كان أهل الهند منقطعين عن الدنيا، منطوين على أنفسهم، لا خبرة عندهم بالأوضاع العالمية، وهذا الجهل أضعف موقفهم، فنشأ فيهم الجمود، وعمت فيهم أمارات الانحطاط والتدهور، كان الأدب في هذه الفترة بلا روح، وهكذا كان الشأن في الفن المعماري، والتصوير، والفنون الجميلة الأخرى».

«كان المجتمع الهندي راكداً جامداً، كان هناك تفاوت عظيم بين الطبقات، وتمييز معيب بين أسرة وأسرة، وكانوا لا يسمحون بزواج

---

(١) راجع للتفصيل القانون المدني الاجتماعي الهندي المسمى بـ«منو شاستر» الأبواب: ١ - ٢ - ٨ - ٩ - ١٠ - ١١.

الأيامى ويشددون على أنفسهم في أمور الطعام والشراب، أما المنبوذون فكانوا يعيشون - مضطرين - خارج بلدهم ومدينتهم[(١)] ».

الجزيرة العربية:

أما العرب فساءت أخلاقهم، فأولعوا بالخمر والقمار، وبلغت بهم القساوة والحمية المزعومة إلى وأد البنات، وشاعت فيهم الغارة وقطع الطريق على القوافل، وسقطت منزلة المرأة، فكانت تورث كما يورث المتاع أو الدابة. ومن المأكولات ما هو خاص للذكور محرم على الأناث، وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد، ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الانفاق، وخوف الفقر والاملاق[(٢)].

وكانت العصبية القبلية والدموية شديدة جامحة، وأغرموا بالحرب حتى صارت مسلاة لهم وملهى، وهانت عليهم اراقة الدماء، فتثيرها حادثة تافهة، وتدوم الحرب أربعين سنة ويقتل فيها ألوف من الناس[(٣)] ».

أوربا:

أما الأمم الأوربية - المتوغلة في الشمال والغرب - فكانت تعيش في ظلام الجهل والأمية، والحروب الدامية، وكانت بعيدة عن جادة قافلة الحضارة الإنسانية، والعلوم والآداب، لا شأن للعالم بها ولا شأن لها بالعالم.

---

(1) Vidyadhar Mahajan: Muslim Rule in India, (New Delhi, 1970) p. 33.

(٢) راجع القرآن الكريم؛ وكتب الحديث، وشعر العرب الجاهلي، المدون في الحماسة والسبع المعلقات؛ وغيرها.

(٣) راجع الشعر الجاهلي، والكتب التي ألفت في أيام العرب وأخبارهم.

كانت أجسامهم قذرة، ورؤوسهم مملوءة بالأوهام[١]، وكانوا يزهدون في النظافة واستعمال الماء، ويغالي الرهبان منهم في تعذيب الأجسام، والفرار من الإنسان[٢]، وكانوا يبحثون في أن المرأة حيوان أم إنسان، ولها روح خالدة أم ليست لها روح خالدة، وأن لها حق الملكية، والبيع، والشراء، أم ليس لها شيء في ذلك؟

يقول Robert Briffault :

«لقد أطبق على أوربا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً، وقد كانت همجية ذلك العهد أشد هولاً، وأفظع من همجية العهد القديم، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت، وقد انطمست معالم هذه الحضارة، وقضي عليها بالزوال، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها في الماضي، كإيطاليا، وفرنسا، فريسة الدمار والفوضى والخراب[٣]».

ظلام مطبق ويأس قاتل:

وقصارى القول أن القرن السادس المسيحي - الذي كانت فيه البعثة المحمدية - وما يليه من فترة زمنية، كان من أحط أدوار التاريخ، ومن أشدها ظلاماً ويأساً من مستقبل الإنسانية وصلاحيتها للبقاء والازدهار.

---

(١) تاريخ الفلسفة للبروفيسور ثيلي (Thilly).

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب «تاريخ الأخلاق الأوربية» لمؤلفه الشهير Lecky ج ٢، باب «من قسطنطين إلى شارلمان».

(3) The Making of Humanity, p. 164.

وقد أحسن المؤلف الانجليزي المعروف هـ - ج - ولـز (H. G. Wells) تصوير هذا العصر، فقال - وهو يبحث الظروف السائدة في عهد الحكومتين: الساسانية والبيزنطية في القرن السادس للميلاد:

«كانت العلوم والفلسفة والسياسة في حالة احتضار في عهد هذين النظامين المتحاربين والمتجهين إلى الانحطاط، فقد كان الجيل الأخير من فلاسفة أثينا عاضاً على المؤلفات الأدبية العتيقة بالنواجذ، بكل احترام وحب، ولو بدون فهم لها، فلما انقرض هذا الجيل، لم تبق طبقة ولا أفراد أحرار شجعان، يتزعمون حرية الفكر وحرية التعبير، ولا الذين يحتفظون - على الأقل - بتراث فكر حر، وبحث نزيه جدي، على دأب القدماء والسابقين لهم، وبجانب ما كان للفوضى السياسية والاجتماعية من دور كبير في القضاء على مثل هذه الطبقة، كان من العوامل التي ساعدت على شلل الفكر الإنساني، وتجمد القرائح البشرية، أن هذا العصر كان عصر العصبية وعدم التسامح في ظلال الحكومتين الايرانية والبيزنطية، فقد كانت هاتان الحكومتان دينيتين نوعاً ما، وقد كانتا فرضتا قيوداً على العقل البشري».

وبعدما قص الكاتب قصة زحف الامبراطورية الايرانية على الامبراطورية البيزنطية ثم انتصار البيزنطيين على الايرانيين في شيء من التوسع، عاد إلى وصف التدهور الاجتماعي والخلقي السائد في أواخر القرن السادس المسيحي، فقال:

«كان يسوغ لمتتبع - غير محنك ناضج الفكر - للأوضاع السائدة في أوائل القرن السابع المسيحي، أن يتنبأ بسهولة وبثقة بأن أوربا، وآسيا، ستقعان تحت رحمة المغول الوحوش في غضون بضعة قرون قادمة، فلم تكن في أوربا الغربية أمارات للأمن والنظام وحكم القانون،

وقد كانت المملكتان: البيزنطية والايرانية، مشغولتين في حرب ابادة وتدمير، بينما كانت الهند في حالة توزع وبؤس[1]».

ظهر الفساد في البر والبحر:

وبالجملة فقد كانت الإنسانية في عصر البعثة في طريق الانتحار، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوة التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، وكان الناس في شغل شاغل وفكر ذاهل، لا يرفعون إلى الدين والآخرة رأساً، ولا يفكرون في الروح والقلب، والسعادة الأخروية وخدمة الإنسانية، واصلاح الحال لحظة، وربما كان اقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه ويعبد ربه، لا يشرك به شيئاً، ويتألم للإنسانية ومصيرها البائس، وصدق الله العظيم:

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ، لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2].

لماذا بعث النبي في جزيرة العرب؟:

وقد اقتضت حكمة الله أن تطلع هذه الشمس التي تبدد الظلام، وتملأ الدنيا نوراً وهداية، من أفق جزيرة العرب الذي كان أشد ظلاماً، وكان أشد حاجة إلى هذا النور الساطع.

وقد اختار الله العرب، ليتلقوا هذه الدعوة أولاً، ثم يبلغوها إلى أبعد أنحاء العالم، لأن ألواح قلوبهم كانت صافية، لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة يصعب محوها وإزالتها، شأن الروم، والفرس،

---

(1) A Short History of the World (London, 1924) p. 140–41, 144.

(٢) سورة الروم ٤١.

وأهل الهند، الذين كانوا يتيهون ويزهون بعلومهم وآدابهم الراقية، ومدنياتهم الزاهية، وبفلسفاتهم الواسعة، فكانت عندهم عقد نفسية وفكرية، لم يكن من السهل حلها، أما العرب فلم تكن على ألواح قلوبهم إلا كتابات بسيطة خطتها يد الجهل والبداوة، ومن السهل الميسور محوها وغسلها، ورسم نقوش جديدة مكانها، وبالتعبير العلمي المتأخر كانوا أصحاب «الجهل البسيط» الذي تسهل مداواته، بينما كانت الأمم المتمدنة الراقية في هذا العصر مصابة بـ«الجهل المركب» الذي تصعب مداواته وإزالته.

وكانوا على الفطرة، وأصحاب ارادة قوية، إذا التوى عليهم فهم الحق حاربوه، وإذا انكشف الغطاء عن عيونهم، أحبوه واحتضنوه، واستماتوا في سبيله.

يعبر عن هذه النفسية العربية خير تعبير، ما قاله سهيل بن عمرو، حين سمع ما جاء في كتاب الصلح في الحديبية «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك[1]»، وما قاله عكرمة بن أبي جهل حين حمي الوطيس في معركة اليرموك، واشتد عليه الضغط: «قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن وأفر منكم اليوم؟!» ثم نادى من يبايع على الموت، فبايعه من بايعه، ثم لم يزل يقاتل حتى أثبت جراحاً وقتل شهيداً[2]».

وكانوا واقعيين جادين، أصحاب صراحة وصرامة، لا يخدعون غيرهم ولا أنفسهم، اعتادوا القول السديد، والعزم الأكيد، يدل على ذلك دلالة واضحة ما روي عن قصة بيعة العقبة الثانية، التي تلتها الهجرة إلى المدينة، قال ابن اسحاق:

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية.
(٢) راجع تاريخ الطبري ج ٤، ص٣٦.

«لما اجتمعت الأوس والخزرج في العقبة ليبايعوا رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة الخزرجي: «يا معشر الخزرج! هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً، أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه على نهكة[1] الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفينا؟ قال: الجنة، قالوا: إبسط يدك، فبسط يده فبايعوه[2] ».

وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه وبايعوا رسوله، وقد قال سعد بن معاذ على لسانهم يوم بدر:

« فوالله لأن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، والله لأن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك[3] ».

وقد تجلى هذا الصدق في العزم، والجد في العمل، وروح الامتثال للحق، في الجملة التي تؤثر عن عقبة بن نافع القائد العربي المسلم، فقد خاض البحر الأطلسي بجيشه وخيله، ثم قال: «يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك[4] ».

---

(١) نقصها.

(٢) سيرة ابن هشام؛ القسم الأول، ص٤٤٦، (طبع مصطفى البابي الحلبي الطبعة الثانية).

(٣) زاد المعاد ج١، ص٣٤٢ - ٣٤٣. سيرة ابن هشام؛ ق١ ص٦١٥ والقصة في الصحيحين.

(٤) الكامل لابن الأثير، ج٤، ص٤٦.

أما اليونان والرومان، وأهل إيران، فقد اعتادوا مجاراة الأوضاع، ومسايرة الزمان، لا يهيجهم ظلم، ولا يستهويهم حق، ولا تملكهم فكرة ودعوة، ولا تستحوذ عليهم استحواذاً يتناسون فيه أنفسهم، ويجازفون فيه بحياتهم ولذاتهم.

وكان العرب بمعزل عن أدواء المدنية والترف، التي يصعب علاجها، والتي تحول دون التحمس للعقيدة والتفاني في سبيلها.

وكانوا أصحاب صدق وأمانة وشجاعة، ليس النفاق والمؤامرة من طبيعتهم، وكانوا مغاوير حرب، وأحلاس خيل، وأصحاب جلادة وتقشف في الحياة، وكانت الفروسية هي الخلق البارز الذي لا بد أن تتصف به أمة تضطلع بعمل جليل، لأن العصر كان عصر الحروب والمغامرات، والفتوة والبطولة.

وكانت قواهم العملية والفكرية، ومواهبهم الفطرية، مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية، وجدال عقيم «بيزنطي» ومذاهب كلامية دقيقة، وحروب اقليمية سياسية، فكانت أمة بكراً، دافقة بالحياة والنشاط، والعزم والحماس.

وكانوا أمة نشأت على الهيام بالحرية والمساواة، وحب الطبيعة، والسذاجة لم تخضع لحكومة أجنبية، ولم تألف الرق والعبودية، واستعباد الإنسان للإنسان، ولم تتمرس الغطرسة الملوكية الايرانية أو الرومانية، واحتقارها للإنسان والإنسانية، فكان الملوك في إيران - المملكة المجاورة للجزيرة - فوق مستوى الإنسان والإنسانية، فكان الملك إذا احتجم، أو فصد له، أو تناول دواء، كان ينادى في الناس ألا يمارس إنسان من رجال البلاط، أو سكان العاصمة عملاً، ويكفوا عن كل صناعة أو ممارسة لنشاط[1]، وإذا عطس فلا يسوغ لأحد من رعاياه أن

(١) «إيران في عهد الساسانيين» ص٥٣٥ - ٥٣٦.

يدعو له، وإذا دعا أن يؤمن عليه، لأنه فوق مستوى البشر، وإذا زار أحداً من وزرائه أو أمرائه في بيته كان يوماً مشهوداً خالداً يؤرخ به في رسائله ويصبح تقويماً جديداً، ويعفى عن الضريبة إلى مدة معينة، ويتمتع باستثناءات أو مسامحات وتكريمات، لأن الملك شرفه بالزيارة[1].

هذا فضلاً عن الآداب الكثيرة التي يتقيد بها رجال البلاط، وأركان الدولة، وأفراد الشعب، ويحافظون عليها محافظة دقيقة، من الوقوف بحضرته، والتكفير له[2]، وقيام كقيام العباد أمام الرب في الصلوات، وهو تصوير حال كانت عليه إيران الساسانية في عهد أفضل ملوكها بالإطلاق، وهو كسرى الأول المعروف بأنوشيروان العادل (٥٣١ - ٥٧٩ هـ) فكيف في عهد الملوك الذين اشتهروا في التاريخ بالظلم والعسف والجبروت؟

وقد كانت حرية إبداء الرأي والملاحظة - فضلاً عن النقد - مفقودة تقريباً في المملكة الإيرانية الواسعة، وقد حكى الطبري حكاية طريفة عن عهد أفضل ملوكها وأعدلهم «كسرى أنوشيروان العادل» تدل كل الدلالة على مدى ما وصل اليه الحكم الايراني من الاستبداد والحظر على ابداء الرأي الحر والتعليق الجريء في البلاط الإيراني، فيقول:

---

(١) نفس المصدر، ص٥٤٣.

(٢) كفر له: خضع بأن يضع يده على صدره ويطاطىء رأسه ويتطامن تعظيما، وكانت عادة متبعة في ايران: ومن هنا شاع هذا التعبير؛ ودخل في لغة العرب؛ جاء في «لسان العرب» والكفر تعظيم الفارسي لملكه والتكفير لأهل الكتاب أن يطأطىء أحدهم رأسه لصاحبه كالتسليم عندنا، وقال في شرح شطر بيت لجرير: فضعوا السلاح وكفروا التكفيرا؛ كما يكفر العلج للدهقان يضع يده على صدره ويتطأمن له («لسان» ج٧، ص٤٦٦، مادة كفر).

«أمر الملك قباذ بن فيروز في آخر ملكه بمسح الأرض سهلها وجبلها، ليضع الخراج عليها، فمسحت، غير أن قباذ هلك قبل أن يستحكم له أمر تلك المساحة، حتى إذا ملك ابنه كسرى أمر باستتمامها واحصاء النخل والزيتون والجماجم، ثم أمر كتابه فاستخرجوا جعل ذلك، وأذن للناس إذناً عاماً، وأمر كاتب خراجه أن يقرأ عليه الجعل التي استخرجت من أصناف غلات الأرض وعدد النخيل والزيتون والجماجم، فقرأ ذلك عليهم، ثم قال لهم كسرى: إنا قد رأينا أن نضع على ما أحصي من جريان هذه المساحة من النخل والزيتون والجماجم وصنائع، ونأمر بانجامها في السنة في ثلاثة أنجم، ونجمع في بيوت أموالنا من الأموال ما لو أتانا من ثغر من ثغورنا أو طرف من أطرافنا فتق أو شيء نكرهه واحتجنا إلى تداركه أو حسمه، ببذلنا فيه مالاً كانت الأموال عندنا معدة موجودة، ولم نرد استئناف اجتبائها على تلك الحال، فما ترون فيما رأينا من ذلك، وأجمعنا عليه؟ فلم يشر عليه أحد منهم فيه بمشورة ولم ينبس بكلمة، فكرر كسرى هذا القول عليهم ثلاث مرات، فقام رجل من عرضهم وقال لكسرى: أتضع أيها الملك - عمرك الله - الخالد من هذا الخراج على الفاني من كرم يموت، وزرع يهيج، ونهر يغور، وعين أو قناة ينقطع ماؤها؟ فقال له كسرى: يا ذا الكلفة المشئوم! من أي طبقات الناس أنت؟، قال: أنا رجل من الكتاب، فقال كسرى اضربوه بالدوي حتى يموت، فضربه بها الكتاب خاصة تبرّؤاً منهم إلى كسرى من رأيه وما جاء منه، حتى قتلوه، وقال الناس: نحن راضون»[1].

---

(١) تاريخ الطبري ج٢، ص١٢١ - ١٢٢؛ وروى القصة بطولها مؤلف كتاب «ايران في عهد الساسانيين» نقلا عن الطبري.

ولم يكن الرومان يختلفون عن الإيرانيين كثيراً، وان لم يبلغوا شأوهم في الوقاحة وامتهان الإنسانية واهدار كرامتها، فقد روى المؤرخ الأوربي (Victor Chopart) في كتابه «العالم الروماني» ما ترجمته:

«كانت القياصرة آلهة، ولم يكن ذلك عن طريق الوراثة، بل كان كل من تملك زمام البلاد كان إلهاً، وإن لم تكن هناك أمارة تدل على وصوله إلى هذه الدرجة، ولم يكن لقب «أغسطس» **Augustus** الملوكي المفخم ينتقل من امبراطور إلى امبراطور بموجب دستور أو قانون، ولكن لم يكن من شغل مجلس الشيوخ الروماني إلا أن يؤكد صحة كل حكم يصدر بحد السيف، ولم تكن هذه الامبراطورية إلا صورة لدكتاتورية عسكرية»[١].

ولم يكن السجود للملوك نادراً، فقد حكى أبو سفيان بن حرب في القصة التي رواها عن هرقل قيصر الروم حين بلغه كتاب رسول الله ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام، وقد جاء في آخر هذه القصة:

«فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الايمان، قال: ردوهم علي، وقال: اين قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل[٢]».

أما الهند فقد بلغ فيها اهدار كرامة الإنسان، وازدراء الطبقات التي اعتبرها الشعب الآري المحتل للبلاد، والقانون المدني الذي وضعه مشرعوه، مخلوقاً خسيساً لا يتميز عن الحيوان الداجن إلا بأنه يمشي على اثنين، ويحمل صورة الآدمي، وإن كانوا سكان البلاد الأصليين، مبلغاً

---

(1) The Roman World, (London, 1928) p. 418.

(٢) رواه البخاري في الجامع الصحيح: باب «كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله - ﷺ -».

يصعب تصوره، فقد نص هذا القانون على أنه: «إذا مد أحد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصا، ليبطش به، قطعت يده، وإذا رفسه في غضب فدعت رجله[١] وإذا ادعى أنه يعلمه سقي زيتاً فائراً[٢]، وكفارة قتل الكلب، والقطة، والضفدع، والوزغ، والغراب، والبومة، ورجل من الطبقة المنبوذة سواء»[٣].

إذا قورن ذلك بما اعتاده العرب من الحرية، وعزة النفس، والاقتصاد في التعظيم والأدب قبل ظهور الإسلام، ظهر فرق هائل بين طبيعة الأمتين، ووضع المجتمعين: العجمي والعربي، فكانوا يخاطبون ملوكهم بقولهم: «أبيت اللعن» و«عم صباحاً» وقد بلغت هذه الحرية والتماسك والاحتفاظ بالكرامة بالعرب إلى حد كانوا يمتنعون في بعض الأحيان عن الخضوع لمطالب بعض ملوك العرب وأمرائهم، ومما يستطرف في ذلك أن أحد ملوك العرب طلب من رجل من بني تميم في الجاهلية فرساً له، يقال لها «سكاب» فمنعه إياها، وقال أبياتاً أولها:

أبيت اللعن أن سكاب علق   نفيس لا تعار ولا تباع.

وآخرها:

فلا تطمع أبيت اللعن فيها   ومنعكها بشيء يستطاع[٤]

وقد سرت هذه الحرية، والاعتداد بالنفس، والأنفة من التذلل، إلى جميع طبقات الشعب، وعمت الذكور والأناث، يدل على ذلك ما ذكره المؤرخون العرب عن سبب قتل عمرو بن كلثوم الفارس المشهور والشاعر

---

(١) «منو شاستر» الباب العاشر.

(٢) نفس المصدر.

(3) R. C. Dutt, Ancient India, p. 324–343.

(٤) ديوان الحماسة، باب الحماسة: ص٦٧ – ٦٨.

الفحل، لعمرو بن هند ملك الحيرة، فقد ذكروا أن عمرو بن هند ملك الحيرة أرسل إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزير أمه، فأقبل عمرو من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب، وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب، وأمر عمرو بن هند برواقه، فضرب فيما بين الحيرة والفرات، ودخل عليه عمرو بن كلثوم في رواقه، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق، وقد كان عمرو بن هند أمر أمه أن تنحي الخدم إذا دعا بالظرف، وتستخدم ليلى، فدعا عمرو بمائدة، ثم دعا بالظرف فقالت هند: «ناوليني يا ليلى ذلك الطبق!» فقالت ليلى: «لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها» فأعادت عليها وألحت، فصاحت ليلى: «واذلاه يا لتغلب» فسمعها عمرو بن كلثوم، فثار الدم في وجهه، ووثب إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق، فضرب به رأس عمرو ابن هند، وانتهب بنو تغلب ما في الرواق وساروا نحو الجزيرة، وقال في ذلك عمرو بن كلثوم قصيدته المشهورة التي عدت من المعلقات السبع[١].

ولما دخل المغيرة بن شعبة رسول المسلمين على رستم، وهو في أبهته وسلطانه، جلس معه - على عادة العرب - على سريره ووسادته، فوثبوا عليه، وأنزلوه ومغثوه، فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوماً أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً، إلا أن يكون محارباً لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم، ولكن دعوتموني[٢]».

---

(١) مقتبس من كتاب «الشعر والشعراء» لابن قتيبة، ص٣٦.
(٢) الطبري ج٤، ص١٠٨.

وفي جزيرة العرب، وفي مكة كانت الكعبة، التي بناها ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام - ليُعبد الله فيها وحده، ولتكون مصدر الدعوة للتوحيد إلى آخر الأبد.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بِبَكَّةَ[1]، مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[2].

وقد بقيت كلمة «وادي بكة» في التوراة على ما دخل فيها من التحريف والتغيير، إلا أن المترجمين حولوها إلى «وادي البكاء» وجعلوها اسم نكرة بدل علم، وقد جاء في مزامير داود ما نصه:

«طوبى لأناس عزهم بك، طرق بيتك في قلوبهم، عابرين في وادي البكاء يصيرونه ينبوعاً» (مزامير[3] ٨٤ - ٥ - ٦ - ٧).

وقد انتبه علماء اليهود بعد قرون إلى أن هذه الترجمة كانت خاطئة، فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية اعتراف بأنه وادٍ مخصوص لا ماء فيه، وأن في ذهن من صدرت عنه هذه العبارة صورة لواد له أوضاع طبيعية عبر عنها بهذه الكلمة[4].

وقد كان ناقلو هذه الصحف إلى الانجليزية أكثر أمانة ودقة في الترجمة من الذين قاموا بالترجمة العربية، فقد تركوا كلمة «بكة» كما

---

(١) «بكة» علم للبلد الحرام، ومكة وبكة لغتان فيه وكثير ما يقع التبادل بين الميم والباء في اللغة العربية، كلازم ولازب؛ وتميط ونبيط.

(٢) سورة آل عمران ٩٦.

(٣) الكتاب المقدس في مطبعتها في ساحة استور من مدينة نيويورك؛ لندن ١٨٠٤ م.

(4) Jewish Encyclopedia, Y. 11 p. 415.

كانت في الأصل، وكتبوها بالحرف الاستهلالي، كما تكتب الأعلام، ففي الترجمة الانجليزية كما يلي[1]:

Blessed is the man whose strength is in the Thee; In Whose heart are the ways of them who passing thorough the Valley of Baca make it well. (Psalms 89-5-6).

وكانت بعثته صلى الله عليه وسلم استجابة لدعاء ابراهيم واسماعيل عند رفعهما لقواعد الكعبة، وكان دعاؤهما كما نقله القرآن:

﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[2].

وقد جرت سنة الله باستجابة أدعية المخلصين المبتهلين - فضلاً عن الأنبياء والمرسلين - والصحف السماوية والأخبار الصادقة مشحونة بأمثلتها، وقد جاء في التوراة نص يدل على استجابة هذا الدعاء الذي دعا به إبراهيم، فقد جاء في سفر التكوين ما لفظه:

«وعلى اسماعيل استجبت لك هو ذا أباركه وأكبره وأكثره جداً، فسيلد اثني عشر رئيساً وأجعله لشعب كبير».

ولذلك صح عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول عن نفسه: «أنا دعوة ابراهيم وبشرى عيسى»[3].

وفي التوراة - على ما أصابها من التحريف - شواهد على أن هذا الدعاء قد استجيب، فقد جاء في كتاب التثنية (١٨-١٥) على لسان نبي الله موسى، ما نصه:

---

(١) مستفاد من «التفسير الماجدي» للأستاذ الكبير عبد الماجد الدريابادي، وكتاب «رحمة للعالمين» ج١، للقاضي سليمان المنصور فوري.

(٢) سورة البقرة ١٢٩.

(٣) رواه الامام أحمد - رحمه الله - في مسنده.

« يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من اخوتك مثلي، له تسمعون ».

وقد دلت كلمة « اخوتك » على أن المراد بها هم بنو اسماعيل، الذين هم أبناء عمومة بني اسرائيل، وقد جاء ما يؤيد هذا. بعد آيتين (١٨-١٧) من نفس الصحيفة، وهو كما يلي:

« قال لي الرب قد أحسنوا فيما تكلموا، أقيم لهم نبياً من وسط اخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به »، (سفر التثنية ١٧-١٨).

وكلمة « أجعل كلامي في فمه » يعني محمداً ﷺ فهو النبي الوحيد الذي جاء بكلام الله نصاً وفصاً، وأعلن الله عن ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[١]، وبقوله: ﴿لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٢].

أما صحف أنبياء بني اسرائيل، فهي لا تدعي أنها من كلام الله لفظاً ومعنى، ولا يتحرج علماء هذه الطوائف من اضافة تأليفها إلى الأنبياء، فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية ما يلي:

« إن الكتب الخمسة الأولى من الكتاب المقدس (العهد القديم) كما تقول الأخبار اليهودية القديمة، من تأليف النبي موسى، باستثناء ثماني آيات أخيرة جاء فيها الحديث عن موت موسى، وما زال الرِّبيون يعنون بتناقضات واختلاقات وردت في هذه الصحف، وما زالوا يصلحونها بحكمتهم ولباقتهم »[٣].

---

(١) سورة النجم الآيات ٣ - ٤.

(٢) سورة فصلت آية ٤٢.

(3) Jewish Encyclopedia Vol., 9 p. 589.

وأما الاناجيل الأربعة التي تسمى «العهد الجديد» فهي أبعد من أن تكون كلاماً إلهياً لفظاً ومعنى، يقتنع بذلك كل من أجال النظر فيها وتصفحها، وفي الحقيقة هي بكتب السيرة والأخبار أشبه منها بالكتب المنزلة من الله، المبنية على الوحي والإلهام[1].

ثم أن موقع الجزيرة العربية الجغرافي، يجعلها جديرة بأن تكون مركزاً لدعوة تعم العالم، وتخاطب الأمم[2]، فهي مع كونها جزءاً من قارة آسيا تقع بمقربة من قارة أفريقيا، ثم قارة أوربا، وكل منها مركز الحضارات، والثقافات، والديانات، والحكومات، القوية الواسعة، وتمر بها القوافل التجارية، التي تصل بين بلاد مختلفة، وقد تصل بين قارات تحمل من بلد ما يستطرف وينتج فيه إلى بلد يفتقر إليه.

وتقع هذه الجزيرة بين قوتين متنافستين: قوة المسيحية وقوة المجوسية، وقوة الغرب وقوة الشرق، وقد ظلت رغم ذلك كله محتفظة بحريتها وشخصيتها، ولم تخضع لإحدى الدولتين إلا في بعض أطرافها، وفي قليل من قبائلها، وكانت في خير موقف لتكون مركزاً لدعوة

---

(١) راجع للتفصيل كتاب المؤلف «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن» فصل الصحف السماوية السابقة والقرآن في ميزان العلم والتاريخ»؛ ص ١٩٨-٢١٣ الطبعة الرابعة.

(٢) أعلن الدكتور حسين كمال الدين رئيس قسم الهندسة المدنية بكلية الهندسة بجامعة الرياض، في حديث صحفي نشر في القاهرة؛ أنه توصل إلى ما يشبه النظرية الجغرافية التي تؤكد أن مكة المكرمة هي مركز اليابسة في الكرة الأرضية، أي مركز الأرض، وقد بدأ بحثه برسم خريطة تحسب أبعاد كل الأماكن على الأرض عن مدينة مكة المكرمة - وذلك لتصميم جهاز عملي رخيص يساعد على تحديد القبلة - وفجأة اكتشف على الخريطة أن مكة المكرمة تقع في وسط العالم.

ومن خلال بحثه هذا توصل إلى معرفة الحكمة الإلهية في اختيار مكة المكرمة لتكون مقراً لبيت الله الحرام، ومنطلقاً للرسالة السماوية. «الأهرام» ١٣٩٧/١/١٥ هـ الموافق ١٩٧٧/١/٥م العدد ٣٢٨٩٨ السنة ١٠٣.

إنسانية عالمية، تقوم على الصعيد العالمي وتتحدث من مستوى عالٍ، بعيدة عن كل نفوذ سياسي، وتأثير أجنبي.

لذلك كله اختار الله الجزيرة العربية، ومكة المكرمة، لتكون مبعث الرسول ومهبط الوحي، ونقطة انطلاق للإسلام في العالم.

«والله أعلم حيث يجعل رسالته».

فترة حالكة مويسة:

وبالرغم من هذه المواهب التي أكرم الله بها العرب، والمزايا التي امتازت بها الجزيرة العربية، التي تجلت بها حكمة الله في اختيارها مهداً للبعثة المحمدية وظهور الإسلام لم تكن في الجزيرة العربية امارات يقظة، أو آثار قلق ظاهر،، وما كان «الحنفاء»[1] والباحثون عن الحق، الذين لا يجاوز عددهم رؤوس الأصابع، الا كعدد ضئيل من اليراع، يطير في ليلة شاتية، مطيرة، شديدة الظلام، فلا يهدي تائهاً، ولا يدفىء مقروراً.

وكانت هذه الفترة - التي بعث فيها محمد ﷺ من أشد الفترات التي مرت بها الجزيرة العربية ظلمة وانحطاطاً، وأبعد من كل أمل في الاصلاح وأصعب مرحلة واجهها نبي من الأنبياء، وأدقها.

وقد أحسن أحد الكتاب الانجليز في السيرة النبوية (Sir William Muir) (وهو معروف بتحامله على الإسلام وصاحب رسالته - عليه الصلاة والسلام) تصوير هذه الفترة، والانكار على ما قاله بعض الكتاب الأوروبيين، أن البركان كان متهيئاً للانفجار، فجاء محمد ﷺ في أوانه ومكانه، فناوله شرارة من النار، فانفجر، يقول:

«لم تكن الأوضاع الاجتماعية في الجزيرة العربية صالحة لقبول أي

---

(١) الذين نبذوا الوثنية، وتمسكوا بعقيدة التوحيد التي دعا اليها سيدنا ابراهيم عليه الصلاة والسلام.

خارطة جزيرة العرب - تضاريسها

البحر المتوسط
الفرات
الخليج العربي
النفود
نجد
مكة
جدة
الطائف
الربع الخالي
البحر الأحمر
البحر العربي

الارتفاعات
٩٠٠٠ قدم
٦٠٠٠ قدم
٣٠٠٠ قدم
١٢٠٠ قدم
٦٠٠ قدم
أقل من ٦٠٠ قدم

أميال
٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٥٠ ٠ ١٠٠

تغير، أو نهضة عندما كان النبي ﷺ شاباً، ولعل اليأس عن اصلاح القوم لم يصل ذروته مثل ما وصل في عصره، ولكن حينما تضعف الثقة بسبب واحد لنتيجة خاصة، تفتعل له أسباب أخرى، وتعتبر أسباباً لحدوث هذه النتيجة.

من ذلك ما يقوله الناس، أن محمداً ﷺ حين نهض، نهض معه العرب كلهم لايمان جديد، ووقفت الجزيرة العربية وقفة رجل واحد، ثم يستنتجون من ذلك أن الجزيرة العربية كلها كانت متهيئة متحمسة إذ ذاك لتحول مفاجىء عظيم، ولكن التاريخ عندنا يكذب هذه النتيجة، إذا تأملنا في تاريخ العرب قبل ظهور الإسلام بقلب هادىء، فلم تنجح جهود المسيحيين المتواصلة، ودعوتهم وموعظتهم المستمرة خلال خمسة قرون إلا في كسب عدد قليل جداً من بعض القبائل، فتمر موجة صغيرة على سطح بحر الحياة العربية الهادىء، نتيجة لتلك الجهود الحقيرة الضعيفة، التي قام بها دعاة المسيحية، تتخللها حيناً بعد حين موجات أكثر قوة عمقاً، يتجلى فيها تأثير الدعوة اليهودية، ولكن موجات الوثنية العربية والأوهام الاسماعيلية كانت أعنف وأطغى، كان هذا التيار الجاهلي الوثني يضرب جدران الكعبة».

وقال في مكان آخر من هذا الكتاب:

«وكانت أوضاع العرب قبل البعثة المحمدية بعيدة عن كل تغيير ديني، كما كانت بعيدة كل البعد عن وحدة الصفوف واجتماع الشمل، وكان دينهم يقوم على أساس وثنية سخيفة تعمقت جذورها، واصطدمت بصخرتها محاولات نصارى مصر والشام للاصلاح، فباءت بالفشل»[١].

---

(١) «حياة محمد» لسير وليم ميور. Sir William Muir: Life of Mahomet Vol. I, (London, 1885) p. CCXXXV–VI.

وبهذه الحقيقة التاريخية التي تشبه لغزة علمية يشيد العالم الغربي الشهير Bosworth Smith في إيجاز ولكن في قوة ووضوح:

«إن مؤرخاً يمتاز من بين زملائه بالاتجاه الفلسفي يقرر بأنه لم تكن من بين الثورات التي تركت ارتسامات خالدة على تاريخ البشرية العمراني - ثورة أبعد من القياس والأمل عند العقل البشري من ظهور الإسلام في العرب، فقد كان حادثاً لم يكن يتوقع حدوثه.

إننا مضطرون إلى أن نسلم أن علم التاريخ - إذا كان هنالك شيء يستحق أن يسمى علم التاريخ - يبقى حائراً مرتبكاً في العثور على حلقات الأسباب والعلل التي يجب عليه البحث عنها (بحكم منصبه ووظيفته) لحدوث هذا الانقلاب»[1].

الحاجة إلى نبي مرسل:

كانت الأوضاع الفاسدة، والدرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السادس المسيحي، أكبر من أن يقوم لاصلاحها مصلحون ومعلمون من أفراد الناس، فلم تكن القضية قضية اصلاح عقيدة من العقائد، أو ازالة عادة من العادات، أو قبول عبادة من العبادات، أو اصلاح مجتمع من المجتمعات، فقد كان يكفي له المصلحون والمعلمون الذين لم يخل منهم عصر ولا مصر.

ولكن القضية كانت قضية ازالة أنقاض جاهلية، ووثنية تخريبية، تراكمت عبر القرون والأجيال، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين، وجهود المصلحين والمعلمين، وإقامة بناء شامخ مشيد البنيان، واسع الأرجاء، يسع العالم كله، ويؤوي الأمم كلها، قضية إنشاء إنسان

(1) Bosworth Smith: Mohammad and Mohammedanism, Lodon, 1876.

جديد، يختلف عن الإنسان القديم في كل شيء، كأنه ولد من جديد، أو عاش من جديد ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾(١)، قضية اقتلاع جرثومة الفساد واستئصال شأفة الوثنية، واجتثاثها من جذورها، بحيث لا يبقى لها عين ولا أثر، وترسيخ عقيدة التوحيد في أعماق النفس الإنسانية ترسيخاً، لا يتصور فوقه، وغرس ميل إلى ارضاء الله وعبادته، وخدمة الإنسانية، والإنتصار للحق، يتغلب على كل رغبة، ويقهر كل شهوة، ويجرف بكل مقاومة، وبالجملة الأخذ بحجز الإنسانية المنتحرة التي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدنيا والآخرة، والسلوك بها على طريق أولها سعادة يحظى بها العارفون المؤمنون، وآخرها جنة الخلد التي وعد المتقون، ولا تصوير أبلغ وأصدق من قول الله تعالى في معرض المنّ ببعثة محمد ﷺ:

﴿واذْكُرُوا نِعمَةَ اللهِ عَلَيْكُم إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً، وكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾(٢).

إنه لم يعرف في تاريخ البشرية كله عمل أدق وأعقد، ومسئولية أعظم وأضخم، من مسئولية محمد ﷺ كنبي مرسل، كما أنه لم يعرف غرس أثمر مثل غرسه، وسعياً تكلل بالنجاح مثل سعيه، إنها أعجوبة العجائب، ومعجزة المعجزات، وقد شهد بذلك أديب وشاعر فرنسي في قوة وبلاغة، ووضوح وصراحة، يقول «لامارتين»(٣) (Lamartine):

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٢.

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣.

(٣) لامارتين (Lamartine) ١٧٩٠ - ١٨٦٩م.

«إن إنساناً لم ينهض أبداً - متطوعاً أو غير متطوع - لمثل هذا الهدف الأسمى، لأن هذا الهدف كان فوق طاقة البشر، لقد كان تحطيم تلك الحواجز من الأوهام والاحلام، التي حالت بين الإنسان وخالقه، والأخذ بيد الإنسان إلى عتبة ربه، وتحقيق عقيدة التوحيد النقية العقلية المعقولة الساطعة، في ضباب هذه الوثنية السائدة والآلهة المادية، هو ذلك الهدف الأسمى والأعلى، إنه لم يحمل إنسان مثل هذه المسئولية الضخمة، والمهمة العظيمة الجليلة، التي تخرج عن طوق البشر، بمثل هذه الوسائل الحقيرة الضئيلة».

إلى أن قال:

«وأروع من ذلك أنه هز تلك الأصنام والآلهة، والأديان، والتصورات، والعقائد والنفوس الإنسانية هزة عنيفة، انه بنى على أساس ذلك الكتاب الذي يعتبر كل كلمة منه مصدر التشريع، قومية ربانية، ألفت بين أفراد كل جيل، وسلالة، ولغة، ان الميزة الخالدة لهذه الأمة، التي كونها لنا محمد ﷺ أنها شديدة المقت والتقزز من الآلهة الباطلة، شديدة الحب لله الواحد الذي يتنزه عن المادة وشوائبها، وهذا هو الحب الذي يدفعه إلى الثأر والانتصاف من كل اهانة توجه الى الذات الإلهية وهذا الحب يعتبر أساس سائر الفضائل عند هذه الأمة.

لقد كان اخضاع ثلث العالم لهذه العقيدة الجديدة من مأثرته بلا ريب، لكن الأصح أنه كان معجزة العقل لا معجزة فرد واحد، إن الإعلان بعقيدة التوحيد في زمن كانت تئن فيه الدنيا تحت وطأة أصنام لا حصر لها، كان معجزة مستقلة بذاتها.

وما لبث محمد ﷺ أن أعلن هذه العقيدة أمام الملأ، حتى أقفرت المعابد القديمة من عبادها فلا داعي فيها ولا مجيب، وتكهرب ثلث العالم

بحرارة الإيمان »[1].

إنما كان يحتاج هذا الانقلاب الشامل، وهذا البعث الجديد للإنسانية إلى رسالة جديدة، من أعظم الرسالات، وإلى رسول يرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وصدق الله العظيم:

﴿لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ والـمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ، رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُواْ صُحُفاً مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾[2].

---

(١) لامارتين (Lamartine) في كتابه «Histoire de la Turquie» ج ٢؛ ص ٢٧٦-٢٧٧ (باريس ١٨٥٤) مقتبس من كتاب «Islam in the World» للدكتور « زكي علي » ص ١٥-١٦، (لاهور-١٩٤٧م).

(٢) سورة البينة: الآيات ١، ٢.

قبل البعثة

جزيرة العرب[1]

تحديد جزيرة العرب:

ليس بين أشباه الجزر شبه جزيرة، تنيف على شبه جزيرة العرب في المساحة، فهي أكبر شبه جزيرة في العالم، ويطلق علماء العرب عليها تجوزاً اسم (جزيرة العرب)، تحيط بها المياه من أطرافها الثلاثة، وهي اقليم في الجنوب الغربي من آسيا، يحده من الشرق الخليج العربي المعروف عند اليونان باسم «الخليج الفارسي»، ومن الجنوب المحيط الهندي، أما حده الغربي فهو البحر الأحمر، كما يسمى في الخارطات الحديثة، المعروف باسم «الخليج العربي» (Sinus Prabicus) في الخارطات اليونانية واللاتينية، وبـ«بحر القلزم» في الكتب العربية

---

(١) اقتصرنا في هذا الفصل على ما يهم القارىء للسيرة النبوية معرفته من طبيعة هذه البلاد، ووضعها الجغرافي، ومكانتها في تاريخ الديانات والأمم، وطبائع أهلها، فلا يشق طريقه - في دراسة السيرة - منعزلا عن البيئة التي أدت فيها رسالتها، جاهلا لها كل الجهل، وهو مقتبس مما كتب عن الجزيرة قديماً وحديثاً؛ وقد استفدنا من كتاب «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» للدكتور جواد علي (١-٩) كثيراً، وموضع تفصيل أكثر في هذا الموضوع؛ هي الكتب التي ألفت في جغرافية جزيرة العرب، وصفتها وخططها، وتاريخ الحضارة العربية والأدب العربي، وهي كثيرة.

القديمة، وحده الشمالي خط وهمي يمتد (في اصطلاح العلماء العرب) من خليج العقبة حتى مصب شط العرب في الخليج العربي.

وقد قسم الإسلاميون جزيرة العرب على خمسة أقسام:

١ - الحجاز، والحجاز يمتد من أيلة (العقبة) إلى اليمن، وسمي حجازاً - فيما يقولون - لأنه سلسلة جبال تفصل تهامة - وهي الأرض المنخفضة على طول شاطىء البحر الأحمر - عن نجد، ٢ - وتهامة، وقد وصفناها، ٣- واليمن، ٤- ونجد، وهو الجزء المرتفع الذي يمتد من جبال الحجاز، ويسير شرقاً إلى صحراء البحرين، وهو مرتفع فسيح، فيه صحراوات وجبال. ٥- والعروض، وهي تتصل بالبحرين شرقاً، وبالحجاز غرباً، وسميت بالعروض لاعتراضها بين اليمن ونجد، وتسمى باليمامة أيضاً[١].

طبيعة الجزيرة، وأهلها:

وقد تغلبت الصحراوية على شبه الجزيرة، وظهر الجفاف عليه لعوامل طبيعية وحوادث جيولوجية، وبسبب الموقع الجغرافي، فكان ذلك كله سبباً في قلة نفوس جزيرة العرب في الماضي وفي الحاضر، وفي سبب عدم نشوء مجتمعات حضرية، وحكومات مركزية كبيرة فيها، وفي سبب تفشي البداوة، وغلبة الطبيعة الأعرابية على أهلها، وبروز روح الفردية عند أهلها، وتقاتل القبائل بعضها مع بعض، لذلك انحصرت الحضارة في الأماكن المطورة، والأماكن التي خرجت فيها المياه الجوفية عيوناً وينابيع، أو قاربت المياه فيها سطح الأرض فأمكن حفر الآبار فيها، فالحياة في جزيرة العرب، هي هبة الماء، فكانت القوافل تؤمه،

---

(١) يرد الرواة أقدم رواياتهم في هذا التقسيم إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

واليه كانت الطبيعة تقذف بالأعراب من كل مكان، وكانوا لا يرتبطون بالأرض ارتباط المزارع بأرضه، فلا يستقرون في مكان إلا إذا وجدوا فيه الكلأ والماء، فإذا جف الكلأ، وقل الماء ارتحلوا إلى مواضع جديدة.

ولذلك صارت حياتهم حياة قاسية، يتمثل مجتمعهم في القبيلة، فالقبيلة هي الحكومة والقومية في نظر البدوي، وكانت هذه الحياة لا تعرف الراحة والاستقرار، ولا تعترف إلا بمنطق القوة، حياة جلبت المشقة لأصحابها، والمشقة لمن يقيم على مقربة منهم من الحضر، فهم في نزاع دائم فيما بينهم، ثم هم في نزاع مع الحضر.

ولكن العربي في ناحية أخرى مخلص، مطيع لتقاليد قبيلته، كريم يؤدي واجبات الضيافة، والمحالفة في الحروب، كما يؤدي واجبات الصداقة، مخلصاً في أدائها، بحسب ما رسمه العرف، وقد نطق به شعرهم، وزخر به أدبهم، من حكم وأمثال، ومثل، وقيم، والعربي يحب المساواة، ويعشق الحرية، وهو رجل جاد، صارم، قل في مجتمعه الاسفاف، محافظ، متمسك بحياته، معتز بما كتب له، وإن كانت حياة خشونة وصعوبة، والممعن في البداوة منهم ضعيف الإيمان بدين، قل أن يؤمن إلا بتقاليد قبيلته، وما ورثه عن آبائه، مثله الأعلى في الأخلاق تركز فيما سماه المروءة، وتغنى بها في شعره وأدبه.

مراكز عمران، وحضارة:

وفي تلك المواضع التي توفرت فيها المياه، من مطر، وعيون، وآبار، ظهرت الحضارة على شكل قرى ومستوطنات، وأسواق موسمية، كان لها أثر خطير في حياة العرب عموماً، ونشأت مجتمعات، لها طبيعة خاصة، وشخصية مستقلة، متأثرة بطبيعة الأرض، وطبيعة الجو، وطبيعة الحرف والصناعات، وطرق العيش التي يمارسها هذا المجتمع، فكان في

مكة مجتمع خاص، له طابع متميز، وكذلك لأهل الحيرة ولأهل يثرب، وكان مجتمع اليمن من أغنى المجتمعات العربية وأرقاها، لأوضاعه الخاصة، وتاريخه الحضاري القديم، والسياسي الحديث، فتفوق في انتاج الغلة، وتربية الحيوان، واستخراج المعادن، وأقام له قصوراً وحصوناً، واستورد آلات تساعده في ممارسة الصناعات، وتيسير الحياة، من العراق وبلاد الشام، ومن أفريقيا.

طبقات العرب:

اتفق الرواة وأهل الأخبار، أو كادوا يتفقون على تقسيم العرب من حيث القدم إلى طبقات: ١ - عرب بائدة، ٢- وعرب عاربة، ٣- وعرب مستعربة، واتفقوا أو كادوا يتفقون على تقسيم العرب، من حيث النسب إلى قسمين: قحطانية، منازلهم الأولى في اليمن، وعدنانية، منازلهم الأولى في الحجاز، كذلك يقسم النسابون عدنان إلى فرعين كبيرين، ربيعة ومضر، وكان بين القحطانية والعدنانية منافسة قديمة، كما كان بين ربيعة ومضر عداء شديد، ظل قروناً طويلة، واتفقوا على أن القحطانية هم الأصل، والعدنانية الفرع[١] منهم أخذوا العربية، وبلسانهم تكلم أبناء اسماعيل بعد هجرتهم إلى الحجاز، واسماعيل هو الجد الأكبر للعرب المستعربة، أي العرب العدنانيين وللنسب عند العرب شأن كبير، وقد أقر به أهل الخبرة من العجم، فقد قال رستم قائد قواد الفرس لأهل مجلسه حين استخفوا بالمغيرة بن شعبة رسول

---

(١) يرى بعض المحققين في هذا العصر أن العدنانيين هم أصل العرب، ولبها، والعرب العاربة الأولى، عكس ما يراه ويزعمه أكثر أهل الأخبار: ويقولون أن كل ما روي من هذا التقسيم لم يرو من النصوص الجاهلية؛ وانما ورد متواتراً من الكتب المدونة في الإسلام، وأكثرها مبنية على أقوال الرواة المنتمين إلى الأصول القحطانية اليمنية، والله أعلم.

المسلمين، واحتقروه لرثاثة ثيابه، وتبذله: «ويلكم.. إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب»[1].

وحدة اللغة:

وكان خليقاً بهذا القطر الواسع، الذي يكاد يكون شبه قارة، أن تتعدد فيه اللغات وتتنوع، لبعد المسافة بين مواطن القبائل، وبين جنوبي الجزيرة وشماليها، وقلة اتصال أهل الجنوب بأهل الشمال، وأهل الشرق بأهل الغرب، وبحكم العصبية القبلية والسلالية السائدة عليهم، وتأثر القبائل المتاخمة للروم والفرس بلغاتهم، وقد كثر عدد اللغات في أوربا الوسطى، وفي شبه القارة الهندية، كثرة هائلة، ولا يزال عدد اللغات المعترف بها في دستور الهندد يبلغ ١٥ لغة اقليمية، تختلف فيما بينها اختلاف لغات مستقلة، قائمة بذاتها، حتى يحتاج أبناؤها للتفاهم إلى ترجمان، أو لغة أجنبية كالانجليزية.

ولكن امتازت الجزيرة العربية على سعتها، وترامي أطرافها، وتشتت قبائلها، بوحدة اللغة، كانت ولا تزال أداة تفاهم والتقاء لجميع أبناء هذه الجزيرة، حضرهم وبدوهم والقحطاني منهم والعدناني، وهي اللغة العربية على اختلاف لهجاتها، وفروقها الاقليمية التي تقتضيها طبيعة اللغات وفلسفتها، وطبيعة الأقاليم والأجواء، وطبيعة الانعزال والانطواء، فاللغات تختلف في لهجاتها بمسافات، قد تطول وقد تقصر، وكانت هذه الوحدة اللغوية التي امتازت بها هذه الجزيرة من أهم أسباب تيسير مهمة الدعوة الإسلامية، وسرعة انتشار الإسلام فيها، ومخاطبة الوحدات العربية المنتشرة، في لغة واحدة، هي اللغة العربية الفصحى، وبكتاب واحد هو القرآن العربي المبين.

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ج ٧، ص ٤٠.

جزيرة العرب في تاريخ الأمم والديانات:

قد تبين من الآثار العتيقة أن بلاد العرب كانت مأهولة بالناس، منذ العصور «الباليوثية» (Palaeolithic) أي العهود الحجرية المتقدمة، ومن أقدم الآثار التي عثر عليها آثار من أيام العصور المعروفة بـ«Chellian» أي الأدوار الأولى من أدوار حضارة العصر الحجري.

وقد جاء ذكر العرب في مواضع من أسفار التوراة، تشرح علاقات العبرانيين بالعرب، وما ذكر في التوراة عن العرب يرجع تاريخه إلى ما بين ٧٥٠، والقرن الثاني قبل المسيح، وقد وردت في التلمود اشارات إلى العرب كذلك.

وفي كتب «جوسفوس فلافيوس» الذي عاش بين سنة ٣٧ و ١٠٠ للمسيح تقريباً معلومات ثمينة عن العرب، وأخبار مفصلة عن العرب والأنباط، ووردت في الكتب اليونانية واللاتينية المؤلفة قبل الإسلام - على ما فيها من خطأ - أخبار تاريخية جغرافية كبيرة الخطورة، ووردت فيها أسماء قبائل عربية كثيرة، لولاها لم نعرف عنها شيئاً، وتعد الاسكندرية من أهم المراكز التي كانت تعني عناية خاصة بجمع الأخبار عن بلاد العرب، وعادات سكانها، وما ينتج فيها لتقديمها إلى من يرغب فيها من تجار البحر المتوسط.

ومن أقدم من ذكر العرب من اليونانيين «أخيلس» (٥٢٥-٤٥٦ قبل المسيح) و«هيرودوتس» (٤٨٠-٤٢٥ ق.م) وهناك طائفة من الكتاب الذين تركوا لنا آثاراً وردت فيها اشارات إلى العرب، والبلاد العربية، منهم بطليموس الذي عاش في الاسكندرية في القرن الثاني للمسيح، وهو صاحب مؤلفات في الرياضيات منها «كتاب المجسطي» المعروف في اللغة العربية، وفي الموارد النصرانية مادة غزيرة عن تاريخ العرب في الجاهلية والإسلام، وإن كانت خاصة بما له صلة بالنصرانية

وانتشارها، ومراكز نشاطها.

والعرب في التوراة، هم الأعراب، أي سكان البوادي، لذلك فإن النعوت الواردة فيها عنهم، هي نعوت لعرب البادية، وكذلك في كتب اليونان، والرومان، والأناجيل، نعوت قصدت بها الأعراب، وقد كانوا يغيرون على حدود امبراطوريتي الرومان واليونان، ويسلبون القوافل، ويأخذون الأتاوات من التجار والمسافرين، وقد وصف ديدوروس الصقلي العرب بأنهم يعشقون الحرية، فيلتحفون السماء، ويعتقدون بالارادة الحرة، والحرية المطلقة، وبذلك يصفهم هيرودوتس، فيقول: إنهم يقامومون أي قوة تحاول استرقاقهم، واستذلالهم، فالحرية عند العرب، هي أكبر شعار، وميزة يمتاز بها العرب في نظر الكتبة اليونان، واللاتين.

وكذلك الصلات بين العرب والهند، ومعرفة إحداهما بالأخرى، والتبادل التجاري والثقافي بين البلدين قديم ووثيق، وسابق على الإسلام والفتح الإسلامي بكثير، وكانت الهند من أعرف الأقطار الآسيوية بالعرب، وأقرب إليها، لعوامل جغرافية، واقتصادية، كما تدل على ذلك المصادر الهندية والعربية، والاكتشافات الحديثة[١].

صلة الجزيرة بالنبوءات، والأديان السماوية:

والجزيرة العربية مهد نبوات كثيرة ومبعث عدد من الأنبياء وقد جاء في القرآن: ﴿وَاذْكُر أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ، وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

---

(١) اقرأ للتفصيل كتاب «الصلات بين العرب والهند» للعلامة السيد سليمان الندوي، وهو أحسن وأوسع ما كتب في هذا الموضوع.

(٢) سورة الأحقاف آية ٢١.

والمراد به نبي الله هود الذي أرسل إلى عاد، وعاد من العرب البائدة على قول المؤرخين، وكان موطنها «الأحقاف»، والحقف كثيب مرتفع من الرمال، وكانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة في جنوب الجزيرة، وهي الآن تقع في الجنوب الغربي من الربع الخالي، قريباً من «حضرموت»، لا عمران فيها ولا حياة، وكانت جنات ومنتزهات، معمورة بأقوام جبابرة يسمون قوم عاد، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية جلبت عليهم طوفاناً من الرمال(١).

وقد دلت الآية على أن هودا لم يكن هو الأول أو الآخر من الأنبياء الذين بعثوا في هذه البلاد، بل سبقه أنبياء ولحقوا به، فقد قال: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ (سورة الأحقاف آية ٢١).

وكذلك صالح نبي ثمود، كان مبعثه في جزيرة العرب، فإن ثموداً كانت تسكن «الحِجر»، الذي بين الحجاز وتبوك، وقد نشأ اسماعيل في مكة، وعاش فيها ومات، وإذا صح أن مدين تدخل في جزيرة العرب في اطارها الواسع، فقد كان شعيب الذي أرسل اليها من العرب. فقد كانت مدين في أطراف أرض العرب من ناحية الشام، قال أبو الفداء: «كان أهل مدين قوماً عرباً، يسكنون مدينتهم مدين، التي هي قريبة من أرض معان، من أطراف الشام، مما يلي من ناحية الحجاز، قريباً من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة»(٢).

وكانت أرض العرب مأوى لكثير من أصحاب الرسالات والدعوات، الذين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وتنكرت لهم أوطانهم، فلم

---

(١) اقرأ سورة الحاقة الآيات ٥-٧.

(٢) قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار: ص ٢٧٥؛ ج ١.

يجدوا مأوى إلا في هذه الأرض البعيدة عن نفوذ الملوك الجبارين، والرؤساء الظالمين، كما كان الشأن مع ابراهيم في مكة، وموسى في مدين، هذا عدا الديانات التي لقيت اضطهاداً في مهدها، فأوت إلى مواطن في الجزيرة، فهاجر عدد كبير من اليهود، حين لقوا اضطهاداً من الرومان إلى أرض اليمن، ومدينة يثرب، ولجأت النصرانية إلى أرض نجران فراراً من حكم القياصرة الذين اضطهدوها[1].

اسماعيل في مكة:

قصد سيدنا إبراهيم مكة، وهي في واد محصور بين جبال جرداء، ليس فيه ما يعيش عليه الناس، من ماء، وزرع، وميرة، ومعه زوجه هاجر، وولده اسماعيل، فراراً من الوثنية المنتشرة في العالم، ورغبة في تأسيس مركز يعبد فيه الله، ويدعو الناس اليه، ويكون مناراً للهدى، ومثابة للناس، ونقطة انطلاق لدعوة التوحيد، والحنيفية السمحة والدين الخالص[2].

تقبل الله هذا العمل الخالص، وبارك في هذا المكان، وأجرى الله الماء لهذه الأسرة المباركة الصغيرة، المؤلفة من أم وإبن - وقد تركها إبراهيم في هذا المكان القاحل المنعزل عن العالم - وكان بئر زمزم، وبارك الله في هذا الماء.

وكان إبراهيم لا يزال في جهاد، ودعوة، وانتقال من مكان إلى

---

(١) استفدنا في هذا البحث الأخير من كتاب «خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم» للعلامة محمد أبو زهرة؛ ج ١، فصل «أرض النبوة الأولى هي أرض العرب».

(٢) القرآن الكريم سورة البقرة وسورة ابراهيم.

مكان، يدعو الناس إلى الله، ويعود إلى مكة، فيقضي فيها أياماً، ثم يغادرها[١].

ونشأ اسماعيل، وأراد إبراهيم ذبح ابنه اسماعيل، وهو غلام يسعى، إيثاراً لحب الله تعالى على حبه، وتحقيقاً لما رآه في المنام، واستسلم اسماعيل لهذا الأمر ورضي به، وفداه الله بذبح عظيم[٢]، وسلمه ليكون عون أبيه في الدعوة إلى الله، وليكون جد آخر نبي وأفضل الرسل، وجد أمة تضطلع بأعباء الدعوة إلى الله والجهاد في سبيلها.

وعاد إبراهيم إلى مكة، واشترك الأب والابن في بناء بيت الله، وكان دعاؤهما أن يتقبل الله هذا البيت، ويبارك فيه، وأن يعيشا على الإسلام، ويموتا عليه، ولا ينقطع بموتهما بل ترثه ذريته، فتحتضنه، وتغار عليه، وتدعو اليه، وتـؤثره على كل عزيز، فتنتشر هذه الدعوة في العالم، وأن يبعث الله فيها نبياً من ذريته، يجدد دعوة جده إبراهيم، ويتم ما بدأه.

﴿وإِذْ يَرْفَعُ إبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وإِسْمَاعِيلُ، رَبَّنَا تَقَبَّل مِنَّا إنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ، رَبَّنَا وَاجْعَلنَا مُسْلِمَين لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَوَّابُ الرَّحِيمُ، رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيْهِم رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِم آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ ويُزَكِّيهِمْ، إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيْزُ الحَكِيمُ﴾[٣].

---

(١) تـؤيد ذلك الروايات اليهودية وتقول إن إبراهيم كان يتردد إلى اسماعيل بين آونة وأخرى ويزوره سرّا في الصحراء (تعني الجزيرة العربية) راجع:
D. Sidersky – des origines. des legends Musalmans (Paris. 1933). pp. 51–53.

(٢) القرآن الكريم، سورة الصافات ١٠٧.

(٣) سورة البقرة الآيات ١٢٧-١٢٩.

ودعا إبراهيم أن يظل هذا البيت آمناً دائماً، وأن يسلم الله أولاده من عبادة الأصنام، التي لم يكن هو أشد كراهة لشيء، ولا أكثر تقززاً، ولا أخوف لشيء على ذريته منها.

فقد رأى مصير الأمم ومصير الأسر، بعد الأنبياء الذين بعثوا فيها، وبعد الجهود الجبارة والدعوات القوية التي قاموا بها، وكيف أصبحت بعد مفارقتهم للدنيا فريسة الشياطين المفسدين، والدجالين المضللين من عباد الأوثان ودعاة الجاهلية.

وتمنى أن يكون أولاده وأولاد أولاده على اتصال دائم بدعوته وجهاده، يذكرون قصة محاربته للوثنية، وخلع للأوثان، وتحطيمه لها، ومصارمته للوالد السادن لبيت الأصنام، وفراقه للأهل والوطن، وأن يذكروا سر اختيار هذا المكان القاحل، الذي لا يصلح للزرع، وازدهار المدنية، ويعرفوا سر إيثاره على المدن الكبيرة، والأمكنة الصالحة للفلاحة والتجارة، وأسباب العيش، وأن يعوض عن ذلك بأن يعطف عليهم القلوب، ويهوي إليهم الأفئدة، ويسوق إليهم الرزق الكريم، ويجبي اليهم ثمرات كل شيء.

﴿وإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَل هَذَا البَلَدَ آمِناً واْجنُبْني وَبنيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ، رَبِّ إنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي، وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المحَرَّمِ، رَبَّنَا لِيُقِمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَل أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهوِي إِلَيْهِم، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1].

---

(١) سورة إبراهيم الآيات ٣٥-٣٧.

قبيلة قريش:

وتحقق كل ذلك، فبارك الله في ذريتها، وتوسعت الأسرة الابراهيمية العربية، فقد صاهر اسماعيل جرهم[1] - وكانوا من العرب العاربة - وبارك الله في ذرية اسماعيل، حتى كان منه عدنان، وتناقلت العرب العدنانية أنسابها، وهو أكثر الأنساب العربية صحة وحفظاً وتداولاً.

وكثر أولاد عدنان، اشتهر منهم معد بن عدنان، ونبغ في أولاده مضر، ونبغ من أولاده فهر بن مالك.

وسمي أولاد فهر بن مالك بن النضر «قريشاً» وغلب هذا الاسم على جميع الأسماء فاشتهرت هذه القبيلة بـ«قريش» وأقر أهل العرب كلهم بعلو نسب قريش، والسيادة، وفصاحة اللغة، ونصاعة البيان، وكرم الأخلاق والشجاعة، والفتوة، وذهب ذلك مثلاً لا يقبل نقاشاً ولا جدلاً[2].

قصي بن كلاب وأولاده:

ومن أولاد فهر قصي بن كلاب.

وظل أمر مكة لجرهم، حتى غلبهم على ذلك خزاعة، وكانت سدانة البيت فيهم، إلى أن عظم شأن قصي بن كلاب، وظهر فضله فانتقلت اليه، وانضمت له قريش، وأجلوا خزاعة عن مكة وتم له أمر مكة،

---

(١) قيل: ان جرهم كانت أولى القبائل العربية التي أقامت بمكة، وقد استهواها للمقام هناك وجود ماء لا ينقطع، وجاء في بعض الروايات أنها كانت هناك قبل أن يترك ابراهيم زوجه هاجر وابنه اسماعيل في هذا الوادي.

(٢) اقرأ للتفصيل سيرة ابن هشام؛ ق ١، وكتب السيرة والأنساب.

وكان سيداً مطاعاً، كانت اليه حجابة البيت، وعنده مفاتيحه، فلا يدخل أحد إلا بإذنه، وسقاية زمزم، والرفادة[1]، والندوة التي يجتمعون فيها للمشورة، والرأي، واللواء في الحرب، فحاز شرف مكة كله.

وتنبل في أولاده عبد مناف، وكان هاشم أكبر أبناء والده عبد مناف، وكان كبير قومه، وكانت عنده السقاية والرفادة، وهو والد عبد المطلب: جد الرسول ﷺ وقد ولي عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمه المطلب بن عبد مناف، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه، وعظم خطره فيهم[2].

بنو هاشم:

وكان بنو هاشم واسطة العقد في قريش، وإذا قرأنا ما حفظه التاريخ وكتب السيرة من أخبارهم وأقوالهم - وهو قليل من كثير جداً - استدللنا به على ما كان يمتاز به هؤلاء من مشاعر الإنسانية الكريمة، والاعتدال في كل شيء، ورجاحة العقل، وقوة الإيمان بما للبيت من مكانة عند الله، والبعد عن الظلم، ومكابرة الحق، وعلو الهمة، والعطف على الضعيف والمظلوم، والسخاء والشجاعة، وما تشتمل عليه كلمة «الفروسية» عند العرب، من معان كريمة وخلال حميدة، السيرة التي تليق بأجداد الرسول الكريم ﷺ وتتفق مع ما كان يفضله ويدعو إليه، من مكارم الأخلاق، غير أنهم عاشوا في زمن الفترة، وسايروا أبناء قومهم، في عقائد الجاهلية وعباداتها.

---

(١) الرفادة: طعام كانت قريش تجمع كل عام لأهل الموسم؛ ويقولون: هم أضياف الله تعالى.

(٢) اقرأ للتفصيل السيرة النبوية لابن هشام، ق ١ (أولاد عدنان).

الوثنية في مكة: تاريخها ومصادرها:

وبقيت قريش متمسكة بدين ابراهيم الخليل وبدين جدها اسماعيل متمسكة بالتوحيد، وبعبادة الله وحده، حتى كان عمرو بن لحي الخزاعي، فكان أول من غير دين اسماعيل، فنصب الأوثان، وأحدث في الحيوانات من التعظيم والتسييب والتحريم ما لم يأذن به الله، ولم تعرفه شريعة إبراهيم، وكان قد خرج من مكة إلى الشام، فرأى أهلها يعبدون الأصنام، ففتن بها، وجلب بعضها إلى مكة، فنصبها، وأمر الناس بعبادتها وتعظيمها[١]، ولا غرابة في أنه مر في طريقه إلى الشام من «بتراء» التي ضبطها المؤرخون والجغرافيون القدامى بـ«بطراء» و«بطرة»، وهي تقع الآن في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية، وكانت القصبة العربية الصخرية المشهورة عند اليونان والرومان، قيل أنه أنشأها الأنباط، وهم من أصل عربي، قبل آلاف من السنين، وقد بلغوا في المدينة والصناعة شأواً بعيداً، وكان بينهم شعراء وأطباء وتجار كبار، وكانوا يرحلون إلى مصر والشام وبلاد الفرات وروما، ويجوز أن يكونوا يمرون بالحجاز في طريقهم إلى وادي الفرات، وكانوا مع ذلك منغمسين في الوثنية السافرة، ينحتون الأصنام ويعبدونها، قيل أن «اللات» التي هي في مقدمة الأصنام التي كان يعبدها أهل شمالي الحجاز، استوردوها من «بتراء» وجعلوها في أصنامهم الرئيسية[٢].

---

(١) سيرة ابن هشام ق ١، ص ٧٦-٧٧، وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب»؛ رواه البخاري ومسلم وأحمد؛ وفي حديث رواه محمد بن اسحاق؛ أنه كان أول من غير دين اسماعيل؛ فنصب الأوثان، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي، (راجع السيرة النبوية لابن كثير؛ ج١ ص٦٤-٦٥).

(٢) وقد زارها المؤلف، ولاحظ كثرة المعابد الوثنية المحفورة في الجبل في ١٩٧٣/٨/١٩م، أثناء جولته في غرب آسيا؛ عضواً في وفد لرابطة العالم الإسلامي في مكة.

ويؤيد ذلك ما جاء في كتاب «تاريخ سوريا» لمؤلفه «فيليب حتي» P.K. Hitti حول المناطق النبطية أي شرقي الأردن حالياً، يقول:

«وكان زعيم هؤلاء الآلهة «ذو الشرا»، وكان يشبه عموداً مستطيلاً أو حجراً أسود مربعاً... وكانت «اللات» الإلٰهة الخاصة للعرب متصلة بـ«ذي الشرا» ومن الإلهات النبطية الأخرى التي ورد ذكرها في كتابة من الكتابات الأثرية، هي «مناة» و«العزى» وقد ورد ذكر «هبل» أيضاً في تلك الكتابات»[١].

ولا يعزبن عن البال أن هذا العصر كان عصر انتشار الوثنيات حول الجزيرة العربية، ومنها حوض البحر الأبيض المتوسط، فلم تظهر دعوة المسيح وحواريه بعد، التي عارضت الوثنية، وقللت من حدتها ونشاطها، أما اليهودية فقد كانت ديانة سلالية محصورة في بني اسرائيل، لم تؤذن لدعوة غير بني إسارئيل إلى التوحيد.

ويؤيد ذلك ما جاء في كتاب «العرب قبل محمد» لمؤلفه «De Lacy O'Leary».

قال:

«ولا يبعد عن الصحة أن يقال: ان عبادة التماثيل إنما كانت من «منح» سوريا وفدت إلى الجزيرة عن طريق التقاليد الشامية اليونانية المنتشرة في سوريا، ولعلها لم تكن سائدة في سائر أنحاء العرب»[٢].

وكذلك كانت الوثنية منتشرة في وادي الفرات وشرقي الجزيرة العربية، وكان بين الجزيرة وهذه المنطقة اتصالات تجارية وعلاقات ودية، فلا يستبعد أن يكون لهذه المنطقة نصيب في انتشار الوثنية في

---

(1) P.K. Hitti: History of Syria. (London, 1951) p. 382–83.

(2) «Arabia Before Mohammad», (London, 1927) p. 196–97.

الجزيرة، وقد صرح «Georges Roux» في كتابه « العراق القديم » بأن الكتابات الأثرية في العراق تدل على أن الوثنية كانت منتشرة فيها في القرن الثالث المسيحي فيما بعد، وهي كانت مسكناً للآلهة، منها أجنبية ومنها محلية[1].

وقيل إن عبادة الأصنام نشأت في قريش تدريجياً، فقد توصلوا من تعظيم حجارة الحرم التي كانوا يحملونها معهم إذا ظعنوا من مكة، تعظيماً للحرم، ومحافظة على ذكراه، إلى أن صاروا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم حتى خلف الخلوف، فنسوا ما كانوا عليه، وعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات، وفيهم - على ذلك - بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة[2].

وتاريخ الأمم والديانات في الانتقال من مرحلة إلى مرحلة، ومن الوسائل الى الغايات، ومن المقدمات إلى النتائج، يؤيد ما ذهب إليه هؤلاء من تعليل بدء الوثنية في العرب بصفة عامة وفي قريش بصفة خاصة، وتاريخ بعض الشعوب الإسلامية وطوائفها في التدرج إلى عبادة الصور والضرائح ومغالاتها في التعظيم والتقديس، يؤيد ذلك، لذلك ألحت الشريعة الإسلامية على سد الذرائع المؤدية إلى الشرك والغلو في الأشخاص والآثار[3].

---

(١) راجع للتفصيل. Ancient Iraq, (1972) p. 283-84.

(٢) راجع للتفصيل في أسماء الأصنام وأخبارها ومواطنها وأسباب اتخاذها كتاب « الأصنام » للكلبي، و « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » تأليف العلامة السيد محمود شكري الآلوسي، الجزء الثاني؛ (ذكر شيء من أخبار الأصنام وسبب اتخاذ العرب لها) ص ٢٠٠-٢١٥.

(٣) ودلائله في الشريعة والأحاديث الصحيحة أكثر من أن تحصى؛ منها الحديث المشهور « لا تتخذوا قبري عيداً » وحديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » وحديث=

حادثة الفيل:

ووقع حادث عظيم لم يحدث مثله في تاريخ العرب، وكان دليلاً على ظهور حادث أكبر، وعلى أن الله يريد بالعرب خيراً وأن للكعبة شأناً ليس لغيرها من بيوت الدنيا ومراكز العبادة، وقد نيطت بها رسالة ودور في تاريخ الديانات ومصير الإنسانية، لا بد أن تـؤديه وأن تقوم به.

إيمان قريش بمكانة البيت عند الله:

ويتجلى هذا الإيمان بأن لهذا البيت مكانة عند الله، وأنه حاميه ومانعه، في حديث دار بين عبد المطلب - جد الرسول وسيد قريش - و«أبرهة» - ملك الحبشة - وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاستأذن له عليه، وقد أعظمه أبرهة، ونزل له عن سريره، فأجلسه معه، وسأله عن حاجته، فقال: حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي.

فلما قال له ذلك، زهد فيه الملك، وتفادته عينه، وقال: أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه، لا تكلمني فيه؟!.

= «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم» وغيرها، وهي حكمة النهي عن تصوير ذي روح في الاسلام والتشديد فيه.

وقد تدرجت أمم في القديم من الحب والتعظيم إلى التصوير ونحت التماثيل، ومنها إلى العبادة السافرة، قال ابن كثير في تفسير آية: ﴿وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا﴾، عن محمد بن قيس قال: كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم اتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين يقتدون بهم: «لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم» فلما ماتوا وجاء آخرون دب اليهم ابليس؛ فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر؛ فعبدوهم.

قال له عبد المطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت رباً سيمنعه.
قال: ما كان ليمتنع مني.
قال: أنت وذاك[1].

إذن فلا سلطان عليها لزاحف، ولا سبيل اليها لمهاجم، وأن الله بالغ أمره في بيته ودينه.

وكان من خبره أن أبرهة الأشرم عامل النجاشي (ملك الحبشة) على اليمن بنى بـ«صنعاء» كنيسة عظيمة، سماها «القُلّيس» وأراد أن يصرف اليها حج العرب، وغار على الكعبة أن تكون مثابة للناس، يشدون اليها الرحال، ويأتون من كل فج عميق، وأراد أن يكون هذا المكان لكنيسته.

وعز ذلك على العرب الذين رضعوا بلبان حب الكعبة وتعظيمها، لا يعدلون بها بيتاً، ولا يرون عنها بديلاً، وشغلهم ذلك، وتحدثوا به، فخرج كناني، ودخل الكنيسة، وأحدث فيها، فغضب عند ذلك أبرهة، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه[2].

---

(١) سيرة ابن هشام ق١، ص ٤٩-٥٠.

(٢) يمكن أن يكون السبب في حملة أبرهة أهم وأوسع من حادث أريد به تنجيس معبد، وأن يكون قصد أبرهة فتح مكة لربط اليمن ببلاد الشام، وتوسيع حكم النصرانية، ونفوذها في الجزيرة العربية، وكان ذلك في صالح الروم والحبش؛ وهم نصارى على السواء، وكانت هذه الخطة - مهما كانت الدوافع اليها - تؤدي إلى خراب البيت الذي قدر له أن يكون هدى ومثابة للناس، ومصدر النبوة الأخيرة؛ وتجريد مكة من سيادتها الروحية، وذلك ما لا يرضاه الله، ويجوز أن يكون الروم هم المحرضين لأبرهة على فتح مكة، لمآربهم السياسية، ومنها اضعاف نفوذ الفرس المنافس الوحيد للنفوذ الرومي على بلاد العرب.

ثم سار وخرج معه بالفيل، وتسامعت به العرب، فنزل عليهم كالصاعقة، وأعظموه، وفزعوا له، وأرادوا كفه عن ذلك ومحاربته، فرأوا أن لا طاقة لهم بأبرهة وجنوده فوكلوا الأمر إلى الله تعالى، وكانوا على ثقة بأن للبيت رباً سيحميه.

وانحازت قريش إلى شعف الجبال والشعاب، تخوفاً عليهم من معرة الجيش، ينظرون ماذا سيصنع الله بمن اعتدى على حرمته، وقام عبد المطلب، ومعه نفر من قريش، فأخذوا بحلقة باب الكعبة، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده.

وأصبح أبرهة متهيئاً لدخول مكة، وهو مجمع لهدم البيت، وهيأ فيله وكان اسم الفيل «محموداً» وبرك الفيل في طريق مكة، وضربوا الفيل ليقوم، فأبى، ووجهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يهرول.

وهنالك أرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر، مع كل طائر منها أحجار يحملها، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، وخرج أهل الحبشة هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا، وخرجوا يتساقطون بكل طريق، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم، تسقط أنامله، أنملة أنملة، حتى قدموا به «صنعاء» فمات شر ميتة[١].

وذلك ما حكاه القرآن، يقول:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَل كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ[٢] تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِن سَجِيلٍ[٣]، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مأْكُولٍ﴾[٤].

---

(١) اقرأ لتفصيل حادثة الفيل، سيرة ابن هشام؛ ق ١؛ ص ٤٣-٥٧.

(٢) الأبابيل: الجماعات.

(٣) السجيل: الشديد الصلب.

(٤) سورة الفيل الآيات ١-٥.

وقع حادثة الفيل ودلالتها:

فلما رد الله الحبشة من مكة، وأصابهم ما أصاب، أعظمت العرب قريشاً، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم العدو، وازدادوا تعظيماً للبيت، وإيماناً بمكانه عند الله[1].

وكان ذلك آية من الله، ومقدمة لبعثة نبي يبعث في مكة، ويطهر الكعبة من الأوثان، ويعيد اليها ما كان لها من رفعة وشأن، وتكون لدينه صلة عميقة دائمة بهذا البيت، ودل هذا الحادث على قرب ظهور هذا النبي وبعثته.

واستعظم العرب هذا الحادث، وكان جديراً بذلك، فأرَّخوا به، وقالوا وقع هذا في عام الفيل وولد فلان في عام الفيل، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السنين، وعام الفيل يصادف سنة ٥٧٠ م.

وما مضى على وقعة الفيل خمس سنوات حتى انتقم الله من الأحباش، فما لبث أن أزال حكمهم من بلاد اليمن، فخلت الجزيرة العربية من آثار النفوذ المسيحي واستعمار الأحباش في وقت واحد جاء في «قيام الدولة العربية» ما خلاصته: «قد قامت حركة وطنية في دولة حمير لتخليص اليمن من حكم الأحباش، وقد استنجد سيف بن ذي يزن بكسرى فارس فأمده بحملة سنة ٥٧٥ م بقيادة وهرز، وقد تغلب هذا القائد على الأحباش في اليمن»[2].

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ق ١، ص ٥٧.
(٢) قيام الدولة العربية ص: ٢٨ لمؤلفه جمال سرور.

مكة زمن البعثة وعند ظهور الإسلام

مكة مدينة لا قرية:

يتخيل كثير من الناس ممن لا علم لهم بأحوال العصر الذي كانت فيه البعثة، وليس لهم اطلاع واسع على أيام العرب وأخبارهم وشعرهم وعوائدهم، أن مكة كانت قرية صغيرة، وكانت الحياة فيها في طور الطفولة العقلية والاجتماعية والحضارية، وكانت أشبه بمسكن للقبائل، فيه مضارب من الشعر، تسود فيها حياة الخيام، وبين معاطن الابل، ومرابض الغنم ومرابط الخيل، متناثرة في حواشي الوادي وشعاب الجبال، يتبلغ أهلها ببلغة من العيش، ويتعيشون على الخبز القفار أو لحم الابل الذي لم يحسن شواؤه ولم يكمل استواؤه، ويلبسون اللباس الخشن الذي يتخذونه من أصواف الابل وأوبارها، لا شأن لهم بتوسع في المطاعم والمشارب، أو تأنق في اللباس، أو لين من العيش، ورقة في الشعور، وتوسع في الخيال.

إن هذه الصورة القاتمة لمكة، لا تتفق مع الواقع التاريخي ومع ما تناثر في كتب التاريخ ودواوين الأدب والشعر الجاهلي، من وصف مكة وما كان عليه أبناؤها، في منتصف القرن السادس المسيحي من آداب وأعراف وعادات ومظاهر كثيرة في الحياة، قد انتقلت من طور بدائي بدوي إلى طور بدائي مدني، ولا تتفق مع ما وصفها القرآن بنعوت

وأسماء لا تليق بقرية صغيرة، وحياة بدوية، فقد سماها «أم القرى» في قوله: ﴿وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً، لِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى، وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ، فَرِيْقٌ في الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[1] وقوله: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا البَلَدِ الأَمِيْنِ﴾[2]، وقوله: ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا البَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا البَلَدِ﴾[3].

والحق أن مكة قد انتقلت في منتصف القرن الخامس الميلادي، من طور البداوة إلى طور الحضارة، وإن كانت حضارة بالمعنى المحدود، وخضعت لنظام يقوم على اتفاق تطوعي وتفاهم جماعي وتوزع للمسئوليات والمهام، وكان ذلك على يد قُصَيّ بن كلاب جد الرسول الخامس، وكان عمران مكة بطبيعة الحال محصوراً في نطاق ضيق، وكانت مكة بين الأخشبين، وهو جبل «أبي قبيس» المشرف على الصفا، والآخر الجبل الذي يقال له «الأحمر»، وكان يسمى في الجاهلية بـ«الأعرف»، وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان، إلا أن وجود البيت في هذا الوادي، وما كان يتمتع به جيرانه وسدنته بصفة خاصة، وسكان الوادي بصفة عامة، من شرف ومكانة وأمن، كان مغرياً لكثير من القبائل العربية، وخصوصاً المجاورة، للانتقال إلى جوار البيت، فازداد العمران، وتوسع النطاق على مر الزمان، وحلت البيوت المرصوفة بالحجر، أو المبنية بالطين والحجر محل الخيام والأخبية،

---

(١) سورة الشورى آية ٧.
(٢) سورة التين الآيات ١-٣.
(٣) سورة البلد الآيات ١-٢.

ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا: لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (سورة الزخرف آية ٣١)؛ فكثيراً ما يطلق لفظ القرية على البلد؛ قال ابن كثير في تفسيره هذه الآية: «والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان»، تفسير ابن كثير؛ ج٦، ص٢٢٥، طبع دار الأندلس.

وانطلقت الحركة العمرانية مما يلي المسجد الحرام إلى بطحاء مكة في أعلاها وأسفلها، وكانوا يبنونها أول الأمر بحيث لا تستوي على سقوف مربعة احتراماً للبيت ثم هان عليهم ذلك بالتدريج، فلم يروا بذلك بأساً، وتوسعوا فيه، إلا أنهم كانوا لا يرفعون بيوتهم عن الكعبة.

وزعم بعض أهل الأخبار أن أهل مكة كانوا يبنون بيوتهم مدورة تعظيماً للكعبة، وأول من بنى بيتاً مربعاً «حميد بن زهير»، فاستنكرته قريش.

وكانت بيوت أثريائها وساداتها مقامة بالحجر، وبها عدد من الغرف، ولها بابان متقابلان، ليتمكن النساء من الخروج من الباب الآخر، عند وجود ضيوف في الدار.

ومن أعلى جبل أبي قبيس الذي يشرف على مكة من الشرق، يبدو شكلها المستطيل من الشمال الى الجنوب في بطن واد ضيق، وعندما ينظر إليها المرء لأول وهلة فانه لا يكاد يميزها من الأديم الذي تقوم عليه، إن الجبال الجرداء الصخرية التي تحيط بها لا تفصلها عنها أية واحة، فليس بينها وبين مكة أية بقعة خضراء، وان سطوح منازلها لتختلط بمنهار الصخور التي تحدرت على سفوح تلك الجبال.

أما بعد أن تراض العين شيئاً فشيئاً، فانها تميز البيوت والدور، وتكشف المداخل الخفية، ويتنبه الإنسان بغتة لمنظر مفاجىء لمدينة كبيرة، لم يكن يظن وجودها في هذا المكان ان العين تراها تكبر دون حد حتى ليكاد الإنسان يعزو اتساعها المفاجىء الى سحر ساحر وتبدو الصخور بدورها وكأنها تحولت الى منازل، وتبدو الأكام أشبه بضواح واسعة لا يدرك الطرف لها نهاية[1].

---

(١) اتين دينيه محمد ص ٥٦ (مقتبسا من «أم القرى» لفؤاد علي رضا ص١٩٧-١٩٨).

«خريطة مكة المكرمة»

خريطة
مكة المكرمة

شمال
شرق
غرب
جنوب

نشأة مكة الجديدة وصاحبها:

كانت نشأة مكة الجديدة على يد قصيّ بن كلاب، فهو الذي جمع قريشاً، وأسكنهم مكة، وخط لهم الرباع[1]، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم، واختط بنوه من بعده مكة رباعاً، فكانوا يقطنونها، ويبيعونها وأقامت على ذلك قريش، ليس بينهم اختلاف ولا تنازع.

تنظيم حياة وتوزيع مناصب ومسئوليات:

تملك قصيّ على قومه وأهل مكة، وكانت اليه الحجابة، والسقاية[2]، والرفادة[3]، والندوة، واللواء.

وهو الذي أسس دار الندوة لاصقة بالمسجد الحرام، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، وهي دار قصي بن كلاب، وهي دار الشورى لقريش ودار الحكم والمجتمع في مكة، فما تنكح امرأة، ويتزوج رجل من قريش، وما يتشاورون في أمر نزل بهم، ولا يعقدون لواء لحرب قوم من غيرهم إلا في هذه الدار، وما تدرع جارية إذا بلغت إلا في هذه الدار، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه، ثم ينطلق بها إلى أهلها. وكان أمره في قومه في حياته ومن بعد موته كالدين المتبع لا يعمل بغيره، ولم يكن يدخل دار الندوة من غير بني قصي إلا ابن أربعين سنة، ويدخلها بنو قصي جميعاً، وحلفاؤهم كبيرهم وصغيرهم وكانت دار الندوة خاصة بهاشم، وأمية، ومخزوم، وجمح، وسهم، وتيم، وعدي، وأسد، ونوفل، وزهرة، وهؤلاء عشرة رهط من عشرة أبطن.

---

(١) ذكرها أبو الوليد الأزرقي (م ٢٢٣ هـ) في كتابه «أخبار مكة» بتفصيل: والرباع: المنازل وما حولها، واحدها ربع بالفتح.

(٢) معنى سقاية الحاج أنهم كانوا يملأون للحجاج حياضاً من الماء يحلونها بشيء من التمر والزبيب، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة.

(٣) الرفادة: طعام كان يصنع للحجاج على طريق الضيافة؛ وكانت قريش تساعد قصياً على ذلك بما تقدمه له من الخرج الذي تخرجه كل سنة (الخضري-٣٦).

وانقسمت المناصب بعد موته، فكان في بني هاشم السقاية، وفي بني أمية العقاب راية قريش، وفي بني نوفل الرفادة، وكان في بني عبد الدار اللواء والسدانة مع الحجابة، وكان في بني أسد المشورة، فلم يكن رؤساء قريش يتفقون على أمر حتى يعرضوه عليه، فإن وافقه ولاهم عليه وإلا تخير وكانوا له أعواناً.

وكانت المسئوليات موزعة بين رجال من قريش، أقرت لهم بالفضل وحصافة الرأي، فكانت إلى أبي بكر الصديق - وهو من بني تيم - الأشنان وهي الديات والمغرم، فكان إذا احتمل شيئاً، فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه، وان احتمل غيره، خذلوه، وكان إلى خالد بن الوليد - وهو من بني مخزوم - القبة والأعنة - أما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب، وكان إلى عمر بن الخطاب - وهو من بني عدي - السفارة، وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً، وان نافرهم حي بمفاخرة جعلوه نافراً ورضوا به، وكان إلى صفوان بن أمية - وهو من بني جمح - الأيسار، وهي الأزلام فكان لا يسبق بأمر هام حتى يكون هو الذي يسيره على يديه، وكان إلى الحارث بن قيس الحكومة والأموال المحجرة التي سموها لآلهتهم، وكانوا يتوارثون هذه المكارم كابراً عن كابر.

النشاط التجاري وحركة التصدير والاستيراد:

وكانت لقريش رحلتان تجاريتان، احداهما إلى الشام في زمن الصيف، والأخرى إلى اليمن في زمن الشتاء، وكانت أشهر الحج عندهم أشهراً حرماً، يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب البيت وداخل حدود الحرم، والناس يهرعون إلى هذه الأسواق ويؤمونها من جهات الجزيرة البعيدة، ليقضوا منها حاجتهم، ويتزودوا لقومهم، وقد ذكرت

مكة المكرمة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم

وادي المحصب والطريق إلى منى وإلى حراء
طريق الدخول إلى مكة من أعالي مكة
الوليب
كداء
مقبرة المعلاة
إلى المسجد الحرام
ذو طوى
طريق العودة إلى المدينة

مساكن بني هاشم
وشعب أبي طالب
جبل مروه
دار أبي بكر
دار خديجة
مولد الرسول صلى الله عليه وسلم
دار أبي سفيان
ومساكن بني أمية
مولد علي بن أبي طالب
مسكن بني شيبة
مساكن بني عبد شمس
دار عباس بن عبد المطلب
دار الأرقم بن أبي الأرقم
جبل أبو قبيس
جبل صفا
مساكن بني مخزوم
الكعبة المشرفة
دار أم هانئ
الحزورة

كدى
مساكن بني جمح
مساكن بني سهم
دار الندوه

دار عمر بن الخطاب
باب الوداع
دار أبي بكر
دار حمزة بن عبد المطلب

طريق الهجرة وطريق اليمن

طرق كبيرة في مكة
طرق سلكها الرسول ﷺ
الأماكن التاريخية
مرتفعات جبلية في مكة

التوسعة التركية للحرم
التوسعة السعودية للحرم
جبال مكة

الشمال
الشرق
الغرب
الجنوب

أسواق كانت في مكة يستدل بها على ما وصلوا إليه من مدنية وتطور، منها سوق العطارين، ومنها سوق الفاكهة، وسوق الرطب، وكان مكان للحجامين والحلاقين، وكانت رحبة واسعة كانت تباع فيها الحنطة، والسمن، والعسل، والحبوب، يحملها العير من الخارج، وكانت اليمامة ريف مكة[1]، وكان زقاق للحذائين، وسوق للبزازين.

وكانت لأهل مكة منتزهات ينتجعها المكيون في الأصائل، من شهور القيظ، وكان المتنعمون فيهم يشتون بمكة ويصطافون بالطائف، وكان كثير من فتيانهم اشتهروا بالأناقة في الحياة والتجمل في اللباس، وكانت كسوة بعضهم تقوم بمئات من الدراهم.

وقد نشطت الحركة التجارية في مكة، فكان تجارها يتجولون في بلاد كثيرة من أفريقيا وآسيا، ويحملون من كل بلد ما يستطرف ويستظرف فيها، وما تشتد اليها الحاجة في بلادهم، فكانوا ينقلون من أفريقيا الصمغ، والعاج، والتبر، وخشب الابنوس، ومن اليمن الجلود، والبخور والثياب، ومن العراق التوابل، ومن حاصلات الهند الذهب، والقصدير، والحجارة الكريمة، والعاج وخشب الصندل، والتوابل، والزعفران، ومن مصر والشام الزيوت والغلال والأسلحة والحرير والخمور، وكانوا يرسلون إلى بعض الملوك والأمراء ما يستطرف من بضائع مكة، وكان من أعجب ما يختار منها الأدم، وهي الجلود، كما

(١) لذلك لما منع ثمامة بن آثال - سيد بني حنيفة - حمل الحنطة إلى مكة بعد ما أسلم، جهدت قريش وكتبوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسألونه أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام، ففعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (زاد المعاد، ج١؛ ص٣٧٧؛ ورواه مسلم في صحيحه).

فعلت قريش حين بعثت إلى النجاشي - ملك الحبشة - عبد الله بن ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل، ليستردا من هاجر من المسلمين إلى الحبشة، فأرسلوا معهما من الهدايا مما يستطرف من متاع مكة وكان الأدم.

وكانت من النساء تاجرات، لهن نشاط في إرسال القوافل التجارية إلى الشام وغيرها، اشتهرت فيهن خديجة بنت خويلد، والحنظلية أم أبي جهل، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ (سورة النساء آية ٣٢).

الحالة الاقتصادية والعملة والمكاييل:

وهكذا فاقت مكة في التجارة، وأثرى كثير من أبنائها، وتضخمت رؤوس أموالهم، يدل على ذلك أن عير قريش التجارية التي كانت عائدة من الشام عند غزوة بدر بلغت ألف بعير، وبلغ المنقول على أثقالهم خمسين ألف دينار.

وكانوا يتعاملون بالعملة الرومانية البيزنطية والعملة الايرانية الساسانية[١] وكانوا يستعملون الموازين في أسواقهم والمكاييل، منها

---

(١) يبدو من الاستقراء الكثير، وتتبع ما كتب في الموضوع، أن العملة في العصر الجاهلي، وفي صدر الإسلام كانت على نوعين: (١) دراهم؛ (٢) دنانير، أما الدراهم فكانت على نوعين كذلك، نوع عليه نقش فارس؛ وتسمى بغلية؛ وسرداء دامية، والآخر عليه نقش الروم، وتسمى غالباً طبرية وبيزنطية: وكانت كلها من الفضة؛ وكانت مختلفة الأوزان؛ ولهذا كان أهل مكة في الجاهلية يتعاملون بها وزناً لا عداً؛ ويتلخص من أقوال العلماء، أن الدرهم - وهو الذي اعتبره الشرع خمس وخمسون حبة من الشعير الوسط، في الوزن وتزن العشرة من الدراهم سبعة مثاقيل من الذهب، ووزن المثقال من الذهب الخالص اثنتان وسبعون حبة، وعلى ذلك حكى ابن خلدون الاجماع. =

الصاع، والمد، والرطل، والأوقية، والمثقال، ويعرفون من مفردات أثقالها أنواعاً كثيرة، وعندهم علم بالحساب اعتمد عليه القرآن في ذكر السهام والفرائض.

= وكانت النقود الذهبية هي الشائعة، والكثيرة الاستعمال عند العرب في عصر النبوة، ولهذا قال عطاء: «إنما كان إذ ذاك الورق، ولم يكن الذهب» (مصنف ابن أبي شيبة ج-٣ ص٢٢٢).

أما الدنانير فكانت من الذهب، وكانت في الجاهلية وأول الإسلام، بالشام، وعند عرب الحجاز، كلها رومية تضرب ببلاد الروم عليها صورة الملك، واسم الذي ضربت في أيامه مكتوبة بالرومية، كما قال ابن عبد البر في التمهيد: وكلمة «الدينار» معربة من Denarius وكانت عملة رومية قديمة، ولا يزال لها رواج في بعض البلاد الأوربية وقد جاء ذكرها في الانجيل مراراً، وكان الدينار يزن مثقالاً، ووزن المثقال من الذهب الخالص كما قدمنا اثنتان وسبعون حبة من الشعير الوسط، والمشهور أنه لم يتغير في جاهلية ولا إسلام، وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن الدينار البيزنطي يزن ٤,٥٥ من الجرامات، وأثبت المستشرق - زمبارو - في هذا الكتاب أن المثقال المكي (كذلك) يبلغ وزنه ٤,٥٥ من الجرامات (راجع مادة «دينار»؛ ج٩ص٢٧٠) والنسبة بين الدرهم والدينار، هي نسبة ٧: ١٠ فالدرهم ٧/١٠ من المثقال. وقد نزله الخليفة عبد الملك بن مروان في عهده بعد الإصلاحات التي نفذها إلى ٤,٢٥ من الجرامات.

أما المعادلة في الثمن؛ فقد ثبت من كتب السنة، ومذاهب الفقهاء، وتقرر تاريخياً، أن الدينار يصرف في ذلك العصر بعشرة دراهم، وقد جاء في سنن أبي داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده؛ قال: كانت قيمة الدية على عهد الرسول ﷺ ٨٠٠ دينار أو ٨٠٠٠ درهم، وبذلك عملت الأمة من الصحابة فمن بعدهم حتى استقر الاجماع على ذلك ويدل على ذلك دلالة صريحة ما جاء في الأحاديث المشهورة من التصريح بنصاب الدراهم، أو بمقدار الواجب فيها، وما ذهب اليه الجمهور الأكبر من الفقهاء؛ أن نصاب الذهب عشرون ديناراً فثبت من ذلك أن الدينار الواحد في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام كان يساوي في الثمن عشرة دراهم ويعادلها؛ وقد قال الإمام مالك في الموطأ: «السنة التي لا اختلاف فيها عندنا، أن الزكاة تجب في عشرين ديناراً عيناً، كما تجب في مائتي درهم» (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب)، للآلوسي «التراتيب الادارية» لعبد الحي الكتاني، «فقه الزكاة» ليوسف القرضاوي، (التفسير الماجدي، وأكثره من فقه الزكاة).

أثرياء قريش ومترفوها:

وكانت بيوت وأسر اشتهرت بالثراء وسعة في المال، ورقة في العيش، يمتاز فيها بنو أمية وبنو مخزوم، وكان ممن اشتهر في الثراء وجمع الأموال واقتنائها وتنميتها، الوليد بن المغيرة وعبد العزى (أبو لهب)، وأبو أحيحة بن سعيد بن العاص بن أمية، وهو الذي أسهم بثلاثين ألف دينار في القافلة التي كان يقودها أبو سفيان، وعبد بن أبي ربيعة المخزومي، واشتهر منهم عبد الله بن جدعان التيمي الذي كان يشرب في كأس من الذهب، وكان يطعم عدداً كبيراً من المساكين والجيعان، وكان العباس بن عبد المطلب من أثرياء قريش، ينفق أمواله في الناس، ويتعامل بالربا، حتى جاء الإسلام، وأعلن رسول الله ﷺ بالغاء الأموال الربوية، وبدأ ذلك بعمه العباس بن عبد المطلب، وأعلن في حجة الوداع «وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب».

وكان منهم مترفون لهم مجالس سمر، ولهم أرائك منصوبة وموائد ممدودة، ونواد للشراب يلهون فيها ويسكرون.

وكانت عامة مجالس أشرافهم أمام البيت، ينشدون فيها الشعر، ويحضرها بعض كبار شعراء الجاهلية، مثل لبيد بن ربيعة صاحب المعلقة المشهورة، وقد ذكر أن عبد المطلب بن هاشم كان يوضع له فراش في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول فراشه في ذلك، حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه اجلالاً له.

الصناعات والثقافة والآداب في مكة:

ولم تكن للصناعات مكانة كبيرة عند أهل مكة، بل كان عندهم نوع احتقار لها، وتعير منها، ولم يباشرها في عامة الأحوال إلا الموالي وأبناء العجم، إلا أنه قد وجدت بعض صناعات كانوا مضطرين اليها، ومارسها بعض أبناء مكة العرب، فقد روي أن خباب بن الأرت كان

قيناً يعمل السيوف، وكانوا يلجأون في صناعة البناء - وكان لا بد منه - إلى عمال من الروم أو الفرس.

وكان منهم كتاب يعرفون الكتابة والقراءة، وإن كانت الأمية غالبة عليهم، ولذلك سماهم القرآن بـ «الأميين» فقال: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم﴾.

وكانت مكة وأهلها مثلاً في الجزيرة العربية في سلامة الذوق والظرف والأناقة، شأن العواصم والمدن الرئيسية في كل قطر، عريقة في الآداب، أما لغتهم فكانت هي الميزان وهي المرجع وعليها الاعتماد في سائر أطراف الجزيرة، وكانوا أبلغ العرب وأفصحهم وأصحهم تعبيراً ونطقاً، وأبعدهم عن الهجنة أو الرطانة وتأثير الاختلاط بالعجم، وكان حظهم من تناسب الأعضاء واعتدال الخلق، والخلق والهندام وحسن الشارة، أكثر من أهل النواحي الأخرى، حتى كانوا شامة بين الناس، يجمعون بين الصفات التي يسمى مجموعها بـ «الفتوة» و «المروءة»، وتغنى بها شعراء العرب وخطباؤهم، لذلك كانوا أئمة الناس في الشر والخير.

وكان أكثر عنايتهم بالأنساب وأخبارها، ثم بالشعر، ثم بالنجوم، والأنواء، والعيافة وشيء يسير من الطب يقوم على التجربة، والتناقل، وشيء كثير من حلية الخيل والمعرفة الدقيقة بأعضائها وصفاتها، والتفرس بالرجال والخيل، وشاعت فيهم طرق للعلاج، كالكي، والبتر، والفصد، والحجامة، وتناول الأدوية.

القوة الحربية:

أما قوة مكة الحربية، فكانت قريش تؤثر السلم والهدوء في عامة الأحوال، إذا تركت وشأنها، شأن الشعوب والمجتمعات التي أكبر اعتمادها في الكسب والمعاش على التجارة، ومسير القوافل، وتنظيم الأسواق،

وتوجه الرواد من كل صوب إلى بلدها، والتقائهم التقاءً يفيدها اجلالاً دينياً، وفائدة اقتصادية، ويدر عليها الأرزاق الكريمة، وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِن جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ[1]﴾.

لذلك كانت قريش - ما لم تتحد عقيدتها ولم تثر غيرتها الدينية أو القبلية - تؤمن بمبدأ «التعايش السلمي»، ولكنها رغم كل ذلك كانت قوة حربية يحسب لها الحساب، وكانت شجاعتها مضرب المثل، وكانت مشهورة بالفروسية العربية، و«الغضبة المضرية» معروفة في جزيرة العرب وآدابها وأمثالها.

ولم تكتف قريش بقوتها الذاتية في الحروب، ولكنها كانت تستخدم قوة الأحابيش، وهم بطون من القبائل العربية الضاربة حول مكة، من كنانة وخزيمة بن مدركة، وخزاعة تحالفوا مع قريش، وكان لقريش عدد كبير من العبيد والموالي، الذين كانوا يقاتلون في صفوفها، فكانت تستطيع أن توجه إلى القتال بضعة آلاف مقاتل وقد استطاعت أن تجمع عشرة آلاف مقاتل في غزوة الأحزاب. وهي أكبر قوة حربية عرفها تاريخ الجزيرة العربية في العصر الجاهلي.

كبرى مدن الجزيرة وعاصمتها الروحية والاجتماعية:

وبهذا المركز الديني، والمكانة الاقتصادية، وقيادة النشاط التجاري، والتقدم في المدنية والآداب، أصبحت مكة كبرى مدن الجزيرة العربية، وبدأت تنافس صنعاء اليمن في زعامة الجزيرة، بل إنها تفوقت عليها، بعدما حدث باليمن من استيلاء الحبشة عليها، وتملك

---

(١) سورة قريش ٣ - ٤.

الفرس لها، في منتصف القرن السادس المسيحي، وفقدت مملكة الحيرة ومملكة غسان الشيء الكثير من العظمة والأبهة، فأصبحت مكة بعد ذلك كله هي عاصمة جزيرة العرب الروحية والاجتماعية من غير منافس ولا مشارك.

الناحية الخلقية:

وكانت الناحية الخلقية ضعيفة - غير الأعراف والآداب والقيم الجاهلية التي كانوا يؤمنون بها ويعضون عليها بالنواجذ - فقد فشا فيهم القمار، والميسر، وافتخروا به، وفشت فيهم الخمر وانتشرت القيان، ومجالس اللهو، وحفلات العزف، يقدم فيها الشراب، وفشا فيهم بعض الفواحش، وقد وجد الظلم والقسوة، وغمط الناس، وبطر الحق، وأكل أموال الناس بالباطل.

ولا تصوير للحالة الخلقية التي كان يعيشها أهل الجزيرة بصفة عامة وأهل مكة بصفة خاصة، أبلغ وأصدق من تصوير جعفر بن أبي طالب الهاشمي القرشي - وهو ابن مكة الأصيل - للحياة العربية والأخلاق الجاهلية أمام النجاشي، وقد جاء فيه:

«أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف[1]».

الناحية الدينية:

وكانت الناحية الدينية أضعف - بحكم بعد العهد بالنبوات، وفشو الجهل، وانتشار الوثنية، التي اقتبسوها من الأمم المجاورة فغلوا فيها -

---

(١) راجع سيرة ابن هشام؛ ق١، ص٣٣٦.

من الناحية الأدبية والحضارية- فأغرقوا في الوثنية، وأولعوا بالأصنام، فكان في جوف الكعبة وفنائها ثلاثمائة وستون صنماً، وكان كبيرها عندهم «هبل» وهو الذي نادى أبو سفيان بعد وقعة أحد، فقال: «أعل هبل» وكان على بئر في جوف الكعبة، وهي التي يجمع فيها ما يهدي للكعبة، وكان بالعقيق الأحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى أدركه قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب، وكان أمام البيت صنمان «اساف» و«نائلة»، وموضعهما عند الكعبة احدهما يلصق الكعبة والآخر بموضع زمزم فنقلت قريش الذي يلصق الكعبة إلى الآخر، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما، وكان على الصفا صنم، يقال له «نهيك مجاود الريح» وعلى المروة صنم، يقال له «مطعم الطير».

وكان في كل دار من مكة صنم يعبدونه، وكانت «العزى» قريباً من عرفات، وكان عليها بيت، وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يستقسمون عند أصنامهم بالأزلام، وكانت «الخلصة» بأسفل مكة، وكانوا يلبسونها القلائد ويهدون اليها الشعير والحنطة، ويصبون عليها اللبن، ويذبحون لها، ويعلقون بيض النعام بها، وكانت الأصنام يطاف بها في مكة، فيشتريها أهل البادية ويخرجون بها إلى بيوتهم.

وكذا وصلوا - رغم ما طبعوا من الفتوة وخلال المروءة وكثير من الأخلاق العربية الكريمة - إلى درجة سخيفة راعنة من الوثنية وعبادة الأصنام والتمسك بالخرافات والأوهام، وجهل المفاهيم الدينية الصحيحة، والبعد عن الابراهيمية الحنيفية السمحة، درجة لم يصل اليها إلا النادر من الشعوب والأمم.

هذه مكة في منتصف القرن السادس المسيحي عند بعثة الرسول الأعظم - ﷺ - وطلوع شمس الإسلام من أفقها المظلم، وصدق الله

العظيم: ﴿لِتُنذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ[1]﴾ (سورة يس آية ٦).

---

(١) اعتمدنا في كتابة هذا الفصل على اشارات عابرة في كتب التفسير والحديث ومعلومات مبعثرة جاءت في كتاب «الأصنام» للكلبي (م١٤٦ هـ) و «السيرة النبوية» لابن هشام (م٢١٣ هـ)؛ و «أخبار مكة» للامام أبي الوليد محمد الأزرقي (م٢٢٣ هـ)، و «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» للسيد محمود شكري الآلوسي (م١٣٤٢ هـ) واستفدنا من كتاب «تاريخ مكة» للأستاذ أحمد السباعي، وكتاب «مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول» للأستاذ أحمد ابراهيم الشريف.

مِنَ الولادة الكريمة إلى البعثة العظيمة

عبد الله وآمنة:

كان لعبد المطلب - سيد قريش - عشرة أبناء، كانوا شامة بين الناس، وعبد الله واسطة العقد[١]، وزوّجه أبوه «آمنة» بنت وهب - سيد بني زهرة - وهي يومئذٍ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً[٢].

ولم يلبث عبد الله أن مات، وأم رسول الله ﷺ حامل به وقد رأت من الآثار والآيات ما يدل على أن لابنها شأناً[٣].

ولادته الكريمة ونسبه الزكي:

وولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول، عام الفيل (٥٧٠ المسيحي)[٤] فكان أسعد يوم طلعت فيه الشمس.

---

(١) ابن هشام ق١، ص١٠٨.

(٢) سيرة ابن هشام، ق١، ص١١٠.

(٣) سيرة ابن هشام، ق١، ص١٥٨.

(٤) هذه هي الرواية المشهورة؛ وقد حقق العالم الفلكي الكبير محمود باشا المصري أن ولادته - صلى الله عليه وسلم - كانت يوم الإثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل، ٢٠ ابريل سنة ٥٧١م.

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وينتهي نسب عدنان إلى سيدنا اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام[١].

فلما وضعته أمه صلى الله عليه وسلم أرسلت إلى جده عبد المطلب أنه قد ولد لك غلام فأتاه، فنظر اليه، وحمله، ودخل به الكعبة، قام يدعو الله[٢]، ويحمده وسماه «محمداً» وكان هذا الاسم غريباً فتعجب منه العرب[٣].

رضاعته - صلى الله عليه وسلم -:

أرضعته ثويبة جارية عمه أبي لهب بضعة أيام، ثم التمس عبد المطلب لحفيده اليتيم، الذي كان أحب أولاده اليه، مرضعاً من البادية، على عادة العرب، وكان العرب يؤثرون البادية لرضاعة الأطفال ونشأتهم الأولى، لما في هواء البادية من الصفاء، وفي أخلاق

---

(١) سيرة ابن هشام، ق١، ص١ - ٢، وجميع كتب السيرة والتاريخ والأنساب واقتصرنا على سياق نسبه - صلى الله عليه وسلم - إلى عدنان فانه لا خلاف في ذلك.

(٢) سيرة ابن هشام، ق١، ص١٥٩ - ١٦٠.

(٣) ابن كثير، ج١، ص٢١٠، وابن هشام ق١، ص١٥٨.
يستفاد من «الروض الأنف» للسهيلي و«الفصول» لابن فورك، أنه لم يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم الشريف قبل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - صلوات الله وسلامه عليه - إلا ثلاثة، طمع آباؤهم حين سمعوا من أهل الكتاب ذكر نبي يبعث في جزيرة العرب يسمى بمحمد؛ وعرفوا قرب زمانه؛ وكانت أزواجهم حاملات؛ فنذر كل واحد منهم إذا ولد له ذكر أن يسميه «محمداً» ففعلوا ذلك، وقد ذكر عدد أكثر من هذا، وعندي أن القضية تحتاج إلى تمحيص أكثر، فقد استغرب هذه التسمية كل من سمعها من قريش؛ والرواية تحتاج إلى نقد فني.

البادية من السلامة والاعتدال، والبعد عن مفاسد المدنية، ولأن لغة البادية سليمة أصيلة.

وجاءت المراضع من قبيلة بني سعد، وكانت لها شهرة في المراضع وفي الفصاحة، وأدركت حليمة السعدية[1]، هذه السعادة، وكانت خرجت من بلدها تلتمس الرضعاء، وكان العام عام جدب، وهم في ضيق وشدة، وعرض رسول الله ﷺ على جميع المراضع فزهدن فيه، وذلك لأنهن كن يرجون المعروف من أبي الصبي، فقلن: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده؟!.

وهكذا فعلت حليمة، فانصرفت عنه أول مرة، ثم انعطف قلبها عليه، وألهمها الله حبه، وأخذه، ولم تكن وجدت غيره، فرجعت اليه، فأخذته، وذهبت به إلى رحلها، ولمست البركة بيدها، فكان لكل شيء في رحلها شأن غير الشأن، ورأت البركة في اللبان والألبان، والشارف والأتان، وكل يقول: لقد أخذت يا حليمة! نسمة مباركة، وحسدتها صواحبها.

ولم تزل تتعرف من الله الزيادة والخير، حتى مضت سنتان في بني سعد، وفصلته، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان وقدمت به صلى الله عليه وسلم على أمه، وطلبت أن تتركه عندها بعض الوقت، فردته اليها[2].

---

(١) السعدية: نسبة إلى سعد بن بكر بن هوزان، وهي بنت ابي ذؤيب، وزوجها الحارث بن عبد العزى.

(٢) اقرأ حكاية حليمة للرضاعة الطويلة البليغة الحبيبة في سيرة ابن هشام ق١؛ ص١٦٢ - ١٦٦.

وجاء ملكان وهو في بني سعد، فشقا بطنه، واستخرجا من قلبه علقة سوداء، فطرحاها ثم غسلا قلبه، حتى أنقياه ورداه كما كان[١].

ورعى رسول الله ﷺ الغنم مع اخوته من الرضاعة ونشأ على البساطة الفطرة، وحياة البادية السامية، واللغة الفصيحة التي اشتهر بها بنو سعد بن بكر، وكان يقول لأصحابه فيما بعد: «أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر»[٢].

وفاة آمنة وعبد المطلب:

فلما بلغ صلى الله عليه وسلم ست سنين، خرجت به أمه إلى مدينة يثرب، تزيره خئولة جده فيها، وتزور قبر بعلها الحبيب عبد الله بن عبد المطلب[٣]، وفي عودتها إلى مكة أدركها الموت بمكان بين مكة والمدينة، اسمه «الأبواء»، واجتمعت له وحشة فراق الأم الحنون ووحشة الغربة، وذلك الشأن معه من يوم ولد، وفيها من أسرار التربية الإلهية ما لا يعلمها إلا الله، وعادت به أم أيمن بركة الحبشية إلى مكة وسلمته إلى جده عبد المطلب، فكان مع جده، وكان به حفياً، يجلسه على فراشه في ظل الكعبة ويلاطفه.

---

(١) راجع القصة في كتب السيرة، وقد رواها مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك في كتاب الإيمان، باب «الإسراء برسول الله ﷺ».

قال شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (م١١٧٦ هـ) في كتابه الفريد «حجة الله البالغة»: «وظهرت الملائكة، فشقت عن قلبه؛ فملأته إيماناً وحكمة، وذلك بين عالم المثال والشهادة فلذلك لم يكن الشق عن القلب اهلاكاً، وقد بقي منه أثر المخيط؛ وكذلك كل ما اختلط فيه عالم المثال والشهادة» (حجة الله البالغة ج٢ ص٢٠٥).

(٢) ابن هشام، ق ١، ص ١٦٧.

(٣) وكان النبي ﷺ يذكر أموراً في زيارته تلك، نظر إلى دار بني النجار بعد الهجرة، فقال: هنا نزلت بي أمي؛ وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار (شرح المواهب اللدنية ج١، ص١٦٧ - ١٦٨).

فلما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين، مات عبد المطلب[1]، فذاق مرارة اليتم مرة ثانية كانت أشد من الأولى، فإنه صلى الله عليه وسلم لم ير أباه، ولم ينعم بعطفه وحنوه، فكان الشعور بفقده شعوراً عقلياً تقليدياً، وكان الشعور بفقد عبد المطلب شعوراً حسياً تجريبياً، والفرق بينهما واضح.

مع عمه أبي طالب:

كان رسول الله ﷺ بعد عبد المطلب مع عمه أبي طالب، وهو أخو عبد الله من أب وأم، وكان عبد المطلب يوصيه به فكان اليه ومعه، وكان أرفق به وأكثر حدباً عليه من أبنائه: علي، وجعفر، وعقيل[2].

يقال أن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام، وكان رسول الله ﷺ إذ ذاك ابن تسع سنين[3] فتعلق بعمه، فرقَّ له، واستصحبه في هذه الرحلة، فلما نزل الركب «بصرى» من أرض الشام وبها راهب يقال له «بحيري» في صومعة له، اهتم بهم، وصنع لهم طعاماً، ولم يكن هذا من شأنه، لما رأى صنع الله به والخوارق من العادات، فلما رأى رسول الله ﷺ احتفى به وتأكد من آثار النبوة فيه، ونبه أبا طالب على علو مكانته، وقال: ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فرجع به أبو طالب إلى مكة سالماً.

وقد جاءت هذه القصة مطولة في سيرة ابن هشام وغيرها وتكلم في صحتها كثير من النقاد والمحدثين رواية ودراية، قد جاء في «سيرة

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ١؛ ص ١٦٨ - ١٦٩.
(٢) سيرة ابن هشام، ق ١، ص ١٧٩.
(٣) على الأصح.

النبي » للعلامة شبلي النعماني أن جميع روايات هذه القصة مرسلة[١]، فإن كل من روى هذه القصة من الصحابة، إنما سمعها من غيره ولم يسمعه، وقد قال الترمذي بعدما روى هذا الحديث: «حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه» ومن رواته عبد الرحمن بن غزوان، وقد تكلم فيه أكثر أهل الصناعة، فقال العلامة الذهبي: «كان يروي الأحاديث المنكرة وأشدها نكارة الرواية التي جاء فيها قصة «بحيرى» ومما يقدح في هذا الحديث أنه قد جاء فيه أن أبا طالب أرسل رسول الله ﷺ مع بلال، قال العلامة ابن القيم في «زاد المعاد»: «ووقع في كتاب الترمذي وغيره أنه بعث معه بلالاً، وأنه من الغلط الواضح، فإن بلالاً إذ ذاك لعله لم يكن موجوداً، وإن كان فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر» (زاد المعاد، ج١، ص١٨)[٢].

(انتهى كلام العلامة النعماني).

ونختم هذا النقد بما قاله الذهبي في قصة بحيرا: -

«وهو حديث منكر جداً، واين كان أبو بكر، كان ابن عشر سنين، فإنه أصغر من رسول الله ﷺ - بسنتين ونصف، وأين كان بلال في هذا الوقت؟ فان أبا بكر لم يشتره الا بعد المبعث ولم يكن ولد

---

(١) لا بد هنا من الإشارة إلى أن مراسيل الصحابة - رضي الله عنهم - حجة عند أكثر المحدثين والفقهاء.

(٢) قال ابن سيد الناس المؤلف المشهور في السيرة، بعدما عدّل رواة هذا الحديث «ومع ذلك ففي متنه نكارة وهي إرسال أبي بكر مع النبي ﷺ بلالاً، كيف وأبو بكر حينئذ لم يبلغ العشر سنين، فإن النبي ﷺ اسنّ من أبي بكر ما يزيد من عامين، وكانت للنبي - ﷺ - تسعة أعوام على ما قاله أبو جعفر محمد بن جرير الطبري وغيره وأيضاً فإن بلالاً لم ينتقل لابي بكر الا بعد ذلك بأكثر من ثلاثين عاماً الخ (عيون الأثر: ج١ ص٤٣).

بعد، وأيضاً فاذا كان عليه غمامة تظلله كيف يتصور أن يميل فيء الشجرة؟ لأن ظل الغمامة يعدم في الشجرة التي نزل تحتها، ولم نر النبي - ﷺ - ذكر أبا طالب قط بقول الراهب ولا تذاكرته قريش ولا حكته أولئك الأشياخ مع توفر هممهم ودواعيهم على حكاية مثل ذلك[1].

مثال غريب من التعصب الديني والامعان في الافتراض والتخمين:

وانتهز المستشرقون والمغرضون هذه الفرصة - وهي لقاء رسول الله ﷺ بحبر من أحبار النصارى، شخصيته ومكانته في العالم مجهولتان، فصنعوا من الحبة قبة، وأسسوا عليها بناءً شامخاً، من تلقي رسول الله ﷺ لتعاليم التوحيد النقية من عالم نصراني، وأغرب من هذا أن «CARRA DE VAUX» الفرنسي ألّف كتاباً مستقلاً في هذا الموضوع، أسماه «مؤلف القرآن» حاول أن يثبت فيه أن «بحيرى» لقن محمداً ﷺ القرآن كله، في هذا اللقاء القصير.

هذا - ان صحت الرواية - لا يقوله عاقل رزق من سلامة العقل والانصاف ذرة، فكيف يعقل أن غلاماً لا يجاوز عمره تسع سنوات - على الأصح - واثني عشر عاماً - على الأكثر - تلقى من شيخ لا يعرف لغته، ولم يجلس اليه إلا ما يستغرقه وقت الجلوس على مائدة، المسائل الدقيقة والتفاصيل العميقة في نقد عقيدة الشرك والمسيحية الممسوخة في القرن السادس المسيحي، التي لم يهتد اليها كبار النقاد، والمصلحين في المذهب البروتستانتي وكبار المصلحين في العالم المسيحي

---

(١) السيرة النبوية للذهبي (طبع دار الكتب العلمية ص٢٨ - ٢٩). وهي مستقاة من كتاب «تاريخ الإسلام» للحافظ الذهبي.

والتمييز الدقيق بين عقائد الفرق المسيحية وأقوالها، وتعرض القرآن لحوادث لم تحدث إلا بعد ثلاثين وأربعين سنة، حين أصبحت عظام بحيرى نخرة، كاندحار الروم أمام الفرس في الأعوام الأولى من القرن السابع المسيحي (٦٠٣ - ٦١٦) إلى آخر نقطة من تراجع الجيوش وتقلص الحكومات، حتى كادت الامبراطورية البيزنطية تلفظ نفسها الأخير، وتصبح مستعمرة ساسانية حقيرة، وانقطع كل أمل في نهوض الدولة البيزنطية وعودتها إلى أوجها الأول، ثم انتصار الروم البيزنطيين الرائع، النافي لكل تقدير وتخمين، على الفرس الظافرين المنتصرين، حتى أوغلت الجيوش الرومية في قيادة هرقل في ايران وغرزت أعلام الفتح في قلب البلاد، وأثخنت الشعب الإيراني قتلاً وجراحاً، وأهانت المعابد والمقدسات الدينية، وعادت من أسوار العاصمة ظافرة مرفوعة الرأس، وذلك كله في ظرف تسع سنين[١]، وهو ما أعلن القرآن بقوله:

﴿الٓم، غُلِبَتِ الرُّوْمُ في أَدْنَى ٱلأَرْضِ وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في بِضْعِ سِنِينَ للهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، وَيومَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ، وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ، ولَـكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ، يَعْلَمُوْنَ ظَاهِراً مِنَ الحياةِ الدُّنْيَا وَهُم عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٢].

وهي نبوة لا يقدر عليها إلا العليم القدير الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من

---

(١) اقرأ مقال المؤلف المسهب «نبوة تتحدى ومعجزة تتحقق» في كتاب المؤلف «المدخل الى الدراسات القرآنية» ص٧٥ - ٩٣ طبع دار الصحوة للنشر القاهرة سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) سورة الروم الآية ١ - ٧.

الحي، ولم يكن شيء أغرب خيالاً، وأبعد منالاً من هذه النبوة التي أعلنها القرآن عند فرح قريش المشركين بانتصار المجوس المشركين على أهل الكتاب المسيحيين، وشماتتهم بهزيمة الروم المنكرة، فقال: ﴿وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ - والبضع ما دون العشر - واستبعدته قريش كل الاستبعاد، حتى قامروا على ذلك استبعاداً له، يقول المؤرخ الانجليزي الشهير جبون «Edward Gibbon» إن محمداً تنبأ حين بلغت فتوح الايرانيين أوجها وقمتها، أن الرايات الرومية سترتفع بالفتح والانتصار في بضع سنين، ولم يكن شيء أبعد عن القياس من هذه النبوة التي أعلنها محمد، لأن السنين الاثنتي عشرة الأولى من حكم هرقل كانت تعلن بتمزق الامبراطورية الرومية، ونهايتها القريبة»[١].

ولكن تحققت هذه النبوة بشكل غريب خارق للعادة، وذلك في سنة ٦٢٥ م (العام الثاني من الهجرة النبوية عند غزوة بدر) يقول «جبون» في أسلوبه الأدبي القوي المعروف:

«كما أن ضباب الصبح والأصيل ينقشع ويتبدد بنور الشمس البازغة الوهاج، كذلك تحول الأمير الرقيق المترف الذي لم يكن يعرف إلا الشباب والهوى، والذي كان على قدم اركاديوس في عصره[٢]، فارساً منتصراً يقود الجيوش ويفتح البلاد كسيزر[٣]، لقد أنقذت كرامة هرقل وروما بطريقة غريبة رائعة، وعاد اليها اعتبارها وقيمتها[٤]».

---

(١) تاريخ انحطاط روما وسقوطها ج٣ ص٣٠٢ - ٣٠٣ طبع ١٨٩٠م.

(٢) الملك الرومي الخليع المستهتر الذي أصبح مثلا في تأريخ أوربا للتمتع المسرف والترف الفاحش.

(٣) الامبراطور الرومي الذي اشتهر بفتوحه العظيمة وامتداد ملكه.

(٤) انحطاط روما وسقوطها ج٣، ص٣٠٤، طبع ١٨٩٠م.

هذا إلى نبوات أخرى واعلانات بعيدة عن القياس والقرائن، كالفتح المبين (صلح الحديبية) المهين في نظر كثير من المسلمين وغير المسلمين[١]، ودخول الناس في الإسلام أفواجاً[٢]، وظهوره على الدين كله بعدما كان المسلمون مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، وقيام دولتهم وشوكتهم[٣]، وبقاء القرآن محفوظاً متلواً، مبيناً مفسراً، يتلوه ويحفظه أكبر عدد من البشر[٤] إلى غير ذلك من النبوات الغريبة، والاعلانات المتحدية للعقل والقياس، والأخبار الغيببية التي زخر بها القرآن[٥].

ولا يصنع من هذه الحبة قبة إلا من أعماه التعصب الديني، والاسترسال في الخيال، والامعان في الافتراض والتخمين والاتيان بالبعيد المضحك للعقلاء، والتطرف، وابعاد النجعة في العداء، ولولا ورود هذه القصة في عامة كتب السيرة لما أوردناها في هذا الكتاب ولما تعرضنا لبحثها ونقدها.

التربية الإلهيـة:

وشب رسول الله ﷺ محفوظاً من الله تعالى، بعيداً عن أقذار الجاهلية وعاداتها، فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأشدهم حياءً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش

---

(١) اقرأ سورة الفتح.
(٢) سورة النصر.
(٣) سورة النور.
(٤) سورة القيامة وسورة الحجر.
(٥) اقرأ للتفصيل عنوان «الأخبار الغيبية والنبوات» في المجلد الثالث للسيرة النبوية للعلامة السيد سليمان الندوي.

والبذاءة، حتى ما اسموه في قومه إلا «الأمين»[١]، يعصمه الله تعالى من أن يتورط فيما لا يليق بشأنه، من عادات الجاهلية، وما لا يرون به بأساً، ولا يرفعون له رأساً، وكان واصلاً للرحم، حاملاً لما يثقل كواهل الناس، مكرماً للضيوف، عوناً على البر والتقوى[٢] وكان يأكل من نتيجة عمله، ويقنع بالقوت.

ولما بلغ رسول الله ﷺ أربع أو خمس عشرة سنة، هاجت حرب الفجار بين قريش وبين قيس، وشهد رسول الله ﷺ أياماً، وكان ينبل[٣] على أعمامه وبذلك عرف الحرب، وعرف الفروسية والفتوة[٤].

ولما شب عن الطوق اتجه الى العمل، فرعى الأغنام، وفيه كسب شريف، وتربية نفسية، وترويض على العطف على الضعفاء، وسياسة للأوابد، واستنشاق للهواء النقي الصافي، وتقوية للجسم، وفوق ذلك كله أنه اتباع لسنة الأنبياء، فقد روي عنه أنه قال بعد النبوة: «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم، قيل: وأنت يا رسول الله؟!، قال: وأنا».

وقد رعى الغنم في بني سعد مع اخوته من الرضاعة، فلم يكن بعيداً عنه ولا جاهلاً له، وقد ثبت في الصحاح أنه كان يرعى الغنم في مكة على قراريط[٥] يأخذها من أهلها.

---

(١) سيرة ابن هشام ق ١، ص ١٨٣.

(٢) اقرأ شهادة خديجة - رضي الله عنها - لرسول الله ﷺ - حين رجع من «حراء» وخشي على نفسه، في الجامع الصحيح للبخاري في باب «كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ».

(٣) ينبل: يعني كان يرد عليهم نبل عدوهم إذا ما رماهم.

(٤) سيرة ابن هشام. ق ١، ص ١٨٦.

(٥) قد جاء في «سيرة النبي» - الجزء الأول - للعلامة شبلي النعماني: «قد اختلف العلماء في معنى كلمة «قراريط»، فذهب شيخ ابن ماجة سويد بن سعيد إلى أنها جمع قيراط وهو جزء من الدرهم أو الدينار؛ وعلى ذلك فمعنى الحديث عنده أن=

زواجه - صلى الله عليه وسلم - من خديجة:

ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وعشرين سنة، تزوج خديجة بنت خويلد، وهي من سيدات قريش، وفضليات النساء، رجاحة عقل، وكرم أخلاق، وسعة مال، وكانت أرملة، توفي زوجها أبو هالة، وكانت إذ ذاك في الأربعين من سنها، ورسول الله ﷺ في الخامسة والعشرين من عمره[١].

وكانت خديجة امرأة تاجرة، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً، وقد كانت اختبرت صدق حديث رسول الله ﷺ وكرم أخلاقه، ونصيحته، حين خرج في مال لها إلى الشام تاجراً، وبلغها من كبر شأنه في هذه الرحلة، فعرضت عليه نفسها، وكانت قد رفضت طلب كثير من أشراف قريش، وخطبها اليه عمه حمزة، وخطب أبو طالب الخطبة، فكان الزواج[٢].

وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ وولدت له ولده كلهم إلا ابراهيم[٣].

= النبي - ﷺ - كان يرعى الغنم على الأجرة ومن هنالك ساقه البخاري في باب الاجارة، وذهب ابراهيم الحربي إلى أنه اسم مكان يعينه قرب الأجياد؛ وقد رجحه ابن الجوزي، وأكد صحة رأيه العلامة العيـني بدلائل قوية راجحة، واليه مال صاحب «نور النبراس» بعد بحث مطول مفصل».

(١) راجع سيرة ابن هشام ق ١، ص ١٨٧ - ١٩٠، وسيرة ابن كثير، ج١ ص٢٦٢ - ٢٦٥.

(٢) سيرة ابن هشام ق ١، ص ١٨٩ - ١٩٠.

(٣) سيرة ابن هشام؛ ق ١ ص ١٩٠؛ وكتب السيـر الأخرى.

قصة بنيان الكعبة ودرء فتنة عظيمة:

ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، وقد أرادوا ذلك ليسقفوها وكانت حجارة بعضها على بعض، من غير طين يركب بعضها ببعض، وكانت فوق القامة، وكان لا بد من هدم وبناء جديد[١].

فلما بلغ البنيان موضع الركن، اختصموا في الحجر الأسود، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، وكل قبيلة تريد أن يكون لها هذا الشرف، حتى آل الأمر الى الحرب وكانت في أهون من هذا بكثير في الجاهلية.

وأعدوا للقتال، وقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، وتعاقدوا، هم وبنو عدي، على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة.

وكانت آية الموت والشر، ومكثت قريش على ذلك أياماً، ثم اتفقوا على أن أول من يدخل من باب المسجد يقضي بينهم، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا هذا الأمين رضينا، هذا محمد.

ودعا رسول الله ﷺ بثوب وأخذ الحجر، ووضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده، ثم بنى عليه[٢].

---

(١) قال موسى بن عقبة: وانما حمل قريشاً على بنائها أن السيل كان اتى من فوق الردم الذي صنعوه فأخربه فخافوا أن يدخلها الماء، وكان رجل يقال له مُليح سرق طيب الكعبة فأرادوا أن يشيدوا بنيانها وأن يرفعوا بابها حتى لا يدخل الا من شاؤوا. (اقرأ التفصيل في «عيون الأثر». لابن سيد الناس ج١ ص٥٢).

(٢) سيرة ابن هشام؛ ق ١، ص ١٩٢ - ١٩٧.

وهكذا درأ رسول الله ﷺ الحرب عن قريش، بحكمة ليست فوقها حكمة، وكانت مقدمة درئه للحروب والشرور عن الشعوب والأمم بعد النبوة، بحكمته، وتعاليمه، ورفقه، وتلطفه في الأمور، والاصلاح بين الناس، فيكون رحمة للعالمين كما كان رحمة للمتخاصمين والمتحاربين في قوم بسطاء أميين.

حلف الفضول:

وشهد رسول الله ﷺ حلف الفضول، وكان أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب، وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل أحد أشراف قريش، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي أشراف قريش، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل لمكانته، وانتهروه، واستغاث الزبيدي أهل مكة واستعان بكل ذي مروءة.

وهاجت الغيرة في رجال من ذوي المروءة والفتوة، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً، وتعاقدوا، وتعاهدوا بالله، ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم، حتى يؤدي اليه حقه، فسمت قريش ذلك الحلف «حلف الفضول» وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها اليه[1].

وكان رسول الله ﷺ مغتبطاً بهذا الحلف، متمسكاً به حتى بعد البعثة يقول:

«لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً، لو دعيت به في

---

(١) سيرة ابن كثير، ج ١ ص ٢٥٧ - ٢٥٩.

الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها، وأن لا يعز[1] ظالم مظلوماً[2] ».

ويرى المتتبّع لأوضاع جزيرة العرب بصفة عامة، ووضع مكة المكرمة مركز الجزيرة الديني والثقافي والسياسي وواقعها، أن الباعث لأهل الضمائر الحيّة على انشاء هذا الحلف لم يكن حادثة تتعلق بفرد واحد أو لبعض حقوق مهضومة لأفراد معدودين، بل كان الباعث القوي هو القلق من حالة الفوضى وعدم الثقة التي كانت تسود على مكة وما حولها، والشعور بالحاجة الى الأمن والاستقرار - خصوصا بعد حرب الفجار - واحترام الحقوق والكرامات، وحماية الغرباء والوافدين الى مكة من التجار والصنّاع.

قلق غامض وعدم ترقب لنبوة أو رسالة:

وكان يجد في نفسه قلقاً غامضاً، لا يعرف مصدره ولا مصيره، ولا يخطر بباله لحظة ما الله مكرمه به من الوحي والرسالة، ولا يحلم بذلك في يوم من الأيام، يقول الله تعالى:

﴿وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً من أَمْرِنَا، ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ ولا الإِيمَانُ، ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنَا، وإِنَّكَ لَتَهْدِي إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3].

---

(١) يعز: يغلب.
(٢) سيرة ابن كثير ج ١، ص ٢٥٨.
(٣) سورة الشورى ٥٢.

وقال:

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ، فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ﴾[1].

وكان من حكمة الله تعالى وتربيته، أن نشأ رسول الله ﷺ أمياً، لا يقرأ ولا يكتب، فكان أبعد عن تهمة الأعداء، وظنة المفترين، وإلى ذلك أشار القرآن بقوله:

﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بيَمِينِكَ إذا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[2].

وقد لقبه القرآن بالأمي فقال:

﴿الَّذينَ يَتَّبِعُوْنَ الرَّسُولَ النبيَّ الأُميَّ الذي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ في التوْراةِ والانجيلِ﴾[3].

---

(١) سورة القصص ٨٦.

(٢) سورة العنكبوت ٤٨.

(٣) سورة الأعراف ١٥٧.

بعد البعثة

تباشير الصبح وطلائع السعادة:

أتم رسول الله ﷺ أربعين سنة من عمره، والدنيا واقفة على شفا حفرة من النار، والإنسانية تخطو بخطى سريعة إلى الإنتحار، هنالك ظهرت تباشير الصبح وطلائع السعادة، وآن أوان البعثة، وتلك سنة الله إذا اشتد الظلام وطالت الشقوة.

وبلغ قلق رسول الله ﷺ مما كان يراه من جهل وجاهلية، وخرافة ووثنية - وتطلعه إلى الإرشاد والهداية، من فاطر الكون وخالق السموات والأرض، ذروته، كأن حادياً يحدوه، فحبب إليه الخلاء، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده، وكان يخرج من مكة ويبعد، حتى تحسر عنه البيوت، ويفضي إلى شعاب مكة وبطونها وأوديتها، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله! ويلتفت رسول الله ﷺ حوله وعن يمينه وشماله وخلفه، فلا يرى إلا الشجر والحجارة[1].

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ١، ص ٢٣٤ - ٢٣٥. وقد جاء في صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم: «إني لأعرف حجراً بمكة، كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن» (كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي ﷺ).

وكان أول ما بدىء، به، الرؤيا الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[١].

في غار حراء:

وكان يخلو - غالباً - بغار «حراء»، فيمكث فيه ليالي متواليات وكان يتزود لذلك وكان يتعبد ويدعو على الطريقة الإبراهيمية الحنيفية والفطرة السليمة المنيبة إلى الله[٢].

مبعثه - صلى الله عليه وسلم -:

وكان في إحدى المرات إذ جاءه اليوم الموعود لبعثته، وكان ذلك في رمضان (١٧ من رمضان[٣]، في السنة الحادية والأربعين من ميلاده، ٦ أغسطس ٦١٠م) في يقظة ووعي، فجاءه الملك وهو بحراء، فقال: إقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال رسول الله ﷺ فأخذني فغطني، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني، فقال: ﴿إِقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٤].

وكان ذلك أول يوم من أيام النبوة، وأول وحي من القرآن[٥].

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري، باب «كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ»

(٢) اقرأ حديث عائشة - رضي الله عنها - باب (كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ).

(٣) ابن كثير، ج ١ ص ٣٩٢؛ رواية عن أبي جعفر محمد الباقر.

(٤) نفس المصدر وسورة العلق ١ -٥.

(٥) الغريب الذي يسترعي انتباه الفلاسفة والمفكّرين في العالم، والمؤرخين للديانات والحياة العلمية، هو ذكر «القلم» في هذا الوحي الأول، الذي ينزل على أميّ يبعث =

في بيت خديجة - رضي الله عنها -:

وفزع منه رسول الله ﷺ فإنه لم يعهده ولم يسمع به، وقد طالت الفترة، وعهد العرب بالنبوة والأنبياء بعيد، وخاف على نفسه، ورجع إلى بيته ترتعد فرائصه وقال: زملوني، زملوني، لقد خشيت على نفسي.

وسألت خديجة - رضي الله عنها - عن السبب، فقص عليها القصة، وكانت عاقلة فاضلة، سمعت بالنبوة والأنبياء والملائكة، وكانت تزور ابن عمها ورقة بن نوفل، وكان قد تنصر، وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، وكانت تنكر من أهل مكة ما ينكره أهل الفطرة السليمة والأذهان المستقيمة.

وكانت من أعرف الناس بأخلاق رسول الله ﷺ لمكانها منه، وعشرتها له، واطلاعها على السر والعلانية، وقد رأت من أخلاق رسول الله ﷺ وشمائله ما يؤكد أنه الرجل الموفق والمؤيد من الله، المصطفى من خلقه، المرضي في سيرته وسلوكه، وأن من كانت هذه أخلاقه وسيرته، لا يخاف عليه لمة من الشيطان، أو أن يكون به مس من الجن، وأن ذلك يتنافى مع ما عرفته من حكمة الله ورأفته في خلقه، فقالت في ثقة وإيمان وفي قوة وتأكيد:

«كلا! والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ،

= في أمّة أميّة في بلد تعذّر فيه وجود القلم، ولم يجاوز عدد «الكتاب» (وهم المتعلّمون) عدد الأنامل، فدلّ ذلك على ربط هذه الديانة والأمة التي تدين بها وتحملها، بالقراءة والكتابة والاستعانة بالقلم، ربطا دائما وثيقا، بخلاف ديانات كثيرة سابقة، وكان ذلك سرّ انبثاق حركة علمية تأليفية، عالية، لا يوجد لها نظير في تاريخ الديانات والأمم.

وكذلك كان ورود آية ﴿علّم الإنسان ما لم يعلم﴾ في هذا الوحي، حافزا على التوسّع في آفاق العلم، والاكتشاف للمجهول، والترقّب للمزيد، الجديد، وعدم انكار حقائق علمية ثابتة لم تكتشف في العصور الماضية.

وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[1] ».

بين يدي ورقة بن نوفل:

وقد قالت ذلك خديجة، اعتماداً على العقل السليم، والفطرة الصحيحة، وعلى تجاربها في الحياة، ومعرفتها للناس.

ولكن الأمر كان أعظم من هذا، وكان يحتاج إلى رجل له خبرة بالديانات وتاريخها، والنبوات وسننها، ومعرفة بأهل الكتاب الذين عندهم أخبار الأنبياء وعلمهم.

فرأت أن تستعين في ذلك بابن عمها العالم « ورقة بن نوفل » فانطلقت برسول الله ﷺ إليه.

وأخبر رسول الله ﷺ ورقة خبر ما رأى، فقال ورقة: « والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، وأن قومك سيكذبونك، ويؤذونك، ويخرجونك، ويقاتلونك ».

وتعجب رسول الله ﷺ حين قال ورقة: إنهم سيخرجونك، لأنه كان يعرف منزلته عند قريش، فلا ينادونه ولا يخاطبونه إلا بـ « الصادق » وبـ « الأمين » فقال متعجباً: « أو مخرجي هم؟! ».

قال ورقة: « نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عاداه الناس وحاربوه، وان أدركت ذلك اليوم، وطالت بي الحياة، نصرتك نصراً قوياً[2] ».

وفتر الوحي زماناً، ثم تتابع، وبدأ القرآن ينزل.

---

(١) باب «كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ » صحيح البخاري.

(٢) مقتبس من حديث عائشة، الجامع الصحيح للبخاري، باب «كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ »، وسيرة ابن هشام؛ ق١، ص ٢٣٨.

إسلام خديجة وأخلاقها:

وآمنت به خديجة، فكانت أول من آمن بالله وبرسوله، وكانت بجواره، تؤازره، وتثبته، وتخفف عنه، وتهون عليه أمر الناس.

إسلام علي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة:

ثم أسلم علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو يومئذ ابن عشر سنين، وكان في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام، أخذه من أبي طالب في أيام الضائقة، وضمه إليه[1].

وأسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وكان قد تبناه رسول الله ﷺ[2].

فكان إسلام هؤلاء شهادة أقرب الناس إليه، وأعرفهم به، وبصدقه، وإخلاصه، وحسن سيرته، وأهل البيت أدرى بما فيه.

إسلام أبي بكر ابن أبي قحافة وفضله في الدعوة إلى الإسلام:

وأسلم أبو بكر بن أبي قحافة، وكانت له منزلة في قريش، لعقله ومروءته واعتداله، وأظهر إسلامه، وقد كان رجلاً محبباً سهلاً، عالماً بأنساب قريش وبأخبارها، وكان تاجراً، ذا خلق ومعروف، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام، من وثق به من قوله، ممن يغشاه ويجلس إليه[3].

---

(١) سيرة ابن هشام، ق١، ص ٢٤٥.
(٢) أيضاً ص ٢٤٧.
(٣) سيرة ابن هشام ق ١، ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

إسلام أشراف من قريش:

وأسلم بدعوته أشراف من قريش، لهم مكانة وسؤدد، منهم عثمان بن عفان وزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فأسلموا[١].

وتلاهم رجال من قريش، لهم شرف ومكانة، منهم أبو عبيدة بن الجراح، والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان بن مظعون، وعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، وسعيد بن زيد، وخباب بن الأرت، وعبد الله ابن مسعود، وعمار بن ياسر، وصهيب، وغيرهم - رضي الله عنهم -[٢].

ودخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة، وتحدث به[٣].

الدعوة جهاراً على جبل «الصفا»:

وكان رسول الله ﷺ يخفي أمره، ومضى على ذلك ثلاث سنوات، ثم أمره الله تعالى بإظهار دينه، وقال:

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤] وقال: ﴿وأَنْذِرْ عَشِيرتكَ الأَقْرَبِين، واخفِضْ جَناحكَ لِمَن اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنينَ﴾[٥]، و﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِين﴾[٦].

---

(١) أيضاً ص ٢٥٠ - ٢٥١.
(٢) نفس المصدر، ص ٢٥٢ - ٢٥٥.
(٣) نفس المصدر، ص ٢٦٢.
(٤) سورة الحجر ٩٤.
(٥) سورة الشعراء ٢١٤ - ٢١٥.
(٦) سورة الحجر ٨٩.

فخرج رسول الله ﷺ وصعد على جبل «الصفا» ونادى بأعلى صوته، «يا صباحاه»، وكانت صيحة معروفة مألوفة، كلما أحس إنسان بخطر عدو، يغير على بلد، أو على قبيلة، على غفلة منها، نادى: «يا صباحاه» فلم تتأخر قريش في تلبية هذا النداء، واجتمعوا إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث إليه رسوله.

فقال رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني كعب! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟!».

كان العرب واقعيين عمليين، إنهم رأوا رجلاً جربوا عليه الصدق والأمانة والنصيحة، قد وقف على جبل يرى ما أمامه، وينظر إلى ما وراءه، وهم لا يرون إلا ما هو أمامهم، فهداهم ذكاؤهم وإنصافهم إلى تصديق هذا المخبر الأمين الصادق، فقالوا: نعم:

الحكمة البليغة في الدعوة والتعليم:

ولما تمت هذه المرحلة الطبيعية البدائية، وتحققت شهادة المستمعين، قال رسول الله ﷺ: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

وكان ذلك تعريفاً بمقام النبوة، وما ينفرد به من علم بالحقائق الغيبية والعلوم الوهبية، وموعظة وإنذاراً، في حكمة وبلاغة لا نظير لها في تاريخ الديانات والنبوات، فلم تكن طريق أقصر من هذا الطريق، ولا أسلوب أوضح من هذا الأسلوب.

فسكت القوم، ولكن أبا لهب قال: «تباً لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟![1]».

---

(١) أصل الحكاية في ابن كثير: ج١؛ ص ٤٥٥ - ٤٥٦، رواية عن الإمام أحمد بن حنبل عن ابن عباس، قال وأخرجاه من حديث الأعمش به نحوه.

وقد نبّه بذلك رسول الله ﷺ بحكمة لا حكمة فوقها على أن العَدوَّ اللدود كامن في نفوسهم، مترصّد في بيوتهم، وهو أولى بأن يخافوه ويأخذوا له عدّته، فالجهل عن خالق هذا الكون وربّ العالمين، وصفاته وأسمائه الحسنى، والوقوع في حبائل الشرك والوثنية، وعبادة النفس والشهوات، والإسترسال إلى الأوهام والخرافات، وتعدّي الحدود وانتهاك الحرمات. أكثر نفوراً وأعظم خطراً من جيش مترصد، وكتيبة كمينة[١] يحسبون لها كل حساب ويفزعون لها كل فزع.

إظهار قومه العداوة وحدب أبي طالب عليه:

ولما أظهر رسول الله ﷺ الدعوة للإسلام، وصدع بالحق كما أمره الله تعالى، لم يبعد منه قومه، ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم، وعابها، فلما فعل ذلك، أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته.

وحدب على رسول الله ﷺ عمه أبو طالب، ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله ﷺ في دعوته وصدعه بالحق، لا يرده عنه شيء، ومضى أبو طالب يحدب عليه ويذود عنه.

فلما طال ذلك، مشى رجال من قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فأما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه، من دين وعقيدة.

فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه[٢].

---

(١) الكمين القوم يستخفون في مكمن ثم ينتهزون غـرَّة العدو فينهضون عليه.

(٢) سيرة ابن هشام ق ١، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ باختصار.

بين رسول الله -ﷺ - وأبي طالب:

وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ وحض بعضهم بعضاً عليه، ومشوا إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا: يا أبا طالب! إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وقد رجوناك أن تنهي ابن أخيك فلم تفعل، فإنا والله لا نصبر أكثر مما صبرنا على شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، فإما أن تكفه عنا وإما أن ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين.

وعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له:

«يا ابن أخي! إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق».

لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري:

وظن رسول الله ﷺ أن أبا طالب قد اضطرب في أمره، وضعف عن نصرته والقيام معه، فقال:

«يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه، ما تركته».

واستعبر رسول الله ﷺ فبكى، ثم قام، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي! فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً[1].

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ١؛ ص ٢٦٥ - ٢٦٦.

تعذيب قريش للمسلمين:

ومضى رسول الله ﷺ يدعو إلى الله، ويئست قريش منه ومن أبي طالب، ونزل غضبهم على من كان أسلم من أبناء قبائلهم، وليس لهم من يمنعهم.

فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب، والجوع، والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر.

وكان بلال الحبشي - وقد أسلم - يخرجه مولاه «أمية» بن خلف، إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة، فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول - وهو في ذلك البلاء - أحد، أحد.

فمر به أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - فأعطى أمية غلاماً أسود أجلد منه، وأقوى، وأخذ منه بلالاً وأعتقه[1].

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه - وكانوا أهل بيت إسلام - إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم برمضاء مكة، فيمر بهم رسول الله ﷺ ويقول: صبراً آل ياسر! موعدكم الجنة، فأما أمه فقتلوها، وهي تأبى إلا الإسلام[2].

وكان مصعب بن عمير فتى مكة، شباباً وجمالاً وتيهاً، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه غنية كثيرة المال، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقه، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمي من النعال، وكان

---

(١) نفس المصدر؛ ق ١؛ ص ٣١٧ - ٣١٨.
(٢) سيرة ابن هشام، ق ١، ص ٣١٩ - ٣٢٠.

رسول الله ﷺ يذكره ويقول: ما رأيت بمكة أحسن لمة ولا أرق حلة، ولا أنعم نعمة، من مصعب بن عمير.

وبلغ مصعب بن عمير أن رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام في دار أرقم ابن أبي الأرقم، فدخل عليه، فأسلم، وصدق به، فخرج، فكتم إسلامه خوفاً من أمه وقومه، فكان يختلف إلى رسول الله ﷺ سراً، فبصر به عثمان بن طلحة يصلي فأخبر أمه وقومه، فأخذوه وحبسوه، فلم يزل محبوساً حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى، ثم رجع مع المسلمين، حين رجعوا، فرجع متغير الحال - قد حرج - يعني غلظ - فكفت أمه عنه من العذل[1].

وكان بعض المسلمين قد دخل في جوار بعض المشركين، من أشراف قريش ورؤسائهم، وكانوا يمنعونهم ويحمونهم، وكان عثمان بن مظعون قد دخل في جوار الوليد بن المغيرة، ثم أبت غيرته ذلك، فرد عليه جواره، وكان وفياً كريم الجوار، وقال: قد أحببت ألا أستجير بغير الله، ودار بينه وبين أحد المشركين حديث أغضب المشرك، فقام إليه ولطم عينه، فخضرها والوليد بن المغيرة قريب يرى ذلك، فقال: أما والله يا ابن أخي! إن كانت عينك عما أصابها لغنية، لقد كنت في ذمة منيعة، قال عثمان: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر، يا أبا عبد شمس[2].

ولما أسلم عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية، فأوثقه رباطاً وقال: أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث، والله! لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين، فقال

---

(١) طبقات ابن سعد، ج ٣، ص ٨٢، والاستيعاب ج١، ص ٢٨٨.
(٢) سيرة ابن هشام، ق ١ ؛ ص ٣٧٠ - ٣٧١.

عثمان: والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه، فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه[1].

ويقول خباب بن الأرت: لقد رأيتني يوماً أخذوني فأوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري، فما اتقيت الأرض - أو قال برد الأرض - إلا بظهري، ثم كشف عن ظهره، فإذا هو قد برص[2].

محاربة قريش لرسول الله - ﷺ - وتفننهم في الإيذاء:

فلما لم تلق قريش نجاحاً في صرف هؤلاء الفتيان الذين أسلموا، عن دينهم، ولم يلن رسول الله ﷺ ولم يحابهم، اشتد عليهم ذلك، فأغروا برسول الله ﷺ سفهاءهم، فكذبوه وآذوه، ورموه بالسحر والشعر، والكهانة والجنون، وتفننوا في إيذاء رسول الله ﷺ وذهبوا فيه كل مذهب.

وكان أشرافهم مجتمعين يوماً في الحجر[3]، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ ومر بهم طائفاً بالبيت، فغمزوه ببعض القول، وعادوا بذلك ثلاث مرات، فوقف ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش؟، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح، فأسكت القوم، فلا حراك بهم، وصاروا يلاطفونه بالقول.

---

(١) طبقات ابن سعد؛ ج ٣، ص ٣٧.

(٢) طبقات ابن سعد، ج ٣ ص ١١٧.

(٣) الحجر: بكسر الحاء وسكون الجيم؛ هو الفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت، ويسمونه بـ «حجر إسماعيل» أيضاً، والحطيم قوس من البناء طرفاه إلى زاوية البيت الشمالية والغربية، وكان «الحجر» أولا داخلا في الكعبة؛ فلما هدم السيل الكعبة بنتها قريش من جديد، وذلك قبل مبعثه - صلى الله عليه وسلم - بنحو خمس سنين، فقصرت بهم النفقة؛ فبنوا الكعبة على ما هي عليه الآن.

فلما كان من الغد، وهم في مقامهم، طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، وأخذ رجل منهم بمجمع ردائه، فقام أبو بكر - رضي الله عنه - دونه، وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله؟!، فانصرفوا عنه، ورجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه، وقد جروه بلحيته.

وخرج رسول الله ﷺ يوماً فلم يلقه أحد من الناس، إلا كذبه وآذاه، لا حر ولا عبد، فرجع رسول الله ﷺ إلى منزله، فتدثر من شدة ما أصابه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرِ﴾[1].

ما فعل كفار قريش بأبي بكر:

وقام أبو بكر يوماً في الناس، يدعو إلى الله وإلى رسوله، وثار المشركون على أبي بكر فوطىء، وضرب ضرباً شديداً، وجعل عتبة بن ربيعة يضربه بنعلين مخصوفتين يحرفهما بوجهه حتى ما يعرف وجهه من أنفه.

وحملت بنو تيم أبا بكر، وهم لا يشكون في موته، وتكلم آخر النهار، فقال: ما فعل رسول الله ﷺ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه، ودنت منه أم جميل وهي ممن أسلم فسألها عن رسول الله ﷺ قالت: هذه أمك تسمع قال، فلا شيء عليك منها، قالت: سالم صالح، قال: فإن لله عليّ ألا أذوق طعاماً وأشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ فأمهلتا، حتى إذا هدأت الرجل، وسكن الناس، خرجتا به يتكىء عليهما، حتى أدخلتاه ورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة فدعا رسول الله ﷺ لأمه، ودعاها إلى الله، فأسلمت[2].

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ١، ص ٢٨٩ - ٢٩١، ورواه البخاري مختصراً في باب «ما لقي رسول الله ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة».

(٢) سيرة ابن كثير ج ١، ص ٤٣٩ - ٤٤١.

احتيار قريش في وصف رسول الله -ﷺ-:

وحارت قريش في أمر رسول الله ﷺ بماذا يصفونه، وكيف يحولون بينه، وبين من يقصده، أو يستمع إليه، من الوافدين من بعيد، واجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة - وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم - فقال لهم: يا معشر قريش! إنه قد حضر هذا الموسم، وأن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، ودار بينهم حديث طويل وأخذ ورد.

ولم يرض الوليد بما عرضوه، ونقضه، فرجعوا إليه وقالوا: فما تقول يا أبا عبد شمس؟! قال: إن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر جاء بسحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

فتفرقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل الناس، حين قدموا الموسم، لا يمر أحد إلا وحذروه إياه، وذكروا له أمره[1].

قسوة قريش في إيذاء رسول الله ﷺ ومبالغتهم في ذلك:

وتفنن قريش، وقسوا في إيذاء رسول الله ﷺ فلم يرعوا فيه قرابة، وتخطوا حدود الإنسانية.

فبينا النبي ﷺ ساجد - ذات يوم - في المسجد، وحوله ناس من قريش، إذ جاء عقبة بن أبي معيط بسلاجزور[2]، فقذفه على ظهر النبي ﷺ فلم يرفع رأسه، فجاءت ابنته «فاطمة» - عليها السلام -

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ١، ص ٢٧٠ - ٢٧١ - باختصار.

(٢) سلا: وهو اللفافة يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان؛ وهي من الآدمية المشيمة.

فأخذته من ظهره، ودعت على من صنع هذا، ودعا عليهم النبي ﷺ[1].

إسلام حمزة بن عبد المطلب:

ومر أبو جهل برسول الله ﷺ ذات يوم عند «الصفا» فآذاه وشتمه فلم يكلمه رسول الله ﷺ فانصرف عنه.

ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً[2] قوسه، راجعاً من قنص له، وكان أعز فتى في قريش، وأشد شكيمة، وأخبرته مولاة عبدالله بن جدعان بما جرى لرسول الله ﷺ فاحتمل حمزة الغضب، ودخل المسجد، ورأى أبا جهل جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه، رفع القوس، فضربه بها، فشجه شجَّة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ فسكت أبو جهل، وأسلم حمزة، وعز ذلك على قريش لمكانته وشجاعته[3].

ما دار بين عتبة وبين رسول الله ﷺ:

ولما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون استأذن عتبة بن ربيعة قريشاً، أن يأتي رسول الله ﷺ فيكلمه، ويعرض عليه أموراً، لعله يقبل بعضها، فيعطونها، ويكف عنهم، وأذنت له قريش، واستخلفته.

وجاء عتبة إلى رسول الله ﷺ فجلس إليه، وقال: يا ابن أخي! إنك منا حيث قد علمت، وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من

---

(١) رواه البخاري في باب «ذكر ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة».
(٢) متوشحاً متقلداً.
(٣) سيرة ابن هشام؛ ق ١ ص ٢٩١ - ٢٩٢.

مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها.

فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد! أسمع.

قال: يا ابن أخي! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً، سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان الذي يأتيك رئيا[1] تراه، لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك أطباء، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه.

فلما فرغ عتبة، قال رسول الله ﷺ: أقد فرغت يا أبا الوليد؟، قال: نعم.

قال: فاسمع مني.

قال: افعل.

فقرأ رسول الله ﷺ آيات من سورة ﴿فصّلت﴾ إلى السجدة، فلما سمع عنه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره، معتمداً عليهما، يسمع منه، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، سجد، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه: فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم، قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟! قال: ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش! أطيعوني، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه،

---

(١) رئيا: ما يتراءى للإنسان من الجن.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[1].

هجرة المسلمين إلى الحبشة:

ولما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن لها ملكا، لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه.

فخرجت عند ذلك جماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة، فكانت أول هجرة في الإسلام، وكانوا عشرة رجال وأربع نسوة فيهم عثمان بن عفان وزوجه رقيَّة بنت رسول الله ﷺ، أمرّوا عليهم عثمان بن مظعون.

ثم خرج جعفر بن أبي طالب، وتتابع المسلمون، حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، منهم من خرج بأهله، ومنهم من خرج بنفسه، وكان جميع من هاجر إلى أرض الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً[2].

ولم تكن الغاية الوحيدة من الهجرة إلى الحبشة الخلاص من أذى قريش بل كانت مقترنة بالدعوة إلى الإسلام والتخفيف من هموم النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

واستعراض قائمة المهاجرين يدل على سعة الدائرة البشرية وتنوّعها وشمولها للطبقات والمستويات في المجتمع المكي، ففيها الغنيُّ والفقير، والكهل والشاب، والرجال والنساء، وينتمي أغلبهم إلى أسر مكيّة عريقة، فدلَّ على شدة تأثير الدعوة وقوتها وشمولها.

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ١، ص ٢٩٣ - ٢٩٤.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٢١ - ٣٣٠.

تعقب قريش للمسلمين:

ولما رأت قريش أن هؤلاء قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، بعثوا عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته[1]، مما يستطرف من متاع مكة، وقدما على النجاشي، وقد استمالا البطارقة، وأرضياهم بهداياهم، وتكلما في مجلس الملك، فقالا: انه لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أبصر بهم وأقرب إليهم، وقالت البطارقة حوله: صدقا أيها الملك، فأسلمهم إليهما.

فغضب النجاشي، وأبى أن يقبل كلامهم، ويسلم من لجأ إليه وإلى بلاده، وحلف بالله، وأرسل إلى المسلمين، فدعاهم، ودعا أساقفتهم[2]، وقال للمسلمين: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم؟ ولم تدخلوا في ديني ودين أحد من هذه الملل؟.

تصوير جعفر بن أبي طالب للجاهلية وتعريفه بالإسلام:

وقام جعفر بن أبي طالب - وهو ابن عم رسول الله ﷺ فقال له:

«أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق

---

(١) البطارقة: جمع بطريق، وهو القائد الحاذق بالحرب.

(٢) الأساقفة: علماء النصارى؛ والواحد الأسقف.

الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردونا إلى عبادة الأوثان، من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث».

«فلما قهرونا، وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك!».

وسمع النجاشي كل ذلك في هدوء ووقار، ثم قال: هل معك مما جاء به صاحبكم عن الله من شيء؟.

قال جعفر: نعم.

قال النجاشيء فاقرأه عليّ.

فقرأ جعفر صدراً من سورة مريم، فبكى النجاشي، حتى اخضلت[1] لحيته، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم.

إنَّ كلام جعفر بن أبي طالب أمام ملك الحبشة، وتصويره للإسلام، كلام حكيم قد جاء في أوانه ومكانه، وقد دلَّ على بلاغة صاحبه العقلية، قبل أن يدلَّ على بلاغته العربية البيانية، ولا يعلّل ذلك إلاَّ بإلهام من الله وتأييد هذا الدين الذي أراد الله أن يتمّ نوره، وأن يظهر

---

(١) اخضلت: ابتلت..

على كل دين، ويدل كذلك على سلامة الفطرة، ورجاحة العقل، اللتين فاق فيهما بنو هاشم قريشا، وفاق فيهما قريش العرب كلهم، فقد فضلَّ جعفر أن يكون جوابه حكاية حال لما كان عليه أهل الجاهلية في الجزيرة العربية، ولِما آل إليه أمرهم بعدما أرسل الله رسوله فيهم، ودعا إلى الله وإلى الدين الحنيفي السمح، ومكارم الأخلاق، وآمنوا به واتّبعوه، وحكايةُ حال - خصوصا إذا لم يجانب فيه صاحبها الصواب - أبعد شيء عن المناقشة والمناظرة، وأقدر شيء على غرس المعاني المقصودة، وتحقيق الأهداف المنشودة، والتهيّؤ للتأمّل والإنصاف وحسن الاستماع[1].

خيبة وفد قريش:

ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى، يخرج من مشكاة واحدة، ثم أقبل على رسولي قريش، فقال: انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكم.

وأطلق عمرو بن العاص آخر سهم من سهام جعبته، وهو سهم مسموم، فغدا على النجاشي من الغد، وقال له: أيها الملك! إنهم ليقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأقبل الملك على المسلمين، فقال: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟.

قال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه ما جاء به نبيناﷺ هو عبد الله، ورسوله، وروحه، وكلمته، ألقاها إلى مريم العذراء البتول، فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما زاد عيسى بن مريم على ما قلت مقدار هذا العود.

---

(١) نقلاً من «روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة» للمؤلف، ص/١٢٢ - ١٢٣.

ورد المسلمين رداً كريماً، وأمنهم، وخرجا من عنده مقبوحين[١]، فأقام المسلمون بخير دار مع خير جار.

وقد هاجم النجاشي عدو له، فانتصر المهاجرون المسلمون للنجاشي اعترافا بحسن موقفه من المهاجرين المضطهدين ومكافأته على حسن صنيعه[٢]، وكان ذلك مطابقا لتعاليم الإسلام الخلقية ولائقا بأخلاق المسلمين.

وكانت هذه الهجرة إلى الحبشة سنة خمس بعد النبوة، وقد بقي جعفر بن أبي طالب مع عدد من أصحابه إلى سنة ٧ من الهجرة، فقد قدم جعفر بن أبي طالب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة خيبر فكان بقاؤه في الحبشة خمس عشرة سنة، وهي مدة طويلة، لا بد أن جعفراً قد انتفع بها في الدعوة إلى الإسلام، والتعريف به في بلد امتاز عن كثير من البلاد النصرانية بالتسامح وإيواء المضطهدين، وعُرِف حاكمه بالعدل والإنسانية، ولكن العهد لم يكن عهد تسجيل الحوادث، وليست أمامنا وثائق تاريخية تُثبت ذلك، ولكن القياس يقتضيه.

إسلام عمر بن الخطاب:

وأيد الله الإسلام والمسلمين، بإسلام عمر بن الخطاب العدوي القرشي، وكان رجلاً مهيباً، ذا قوة وشكيمة، وكان رسول الله ﷺ حريصاً على إسلامه، يدعو الله لذلك.

وكان من خبر إسلامه أن أخته «فاطمة» بنت الخطاب أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد، وكانا يخفيان إسلامها من عمر، لهيبته وشدته على

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ١، ص ٣٣٤ - ٣٣٨ باختصار.

(٢) راجع مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج /١، ص /٢٠٣.

الإسلام والمسلمين، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة يقرئها القرآن.

فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه، يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه، قد ذكر له أنهم اجتمعوا في بيت عند «الصفا» فلقيه نعيم بن عبدالله - وهو من قومه بني عدي، وكان قد أسلم - فقال له: أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمداً هذا الصابىء، الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله.

فقال له نعيم: لقد غرتك نفسك يا عمر! أفلا ترجع إلى أهل بيتك، فتقيم أمرهم؟ قال عمر: وأي أهل بيتي؟!

قال أختك وابن عمك سعيد بن زيد، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما.

ورجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خباب بن الأرت، ومعه صحيفة، فيها «طه» يقرئها اياها، فلما سمعوا حس عمر، تغيب خباب في مخدع لهم[1]، وأخذت فاطمة الصحيفة وجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب، فلما دخل، قال: ما هذه الهينمة[2]؟، قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى، والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه.

وبطش عمر بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة، لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها.

فلما فعل ذلك، قالت له أخته وختنه: نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك!

---

(١) المخدع: البيت الصغير الذي يكون في البيت الكبير.
(٢) الهينمة: صوت كلام لا يفهم.

ولما رأى عمر ما بأخته من الدم، ندم على ما صنع، وتوقف وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأونها آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر قارئاً، فلما قال ذلك، قالت له أخته: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي! إنك نجس على شركك وانه لا يمسها إلا الطاهر.

فقام عمر، فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها «طه»، فلما قرأ منها صدراً، قال: ما أحسن هذا الكلام، وأكرمه!.

فلما سمع ذلك خباب، خرج إليه، وقال له: يا عمر! والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس، وهو يقول: اللهم أيّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام (يعني أبا جهل) أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر.

عند ذلك قال له عمر: فدلني يا خباب على محمد، حتى آتيه فأسلم، قال خباب: هو في بيت عند الصفا،معه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه، فتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب، فرآه متوشحاً بالسيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله! هذا عمر بن الخطاب، متوشحاً السيف، فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ إئذن له، فأذن له الرجل.

ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة فأخذ حجزته[1]، أو بمجمع ردائه، ثم جبذه به جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن

---

(١) الحجزة: موضع شد الأزار.

الخطاب؟، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة، فقال عمر: يا رسول الله! جئتك لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء به من عند الله.

قال: فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف منها أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم[١].

وعز المسلمون في أنفسهم، حينما أسلم عمر، وقد أسلم حمزة من قبل، وعرفوا وقع ذلك في نفوس الكفار من قريش، وأثره في حياة مكة، ولم يكونوا على خطأ، فلم يستثقل المشركون إسلام أحد ولم يحسبوا له حساباً، مثل ما فعلوا عند إسلام عمر - رضي الله عنه -.

وأعلن عمر إسلامه، وشاع ذلك في قريش، وقاتلوه وقاتلهم، حتى يئسوا منه[٢].

مقاطعة قريش لبني هاشم والإضراب عنهم:

وجعل الإسلام يفشوا في القبائل، فاجتمعت قريش، وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك، كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا، وتواثقوا على ذلك، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، توكيدا على أنفسهم.

في شعب أبي طالب:

فلما فعلت ذلك قريش، انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شعبه[٣]، وذلك في محرم سنة سبع من النبوة.

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ١، ص ٣٤٢ - ٣٤٦.

(٢) سيرة ابن هشام، ق ١، ص ٣٤٩.

(٣) سيرة ابن هشام ق ١، ص ٣٥٠ - ٣٥١.

وخرج من بني هاشم أبو لهب بن عبد المطلب، وكان مع قريش، وأقام بنو هاشم على ذلك حتى جهدوا من ضيق الحصار، وأكلوا ورق السمر، وأطفالهم يتضاغون من الجوع، حتى يسمع بكاؤهم من بعيد، وقريش تحول بينهم وبين التجار، فيزيدون عليهم في السلعة أضعافاً، حتى لا يشتروها.

ومكثوا على ذلك نحو ثلاث سنوات، لا يصل إليهم شيء إلا سراً، ممن أراد صلتهم من قريش، ورسول الله ﷺ على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وبنو هاشم صابرون محتسبون.

نقض الصحيفة وإنهاء المقاطعة:

وقام نفر من قريش، من أهل المروءة والضمائر، في مقدمتهم هشام بن عمرو بن ربيعة، فكرهوا هذا التعاقد الظالم، وعافته نفوسهم، وكان هشام رجلا واصلاً، وكان ذا شرف في قومه، فمشى إلى رجال من قريش، أنس فيهم الرقة والرجولة، فاستثار حميتهم وإنسانيتهم لنقض الصحيفة والخروج من هذا التعاقد الظالم، ولما كانوا خمسة اجتمعوا وتعاقدوا على نقض الصحيفة، فلما كانت قريش في أنديتها من غد، قام زهير بن أبي أمية، وكانت أمه «عاتكة» بنت عبد المطلب، وأقبل على الناس.

قال: يا أهل مكة! أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى، لا يباع ولا يبتاع منهم؟! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة.

وتدخل أبو جهل في الحديث، فلم يفد، وقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا «باسمك اللهم» وكان النبي ﷺ قد أخبر بذلك أبا طالب، ومزقت الصحيفة وبطل ما فيها[1].

---

(١) نفس المرجع، ص ٣٧٣ - ٣٧٧.

وفاة أبي طالب وخديجة:

ومات أبو طالب وخديجة في عام واحد - العام العاشر من النبوة - وهما من عرفنا من حسن الصحبة والوفاء والنصر والتأييد، ولم يسلم أبو طالب، وتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب[1].

وقع القرآن في القلوب السليمة:

وقدم الطفيل بن عمرو الدوسي مكة، وكان رجلا شريفاً، وشاعراً لبيباً، فحالت قريش بينه وبين رسول الله، وخوفوه من الدنو إليه، وسماع كلامه، وقالوا: إنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئاً.

يقول الطفيل: والله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً، ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني قطناً، وغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت منه قريباً، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، قال - فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي، واثكل أمي! والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفي عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسناً، قبلته، وإن كان قبيحاً تركته.

ودخل الطفيل على رسول الله ﷺ في بيته، وحكى له القصة، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليه القرآن، فأسلم، ورجع إلى قومه داعياً إلى الإسلام، وأبى أن يساكن أهله حتى يسلموا، فدخلوا في الإسلام جميعاً، ودعا دوسا إلى الإسلام، وفشا الإسلام فيهم[2].

---

(١) سيرة ابن هشام ق ١؛ ص ٤١٥ - ٤١٦.
(٢) نفس المرجع؛ ص ٣٨٢ - ٣٨٤. ملخصاً.

وكان أبو بكر - رضي الله عنه - يعبد ربه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ثم بدا له فابتنى مسجداً بفناء داره، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيتقذف[١] عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه، وكان أبو بكـر رجلاً بكاءً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن.

وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدغنة الذي أجاره، فقدم عليهم، فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك، على أن يعبد ربه في داره، فقد جاوز ذلك، فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وانا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا، فانهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره، فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك، فسله أن يرد إليك ذمتك، فإنا كرهنا أن نخفرك[٢]، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان.

فلما أخبره ابن الدغنة بما قالت قريش، قال أبو بكر: فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله[٣].

الخروج إلى الطائف وما لقي فيها من الأذى:

ولما مات أبو طالب نال رسول الله ﷺ من قريش من الأذى، ما لم تكن تطمع فيه قريش، في حياة أبي طالب، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً.

---

(١) أي يزدحمون حتى يسقط بعضهم على بعض.

(٢) الاخفار هو نقض العهد.

(٣) رواه البخاري في الصحيح عن عائشة (باب هجرة النبي - ﷺ - وأصحابه - ملخصاً.

ولما اشتد أذى قريش، وانصرافهم عن الإسلام، وزهدهم فيه، خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف، يلتمس النصرة من ثقيف وأن يدخلوا في الإسلام، وكان له أمل في أهل الطائف[١]، ولا غرابة في ذلك فإنه رضع في بني سعد وهم بمقربة من الطائف وفيهم مراضعه وحواضنه.

أضواء على الطائف:

ولما كانت مدينة الطائف هي المدينة الثالثة الكبيرة (بعد مكة ويثرب) التي سعدت بقدوم النبي ﷺ إليها، وقد كانت هذه الرحلة في سبيل الدعوة حدثاً كبيراً، ليس في السيرة النبوية وحدها بل في تاريخ النبوءات والدعوات (وقد قصدها مرتين، الأولى في شوال في السنة العاشرة بعد البعثة، والثانية في شوال في السنة الثامنة بعد الهجرة) استحقت - أكثر من مدينة أخرى في الجزيرة - أن يلقي عليها بعض الأضواء لتعرف مكانتها التاريخية والجغرافية والاجتماعية، وإلى القارىء بعض المعلومات عنها:

تقع مدينة الطائف على مسافة خمس وسبعين ميلاً تقريباً إلى الجنوب الشرقي من مكة[٢]، وهي واقعة على ظهر جبل غزوان، ويبلغ ارتفاع هذا الجبل نحو ستة آلاف قدم[٣]، واسم الطائف مأخوذ من السور أو الحائط الذي كان يحيط ويطوف بالمدينة، وكان الإسم القديم لهذه

---

(١) من المرجح أن رسول الله -ﷺ- توجه إلى الطائف في أخريات شوال من السنة العاشرة («خاتم النبيين» للعلامة المرحوم أبي زهرة ج /، ص ٥٨٠).

(٢) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٤ ص ١٤٢، وذلك بالنسبة إلى الطريق القديم بين مكة والطائف، أما بعد أن فتح الطريق الجديد المعبّد بين مكة والطائف فلا تزيد المسافة على ثمانين كيلو.

(٣) الاصطخري، المسالك والممالك ص ٢٤، أما ارتفاع مدينة الطائف فلا يزيد على خمسة آلاف قدم.

المدينة « هووّج » وكان أثرياء قريش ووجوهها قد ابتنوا قصوراً في الطائف، وكانوا يقضون فيها شهور الصيف القائظة، وكان لعباس بن عبدالمطلب عقارات بالطائف، يقول البلاذري[1]: «كانت لعامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكة فيصلحونها »، وأدّى الثراء الواسع إلى فساد اجتماعي، فاشتهر أثرياء الطائف بأنهم أصحاب ربا وزنا وخمر، وانتشرت فيها صناعة الخمور وصناعة الزبيب، ودبغ الجلود، وصناعة العطور، وتوافرت فيها موارد المياه، وخصوبة الأرض، فكثرت البساتين وطابت الثمار، وتنوعت الفواكه، وانتشرت الزراعة وغرس الأشجار، وهو الشأن إلى الآن.

وكانت مصيفاً للمتنعمين وظلت كذلك إلى العهد الإسلامي فما بعده، يقول الشاعر الأموي عمر بن أبي ربيعة:

تشتو بمكـــــة نعمـــــــة ومصيفهـــا بـــالطـــائـــف

ولما كان أهل الطائف أصحاب أملاك وبساتين، وثراء ورخاء، أورثهم كل ذلك الكبر والبطر، وجعلهم مصداقا لقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2].

وانفردت ثقيف بالسيادة في الطائف، وأصبحت من أعظم القبائل العربية، التي يضرب بقوتها وثروتها المثل، وكانت من قبائل العرب المستعربة أي العرب العدنانية، وكانت بين ثقيف وقريش منافسة في مجال الدين، ورئاسة الأوثان وشعبيتها، وكانت تنظر إلى وثنها (اللات)

---

(١) فتوح البلدان، ص ٦٨.

(٢) سورة سبأ - ٣٤ - ٣٥.

كمنافس لهبل، بل للكعبة، فأقامت حوله حرماً، وأحاطته بنفس مظاهر التقديس وشعائر الدين،التي كانت مختصة بالكعبة، وحين زحف أبرهة بجيشه إلى مكة انفردت ثقيف بموقف التأييد له، وبعثت معه أبا رغال دليلاً للجيش على الطريق إلى مكة، وقد مات هذا الدليل في الطريق، وأبغضه العرب ورجموا قبره[1].

وكان الثقفيون أغدق العرب عيشاً كما قال ياقوت، وكان هواها مع بني أمية، وقد التقوا على حب الثراء والجاه، والتوسع في التجارة، وقد قال رسول الله ﷺ: «قريش والأنصار حليفان، وبنو أمية وثقيف حليفان»[2]، وكان عروة بن مسعود - وهو سيد ثقيف - زوج آمنة بنت أبي سفيان، وكان له منها داود بن عروة[3]، وذهب كثير من المفسرين أنه المعني في قوله تعالى حكاية عن أهل مكة: «وقالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم»[4].

وقد نبغ في ثقيف الحارث بن كلدة،وقد رحل إلى فارس، وتعلم الطب، واشتهر طبه بين العرب، واشتهر بعده ابنه النضر وهو ابن خالة الرسول ﷺ[5]، وقد تجول في عدة أقطار وصحب الأحبار والكهنة، وكان له إلمام بعلوم الفلسفة والحكمة، وأخذ الطب من أبيه، وكان النضر كثير العداء والحسد للنبي ﷺ[6]، واشتهر فيهم أمية بن الصلت،

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٢٦٠.
(٢) بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب، تأليف السيد محمود شكري الآلوسي ج ٣ ص ٣٣٥ (الطبعة الثالثة).
(٣) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٨٣.
(٤) الإصابة في تمييز الصحابة للعلامة الحافظ ابن حجر العسقلاني، ج٢ ص ٤٧٧.
(٥) بلوغ الإرب ج ٣ ص ٣٣٥.
(٦) أيضا ص ٣٣٥.

وكان من الشعراء المخضرمين الذين عاصروا الجاهلية والإسلام، اطلع على كتب القدماء وخاصة التوراة، وكان في مقدمة الحنفاء، فلما بعث رسول الله ﷺ سُقِطَ في يده، وكفر به حسداً، وأخذ يحرض على الرسول، ويرثي قتلى أعدائه في وقعة بدر، له في التوحيد والحكمة شعر كثير، وفيه يقول النبي ﷺ: «آمن شعره وكفر قلبه»[1].

ومما يذكر لثقيف من المآثر أنه ارتد غالب العرب بعد وفاة النبي ﷺ إلا قريشا وثقيفا، يقول الحافظ ابن كثير: «وقد كانت ثقيف بالطائف ثبتوا على الإسلام لم يفروا، ولا ارتدوا»[2]، وكان لهم أثر وبلاء في الحروب الإسلامية ومواقف بطولية محمودة.

وقد قصد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الطائف، إمّا لأنه المركز الثاني للقوة والسيادة في الحجاز بعد مكة، أو لأن أخواله من بني ثقيف، فرأى أن يخرج إلى الطائف، «يلتمس من ثقيف النصر والمنعة له من قومه»[3].

وما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم - وهو ابن مكة الواعي - يجهل الصلات الوطيدة بين مكة والطائف وتزاور أبنائها، وأن أخبار تكذيب قريش له وتصديهم بالأذى قد بلغت الطائف، ولكنه يجشم هذه الرحلة حرصا على تبليغ الرسالة وانتشار الدعوة، وذلك يدل على علو همته النبويّة وشدة توكله على الله، وأمله في الفطرة البشرية السليمة.

---

(١) بلوغ الإرب ج ٣ ص ١٢١.
(٢) البداية والنهاية ج ٦ ص ٣٠٤.
(٣) الطبري ج ٢ ص ٨٠.

وقد خرج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الطائف في شهر شوال في السنة العاشرة بعد البعثة النبوية[١]، ويذكر ابن سعد[٢] وابن الأثير[٣]، والمقريزي[٤]، أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد استصحب في رحلته إلى الطائف مولاه زيد بن حارثة[٥].

في الطائف:

وكانت الطائف تلو مكة في الأهمية، واتساع العمران، ورفاهية السكان، ونقل القرآن مقالة الخصوم من قريش فقال:

﴿وَقَالُواْ: لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٦].

وكانت مستقر عبادة اللات وكان صنماً يعبد ويحج إليه، وكانت تضارع في ذلك مكة التي كانت مستقر عبادة «هبل» صنم قريش الاكبر.

فلما قدم رسول الله ﷺ الطائف، عمد إلى نفر منهم سادة ثقيف وأشرافهم، فجلس إليهم، ودعاهم إلى الله، فكان ردهم شر رد، واستهزأوا به صلى الله عليه وسلم وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، يسبونه ويصيحون به، ويرجمونه بالحجارة، فعمد إلى ظل نخلة، وهو مكروب، فجلس فيه، وكان ما لقي في الطائف أشد ما لقيه من المشركين، وقعدوا له أهل الطائف صفين على طريقه، فلما مر، جعلوا لا يرفع

---

(١) إمتاع الأسماع ص ٢٧.

(٢) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٩٥.

(٣) الكامل ج ٢ ص ٦٣.

(٤) امتاع الأسماع ج ١ ص ٢٧.

(٥) استفاد المؤلف في هذه الأضواء على الطائف من رسالة الدكتوراه للدكتورة نادية حسني صقر، (الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام طبع دار الشروق في جدة الطبعة الأولى ١٩٨١م.)

(٦) سورة الزخرف، آية ٣١.

رجليه إلا رموها بالحجارة، حتى أدموه، وهما تسيلان الدماء، وفاض قلبه ولسانه بدعاء شكا فيه إلى الله ضعف قوته، وقلة حيلته، وهوانه على الناس، واستعاذ بالله تعالى وبنصره وتأييده، فقال:

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين! أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟، إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله ».

فأرسل الله إليه ملك الجبال، يسأذنه في أن يطبق الأخشبين، فقال له رسول الله ﷺ: بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً[1].

ولما رآه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وما لقي، تحركت لهما المروءة، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له « عداس » فقالا له: خذ قطفا من العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل « عداس »، وأسلم بما سمعه من حديث رسول الله ﷺ ورأى من أخلاقه[2].

وانصرف رسول الله ﷺ من الطائف إلى مكة، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلاف وعداء، وسخرية واستهزاء.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب «ما لقي النبي ﷺ من أذى المنافقين والمشركين ».

(٢) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٤١٩ - ٤٢٢، وسيرة ابن كثير، ج ٢، ص ١٤٩ - ١٥٣، وزاد المعاد ج ١، ص ٣٠٢ (مجموعاً ملخصاً).

الإسراء والمعراج:

ثم أسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[(١)]، ومنه إلى ما شاء الله من القرب والدنوّ، والسير في السموات، ومشاهدة الآيات، والاجتماع بالأنبياء:

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ، لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[(٢)].

فكانت ضيافة كريمة من الله، وتسلية وجبراً للخاطر، وتعويضاً عما لقيه في الطائف من الذلة والهوان، والجفاء والنكران.

فلما أصبح غدا على قريش، فأخبرهم الخبر، فأنكروه ذلك، واستعظموه وكذبوه، واستهزأوا، وأما أبو بكر فقال: والله لئن كان قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه[(٣)].

---

(١) روى البيهقي عن ابن شهاب الزهري أن الإسراء كان في السنة التي قبل الهجرة وروى الحاكم أن الإسراء كان قبل الهجرة لستة عشر شهراً، واختلفت الأقوال في الشهر الذي أسري به -صلى الله عليه وسلم - فيه، فقيل في ذي القعدة، وقيل في ربيع الأول، وقيل غير ذلك، والمشهور أن الإسراء كان في ليلة السابعة والعشرين من شهر رجب، وقد اختاره الحافظ ابن سرور المقدسي، وقد اتفقوا على أنها كانت بعد ذهاب النبي ﷺ إلى الطائف، (ملخصاً من كتاب «خاتم النبيين» للعلامة محمد أبو زهرة ج١ ص٥٩٦ الطبعة الأولى ١٩٧٢م).

(٢) القرآن الكريم سورة النجم، وكتب الحديث والسيرة.

(٣) سيرة ابن كثير ج ٢؛ ص ٩٦، وسيرة ابن هشام، ق ١؛ ص ٣٩٩.

ذهب جمهور أهل السنة إلى أن الإسراء كان بالجسد والروح، وأن أقوى القرائن والدلائل على ذلك أن النبي ﷺ عندما أعلن ذلك بين قريش فتن بعض الذين أسلموا، وارتد من ارتد، كما رواه ابن كثير؛ ولو كان بالروح أو رؤيا رآها النبي ﷺ، لما كان في ذلك غرابة، فالإنسان العادي يرى في المنام ما لا يصدقه الواقع ولا يخطر بخلد أحد، ولقد ألف الناس في كل زمان ومكان الرؤى الغريبة =

معاني الإسراء والمعراج العميقة ومراميها البعيدة:

ولم يكن الإسراء مجرد حادث فردي بسيط رأى فيه رسول الله ﷺ الآيات الكبرى، وتجلت له ملكوت السماوات والأرض مشاهدة وعياناً - بل زيادة إلى ذلك - اشتملت هذه الرحلة النبوية الغيبية على معان عميقة دقيقة كثيرة، وإشارات حكيمة بعيدة المدى، فقد ضمت قصة الإسراء وأعلنت السورتان الكريمتان اللتان نزلتا في شأنه وتسمى سورة ﴿الإسراء﴾ وسورة ﴿النجم﴾ أن محمداً ﷺ هو نبي القبلتين، وإمام المشرقين والمغربين، ووارث الأنبياء قبله، وإمام الأجيال بعده، فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكة بالقدس، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى، وصلى الأنبياء خلفه، فكان هذا إيذاناً بعموم رسالته وخلود إمامته وإنسانية تعاليمه، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزمان، وأفادت هذه السورة الكريمة تعيين شخصية النبي ﷺ ووصف إمامته وقيادته وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها وآمنت به، وبيان رسالتها ودورها الذي ستمثله في العالم، ومن بين الشعوب والأمم.

= والأحلام العجيبة، ولا يسارعون إلى تكذيبها؛ وقد روي منها كل غريب وشحنت به كتب الديانات وأخبار العظماء والنساك، ولو كان ذلك مجرد عروج روحي؛ أو قصة منام؛ لبادر النبي ﷺ إلى إخبارهم بأن ذلك وحي أوحي به إليه، أو رؤيا رآها في المنام، فضموه إلى ما كانوا يسمعون منه صباح مساء، من وحي يوحى إليه وملك يأتيه فيكلمه، فما أثار ذلك تلك الدهشة التي أثارها والتساؤلات الكثيرة التي بعثها، فما هو بشيء جديد بالنسبة إليه.

ومن شاء التوسع في هذا الموضوع وتحقيق ما اشتمل عليه من أسرار وحقائق وحكم إلهية؛ وإشارات لطيفة؛ وفوائد تشريعية: في ضوء الكتاب والسنة والعقل السليم فعليه بفصل «الإسراء إلى المسجد الأقصى ومنه إلى سدرة المنتهى» في كتاب «حجة الله البالغة» ج٢، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي المتوفي سنة ١١٧٦ هـ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

وجاء الإسراء خطاً فاصلاً بين الناحية الضيقة المحلية المؤقتة وبين الشخصية النبوية الخالدة العالمية، فإن كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - زعيم أمة، أو قائد إقليم، أو منقذ عنصر، أو مؤسس مجد، لم يكن في حاجة إلى الإسراء والمعراج، ولم يكن في حاجة إلى سياحة في عالم الملكوت، ولم يكن في حاجة إلى أن تتصل بسببه الأرض بالسماء اتصالاً جديداً، لقد كان له في أرضه التي يعيش فيها وفي محيطه الذي يكافح فيه، وفي مجتمعه الذي يسعى لإسعاده، غنى وسعة، لا يفكر في غيره، ولا يتجاوز إلى رقعة أخرى من الأرض فضلاً عن السماوات العلى، وسدرة المنتهى، وفضلاً عن المسجد الأقصى الذي يبعد عن بلده بعداً كبيراً، والذي كان في ولاية الديانة المسيحية وحكومة الأمة الرومية القوية.

وجاء الإسراء، وأعلن أن محمداً ﷺ ليس من طراز القادة والزعماء الذين لا تتجاوز مواهبهم، وجهودهم، ودوائر كفاحهم حدود الشعوب والبلاد، ولا تسعد بهم إلا الشعوب التي يولدون فيها، والبيئات التي ينبعون منها، إنما هو من جماعة الأنبياء والرسل الذين يحملون رسالات السماء إلى الأرض، ويحملون رسالات الخالق إلى الخلق، وتسعد بهم الإنسانية على اختلاف شعوبها وطبقاتها وعهودها وأجيالها.

فرض الصلوات:

وفرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاة في كل يوم، وما زال رسول الله ﷺ يسأله التخفيف، حتى جعلها الله خمس صلوات في كل يوم وليلة، من أداهن إيمانا واحتسابا كان له أجر خمسين صلاة[1].

---

(١) حديث طويل رواه البخاري في صحيحه؛ كتاب الصلاة؛ باب «كيف فرضت الصلاة».

عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل:

وبدأ رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب، يدعوهم إلى الإسلام، وإلى أن يمنعوه من الأعداء، ويقول: يا بني فلان! إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا به، وتصدقوا به، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به.

فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله، قام أبو لهب، فقال: يا بني فلان! إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزّى من أعناقكم، وحلفاءكم من الجن، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه[1].

الطريق إلى الإسلام:

وكان الطريق إلى رسول الله ﷺ وإلى الإسلام مفروشا بالأشواك، محفوفاً بالمخاوف والأخطار، لا يهتدي إليه الباحث عن الحق إلا إذا خاطر بنفسه، وجازف بحياته، يدل على ذلك ما حكاه ابن عباس - رضي الله عنهما - من قصة قدوم أبي ذر الغفاري إلى مكة ولقائه للرسول -ﷺ ودخوله في الإسلام:

«عن ابن عباس - رضي الله عنهما - لما بلغ أبا ذر مبعث النبي ﷺ قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثم ائتني، فانطلق الأخ، حتى قدمه وسمع من قوله، ثم رجع إلى أبي ذر - رضي الله عنهما - فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلاماً ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني مما أردت.

---

(١) سيرة ابن هشام:؛ ق ١؛ ص ٤٢٢ - ٤٢٣.

فتزود وحمل شنة له، فيها ماء، حتى قدم مكة فأتى المسجد، فالتمس النبي ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه بعض الليل، فرآه علي فعرف أنه غريب، فلما رآه تبعه، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى أصبح، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم، ولا يراه النبي ﷺ حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه فمر به علي - رضي الله عنه - فقال: أما آن للرجل أن يعلم منزله؟ فأقامه، فذهب به معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء.

حتى إذا كان اليوم الثالث، فعاد على مثل ذلك، فأقام معه، ثم قال: ألا تحدثني ما الذي أقدمك؟ قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني، فعلت، ففعل، فانطلق يقفوه، حتى دخل على النبي ﷺ ودخل معه، وسمع من قوله، وأسلم مكانه، فقال له النبي ﷺ: ارجع إلى قومك، فأخبرهم حتى يأتيك أمري، قال: والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد، فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم قام القوم، فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس، فأكب عليه، قال: ويلكم ألستم تعلمون أنه من «غفار» وأن طريق تجاركم إلى الشام عليهم، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه، وثاروا إليه فأكب العباس عليه»[(١)].

بدء إسلام الأنصار:

وخرج رسول الله ﷺ في الموسم، فبينما هو عند العقبة، إذ لقي رهطاً من الخزرج من الأنصار، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن.

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري؛ «باب إسلام أبي ذر رضي الله عنه».

وكانوا جيران اليهود في المدينة، وكانوا يسمعونهم يخبرون بنبي قد أطلَّ زمانه، فقال بعضهم لبعض: يا قوم! تعلمون والله أنه النبي الذي توعدكم به اليهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه، وصدقوه، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك[1].

وانصرفوا راجعين إلى بلادهم، وآمنوا، وصدقوا، فلما قدموا المدينة ذكروا لإخوانهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام، حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ[2].

بيعة العقبة الأولى:

حتّى إذا كان العام المقبل، وافى الموسم من الأنصار، اثنا عشر رجلاً، فلقوه بالعقبة الأولى، فبايعوا رسول الله ﷺ على التوحيد، والتعفف من السرقة والزنا وقتل الأولاد والطاعة في المعروف.

فلما همّ القوم بالإنصراف بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمي «المقرىء» بالمدينة ونزل على أسعد بن زرارة، وكان يصلي بهم[3].

---

(١) سيرة ابن هشام ق ١، ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

(٢) نفس المرجع؛ ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

(٣) سيرة ابن هشام ق ١، ص ٤٣١ - ٤٣٤ ملخصاً.

سبب تهيؤ الأنصار للإسلام:

وكان من صنع الله تعالى لرسوله وللإسلام، أن هيأ الله الأوس والخزرج[1] - وهما قبيلتان عربيتان عظيمتان في مدينة يثرب - لتقدرا هذه النعمة التي لا نعمة أعظم منها، وتسبقا أهل عصرهما، وأبناء الجزيرة، إلى الترحيب بالإسلام والدخول فيه، حين تنكرت له قبائل العرب وفي مقدمتها وعلى رأسها قريش ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾.

وقد ساعدت على ذلك عدة عوامل، هي من خلق الله تعالى وتيسيره وصنعه، كانت فارقة بين قريش وأهل مكة، وقبائل يثرب العربية، منها ما طبعها الله عليه من الرقة واللين وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق، وذلك يرجع إلى الخصائص الدموية والسلالية التي أشار إليها رسول الله ﷺ حين وفَدَ وفْد من اليمن، بقوله: «أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوبا» وهما ترجعان في أصلهما إلى اليمن، نزح أجدادهم منها في الزمن القديم، يقول القرآن مادحاً لهم:

﴿وَالَّذِينَ تَبوّأوا الدَّارَ والإِيمانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ، وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا، وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[2].

---

(١) الأوس والخزرج من الأزد، الذين ينتمون إلى شعب قحطان، وقد عطف ثعلبة بن عمرو جدهم نحو الحجاز بعد خراب سد مأرب سنة ١٢٠ ق‌م ثم سار نحو المدينة: كماسيأتي.

(٢) سورة الحشر ٩.

ومنها أنها قد أنهكتها الحروب الداخلية، وما يوم بعاث ببعيد[1]، وقد اكتووا بنارها، وذاقوا مرارتها، وعافوها، ونشأت فيهم رغبة في اجتماع الكلمة، وانتظام الشمل، والتفادي من الحروب، وذلك ما عبروا عنه بقولهم: «إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فإن يجمعهم الله بك، فلا رجل أعز منك»، قالت عائشة رضي الله عنها: «كان يوم بعاث يوماً قدمه الله تعالى لرسوله».

ومنها أن قريشاً، وسائر العرب قد طال عهدهم بالنبوات والأنبياء، وأصبحوا يجهلون معانيها بطول العهد، وبحكم الأمية والإمعان في الوثنية، والبعد عن الأمم التي تنتسب إلى الأنبياء وتحمل الكتب السماوية - على ما دخل فيها من التحريف والعبث - وذلك ما يشير إليه القرآن بقوله: ﴿لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون﴾.

أما الأوس والخزرج فكانوا يسمعون اليهود يتحدثون عن النبوءة والأنبياء ويتلون صحف التوراة ويفسرونها، بل كانوا يتوعدونهم به، ويقولون إنه سيبعث نبي في آخر الزمان، نقتلكم معه قتل عاد وإرم[2]، في ذلك يقول الله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ

---

(١) «يوم بعاث»: آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج، وبعاث موضع في نواحي المدينة وكانت هذه الحرب من إيعاز اليهود في المدينة؛ ودخل مع القبيلتين قبائل من اليهود والعرب؛ ومكثوا أربعين يوماً يتجهزون للحرب والتقوا في بعاث؛ واقتتلوا قتالاً شديداً، وصبروا جميعاً، وانهزمت الأوس في أول النهار ثم دارت الدائرة على الخزرج؛ ووضعت الأوس فيهم السلاح، ثم انتهوا عنهم، وأحرقت الأوس دور الخزرج؛ وأكثر الأنصار الأشعار في «يوم بعاث» (عن ابن الأثير ملخصاً) وذلك قبل الهجرة، بخمس سنين في أصح الروايات (فتح الباري: ج٧، ص ٨٥).

(٢) تفسير ابن كثير؛ ج ١ ص ٢١٧.

يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا، كَفَرُوا بِهِ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ﴾[1].

وبذلك لم تكن بين أبناء الأوس والخزرج وسكان المدينة من العرب المشركين تلك الفجوة العميقة الواسعة من الجهل والنفور من المفاهيم الدينية والسنن الإلهية التي كانت بينها وبين أهل مكة وجيرانهم من العرب، بل قد عرفوها وألفوها عن طريق اليهود، وأهل الكتاب الذين كانوا يختلطون بهم بحكم البلد والجوار والصلح والحرب والمحالفات، فلما تعرفوا برسول الله ﷺ وقد حضروا الموسم، ودعاهم إلى الإسلام، ارتفعت الغشاوة عن عيونهم، وكأنهم كانوا من هذه الدعوة على ميعاد.

خصائص يثرب:

وكان من حكمة الله تعالى في اختيار المدينة، داراً للهجرة، ومركزاً للدعوة، عدا ما أراده الله من إكرام أهلها، وأسرار لا يعلمها إلا الله، أنها امتازت بتحصن طبيعي حربي، لاتزاحمها في ذلك مدينة قريبة في الجزيرة، فكانت حرة[2] الوبرة، مطبقة على المدينة من الناحية الغربية، وحرة واقم، مطبقة على المدينة من الناحية الشرقية، وكانت المنطقة الشمالية من المدينة، هي الناحية الوحيدة المكشوفة (وهي التي حصنها رسول الله ﷺ بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب) وكانت الجهات

(١) سورة البقرة ٨٩.

(٢) و «الحرة» أو «اللابة» منطقة سوداء من الحجارة النخرة المحترقة أو المؤلفة من السائل البركاني يمتنع فيها المشي بالأقدام، ومشي الإبل والخيل - فضلاً عن مرور الجيش - وقد ذكر العلامة مجد الدين الفيروزآبادي (م٨٢٣هـ) في كتابه «المغانم المطابة في معالم طابة» في حرف الحاء، حرات كثيرة تحيط بالمدينة من عدة جوانب يدنو بعضها، ويبعد بعضها؛ وتحميها من الغزو من الخارج أو تحدث صعوبات وعراقيل في تحرك الجيوش (راجع الكتاب، ص ١٠٨ - ١١٤).

الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النخيل والزروع الكثيفة، لا يمر منها الجيش إلا في طرق ضيقة لا يتفق فيها النظام العسكري، وترتيب الصفوف.

وكانت خفارات عسكرية صغيرة، كافية بإفساد النظام العسكري ومنعه من التقدم، يقول ابن إسحاق: «كان أحد جانبي المدينة عورة، وسائر جوانبها مشككة بالبنيان والنخيل، لا يتمكن العدو منها».

ولعل النبي ﷺ قد أشار إلى هذه الحكمة الإلهية في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة «اني رأيت دار هجرتكم، ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان» فهاجر من هاجر قبل المدينة[1].

وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج أصحاب نخوة وإباء وفروسية وقوة وشكيمة، ألفوا الحرية، ولم يخضعوا لأحد، ولم يدفعوا إلى قبيلة أو حكومة، اتاوة أو جباية، وقد جاء ذلك صريحاً في الكلمة التي قالها سعد بن معاذ - سيد الأوس - لرسول الله ﷺ: «قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعاً»[2].

يقول ابن خلدون: «ولم يزل هذان الحيان قد غلبوا اليهود على يثرب، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك، ويدخل في ملتهم من جاورهم من قبائل مضر[3].

وجاء في «العقد الفريد»: «ومن الأزد الأنصار، وهم الأوس والخزرج وهما ابنا حارثة بن عمرو بن عامر، وهم أعز الناس أنفساً،

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري، باب «هجرة النبي ﷺ».
(٢) سيرة ابن هشام؛ ق ١، ص ٢٢٣.
(٣) تاريخ ابن خلدون ج ٢، ص ٢٨٩.

وأشرفهم همماً، ولم يؤدوا أتاوة قط إلى أحد الملوك»[1].

وكان بنو عدي بن النجار أخواله دنيا، فأُمُّ عبد المطلب بن هاشم احدى نسائهم، فقد تزوج هاشم بسلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار، وولدت لهاشم عبد المطلب، وتركه هاشم عندها، حتى صار غلاماً دون المراهقة، فذهب اليه عمه المطلب، فجاء به إلى مكة، وكانت الأرحام يحسب لها حساب كبير في حياة العرب الاجتماعية، ومنهم أبو أيوب الأنصاري الذي نزل رسول الله ﷺ في داره في المدينة.

وكان الأوس والخزرج من قحطان، والمهاجرون، ومن سبق إلى الإسلام في مكة وما حولها من عدنان، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقام الأنصار بنصره، اجتمعت بذلك عدنان وقحطان تحت لواء الإسلام، وكانوا كجسد واحد، وكانت بينهما مفاضلة ومسابقة في الجاهلية، وبذلك لم يجد الشيطان سبيلاً إلى قلوبهم، لاثارة الفتنة والتعزي بعزاء الجاهلية باسم الحمية القحطانية أو العدنانية.

فكانت لكل ذلك مدينة يثرب أصلح مكان لهجرة الرسول ﷺ وأصحابه واتخاذهم لها داراً وقراراً، حتى يقوى الإسلام، ويشق طريقه إلى الأمام، ويفتح الجزيرة ثم يفتح العالم المتمدن.

انتشار الإسلام في المدينة:

وجعل الإسلام يفشو في منازل الأنصار - الأوس والخزرج - وأسلم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وهما سيدا قومهما، من بني عبد الأشهل من الأوس، بحكمة من أسلم قبلهما، وتلطفهم، وبحسن دعوة مصعب بن عمير - رضي الله عنه - وأسلم بنو عبد الأشهل عن

(١) العقد الفريد، ج ٣، ص ٣٣٤ (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة).

آخرهم، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون[1].

بيعة العقبة الثانية:

ورجع مصعب بن عمير إلى مكة في العام القابل، وخرج عدد من المسلمين من الأنصار مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة، فلما فرغوا من الحج، ومضى ثلث الليل، اجتمعوا في الشعب عند العقبة، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً، وأمرأتان من النساء، وجاء رسول الله ﷺ ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه.

وتكلم رسول الله ﷺ وتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام ثم قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فبايعوه، واستوثقوا منه ألا يدعهم، ويرجع إلى قومه، فوعد بذلك رسول الله ﷺ فقال: أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم، واختار رسول الله ﷺ منهم اثني عشر نقيباً: تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس[2].

الاذن بالهجرة إلى المدينة:

ولما بايع رسول الله ﷺ هذا الحي من الأنصار على الإسلام، والنصرة له، ولمن اتبعه، فأوى اليهم عدد من المسلمين، أمر رسول الله ﷺ أصحابه، ومن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة، والهجرة اليها واللحوق باخوانهم من الأنصار وقال: «إن الله عز وجل قد جعل لكم اخواناً وداراً تأمنون بها» فخرجوا أرسالاً.

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ق ١، ص ٤٣٦ - ٤٣٨ مختصراً.

(٢) نفس المصدر ص٤٤١ - ٤٤٣.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر الإذن من الله في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة.

ولم تكن هجرة المسلمين من مكة هينة سهلة تسمع بها قريش وتطيب بها نفساً، بل كانوا يضعون العراقيل في سبيل الانتقال من مكة إلى المدينة، ويمتحنون المهاجرين بأنواع من المحن، وكان المهاجرون لا يعدلون عن هذه الفكرة، ولا يؤثرون البقاء في مكة، مهما دفعوه من قيمة، فمنهم من كان يضطر إلى أن يترك امرأته وابنه في مكة، ويسافر وحده، كما فعل أبو سلمة، ومنهم من كان يضطر إلى أن يتنازل عن كل ما كسبه في حياته وجمعه من ماله، كما فعل صهيب.

قالت أم سلمة - رضي الله عنها - لما أزمع أبو سلمة - رضي الله عنه - الخروج إلى المدينة، رحّل لي بعيره، ثم حملني عليه وجعل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة قاموا اليه فقالوا: «هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده، وأخذوني منه.

قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة وقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده وانطلق به بنو عبد الأسد وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، ففرق بيني وبين ابني وبين زوجي، فكنت أخرج كل غداة، فأجلس في الأبطح، فما أزال أبكي حتى أمسى، سنة أو قريباً منها، حتى مر بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة، فرأى ما بي، فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟ فقالوا: الحقي بزوجك ان شئت، فرد بنو الأسد إلى عند ذلك ابني، فارتحلت

بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله، حتى إذا كنت بـ «التنعيم» لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار، فقال: إلى أين يا ابنة أبي أمية؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أوما معك أحد؟ قلت: ما معي أحد إلا الله وابني هذا، فقال: والله ما لك من منزل، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجر، ثم تنحى إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري فقدمه، فرحله، ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري، أتى فأخذ بخطامه، فقادني حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بـ «قباء» قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة، فكانت تقول: ما أعلم أهل بيت في الإسلام، أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة[١].

ولما أراد صهيب الهجرة، قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك؟ والله لا يكون ذلك!

فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي، أتخلون سبيلي؟.

قالوا: نعم.

قال: إني قد جعلت لكم مالي.

---

(١) وأسلم عثمان بن طلحة هذا بعد الحديبية، وهاجر، ودفع اليه رسول الله ﷺ يوم الفتح مفاتيح الكعبة (ابن كثير؛ ج٢، ٢١٥ - ٢١٧).

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «ربح صهيب، ربح صهيب»[(١)].

وهاجر عمر بن الخطاب، وطلحة، وحمزة، وزيد بن حارثة، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وأبو حذيفة وعثمان بن عفان، وآخرون - رضي الله عنهم أجمعين - وتتابعت الهجرة ولم يتخلف مع رسول الله ﷺ بمكة غير من حبس وفتن، إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قحافة - رضي الله عنهما -[(٢)].

تآمر قريش على رسول الله ﷺ الأخير، وخيبتهم فيما أرادوا:

ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صارت له أصحاب وأنصار في المدينة ولا سلطان لهم عليها، تخوفوا من خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وعرفوا أنه إذا كان ذلك، فلا حيلة لهم فيه، ولا سبيل لهم عليه، فاجتمعوا في «دار الندوة» وهي دار قصي بن كلاب، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها، يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ واجتمع فيها أشراف قريش.

واجتمع رأيهم أخيراً على أن يؤخذ من كل قبيلة فتى شاب صاحب جلادة ونسب، فيهاجموا رسول الله ﷺ ويضربوا ضربة رجل واحد، وبذلك يتفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، وتفرق القوم على ذلك، وهم مجمعون له.

وأخبر الله رسوله بهذه المؤامرة، فأمر علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه، متسجياً ببردته، وقال: لن يخلص اليك شيء تكرهه.

واجتمع القوم على بابه، وهم متهيئون للوثوب، وخرج رسول الله ﷺ وأخذ حفنة من تراب في يده، وأخذ الله تعالى على أبصارهم

---

(١) ابن كثير نقلا عن ابن هشام؛ ج٢، ص٢٢٣.

(٢) سيرة ابن هشام، ق١؛ ٤٧٠ - ٤٧٩.

عنه فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو آيات من سورة «يٓس» من أولها إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ (سورة يٓس آية ٩).

وأتاهم آت، فقال: ما تنتظرون ههنا؟ قالوا: محمداً، قال: خيبكم الله، قد والله خرج وانطلق لحاجته.

وتطلعوا، فرأوا علياً نائماً على الفراش، فلم يشكوا في أنه رسول الله ﷺ فلما أصبحوا قام علي - رضي الله عنه - عن الفراش، فخجلوا، وانقلبوا خائبين[١].

هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة:

وجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر، فقال له: ان الله قد أذن لي في الخروج والهجرة، فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله! قال: الصحبة، وبكى أبو بكر - رضي الله عنه - من الفرح، وقدم أبو بكر راحلتين، كان قد أعدهما لهذا السفر، واستأجر عبد الله بن أريقط، ليدلهما على الطريق.

تناقض غريب:

وكانت قريش - رغم عدائها لرسول الله - ﷺ ورميه عن قوس واحدة - عظيمة الثقة بأمانته، وصدقه، وفتوته، فليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عند رسول الله ﷺ لثقته به، فكانت عند رسول الله ﷺ الشيء الكثير من هذه الودائع، فأمر علياً - رضي

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ١، ص ٤٨٠ - ٤٨٣.

الله عنه - بأن يتخلف بمكة حتي يؤديها عنه[١]، وصدق الله العظيم:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ، ولٰكِنَّ الظَّالِمينَ بآياتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾[٢].

درس من الهجرة:

وقد أثبتت الهجرة النبوية أن الدعوة والعقيدة يتنازل لها عن كل حبيب وعزيز وأليف وأنيس وعن كل ما جبلت الطبائع السليمة على حبه وايثاره، والتمسك به والتزامه، ولا يتنازل عنها لشيء. وقد اقترن تاريخ الدعوات العظيمة والديانات القديمة بالحركة، حركة الأفراد أحياناً وحركة الجماعات احياناً كثيرة.

وقد كانت مكة - فضلاً عن كونها مولداً ومنشأ للرسول وأصحابه - مهوى الأفئدة ومغناطيس القلوب، ففيها الكعبة البيت الحرام الذي جرى حبه منهم مجرى الروح والدم، ولكن شيئاً من ذلك لم يمنعه وأصحابه من مغادرة الوطن، ومفارقة الأهل والسكن، حين ضاقت الأرض على هذه الدعوة والعقيدة وتنكر أهلها لها.

وقد تجلت هذه العاطفة المزدوجة - عاطفة الحنين الإنساني وعاطفة الحب الإيماني - في كلمته التي قالها مخاطباً لمكة: «ما أطيبك من بلد وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك[٣]».

---

(١) نفس المرجع، ص٤٨٤ - ٤٨٥.

(٢) سورة الأنعام ٣٣.

(٣) رواه الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً في باب «فضل مكة».

وذلك عملاً بقول الله تعالى:

﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[١].

إلى غار ثور:

وخرج رسول الله ﷺ وأبو بكر من مكة مستخفين، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما بمكة، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاراً ويريحها عليهما ليلاً، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام.

من روائع الحب:

ولم يزل الحب منذ فطر الله الإنسان ملهماً للدقائق العجيبة، باعثاً على الاشفاق على من تعلق به القلب وأحبته النفس، وهذا كان شأن أبي بكر مع رسول الله ﷺ في هذه الرحلة، وقد روي أنه لما انطلق رسول الله ﷺ إلى الغار ومعه أبو بكر، كان يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه، حتى فطن رسول الله ﷺ فقال: يا أبا بكر! مالك تمشي ساعة خلفي وساعة بين يدي؟، فقال: يا رسول الله! أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك[٢].

فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله! حتى استبرىء لك الغار، فدخل فاستبرأه حتى إذا كان، ذكر أنه لم يستبرىء الجحرة، فقال: مكانك يا رسول الله! حتى استبرىء فدخل فاستبرأ، ثم قال: انزل يا رسول الله! فنزل[٣].

---

(١) سورة العنكبوت ٥٦، والسورة مكية.

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير؛ ج٣؛ ص١٨٠، نقلا عن البيهقي برواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) البداية والنهاية، ج٣، ص١٨٠.

ولله جنود السموات والأرض:

ودخلا الغار وبينما هما كذلك إذ بعث الله العنكبوت، فنسجت ما بين الغار والشجرة التي كانت على وجه الغار، وسترت رسول الله ﷺ وأبا بكر، وأمر الله حمامتين وحشيتين، فأقبلتا تدفان حتى وقعتا بين العنكبوت وبين الشجرة[١]، ﴿ولله جُنُودُ السَّمواتِ والأَرْضِ﴾ (سورة الفتح آية ٤).

أدق لحظة مرت بها الإنسانية:

واقتفى المشركون أثر رسول الله ﷺ وكانت أدق لحظة مرت بها الإنسانية في رحلتها الطويلة، وكانت لحظة حاسمة، فإما امتداد شقاء لا نهاية له، وإما افتتاح سعادة لا آخر لها، وقد حبست الإنسانية أنفاسها، ووقفت خاشعة حين وصل الباحثون إلى فم الغار، ولم يبق بينهم وبين العثور على منشودهم إلا أن ينظر أحدهم إلى تحت قدميه.

ولكن الله حال بينهم وبين ذلك، فاختلط عليهم الأمر، ورأوا على باب الغار نسج العنكبوت[٢]، وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله: ﴿فَأَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾[٣].

---

(١) رواه الحافظ ابن عساكر بسنده عن جماعة من الصحابة.
(ابن كثير؛ ج٢؛ ص٢٤٠ - ٢٤١).

(٢) رواه الأمام أحمد في مسنده عن ابن عباس (ابن كثير، ج٢، ص٢٣٩) والبزار في مسنده.

(٣) سورة التوبة ٤٠.

لا تحزن إن الله معنا:

وبينما هما في الغار، إذ رأى أبو بكر آثار المشركين، فقال: يا رسول الله! لو أن أحدهم رفع قدمه، رآنا: قال: ما ظنك باثنين الله ثالثهما[1]؟ وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿ثانيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا في الغارِ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ: لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾[2].

ركوب سراقة في أثر الرسول ﷺ وما وقع له:

وجعلت قريش في رسول الله ﷺ حين فقدوه، مائة ناقة، لمن يرده عليهم ومكثا في الغار ثلاث ليال ثم انطلقا، ومعهما عامر بن فهيرة ودليل من المشركين، استأجره رسول الله ﷺ فأخذ بهم على طريق السواحل.

وحمل سراقة بن مالك بن جعشم الطمع على أن يتبع رسول الله ﷺ ويرده على قريش، فيأخذ مائة ناقة منهم، فركب على أثره يعدو، وعثر به الفرس، فسقط عنه فأبى إلا أن يتبعه، فركب في أثره، وعثر به الفرس مرة ثانية، فسقط عنه، وأبى إلا أن يتبعه، فركب في أثره، فلما بدا له القوم رآهم، وعثر به الفرس مرة ثالثة، وذهبت يداه في الأرض، وسقط عنه، وتبعها دخان كالإعصار.

وعرف سراقة حين رأى ذلك أنه رسول الله ﷺ في حماية الله تعالى، وأنه ظاهر لا محالة، فنادى القوم، وقال: أنا سراقة بن جعشم، أنظروني أكلمكم، فوالله لا يأتيكم مني شيء تكرهونه، فقال رسول

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري، باب «قوله تعالى: ثاني اثنين اذ هما في الغار؛ كتاب التفسير».

(٢) سورة التوبة ٤٠.

الله ﷺ لأبي بكر: قل له: وما تبتغي منا؟، قال سراقة: تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك، فكتب عامر بن فهيرة كتاباً في عظم أو رقعة[1].

نبوة لا يسيغها العقل المادي:

وفي هذه الحال التي اضطر فيها نبي الله إلى الهجرة، والخروج من مكة، والقوم يطاردونه ويتبعون آثاره، نظر رسول الله ﷺ إلى اليوم البعيد الذي يطأ فيه أتباعه تاج كسرى وعرش قيصر، ويفتحون خزائن الأرض، فتنبأ في هذا الظلام الحالك بهذا النور الباهر، وقال لسراقة: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟».

إن الله قد وعد نبيّه بالنصر والفتح المبين، ولدينه بالظهور العام والفتح التام، وقال: ﴿هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الحَقِّ، لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[2].

وقد أنكر ذلك قصار النظر وضعاف العقول، واستبعدته قريش، ولكن عين النبوة ترى البعيد قريباً ﴿ان الله لا يخلف الميعاد﴾.

وكان كذلك، فلما أتى عمر - رضي الله عنه - بسواري كسرى ومنطقته وتاجه، دعا سراقة بن مالك فألبسه اياها[3].

وعرض عليه سراقة الزاد والمتاع، فلم يقبله رسول الله ﷺ ولم يزد أن قال: أخف عنا[4].

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ق١، ص٤٨٩ - ٤٩٠؛ والجامع الصحيح للبخاري الجزء الأول، باب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة باختلاف بعض الألفاظ.

(٢) سورة التوبة: ٣٣.

(٣) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن عبد البر، ج٢، ص٥٩٧.

(٤) الجامع الصحيح للبخاري، باب «هجرة النبي ﷺ».

رجل مبارك:

ومرا في مسيرهما بأم معبد الخزاعية، وكانت عندها شاة خلفها الجهد عن الغنم، فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها، وسمى الله، ودعا، فدرت، فسقاها، وسقى أصحابه، حتى رووا، ثم شرب، وحلب فيه ثانياً، حتى ملأ الإناء، فلما رجع أبو معبد، سأل عن القصة، فقالت: لا والله الا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت، ووصفته له وصفاً جميلاً، قال: والله اني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه[1].

ولم يزل يسلك بهما الدليل، حتى قدم بهما «قباء»، وهي في ضواحي المدينة، وذلك في الثاني عشر من ربيع الأول، يوم الاثنين[2]. فكان مبدأ التاريخ الإسلامي.

---

(١) زاد المعاد، ج٢ ص٣٠٩.
(٢) الجامع الصحيح للبخاري، باب «هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة».

تصوير المدينة عند الهجرة

اختلاف بين المجتمع المكي والمجتمع المدني:

ولكي نأخذ صورة اجمالية صحيحة عن مدينة يثرب - التي اختارها الله دار هجرة للرسول، ومنطلق الدعوة الإسلامية في العالم، ومهد أول مجتمع اسلامي يقوم بعد ظهور الإسلام - يجب أن نعرف وضعها المدني، والاجتماعي، والاقتصادي، وصلة القبائل المقيمة فيها، بعضها ببعض، ومركز اليهود فيها، الاجتماعي، والاقتصادي، والحربي، والواقع الذي كانت تعيشه هذه المدينة الخصبة الغنية، التي التقت فيها ديانات، وثقافات، ومجتمعات مختلفة، بخلاف مكة ذات الطبيعة الواحدة، والطابع الموحد، والدين المشترك، وإلى القارىء بعض أضواء.

اليهود:

المرجح في ضوء التاريخ أن غالبية اليهود حلوا بالجزيرة العربية بصفة عامة، ومدينة يثرب بصفة خاصة، في القرن الأول الميلادي، يقول الدكتور اسرائيل ولفنسون:

«بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠م التي انتهت بخراب بلاد فلسطين، وتدمير هيكل بيت المقدس، وتشتت اليهود في أصقاع العالم، قصدت جموع كثيرة من اليهود بلاد العرب كما حدثنا عن ذلك المؤرخ اليهودي «يوسي فوس» الذي شهد تلك الحروب، وكان قائداً لبعض

وحداتها.... وتؤيد المصادر العربية كل هذا »[1].

وكانت في المدينة ثلاث قبائل كبيرة رئيسية من اليهود، بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين، وهي: « قينقاع » و« النضير » و« قريظة »، ويقدر أن رجال قينقاع المحاربين، بلغ عددهم سبعمائة، كما كان عدد رجال النضير مثل هذا العدد، وكان الرجال البالغون من قريظة ما بين سبعمائة وتسعمائة[2].

وكانت العلاقة بين هذه القبائل الثلاث مضطربة متوترة، وقد يكون بعضهم حرباً على بعض، يقول الدكتور اسرائيل ولفنسون:

« قد كانت هناك عداوة بين بني قينقاع وبقية اليهود، سببها أن بني قينقاع كانوا قد اشتركوا مع بني الخزرج في يوم « بعاث » وقد أثخن بنو النضير وبنو قريظة في بني قينقاع، ومزقوهم كل ممزق، مع أنهم دفعوا الفدية عن كل ما وقع في أيديهم من اليهود، وقد استمرت

---

(١) « تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام » للدكتور اسرائيل ولفنسون (أبو ذوئيب)، ص٩؛ مطبعة الاعتماد القاهرة ١٩٢٧م.

(٢) أستفيد في هذا التقدير مما جاء في سيرة ابن هشام من الاعداد عند الحوادث والحروب، كجلاء بني النضير، وقتل الرجال من بني قريظة، وغير ذلك من القرائن.

و« قينقاع » و« النضير » و« قريظة » هي القبائل اليهودية الأم، ولها توابع يلتحقون بها، وينسبون اليها كبني هدل، التابعين لبني قريظة، كان منهم بعض كبار الصحابة الذين أسلموا من أهل الكتاب، وكبني زنباع وهم فرع من فروع بني قريظة، وقد جاءت أسماء لجماعات يهودية في العقد الذي تم بين رسول الله ﷺ وبين اليهود، كيهود بني عوف، ويهود بني النجار؛ ويهود بني ساعدة، ويهود بني ثعلبة، وبني جفنة، وبني الحارث، وغيرها، وقد جاء في هذا العقد بعد ذكر هذه الجماعات « ان بطانة يهود كأنفسهم »؛ وذلك الذي حمل السمهودي صاحب كتاب « وفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى » على أن يقول: « إن يهود كانوا نيفاً وعشرين قبيلة »؛ (وفاء الوفاء؛ ص١١٦).

هذه العداوة بين البطون اليهودية بعد يوم «بعاث»، حتى وقعت الحرب بين الأنصار وبين بني قينقاع، فلم ينهض معهم أحد من اليهود في محاربة الأنصار.

وقد أشار القرآن إلى عداوة اليهود فيما بينهم بقوله:

﴿وإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وأَنْتُم تَشْهَدُونَ، ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنكُمْ من دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ والعُدْوَانِ، وإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾[1].

وكانوا يعيشون في أحياء وقرى مختلفة خاصة بهم، فكانت بنو قينقاع يسكنون داخل المدينة في محلة خاصة بهم، بعد أن طردهم اخوانهم بنو النضير وقريظة من مساكنهم التي كانت خارج المدينة وكانت مساكن بني النضير بالعالية بوادي «بطحان» على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة، وكانت عامرة بالنخيل، والزروع، وكانت بنو قريظة يسكنون في منطقة مهزور التي تقع على بعد بضعة أميال من جنوب المدينة[2].

وكانت لهم حصون، وآطام، وقرى، يعيشون فيها متكتلين مستقلين، لم يتمكنوا من انشاء حكومات يحكمها اليهود، بل كانوا مستقلين في حماية سادات القبائل ورؤسائها، يؤدون لهم أتاوة في كل عام، مقابل حمايتهم لهم، ودفاعهم عنهم، ومنع الأعراب من التعدي عليهم، وقد لجأوا إلى عقد المحالفات معهم، وكان لكل زعيم يهودي حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب[3].

---

(١) سورة البقرة ٨٤ - ٨٥، «اليهود في بلاد العرب»، ص١٢٩.

(٢) «بنو اسرائيل في القرآن والسنة» للدكتور محمد سيد الطنطاوي ص٧٧.

(٣) ملخص من «تاريخ العرب قبل الإسلام» ج٧ ص٢٣ للدكتور جواد علي.

وكانوا ينعتون أنفسهم بأنهم أهل العلم بالأديان والشرائع، وكانت لهم مدارس يتدارسون فيها أمور دينهم، وأحكام شريعتهم، وأيامهم الماضية، وأخبارهم الخاصة برسلهم وأنبيائهم، كما كانت لهم أماكن خاصة يقيمون فيها عباداتهم وشعائر دينهم، وكانت تسمى «المدارس»[1] وكان المكان الذي يتجمع فيه اليهود لتبادل المشورة في سائر أحوالهم الدينية والدنيوية.

وكانت لهم تشريعاتهم ونظمهم الخاصة بهم، أخذوا بعضها عن كتبهم، وبعضها وضعه لهم كهانهم وأحبارهم من عند أنفسهم وكانت لهم أعيادهم الخاصة بهم، وأيام خاصة، يصومون فيها، كيوم عاشوراء[2].

ويبدو أنهم ضعفت صلتهم بدينهم الأصيل والتعليمات التي جاءت في صحفهم، وأصبحوا على مرّ الأيام لا يتميزون عن جيرانهم العرب، الاّ بأثارة من عقيدة التوحيد، وتمييز بين الحلال والحرام، ولمّا جاء الاسلام بعقيدة التوحيد النقيّة الحاسمة كما جاء في القرآن، زال تميُّزهم في ذلك أيضا.

وقد بلغوا غاية الاسفاف والتدنّي في الأخلاق، وأصبحوا يستعينون في قضاء مآربهم بأمور خفية مدسوسة كالسحر، ودسّ السمّ في الطعام، وتسلية النفس بالتنكيت والتوريب[3]، واستعمال الكلمات الموهمة ذات المعنيين شأن المجتمعات الحاقدة المغلوبة على أمرها، وبراعة اليهود في فنون السحر والكهانة من الحقائق المسلّمة في التاريخ، وظلّ قادتهم

---

(١) تحقق من المصادر اليهودية أن هذه المدارس كانت مركزاً للتعليم الديني العالي وكانت كالكليات والجامعات في عصرنا (راجع دائرة المعارف اليهودية).

(٢) «بنو اسرائيل في القرآن والسنة»، ص٨٠ – ٨١.

(٣) التوريب ان تورّى عن الشيء بالمعارضات والمباحات (لسان العرب والقاموس المحيط).

وعلماؤهم يعترفون بذلك بشيء من التيه والافتخار، وأشار الى ذلك القرآن بقوله: ﴿واتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ على مُلْكِ سُلَيْمَانَ الخ...﴾[١]، (سورة البقرة آية ١٠٢)، وقد ظل هذا الولع باقيا الى عهد الرسالة، يقول المستشرق اليهودي الشهير مارجليوث (MARGOLIOUTH) المعروف بتحامله على الإسلام وصاحب رسالته في كتابه عن رسول الله ﷺ:

«كان هؤلاء اليهود بارعين في فن السحر وكانوا يفضّلون أسلحة الفن الأسود (السحر) على القتال السافر والمبارزة في ساحة الحرب»[٢].

وسيأتي في قصة غزوة خيبر محاولة دسّ السم في شأة مشويّة قُدِّمت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم للتخلّص منه، سلم منه النبي صلى الله عليه وسلم ومات بشر بن البراء بن معرور[٣].

وأما استخدام الكلمات المعروفة بطريقة خاصة وارادة معانيها المستهجنة فقد جاء في القرآن: ﴿يَا أَيُّها الَّذين آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا واسْمَعُوا ولِلْكَافِرِينَ عَذابٌ أَليمٌ﴾[٤]، أخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنه أن اليهود كانوا يقولون: «راعنا» سِرّا لرسول الله ﷺ وهوسبٌّ قبيح بلسانهم، كانوا يقولون ذلك ويضحكون في ما بينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ونهى المؤمنون سدّا للباب وقطعا للألسنة، وإبعاداً عن المشابهة، ومعنى هذه الكلمة عند اليهود اسمع - لا سمعت - وقيل ارادوا نسبته صلى الله عليه وسلم - وحاشاه - الى

---

(١) سورة البقرة - آية ١٠٢.

(2) D. S. Margoliouth's Muhammad and The Rise of Islam' p. 189.

(٣) الجامع الصحيح للبخاري «باب الشاة التي سمّت للنبي ﷺ بخيبر».

(٤) سورة البقرة ١٠٤.

« الرعن » مشتقا من الرعونة وهي الجهل والحمق، والألف حينئذ لمدّ الصوت[١].

وروى البخاري بسنده عن عروة عن عائشة رضي الله عنها، قالت كان اليهود يسلمون على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، يقولون: « السام عليك »[٢] ويعنون به الموت، وفي الحديث «لكل داء دواء » الاّ السام[٣] أي الموت »، وفي ذلك نزلت الآية: ﴿وإذا جاءوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ﴾[٤].

وابتلوا كذلك بانحطاط خلقي جنسي وتورُّط في ما لا يليق بمجتمع فاضل متماسك يقوم على شريعة وتعليمات سماوية، تجلى ذلك في قصة امرأة من العرب وقعت في سوق بني قينقاع، وقد جلست الى صائغ بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده، إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه[٥]، ويبدو أن هذه الحادثة لم تكن فريدة من نوعها ويتعذّر وقوعها في أسواق العرب غالبا.

وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على المراهنات، وتعاطي الربا، وكانت لهم من طبيعة منطقة المدينة الزراعية فرصة إلى ذلك، لأن الزراع عادة يحتاجون إلى اقتراض الأموال لحين الحصاد[٦].

---

(١) روح المعاني للعلامة شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي، ج١، ص٣٤٨ - ٣٤٩.
(٢) الجامع الصحيح، كتاب الدعوات.
(٣) مجمع بحار الأنوار، ج٣، ص١٥٥.
(٤) سورة المجادلة - ٨، راجع روح المعاني، وتفسير ابن كثير.
(٥) سيرة ابن هشام، ق٢، ص٤٨.
(٦) «بنو اسرائيل في القرآن والسنة ».

وكانت المراهنة لا تقتصر على الرهائن المالية، بل تخطتها إلى مراهنة النساء والولدان وقد جاء في قصة قتل كعب بن الأشرف النضري التي رواها الامام البخاري - رحمه الله - في صحيحه، أنه قال له محمد بن مسلمة: قد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين، فقال: نعم، ارهنوني قالوا: أي شيء تريد؟! قال: أرهنوني نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنوني أبناءكم، قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين، هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللأمة[1].

ومن طبيعة هذه المراهنات خصوصاً إذا كانت في الأبناء والنساء، نشوء الحقد والكراهة بين الراهنين والمرتهنين، لا سيما وأهل العرب اشتهروا بالغيرة الشديدة على نسائهم وشدة الأنفة.

وقد ترتب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصادية في المدينة وضواحيها أن قوي نفوذهم المالي، وصاروا يتحكمون في الأسواق تحكماً فاحشاً، ويحتكرونها لمصلحتهم ومنفعتهم، فكرههم السواد الأعظم من الناس بسبب أنانيتهم واشتطاطهم في أخذ الربا، وحصولهم على غنى وثراء بطرق يأنف العربي عن سلوكها والتعامل بها[2]، ولما طبعوا عليه من الجشع، ولسياستهم التوسعية، يقول «De -lacy O'Leary» في كتابه «العرب قبل محمد»:

«ساءت العلاقات بين أولئك البدو (المدنيين)[3] واليهود المستعمرين

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب «قتل كعب بن الأشرف»، وقد سرد القصة ابن هشام باختلاف يسير في السيرة النبوية، ق٢، ص٥١.

(٢) «بنو اسرائيل في القرآن والسنة»؛ ص ٧٩.

(٣) المراد بهم القبائل العربية؛ مثل الأوس والخزرج ومن جاورهم من العرب في ضواحي المدينة.

في القرن السابع الميلادي، فانهم كانوا قد وسعوا مناطقهم المزروعة إلى مراعي هؤلاء البدو »[١].

وكانت علاقة اليهود بالأوس والخزرج - سكان المدينة العرب - خاضعة للمنفعة الشخصية والمكاسب المادية، فهم يعملون على اثارة الحرب بين الفريقين، متى وجدوا في اثارتها فائدة لهم، كما حصل ذلك في كثير من الحروب التي أنهكت الأوس والخزرج، وكان يهمهم فقط أن تكون لهم السيطرة المالية على المدينة، وحديثهم عن النبي المرتقب شجع الأوس والخزرج على الدخول في الإسلام[٢].

أما لغة اليهود في بلاد العرب، فقد كانت العربية بطبيعة الحال، ولكنها لم تكن خالصة، بل كانت تشوبها الرطانة العبرية، لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركاً تاماً، بل كانوا يستعملونها في صلواتهم ودراساتهم[٣].

أما الجانب الديني والدعوى فيقول الدكتور اسرائيل ولفنسون:

«لا شك أنه كان في المقدرة اليهودية أن تزيد في بسط نفوذها الديني بين العرب، حتى تبلغ منزلة أرقى مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة، ولكن الذي يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الأمة الإسرائيلية لم تمل بوجه عام إلى إرغام الأمم على اعتناق دينها، وأن نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود »[٤].

---

(1) Arabia Before Mohamed, London 1927 p. 174.

(٢) مستفاد من كتاب « بنو اسرائيل في القرآن والسنة » للدكتور محمد سيد طنطاوي من ص ٧٣ إلى ١٠١.

(٣) « مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول » للأستاذ أحمد ابراهيم الشريف ص ٢٠٣.

(٤) راجع « اليهود في بلاد العرب » لاسرائيل ولفنسون ص ٧٢.

عجز اليهود كعادتهم أن يكيّفوا أنفسهم ومجتمعهم بالحقائق والواقع والتطورات الحديثة، ويفهموا التحدّي الحديث وينتفعوا بالفرص المتاحة ويدينوا بالاسلام، فيأخذوا مكانهم اللائق بثقافتهم وعقليتهم وتجاربهم والقُوَى المودعة فيهم، وذلك مصير كل مجتمع يعيش على التاريخ، والإدلال بالنسب والتمنيّات والأحلام المعسولة، ورواسب الماضي والقيادات المفلسة المنهارة.

ان اليهود لم يستطيعوا أن يبرزوا وجودهم ويثبتوا صلاحيتهم وتفوقهم كأمة ذات رسالة وكتاب سماوي، وكورثة الأنبياء السابقين وذريتهم، فلم يزعجهم ولم يحرك ساكنهم ما كان عليه العرب من وثنية سخيفة وجاهلية منحطة، ولم يدعوا - على الأقل - الى عقيدة التوحيد التي تميّزوا بها عبر العصور والأجيال، ورغم الانحطاط الخلقي ومواضع الضعف فيهم، ولعل السبب الرئيسي هو عدم ارتياحهم الى دعوة غير الاسرائيليين الى دين الأنبياء بل امتناعهم عن ذلك عبر التاريخ - كما يقول اسرائيل الفنسون وكما قالت السيدة مريم جميلة اليهودية الامريكية سابقا، والمهتدية الى الإسلام - ثم الإخلاد الى الراحة والانغماس في الكسب والمعيشة، كما هي طبيعة اليهود.

ولكن مما لا شك فيه أن عدداً من العرب المنتمين إلى الأوس والخزرج وغيرهما من القبائل العربية الأصيلة، دانوا باليهودية عن رغبة منهم، أو بتأثير المصاهرة والزواج، أو بحكم النشأة في البيئة اليهودية، وقد كان في يهود العرب جميع هذه الأنواع، وقد ثبت أن التاجر اليهودي الكبير والشاعر المشهور كعب بن الأشرف الذي يعرف بالنضري كان من قبيلة «طيء» تزوج أبوه في بني النضير، فنشأ كعب بن الأشرف يهودياً متحمساً. قال ابن هشام: «وكان رجلاً من طيء، ثم

أحد بني نبهان، وكانت أمه من بني النضير»[١]، وكان بعض من لا يعيش له ولد من العرب ينذر، إذا ولد له ابن وعاش هوَّدوه، وكان في المدينة عدد من العرب الذين دخلوا في اليهودية عن هذا الطريق. روى الإمام أبو داؤد السجستاني بسنده عن ابن عباس قال: «كانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها ان عاش لها ولد، أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ﴾ «قال أبو داود المقلاة التي لا يعيش لها ولد»[٢].

الأوس والخزرج:

تنتمي بطون الأوس والخزرج - سكان المدينة العرب - إلى القبائل الأزدية اليمنية، وكانت موجات هذه الهجرة من اليمن إلى يثرب متفرقة في أوقات مختلفة، وكانت لعوامل متعددة، منها اضطراب أحوال اليمن وغزو الأحباش، واهمال أمر الارواء، بخراب سد «مأرب»، وعلى هذا فالأوس والخزرج أحدث عهداً في المدينة من اليهود[٣].

وقد سكنت بطون الأوس في المنطقة الجنوبية والشرقية، وهي منطقة العوالي من يثرب، بينما سكنت بطون الخزرج المنطقة الوسطى الشمالية، وهي سافلة المدينة، وليس وراءهم شيء في الغرب إلى خلاء حرة الوبرة[٤].

---

(١) ابن هشام ق ٢ - ص ٥١.
(٢) راجع سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب «في الأسير يكره على الإسلام» ج ٢.
(٣) راجع «مكة والمدينة»؛ ص ٣١٥-٣١٦.
(٤) «مكة والمدينة» ص ٣١١.

وانقسم أمر الخزرج إلى أربعة أبطن، وهم: مالك، وعدي، ومازن، ودينار، كلها من بني النجار المعروف بـ «تيم اللات»، وقد سكنت بطون بني النجار في المنطقة الوسطى التي حول مسجد النبي ﷺ.

وقد سكن الأوس المناطق الزراعية الغنية في المدينة، وجاوروا أهم قبائل اليهود وجموعهم، واستوطن الخزرج مناطق أقل خصباً، وقد جاورهم قبيلة يهودية كبيرة واحدة، وهي القينقاع[١].

ليس من السهل الحصول الآن على احصاء دقيق عن عدد رجال الأوس والخزرج، ولكن الباحث المتتبع للحوادث يستطيع تحديد قوتهم الحربية من المعارك التي خاضوها بعد الهجرة، فقد بلغ عدد محاربيهم في يوم فتح مكة أربعة آلاف مقاتل[٢].

وكان العرب في وقت الهجرة النبوية أصحاب الكلمة العليا في يثرب، وبيدهم كان توجيه الأمور بها، ولم يستطع اليهود مقابل ذلك أن يجمعوا كلمتهم، ويقفوا صفاً واحداً في وجه خصوهم، فتفرقت بطونهم، ودخل بعضها في محالفات مع الأوس، ودخل بعضها في محالفات مع الخزرج، وكانوا في القتال أقسى على بني جنسهم من العرب، واستحكم عداء بين بني القينقاع وبني النضير وبني قريظة، جعل بني قينقاع يتركون أرضهم وزرعهم، ويقتصرون على الصناعة[٣].

ووقعت كذلك بين الأوس والخزرج حروب كثيرة، أولاها حرب سمير، وآخرها بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات[٤]. وقد عمل اليهود

---

(١) «مكة والمدينة»، ص ٣١٣.

(٢) «إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأحوال والحفدة والمتاع» لتقي الدين أبي محمد المقريزي ٣٦٤/١ (طبع القاهرة ١٩٤١ م).

(٣) «مكة والمدينة»، ص ٣٢٢.

(٤) «مكة والمدينة»، ص ٣٢٢-٣٢٣.

بجانبهم على الدس بين الأوس والخزرج وتشجيع عوامل الفرقة، واذكاء روح التحاسد، حتى يشغلوهم بأنفسهم عنهم[1]، وقد أدرك العرب منهم ذلك فلقبوهم بـ «الثعالب».

الوضع الطبيعي:

كانت يثرب عند الهجرة النبوية منقسمة إلى عدة دوائر، تسكنها بطون عربية ويهودية، وكل دائرة تابعة لبطن من البطون، وكانت الدائرة تنقسم إلى قسمين: يشتمل القسم الأول على الأراضي الزراعية بمنازلها وسكانها، ويشتمل القسم الثاني على الأطم أو الآطام[2].

وقد بلغ عدد آطام اليهود في يثرب تسعة وخمسين أطماً[3]، ويقول الدكتور ولفنسون في وصف هذه الآطام:

«كانت أهمية الآطام عظيمة في يثرب، فكان يفزع اليها أفراد البطن عند هجوم العدو ويأوي اليها النساء والأطفال والعجزة، حين يذهب الرجال لمقاتلة الأعداء، وقد كانت الآطام تستعمل كالمخازن تجمع فيها الغلال والثار، ذلك أنها كانت معرضة في أماكنها المكشوفة للنهب والسلب، وكان الأطم مربعاً لكنز الأموال والسلاح، وكان للقوافل المثقلة بالبضائع أن تنزل بالقرب منه، كما كانت تقام على أبوابه الأسواق.

---

(١) راجع القصة التي رواها ابن هشام ق ١ ص ٥٥٥.

(٢) مستفاد من كتاب «تاريخ اليهود في بلاد العرب» للدكتور اسرائيل ولفنسون ص ١١٦.

(٣) «وفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى» (صلى الله عليه وسلم) للسمهودي، ج ١ ص ١١٦.

وكانت الآطام تشتمل - كما نظن - على المعابد وبيوت « المدارس » ، اذ كانت فاخرة الأثاث ، كثيرة الأدوات ، مملوءة بالأسفار ، فكان يجتمع فيها الزعماء للبحث والمشاورة حيث يقسمون بالكتب المقدسة ، حين يهمون بابرام العقود والاتفاقات »[١].

ويقول الدكتور في تفسير كلمة « أطم »: « أنها مأخوذة من اللغة العبرية ، فيقال أطم عينيه: أغمضها ، وأطم أذنيه: سدهما ، والأطم في الجدران والحيطان: هي النوافذ المغلقة من الخارج ، والمفتوحة من الداخل ، ويستعمل في السور أي الحائط الضخم » ، يقول الدكتور:

« وعلى ذلك يمكننا أن نفترض أن اليهود أطلقوا على الحصن اسم أطم ، لأنه كان في امكانهم أن يغلقوا أبوابه ، وان كانت له نوافذ من الخارج وتفتح من الداخل »[٢].

ومن هذه الأحياء والدوائر المحصنة كانت تتكون مدينة يثرب ، فهي في الحقيقة مجموعة من القرى تقاربت وتجمعت ، فتكونت منها المدينة ، وإلى ذلك أشار القرآن بقوله:

﴿ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى﴾ ، وبقوله:

﴿لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾[٣].

وحرة واقم التي تحد المدينة من الشرق ، كانت أكثر عمراناً من الوبرة ، وحين هاجر النبي ﷺ إلى يثرب ، كانت حرة واقم مسكونة بأهم قبائل اليهود من بني النضير وقريظة ، وعدد من عشائر اليهود الأخرى ، كما كانت تسكنها أهم البطون الأوسية بنو عبد الأشهل وبنو

---

(١) « اليهود في بلاد العرب » ص ١١٦-١١٧.
(٢) نفس المصدر السابق ص ١١٧.
(٣) « مكة والمدينة » ص ٢٩٤.

ظفر وبنو حارثة، وبنو معاوية، وفي منازل بني الأشهل كان يقوم حصنهم واقم، الذي سمى الحرة باسمه[1].

الحالة الدينية والمكانة الاجتماعية:

كان العرب تابعين لقريش وأهل مكة في العقيدة والديانة، ينظرون إلى قريش كسدنة للبيت، وقادة في الدين، وقدوة في الاعتقاد والعبادة، خاضعين للوثنية السائدة على جزيرة العرب، يعبدون من الأصنام ما تعبدها قريش وأهل الحجاز، إلا أن علاقتهم ببعض الأصنام كانت أقوى من علاقتهم ببعضها، فكانت مناة لأهل المدينة، وكانت أقدم الأصنام، وكان الأوس والخزرج أشد اعظاماً لها من غيرهم، وكانوا يهلون لها شركاً بالله تعالى، وكانت حذو «قديد» الجبل الذي بين مكة والمدينة من ناحية الساحل، كما كانت اللات لأهل الطائف، والعزى لأهل مكة وكان أهل هذه المدن أكثر تعصباً وحمية لها من غيرها، وكان من اتخذ في داره صنماً من أهل المدينة من خشب أو غيره يسميه «مناة» أيضاً، كما فعل ذلك عمرو بن الجموح سيد من سادات بني سلمة قبل أن يسلم[2]، وقد جاء في حديث رواه الإمام أحمد عن عروة عن عائشة في تفسير قوله تعالى: ﴿ان الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جُناح عليه أن يَطوَّفَ بهما﴾، قالت إن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المشلل، وكان من أهلَّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف

---

(١) «منزل الوحي» للدكتور محمد حسين هيكل، ص ٥٧٧.

(٢) مستفاد من «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» للعلامة السيد محمود شكري الآلوسي؛ ج١ ص ٣٤٦ ج٢ ص٢٠٨.

بالصفا والمروة في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ الآية، ولم نطلع على صنم لهم خاص في المدينة اشتهر كاللات ومناة، والعزى، أو كهبل، يعكفون على عبادته، ويشد اليه الرحال من خارج المدينة، ويبدو أن الأصنام لم تنتشر في المدينة انتشارها في مكة، فقد كان لكل بيت في مكة صنم خاص، وكانت الأصنام يطاف بها وتباع، فكانوا في الوثنية عيالاً على أهل مكة وأتباعاً لهم.

وكان لأهل المدينة يومان يلعبون فيهما، فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال لهم: «قد أبدلكم الله تعالى بهما خيراً منهما، يوم الفطر والأضحى»[١]، وقد ذكر بعض شراح الحديث أنهما النيروز والمهرجان، وكأنهم أخذوهما من الفرس[٢].

وكانت قريش تعترف بشرف الأوس والخزرج، وهم بنو قحطان العرب العاربة، وكانوا يصاهرونهم، ويتزوجون فيهم، وقد تزوج هاشم ابن عبد مناف وهو سيد قريش في بني النجار، تزوج سلمى بنت عمرو ابن زيد من بني عدي بن النجار وهم من الخزرج إلا أنهم كانوا يرون لأنفسهم فضلاً عليهم، وقد قال عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة الذين دعوا إلى المبارزة يوم بدر، فخرج إليهم فتية من الأنصار فقالوا من أنتم؟ قالوا رهط من الأنصار، قالوا ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى مناديهم، يا محمد! أخرج الينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، فلما قاموا ودنوا منهم، وسموا أنفسهم، قالوا: نعم أكفاء كرام[٣]، وكانوا

---

(١) الحديث في الصحيحين.

(٢) «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب».

(٣) ابن هشام ق ١ ص ٦٢٥.

ينظرون إلى الفلاحة التي كان يمارسها أهل المدينة بحكم طبيعة أرضهم ولاعتمادهم عليها في معاشهم نظرة فيها شيء من الاحتقار، وقد تجلت هذه النظرة في الكلمة التي قالها أبو جهل وهو عقير، قد قتله ابنا عفراء وهما من الأنصار، وقد أدركه عبد الله بن مسعود وبه رمق «لو غير أكَّار قتلني»[1].

الحالة الاقتصادية والحضارية:

كانت مدينة يثرب بطبيعتها منطقة زراعية، وكان أكثر اعتماد أهلها على الزراعة والبساتين، وكان من أهم حاصلاتها التمر والعنب، فكانت فيها جنات النخيل والأعناب[2]، وجنات معروشات وغير معروشات، وزروع ونخيل صنوان وغير صنوان[3]، ومن الزروع الحبوب والبقول، وكان التمر وخاصة أيام الجدب، وتخلف الأمطار، يسد كثيراً من حاجة السكان الغذائية، وكان كعملة يتبادل بها أهلها عند الحاجة، وكانت النخيل مصدر خيرات كثيرة في حياتهم، فكانوا يستخدمونه في الغذاء والبناء، والصناعة، والوقود، وعلف الدواب[4]، ولتمر المدينة أنواع

---

(١) رواه الشيخان: قال العلامة محمد طاهر الفتني في «مجمع بحار الأنوار»: أي الزراع والفلاح: وهو عند العرب ناقص يعرض بأن ابني عفراء من الزراع، فلو غيرهما قتلني لم يكن على نقص، ج ١، ص ٦٨.

(٢) اقرأ حديث أبي طلحة في بيرحاء الذي رواه الشيخان: وكانت بساتين ملتفة الأغصان والأوراق حتى يدخل فيها الدبسي - وهو طائر صغير - فلا يكاد يخرج منها، جاء في قصة أبي طلحة الأنصاري: أنه كان يصلي في حائط له، فطار دبسي: فطفق يتردد يلتمس مخرجاً فأعجبه ذلك، فجعل يتبعه بصره ساعة، إلى قصة تصدقه بهذا الحائط بسبب الفتنة التي فتن بها، أخرجه مالك في موطأه.

(٣) راجع سورة الأنعام وسورة الرعد.

(٤) اقرأ شرح الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه (في كتاب العلم، وترجم له: «باب طرح الامام المسألة على الناس ليختبر ما عندهم من العلم») في «فتح الباري»، للحافظ ابن حجر العسقلاني أو «عمدة القاري» للعيني.

كثيرة وتفاصيل دقيقة تصعب الاحاطة بها[١]، ولأهل المدينة تجارب وطرق في تنمية حاصل النخيل وتحسينه استفادوها من طول المراس، منها تأبير النخل[٢].

هذا لا ينفي وجود حركة تجارية في المدينة، ولكنها لم تكن في القوة والانتشار بمكانة الحركة التجارية في مكة، اذ كان اعتماد أبناء الوادي - وهي غير ذي زرع ومياه وفيرة - على التجارة ورحلة الشتاء والصيف.

وكانت في المدينة بعض الصناعات يمارس أكثرها اليهود، ولعلهم جلبوها من اليمن، فلم يزالوا فيه إلى أن غادروه في الزمن الأخير، حاذقين في الصناعات، وكان عامة بني قينقاع صاغة، وكانوا أغنى طوائف اليهود في مدينة يثرب، وكانت بيوتهم تحتوي على الأموال الطائلة، والحلى الكثيرة من الفضة والذهب، مع أن عددهم كان غير كثير[٣].

وقد منحت طبيعة يثرب، وهي بركانية التربة، أراضيها خصباً زائداً، وهي ذات وديان كثيرة، تفيض بمياه السيول، فتروي أرضها وتسقي النخل والزروع، اشتهر منها وادي العقيق[٤]، الذي كان منتزه

---

(١) تدل الثروة اللغوية الكبيرة التي تدور حول النخلة والتمر، على ما كانت تشغله هذه الشجرة وثمرتها من مكان في حياة العرب عامة وأهل المدينة خاصة، وما كان لهما من أهمية، راجع على سبيل المثال «أدب الكاتب» لابن قتيبة و«فقه اللغة» للثعالبي، و«المخصص» لابن سيدة؛ وقد أفرد عدد من العلماء كتباً للنخل.

(٢) التأبير هو أن يشق طلع النخلة ليذر فيه شيء من طلع ذكر النخل، (شرح مسلم للنووي).

(٣) «اليهود في بلاد العرب» ص ١٢٨.

(٤) اقرأ «معجم البلدان» لياقوت الحموي؛ و «الأغاني» لأبي فرج الأصبهاني.

المدينة، وكان يتدفق بالماء، ويزهو بالبساتين، وكانت الأرض صالحة لحفر الآبار، وقد كثرت فيها البساتين، ومنها ما هو مسور ويسميه أهل المدينة «الحائط»[1]، واشتهرت آبار كثيرة بعذوبة الماء ووفرته، وكانت لهم شراج[2]، وكانوا يحولون الماء بالمساحي إلى حدائقهم[3].

وكان من الحبوب الرئيسية الشعير، ثم القمح، وتكثر الخضروات والبقول، وكانت لهم طرق في المزارعة والمؤاجرة والمزابنة، والمحاقلة، والمخابرة، والمعاومة، منها ما أقره الإسلام ومنها ما منعه أو أصلحه[4].

وكانت العملة في مكة والمدينة واحدة، وقد شرحناها، وكانت المدينة تعتمد على المكاييل وتحتاج إليها أكثر من مكة، لاعتماد أهلها على الحبوب والثمار[5]، وكانت الأكيال المستعملة في المدينة هي المد والصاع

---

(١) اقرأ قصة ابتلاء كعب بن مالك في الجامع الصحيح للبخاري (كتاب المغازي) وقد جاء فيه: «حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي».

(٢) الشرجة: هي مسيل الماء.

(٣) اقرأ حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم، وجاء فيه: «اسق حديقة فلان»، وجاء فيه ذكر الشراج، وتحويل الماء بالمسحاة.

(٤) اقرأ أبواب الحرث والمزارعة في الصحاح: و «المزابنة»: بيع التمر في رؤوس النخل بالتمر كيلا؛ و «المحاقلة»، بيع الزرع في سنبله، الشعير بشعير كيلا، والقمح بقمح كيلا، و «المخابرة» و «المزارعة» متقاربتان؛ وهما المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها من الزرع؛ كالثلث، والربع، لكن في المزارعة يكون البذر من مالك الأرض، وفي المخابرة يكون البذر من العامل، وقال جماعة من أهل اللغة هما بمعنى وفي صحة المزارعة والمخابرة خلاف مشهور للسلف والخلف؛ (مستفاد من شرح النووي لمسلم) «والمعاومة» هو بيع السنين، ومعناه أن يبيع ثمر الشجرة عامين؛ أو ثلاثة أو أكثر.

(٥) لذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الميزان ميزان أهل مكة، والمكيال مكيال أهل المدينة» (رواه أبو داود والنسائي من رواية طاؤوس عن ابن عمر وصححه ابن حبان، والدارقطني).

والفرق والعرق والوسق[1] أما الأوزان المستعملة فهي الدرهم والثقاف والدانق والقيراط والنواة والرطل والقنطار والأوقية[2].

ولم تكن المدينة - على خصبها - مكتفية غذائياً، فكان أهلها يستوردون بعض المواد الغذائية من الخارج، وكانوا يجلبون دقيق الحوار والسمن والعسل، من الشام، قد جاء في حديث رواه الترمذي عن قتادة ابن النعمان - رضي الله عنه -: «كان الناس انما طعامهم بالمدينة، التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة[3]، من الشام من الدرمك[4]، ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه، وأما العيال فانما طعامهم التمر والشعير[5]، والقصة تلقي ضوءاً على الحالة الغذائية في المدينة - التي لم تحدث بعد الهجرة فجأة - وعلى المستويات المختلفة في المعيشة.

وكان اليهود - كما عرف من طبيعتهم وتاريخهم في كل بلد - أكثر غنى من العرب، وكان العرب بطبيعتهم العربية البدوية، لا يفكرون في المستقبل كثيراً، فيوفرون له المال، وكانوا أهل ضيافة وكرم، يضطرون إلى الاستدانة من اليهود، وكثيراً ما تكون هذه الاستدانة بالربا والرهن.

وكان لأهل المدينة ثروة من الابل والبقر والأغنام، ويستخدمون الابل في إرواء الأراضي ويسمونها بـ«الابل النواضح» وكانت لهم

(١، ٢) راجع للتفصيل والتقدير شروح كتب الحديث وكتب الخلاف، انظر لمقاديرها «التراتيب الادارية» ج١ ص ٤١٣-٤١٥.

(٣) الضافطة: قال الفتني: «الضافطة» و«الضفاط» من يجلب الميرة والمتاع إلى المدن؛ وكانوا قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت وغيرها، (مجمع بحار الأنوار، ج٣ ص٤١٠؛ طبع حيدر آباد - الهند).

(٤) «الدرمك»: الدقيق الحواري؛ واحدة «الدرمكة».

(٥) انظر تفسير قوله تعالى: ﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خواناً أثيماً» الآيات في جامع الترمذي.

مراعي اشتهرت منها «زغابة» و«الغابة»، يحتطب منها الناس، ويرعون فيها ماشيتهم[١] وكانت لهم خيل يستخدمونها في الحروب وان كانت قليلة بالنسبة إلى مكة، وكان بنو سليم مشهورين باقتناء الخيل، يجلبونها من الخارج.

وكانت في المدينة عدة أسواق،أهمها «سوق بني قينقاع» مركز بيع الحلي والمصوغات الذهبية، وكانت سوق البزازين، وتوجد في المدينة المنسوجات القطنية والحريرية، والنمارق الملونة والستور المرسومة[٢]، وكان عطارون يبيعون أنواع العطور والمسك، وكان يوجد من يتجر في العنبر والزئبق[٣]، وكانت أنواع من البيع منها ما أقره الاسلام، ومنها ما منعه، من النجش والاحتكار، وتلقي الركبان خارج المدينة، وبيع المصراة، والبيع بالنسيئة، وبيع الحاضر للبادي، وبيع المجازفة، وبيع المزابنة، والمخاضرة[٤]، وكان من الأوس والخزرج من يتعامل بالربا، وان كان ذلك نادراً بالنسبة إلى اليهود.

وقد توسعت الحياة في المدينة بعض التوسع، ورقت بحكم طبيعة أهلها، فكانت البيوت ذات طبقات[٥]، وكانت لبعض البيوت حدائق، وكانوا يستعذبون الماء، وقد يأتون به من بعيد، وكانت توجد كراسي[٦]، وكانت تستعمل أقداح من زجاج وأقداح من الحجارة،

---

(١) راجع «معجم البلدان» لياقوت الحموي، و «وفاء الوفاء» للسمهودي.

(٢) اقرأ حديث عائشة الذي رواه الشيخان، وقد جاء فيه ذكر القرام» قال الفتني: هو ستر رقيق وقيل صفيق من صوف ذي ألوان، قيل: ضربته مثل حجلة العروس، وقيل: وكان مزيناً منقشاً، (مجمع بحار الأنوار ج ٤ ص٢٥٨).

(٣) راجع «التراتيب الادارية» للعلامة عبد الحي الكتاني (القسم التاسع).

(٤) انظر أبواب البيع في كتب الحديث والفقه؛ وشرح الكلمات فيها؛ وأحكامها من الحلة والحرمة.

(٥) انظر حديث الهجرة، ونزول رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب رضي الله عنه.

(٦) «التراتيب الادارية» ج ١ ص ٩٧.

وسرج منوعة[١]، وكانوا يستخدمون المكاتل والقفف في أعمال المنزل والزراعة، وكان للأغنياء شيء كثير من الأثاث لبيوتهم، خصوصاً اليهود، وكانت أنواع من الحلي كالأساور، والدمالج، والخلاخيل، والأقرطة، والخواتم والعقود من الذهب أو من جزع ظفار[٢]، وكان الغزل والنسيج فاشيين في النساء، فكانت الخياطة والدباغة وعمل بناء البيوت، وضرب الطوب والنحت، من الصناعات التي عرفت في المدينة قبل الهجرة.

الوضع المعقد الذي واجهه الرسول ﷺ في مدينة يثرب:

وهكذا لم ينتقل رسول الله ﷺ والمهاجرون من مدينة - مكة - إلى قرية - يثرب - بل انتقل من مدينة إلى مدينة، وان كانت هي الأخرى تختلف عن الأولى في مظاهر كثيرة للحياة، وكانت أصغر منها نسبياً، ولكن الحياة فيها كانت أكثر تعقداً، والقضايا التي سيواجهها الرسول أكثر تنوعاً، لوجود ديانات وبيئات وثقافات مختلفة، لا يتغلب عليها ولا يصهر المدينة كلها في بوتقة عقيدة واحدة، ودعوة واحدة إلا الرسول المؤيد من الله، الذي أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب، وقوة الجمع بين الأنماط البشرية الكثيرة، والقوى المتصارعة والأهواء المتعاكسة، وألقى عليه محبة منه، وصدق الله العظيم:

﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم، وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ، إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٣].

---

(١) أيضاً ص ١٠٤.

(٢) اقرأ حديث عائشة في قصة الإفك الذي رواه البخاري في كتاب المغازي و «الجزع خرز فيه سواد وبياض»؛ و «ظفار» مدينة باليمن.

(٣) سورة الأنفال، الآيات ٦٢- ٦٣.

مساكن القبائل الهامة ومواقع الغزوات الإسلامية

١- الحديبية
٢- الطائف
٣- حنين
٤- الأبواء
٥- صفوان
٦- حمراء الأسد
٧- بدر
٨- ذو العشيرة
٩- بواط
١٠- قينقاع
١١- أحد
١٢- الأحزاب
١٣- قرقرة الكدر
١٤- السويق

• مدن كبيرة
• مواقع الغزوات
— مساكن القبائل

أميال

١٠ ٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ٥٠٠

البحر المتوسط
بحر قزوين
الفرات
دجلة
تغلب
الكوفة
عدوان
عذرة
لخم
بلي
مؤتة
دومة الجندل
كلب
جذام
تبوك
طي
أسد
عبس، مرة، ذبيان
غطفان
قضاعة
وادي القرى
خيبر
ذات الرقاع
سليم ومزينة
عامر
المدينة
تميم
يربوع
حنيفة
بكر ووائل
الخليج العربي
عبد القيس
بحر عمان
الأزد
هوازن
لحيان
مكة
رابغ
جدة
خزاعة
مذحج
همدان
كندة
خثعمة
الأزد (شنوءة)
الحارث
خولان
صنعاء
البحر الأحمر

في المدينة

كيف استقبلت المدينة رسول الله ﷺ؟

وسمع الأنصار بخروج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يخرجون كل يوم إذا صلوا الصبح إلى ظاهر المدينة، ينتظرون رسول الله ﷺ فما يبرحون حتى تغلبهم الشمس على الظلال، فيدخلون بيوتهم، وكان الزمن زمن صيف وحر.

وقدم رسول الله ﷺ حين دخل الناس البيوت، وكان اليهود يرون ما يصنع الأنصار، وكان أول من رآه رجل من اليهود، فصرخ بأعلى صوته، وأخبر الأنصار بقدوم رسول الله، فخرجوا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظل نخلة، ومعه أبو بكر - رضي الله عنه - في مثل سنه - وأكثرهم لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك، وازدحم الناس، ما يميزون بينه وبين أبي بكر، وفطن لذلك أبو بكر، فقال يظله بردائه فانكشف للناس الأمر[١].

واستقبلها زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليها فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة حتى أن العواتق لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم

---

(١) ابن هشام ق ١ ص ٤٩٢.

هو؟ أيهم هو؟، يقول أنس - رضي الله عنه - فما رأينا منظراً شبيهاً به[1].

وخرج الناس حين قدما المدينة في الطرق وعلى البيوت والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر! جاء رسول الله، الله أكبر! جاء محمد، الله أكبر! جاء محمد، الله أكبر! جاء رسول الله[2].

ويقول البراء بن عازب - وكان حديث السن -: قدم النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل الاماء يقلن: قدم رسول الله ﷺ[3].

وكبر المسلمون فرحاً بقدومه، وما فرحوا لشيء في حياتهم كفرحهم بقدوم رسول الله ﷺ.

وكانت المدينة باسمة الثغر، ترفل في حلل الفرح والفخر، وكانت بنات الأنصار ينشدن[4] في سرور ونشوة:

طلـــع البـــدر علينـــا	من ثنيـــــات الوداع
وجـــب الشكر علينـــا	مـــا دعـــا لله داع
أيهـــا المبعوث فينـــا	جئـــت بـــالأمر المطـــاع

---

(١) رواه الامام أحمد بسنده عن أنس بن مالك (ابن كثير ج٢ - ص ٢٦٩).
(٢) البخاري ومسلم من طريق اسرائيل عن أبي بكر في حديث الهجرة.
(٣) الجامع الصحيح للبخاري باب «مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة».
(٤) ابن كثير ج/٢، ص/٢٦٩، رواه البيهقي بسنده عن ابن عباس وعائشة، روى ابن القيم البيتين الأولين عند عودة النبي - صلى الله عليه وسلم - من تبوك، إلى المدينة وخروج الناس لتلقيه، قال: «وبعض الرواة يتوهم وهم ظاهر، لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة، ولا يمر بها إلا إذا توجه إلى الشام» (زاد المعاد ج/٢ ص/١٠١). =

يقول أنس بن مالك الأنصاري - وهو غلام يومئذ - شهدت رسول الله ﷺ يوم دخل المدينة، فما رأيت يوماً قط، كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا[1].

مسجد قباء وأول جمعة في المدينة:

وأقام رسول الله ﷺ بـ «قباء» أربعة أيام، وأسس مسجداً هناك، وخرج يوم الجمعة، وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاها في مسجدهم، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة[2].

في بيت أبي أيوب الأنصاري:

وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة والناس يتلقونه في الطريق أرسالاً، ويطلبون منه الاقامة عندهم، ويقولون أقم عندنا في العَدد

= ولكن المشهور المستفيض أن هذا النشيد إنما كان عند مقدمة من مكة إلى المدينة وعلى ذلك تكاد تتفق كتب السيرة، وفي الأبيات شواهد داخلية على أنها كانت عند مقدمه الأول إلى المدينة، فان روح الفرح والحماس التي تسيطر على هذه الأبيات تنطق بأنها قيلت وأنشدت عند الطلعة الأولى.

وقد تعددت الثنيات في المدينة، فلا مانع من أن يكون القادم من مكة يمر بثنية الوداع الواقعة في مدخل المدينة، فكان المدرج الذي ينزل منه إلى بئر عروة بالجنوب الغربي بالمدينة يسمى بثنية الوداع أيضا، يقول الشيخ عبد القدوس الأنصاري في كتاب «آثار المدينة المنورة»:

«وكما أن أهل المدينة كانوا يودعون المسافر منها إلى ناحية الشام من الثنية التي هي بطريق الشام، فكذلك لهم أن يودعوا المسافر إلى جهة مكة من الثنية الواقعة بطريق مكة، ويحق لكل من الثنيتين بهذا النظر أن تسمى ثنية الوداع لقيام معنى الثنية الذي هو الطريق في الجبل والوداع بكل منها ولاشتراكها فيه، فكلتاهما مركز لتوديع المسافرين ويقول: «ويوافقنا العباسي في تاريخه للمدينة على هذا الرأي، وهي ثنية الوداع التي تشرف على وادي العقيق، وتحيط به الحرة من كل جانب» (آثار المدينة المنورة - ص ١٦٠).

(١) رواه الدارمي بسنده عن أنس رضي الله عنه.

(٢) ابن هشام - ق ١، ص ٤٩٤.

والعُدد والمنعة، ويمسكون بزمام الناقة، فيقول: «خلوا سبيلها، فإنها مأمورة» ووقع ذلك مراراً.

ولما مر النبي ﷺ بحي من بني النجار إذا جوارٍ يضربن بالدفوف ويقلن:

نحن جوار من بني النجـــــــار يـــا حبـــذا محمـــد من جـــار[1]

حتى إذا أتى دار بني مالك بن النجار، بركت على مكان فيه باب المسجد النبوي اليوم، وهو يومئذ مربد[2] لغلامين يتيمين من بني النجار، وهم أخواله ﷺ.

ونزل رسول الله ﷺ عن الناقة، فاحتمل أبو أيوب - خالد بن زيـد النجـاري الخزرجي - رحلـه، فوضعـه في بيتـه، ونزل عليـه رسول الله ﷺ فبالغ أبو أيوب في ضيافته وإكرامه، ونزل في السفل من البيت، وكره أبو أيوب وأعظم أن يكون في العلو، فطلب منه أن يكون هو صلى الله عليه وسلم في العلو، ويكون هو - رضي الله عنه - وعياله في السفل، فقال: يا أبا أيوب! إن أرفق بنا وبمن معنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت.

ولم يكن أبو أيوب الأنصاري من الموسرين، لكنه كان عظيم الفرح بنزول رسول الله ﷺ في بيته، كبير الاعتداد والشكر لهذه الكرامة التي أكرمه الله بها، والحب يلهم من أساليب الراحة وطرائق الخدمة، ما لا يلهمه شيء آخر، يقول أبو أيوب: «وكنا نصنع لرسول الله ﷺ العشاء، ثم نبعث إليه، فإذا رد علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده،

---

(١) رواه البيهقي عن أنس رضي الله عنه (ابن كثير ج٢؛ ص ٢٧٤).
(٢) المربد: الموضع الذي يجفف فيه التمر.

فأكلنا منه، نبتغي بذلك البركة، وكان رسول الله ﷺ في سفل البيت وكنا فوقه في المسكن فلقد انكسر حب لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها، ننشف بها الماء، تخوفاً أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه[1].

بناء المسجد النبوي والمساكن:

ودعا رسول الله ﷺ الغلامين - صاحبي المربد - فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة، حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً[2].

وعمل رسول الله ﷺ في بناء المسجد، فكان ينقل اللبن، واقتدى به المسلمون، وكان رسول الله ﷺ يقول:

اللهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة[3]

وكان المسلمون مسرورين سعداء، ينشدون الشعر، ويحمدون الله تعالى.

وأقام رسول الله ﷺ في بيت أبي أيوب سبعة أشهر[4]، حتى بنى له مسجده ومساكنه، فانتقل إلى مساكنه.

---

(١) رواه ابن إسحق بسنده عن أبي أيوب (ابن كثير ج ٢ ص ٢٧٧).

(٢) رواه البخاري في الجامع الصحيح، باب «مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة».

(٣) ابن كثير ج ٢ ص ٢٥١.

(٤) ابن كثير ج ٢ ص ٢٧٩، وهو في رواية الواقدي عند أبي سعد، وجزم به ابن حجر في الفتح، وقال ابن إسحاق: أقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة إذ قدمها شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة، حتى بنى له فيها مسجده ومساكنه، وحينئذ تكون إقامته - صلى الله عليه وآله وسلم - عند أبي أيوب أكثر من عشرة أشهر.

وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يبق بمكة منهم أحد، إلا مفتون، أو محبوس، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها[١].

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

وآخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، آخى بينهم على المواساة، وكان الأنصار يتسابقون في مؤاخاة المهاجرين، حتى يؤول الأمر إلى الاقتراع، وكانوا يحكمونهم في بيوتهم وأثاثهم وأموالهم وأرضهم وكراعهم، ويؤثرونهم على أنفسهم.

وقد يقول الأنصاري للمهاجر: أنظر شطر مالي فخذه، وتحتي امرأتان، فانظر أيهما أعجب إليك حتى أطلقها، ويقول المهاجر: بارك الله لك في أهلك ومالك، ودلني على السوق.

فكان من الأنصاري الإيثار، ومن المهاجر التعفف وعزة النفس[٢].

وكان هذا الإخاء أساسا لإخاء إسلاميّ عالميّ فريد من نوعه، ومقدمة لنهضة أمة ذات دعوة ورسالة، تنطلق لصياغة عالم جديد، قائم على عقايد صحيحة معيّنة وأهداف صالحة منقذة للعالم من الشقاء والتناحر والإنتحار وعلى علاقات جديدة من الإيمان والإخاء المعنوي والعمل المشترك، وكان هذا الإخاء المحدود بين المهاجرين والأنصار طليعة وشريطة لاستئناف حياة جديدة للعالم والإنسانية، لذلك خاطب الله هذه الحفنة البشرية في مدينة صغيرة بقوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[٣].

---

(١) ابن هشام، ق ١ ص ٤٩٩ - ٥٠٠.

(٢) اقرأ في الجامع الصحيح للبخاري، «باب» اخاء النبي ﷺ؛ بين المهاجرين والأنصار «وباب» كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه؛ قصة عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع.

(٣) سورة الأنفال - آية ٧٣.

كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار وموادعة يهود:

وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهوداً، وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم[1].

شرع الأذان:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بالمدينة، واستحكم أمر الإسلام، وكان الناس يجتمعون إليه للصلاة في مواقيتها بغير دعوة، وكره رسول الله ﷺ طرق الإعلان التي اعتادها اليهود والنصارى من بوق وناقوس ونار، أكرم الله المسلمين بالأذان، فأراه بعضهم في المنام، فأقره رسول الله ﷺ وشرعه للمسلمين، واختير بلال بن رباح الحبشي للأذان، وكان مؤذن رسول الله ﷺ فكان إمام المؤذنين إلى يوم القيامة.

---

(١) راجع للتفصيل ابن هشام ق ١ ص ٥٠١.

راجع للاطلاع على أهمية هذه الوثيقة السياسية التي يجوز أن تعتبر أقدم دستور دقيق مسجّل في العالم بقي بنصّه وفصّه إلى هذا اليوم، واستعراض ما جاء فيها من موادّ وبنود عميقة في الحكمة السياسية والمدنية والحربية، تجلّت فيها الحكمة النبوية، والهداية الربانية، والدراسة المتزنة للواقع، مقالة الدكتور محمد حميد الله استاذ الحقوق الدولية في الجامعة العثمانية بحيدرآباد الهند، تعريب مؤلف هذا الكتاب (السيرة النبوية)، جاءت في مجموعة المباحث العلمية من المقالات السنّية، (طبع إدارة جمعية دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٨هـ) ص / ٩٨ - ١١٧، واقرأ نصّ الوثيقة في سيرة ابن هشام، ق/١، ص/٥٠١ - ٥٠٤ (طبع مطبعة مصطفى البابى الحلبي مصر)، وفي كتاب الأموال لأبي عبيد، وفي البداية والنهاية لابن كثير، ج/٣، ص/٢٢٤ - ٢٢٦، وفي «مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة» للدكتور حميد الله، (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة).

ظهور النفاق والمنافقين في المدينة:

لم يكن في مكة نفاق[1]، لأن الإسلام كان هناك مغلوباً على أمره، لا يملك حولاً ولا طولاً، ولا يملك لأحد نفعاً ولا ضراً، وكان كل من يدخل فيه يعرض نفسه للخطر والضرر، ويثير لها العداء، ويهيج الأعداء، فلا يقبل عليه إلا من صدق عزمه، وقوي إيمانه، وجازف بحياته ومستقبله، ولم تكن هنالك قوتان متماثلتان، إنما كان المشركون الأقوياء القاهرون، والمؤمنون المضطهدون المستضعفون، وقد صوره القرآن بقوله البليغ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾[2].

فلما انتقل الإسلام إلى المدينة واستقر الرسول ﷺ وأصحابه فيها، وبدأ الإسلام ينتشر، ويزحف، ويعلو، وقام المجتمع الإسلامي بجميع لوازمه، تغير الوضع ونجم النفاق ورفع رأسه، وكان ظاهرة طبيعية نفسية لا بد منها، فإنما تظهر بادرة «النفاق» في بيئة تجمع بين دعوتين متنافستين، وقيادتين متقابلتين، هناك يوجد عنصر مضطرب يتأرجح بين هاتين الدعوتين، ويتردد في إيثار إحداهما على أخرى، وقد ينحاز إلى دعوة، فيكون في معسكرها، ويعطيها ولاءه وحبه العاطفي، إلا أن مصالحه المادية، وانتشار الدعوة المقابلة وانتصارها، لا يسمح له بإعلان موقفه، والانضواء إلى الدعوة الأولى، وقطعه للحبال التي تربطه ببيئته الأولى، وقد صور القرآن هذا الموقف المضطرب تصويراً دقيقاً، فقال:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ ٱللهَ عَلَى حَرْفٍ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِ

---

(١) وهو الذي يرجحه أكثر المفسرين والمؤرخين، وجميع السور التي ذكر فيها النفاق والمنافقين مدنية، وقد جاء في سورة البراءة ﴿وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق﴾.

(٢) سورة الأنفال - آية ٢٦.

وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَالآخِرَةَ، ذَلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[١]، وهم الذين وصفهم بقوله: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَىٰ هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَىٰ هَؤُلاَءِ﴾[٢].

وكان على رأس هؤلاء المنافقين الذين كانوا من الأوس والخزرج واليهود عبدالله بن أُبيّ بن سلول، اتفقوا بعد حرب بعاث على أن يولوه الرئاسة ويتوجوه، وكان قد تم له كل ذلك إذ جاء الإسلام، وصار الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فشرق به وكرهه كرهاً شديداً، قال ابن هشام: «قدم رسول الله ﷺ المدينة، وسيد أهلها عبدالله بن أُبي بن سلول العوفي... لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل غيره من أحد الفريقين، حتى جاء الإسلام، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه، ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام، ضغن، ورأى أن رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً، مصراً على نفاق وضغن»[٣].

وعادى الإسلام كل من كان في قلبه مرض، وفي السيادة طمع، وضاق ذرعاً بهذا الدين الزاحف، الذي هدم كل ما بناه، ونقض كل ما أبرمه، وجعل للمدينة شأناً غير الشأن، ومن المهاجرين والأنصار أمة جديدة، ألف بين قلوبها، وبذلت نفوسها دون الرسول، وقدمت محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، فامتلأت قلوب هؤلاء المنافقين غيظاً وحسداً، فصاروا يكيدون له، ويتربصون به الدوائر، ويقلبون له

---

(١) سورة الحج - آية ١١.
(٢) سورة النساء - آية ١٤٣.
(٣) سيرة ابن هشام، ق ١ ص ٥٨٤ - ٥٨٥.

الأمور، وتكونت في المدينة جبهة معادية، متسربة في المجتمع الإسلامي، وكان على المسلمين أن يكونوا منها على حذر دائماً، فقد تكون أشد خطراً على الإسلام والمسلمين من الأعداء المجاهرين، ومن هنا زخر القرآن بذكرهم وازاحة الستار عنهم، وكان لهم مع الإسلام وللإسلام معهم شأن، ويتردد ذكرهم في كتب السيرة، وفي هذا الكتاب.

طلائع عداء اليهود:

وبدت طلائع عداء اليهود للإسلام بعدما كان موقفهم موقف الحياد من المسلمين والمشركين من أهل مكة والمدينة، وربما كانوا أميل إلى الإسلام والمسلمين، لأنهم جميعاً يلتقون على الإيمان بالنبوات والإيمان بالبعث، وإن اختلفوا في بعض التفاصيل، وهم أقرب الأمم إلى المسلمين في توحيد ذات الله وصفاته - على ما اعترى هذه العقيدة عند اليهود من الوهن بحكم التأثر بالأمم الجاهلية التي جاوروها، والبلاد الوثنية التي قضوا فيها أيام الجلاء والنفي الطويلة، وما دخل فيها من الغلو والتقديس لبعض أنبيائهم، كما شرحناه في كلامنا على الوضع الديني لليهودية في القرن السادس المسيحي[1].

فكانت كل القرائن تدل على أنهم يلتزمون هذا الحياد، إن لم يشايعوا الإسلام الذي جاء مصدقاً لكتابهم، والنبي الذي دعا إلى الإيمان بأنبياء بني إسرائيل، وأعلن القرآن على لسان المؤمنين فقال: «﴿كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[2]»، ولو كان ذلك لكان للتاريخ البشري - فضلاً عن التاريخ الإسلامي - اتجاه آخر، ولكفيت الدعوة الإسلامية الشيء الكثير من المشاكل

---

(١) راجع فصل «العصر الجاهلي» في أول الكتاب.
(٢) سورة البقرة آية ٢٨٥.

والقضايا التي أثارها الصراع بين الإسلام واليهودية، والنضال بين المسلمين الذين كانوا في دور النشوء والتكوين وبين اليهود الأقوياء الأغنياء المثقفين.

ولكن ذلك لم يكن لسببين رئيسيين، أولها ما طبع عليه اليهود من حسد، وضيق صدر، وجمود، وثانيها ما بدأ القرآن به من نقد لما كان عليه اليهود من عقائد باطلة، وأخلاق منحطة، وعادات سيئة، وذكر لتاريخهم الماضي المليء بالأحداث من محاربة الأنبياء ودعواتهم، والاجتراء على قتلهم، وعنادهم وصد عن سبيل الله، وافتراء على الله، وشره للمال، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، وأكل أموال الناس بالباطل، وأكلهم السُّحت، وتحريفهم للتوراة، وحبهم الزائد للحياة، وغير ذلك مما زخر به القرآن.

وإذا كان مكان رسول الله ﷺ زعيم سياسي لحسب للوضع المعقد - الذي كانت تعيشه المدينة - حسابه، وابتعد عن إثارة سخط اليهود وعدائهم، إن لم يتملقهم ويتودد إليهم، ولكنه الرسول المأمور بتبليغ الرسالة، والصدع بما أمر به، وتمحيص الحق والباطل، وعدم مسايرة الفساد والضلال، والمكلف بدعوة الطوائف والأمم جميعاً إلى الإسلام، وفيهم اليهود والنصارى أهل الكتاب، مهما كلفه ذلك من ثمن ومشكلات طريفة، فإنه هو النهج النبوي الذي سار عليه الأنبياء قبله، وهو النهج القويم، والفارق بين السياسة والنبوة، والزعماء القوميين والأنبياء المرسلين.

هذا التعرض لليهود في عقائدهم وحياتهم وأخلاقهم هو الذي أثار اليهود على الإسلام والمسلمين، فغيروا موقفهم منهم، وناصبوا الإسلام العداء الخفي والسافر، وبرزوا في الميدان، وكان الكاتب اليهودي الفاضل «إسرائيل ولفنسون» دقيقاً ومنصفاً في تحليل أسباب هذا النزاع ، فقال:

«ولو وقفت تعاليم الرسول ﷺ عند حد محاربته للديانة الوثنية فحسب، ولم يكلف اليهود أن يعترفوا برسالته، لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين، ولكان اليهود قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول ﷺ، ولأيدوه وساعدوه بأموالهم وأنفسهم، حتى يحطم الأصنام، ويقضي على العقائد الوثنية، لكن بشرط ألا يتعرض لهم ولا لدينهم، وبشرط ألا يكلفهم الاعتراف بالرسالة الجديدة، لأن العقلية اليهودية لا تلين أمام شيء يزحزحها عن دينها، وتأبى أن تعترف بأن يوجد نبي من غير بني إسرائيل»[١].

هذا، وقد زاد اليهود غيظاً وحقداً على الإسلام أنه أسلم بعض أحبار اليهود وعلمائهم، كعبد الله بن سلام، وكان ذا مكانة عالية عندهم، ولم يكونوا يتوقعون أن يدخل مثله في الإسلام، فأثار ذلك الحقد الدفين فيهم[٢].

ولم يقتصر اليهود على مخالفة الإسلام، والابتعاد عنه، بل تعدوا ذلك إلى تفضيل عبادة أوثان المشركين، على المسلمين الذين يلتقون معهم على عبادة الإله الواحد، ونبذ الأوثان والأصنام، وكان من المعقول المنتظر أنهم إذا طلبت منهم المفاضلة بين دين قريش، والدين الذي يدعو إليه محمد ﷺ، - على ما كان من خلاف بينهم وبين المسلمين - أن يشهدوا بفضل الإسلام على الوثنية، ولكن عداء الإسلام لم يسمح لهم

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب (ولفنسون - ص ١٢٣).

(٢) ويبلغ عدد من أسلم من اليهود وكان له شرف الصحبة ٣٩ رجلا، جاءت أسماؤهم وتراجمهم في كتب طبقات الصحابة؛ كتاب «الإصابة» و«الاستيعاب» و«أسد الغابة» وغيرها، منهم بعض كبار العلماء وأجلة الصحابة، اعتمدنا في عدد المسلمين من أهل الكتاب على إحصاء مؤلف كتاب «الصحابة والتابعون من أهل الكتاب» للأستاذ مجيب الله الندوي طبع دار المصنفين أعظم كره (الهند).

بذلك، فقد روي أن قريشاً قالت لعلماء اليهود الذين زاروهم في مكة: «يا معشر اليهود! إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه، نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟!، قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق»[1].

ويقول العالم اليهودي الدكتور إسرائيل ولفنسون معلقاً على هذا الحادث:

«ولكن الذي يلامون عليه بحق، والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود، وبين بني قريش الوثنيين، حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية».

إلى أن قال: «ثم إن ضرورات الحروب أباحت للأمم استعمال الحيل والأكاذيب، والتوسل بالخدع والأضاليل للتغلب على العدو، ولكن مع هذا كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش، بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم، لأن بني إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد في عصور شتى من الأدوار التاريخية، كان من واجبهم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين»[2].

---

(١) ابن هشام ق ٢، ص ٢١٤.

(٢) «اليهود في بلاد العرب»، ص ١٤٢.

وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ، يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ، وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً﴾[1].

تحويل القبلة:

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يصلون إلى بيت المقدس، ومضى على ذلك ستة عشر شهراً بعدما قدم المدينة، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يصرف إلى الكعبة، وكان المسلمون العرب -وقد رضعوا بلبان حب الكعبة وتعظيمها، وامتزج ذلك بلحومهم ودمائهم - لا يعدلون بالكعبة بيتاً، ولا بقبلة إبراهيم وإسماعيل قبلة، وكانوا يحبون أن يصرف إلى الكعبة، وكان في جعل القبلة إلى بيت المقدس محنة للمسلمين، ولكنهم قالوا: «سمعنا وأطعنا» وقالوا: «آمنا به كل من عند ربنا»، فلم يكونوا يعرفون إلا الطاعة لرسول الله ﷺ والخضوع لأوامر الله، وافقت هواهم أم لم توافقها، واتفقت مع عاداتهم أم لم تتفق.

فلما امتحن الله قلوبهم للتقوى واستسلامهم لأمر الله، صرف رسوله والمسلمين إلى الكعبة[2]؛ يقول القرآن:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَىٰ النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً، وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ اللهُ﴾[3].

---

(١) سورة النساء - آية ٥١.

(٢) وكان تحويل القبلة في سنة اثنتين من الهجرة.

(٣) سورة البقرة - آية ١٤٣.

وانصرف المسلمون إلى الكعبة مطيعين لله ولرسوله، وصارت قبلة المسلمين إلى يوم القيامة أينما كانوا ولّوا وجوههم شطرها[(١)].

تحرش قريش بالمسلمين بالمدينة:

فلما استقر الإسلام بالمدينة، وعرفت قريش أنه في نمو وازدهار، وأن كل يوم يمضي يزيد في قوته وانتشاره، وأنه إذا بقي الوضع هكذا، فإنه يفلت منهم الزمام، ويصير كشاب ترعرع واستكمل قوته وشبابه، فلا سبيل لهم إليه.

هنالك شمروا للمسلمين عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح، ويقول لهم: «كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة» حتى تهون عليهم الحياة واللذات، وتسهل لهم الطاعة ومخالفة النفس والإيثار.

الإذن بالقتال:

فلما قويت الشوكة، واشتد الجناح، أذن لهم في القتال، ولم يفرضه عليهم[(٢)]، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَأَنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[(٣)].

سرية عبد الله بن جحش وغزوة الأبواء:

وبدأ رسول الله ﷺ يبعث سرايا وبعوثاً إلى بعض القبائل والنواحي، ولم تكن في غالب الأحيان حرب، وقد تكون مناوشات، وكانت تفيد إلقاء الرعب في قلوب المشركين، وتظهر بها شوكة المسلمين ونشاطهم.

---

(١) راجع الصحاح الستة، وتفسير الآيات التي نزلت في تحويل القبلة في كتب التفسير.
(٢) راجع زاد المعاد ج ١ ص ٣١٤.
(٣) سورة الحج - آية ٣٩.

ونخص بالذكر من هذه السرايا سرية عبد الله بن جحش، فقد نزلت فيها آية، ولأنها تلقي ضوءاً على أن القرآن لا يساير المسلمين في كل ما يصدر عنهم من تفريط أو خطأ، وأنه الميزان العادل في الحكم على جميع الأمم والطوائف، وإلى القارىء قصة هذه السرية بالاختصار:

بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسدي في رجب[١] سنة اثنتين وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، وكتب له كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه، حتى يسير يومين ثم ينظر فيه، فيمضي لما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً.

ولما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب، فنظر فيه، فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشاً، وتعلم لنا من أخبارهم، فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً، حتى آتيه منهم بخبر وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة، ويرغب فيها، فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلف عنه منهم أحد.

ومضى عبد الله بن جحش وأصحابه حتى نزلوا بنخلة، فمرت بهم عير لقريش، فيها عمرو بن الحضرمي، فلما رآهم القوم، هابوهم، وقد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه، فلما رأوا آمنوا، وقال: عمار[٢] لا بأس عليكم منهم، وتشاور القوم فيهم،

---

(١) كان العرب يفضلون العمرة في رجب.

(٢) كتب المغازي والسير، وذهب أكثر المفسرين إلى أن هذه السرية كانت في جمادي الآخرة وكان حادث قتل عمرو بن الحضرمي حدث سلخ هذا الشهر.

وذلك في آخر يوم من رجب[1] فقال المسلمون: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبدالله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر اثنين منهم، وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، عنفهم إخوانهم المسلمون فيما صنعوا وقالت قريش، قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، فأنزل الله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل﴾[2].

---

(١) رجب أول الأشهر الحرم الأربعة، وكان القتال ممنوعاً في الشهر الحرام، درج العرب على ذلك في الجاهلية وفي صدر الإسلام؛ وكان القوم يعرفون ذلك، والأشهر الثلاثة الباقية: ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم.

ذهب الجمهور إلى أن الآية منسوخة نسختها آية براءة «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وقوله تعالى: ﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾. سئل سعيد بن المسيب هل يصلح للمسلمين أن يقاتلوا الكفار في الشهر الحرام؟؛ قال: نعم، ولم نقرأ في كتاب من كتب التاريخ والفتوح أن إعلاناً صدر من مركز الخلافة أو القيادة الإسلامية بوقف الإجراءات الحربية لأجل شهر من الأشهر الحرم، وعلى ذلك جرى المسلمون في عصورهم في الحروب والفتوح الإسلامية.

(٢) سيرة ابن هشام، ق ١؛ ص ٦٠١ - ٦٠٥.

قال العلامة ابن قيم الجوزية في «زاد المعاد»؛«والمقصود أن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف، ولم يبرىء أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشهر الحرام بل أخبر أنه كبير، وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام، فهم أحق بالذم والعيب والعقوبة، لاسيما وأولياؤه كانوا متأولين في قتالهم ذلك، أو مقصرين نوع تقصير، يغفر لهم الله في جنب ما فعلوه من التوحيد والطاعات والهجرة مع رسوله وإيثار ما عند الله»[١].

وغزا رسول الله ﷺ بنفسه «غزوة الأبواء»[٢]، وتسمى بواطاً كذلك، وهي أول غزوة غزاها بنفسه، ولم يلق كيداً، فرجع، وتلتها غزوات وسرايا.

فرض صوم رمضان:

وفي السنة الثانية الهجرية فرض الصوم، وذلك بعد أن رسخت العقيدة في قلوب المسلمين، وألفوا الصلاة، وهاموا بها، وتلقوا الأوامر والأحكام الشرعية بقبول واستعداد، كأنهم كانوا منها على ميعاد، وأنزل الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٣].

---

(١) زاد المعاد، ج ١ ص ٣٤١.
(٢) راجع للتفصيل في سيرة ابن هشام، ق ١ ص ٥٩١ - ٦٠٦.
(٣) سورة البقرة - آية ١٨٣.

وقال:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة - آية ١٨٥.
واقرأ للتفصيل وأسرار الصوم وحكمه «الأركان الأربعة» للمؤلف، الطبعة الثانية، ص ٢٠٦.

مَعْرَكَةُ بَدْرٍ الحَاسِمَةُ

سَنَةَ اثْنَيْنِ مِنَ الهِجْرَةِ

أهمية معركة بدر:

وفي رمضان سنة اثنتين من الهجرة، كانت غزوة بدر الكبرى[1]، وهي المعركة الحاسمة التي تقرر مصير الأمة الإسلامية ومصير الدعوة الإسلامية، وعليها يتوقف مصير الإنسانية المعنوي.

فكل ما حدث من فتوح وانتصارات، وكل ما قام من دول وحكومات، مدين للفتح المبين في ميدان بدر، ولذلك سمى الله هذه المعركة بـ «يوم الفرقان» فقال:

﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ، يَوْمَ التَقَى الْجَمْعَانِ﴾[2].

وكان من خبر هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في عير عظيمة لقريش، فيها أموالهم وتجارتهم، وكانت الحرب قائمة بين المسلمين وبين قريش المشركين، لا تألوا قريش في محاربة الإسلام، والصد عن سبيل الله، وإقامة الصعوبات للمسلمين، وكانت تبذل أموالها وكل ما تملكه، من حول وطول، ومن سلاح وكراع

---

(١) تقع بدر على ١٤٥ كم في الجنوب الغربي من المدينة المنورة.

(٢) سورة الأنفال - آية ٤١.

في محاربة الإسلام، وإضعاف شأن المسلمين، وكانت كتائبهم تصل إلى حدود المدينة وإلى مراعيها.

فلما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلا من الشام على رأس هذه العير، وكان من أشد الناس عداوة للإسلام، ندب رسول الله ﷺ الناس للخروج إليها، ولم يحتفل احتفالا بليغاً، لأن الأمر أمر عير لا نفير.

وبلغ أبا سفيان مخرج رسول الله ﷺ وقصده إياه، فأرسل إلى مكة مستصرخاً لقريش ليمنعوه من المسلمين، وبلغ الصريخ أهل مكة، فجد جدهم، ونهضوا مسرعين ولم يتخلف من أشرافهم أحد، وحشدوا من حوله من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا القليل النادر، وجاءوا على حمية، وغضب وحنق.

تجاوب الأنصار وتفانيهم في الطاعة:

ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش استشار أصحابه، وكان يعني الأنصار لأنهم بايعوه على أن يمنعوه في ديارهم، فلما عزم على الخروج من المدينة، أراد أن يعلم ما عندهم، فتكلم المهاجرون، فأحسنوا، ثم استشارهم ثانياً فتكلموا أيضاً فأحسنوا، ثم استشارهم ثالثاً، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم، فبادر سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله! كأنك تعرض بنا، لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها ألا تنصرك إلا في ديارهم، إني أقول عن الأنصار، وأجيب عنهم، فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر، فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان[1]، لنسيرن معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر

---

(١) غمدان بضم أوّله، وسكون ثانيه، قصر بصنعاء باليمن كان منزل الملوك (مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع).

خضناه معك.

وقال له المقداد: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون»، ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، ومن بين يديك، ومن خلفك.

فلما سمع رسول الله ﷺ أشرق وجهه، وسر بما سمع من أصحابه، وقال: سيروا، وأبشروا[١].

تنافس الغلمان في الجهاد والشهادة:

ولما توجه المسلمون إلى بدر، خرج غلام اسمه عمير بن أبي وقاص، وهو في السادسة عشرة من سنه، وكان يخاف ألا يقبله النبي ﷺ لأنه صغير، فكان يجتهد ألا يراه أحد، وكان يتوارى، وسأله أخوه الأكبر: سعد بن أبي وقاص، عن ذلك فقال: أخاف أن يردني رسول الله ﷺ وأنا أحب الخروج، لعل الله يرزقني الشهادة، وكان كذلك، فأراد رسول الله ﷺ أن يرده لأنه لم يبلغ مبلغ الرجال، فبكى عمير، ورق قلب رسول الله ﷺ فأجازه، وقتل شهيداً في الغزوة[٢].

التفاوت بين المسلمين والكفار في العَدد والعُدد:

وخرج رسول الله ﷺ مسرعاً في ثلاث مائة وثلاثة عشر رجلاً، لم يكن معهم من الخيل إلا فرسان، وسبعون بعيراً، يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد[٣]، لا فرق في ذلك بين جندي وقائد، وتابع

---

(١) زاد المعاد ج ١ ص ٣٤٢ - ٣٤٣، وسيرة ابن هشام ق ١ ص ٦١٤؛ ورواه البخاري مختصراً في باب قوله تعالى: ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم﴾، ومسلم في باب «غزوة بدر».

(٢) راجع «أسد الغابة» ج ٤ ص ١٤٨.

(٣) زاد المعاد ج ١ ص ٣٤٢.

ومتبوع، فكان منهم رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وكبار الصحابة.

ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، وراية المهاجرين إلى عليّ بن أبي طالب، وراية الأنصار إلى سعد بن معاذ.

ولما سمع ابو سفيان خروج المسلمين، خفض ولحق بساحل البحر، ولما رأى أنه قد نجا وسلمت العير، كتب إلى قريش أن ارجعوا، فإنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم، وهموا بالرجوع، فأبى أبو جهل إلا القتال[1]، وكانت قريش بين ألف وزيادة، منهم صناديد قريش وسادتها، وفرسانها وأبطالها، فقال رسول الله ﷺ هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

أمرهم شورى بينهم:

ومضت قريش، حتى نزلوا بجانب من الوادي، ونزل المسلمون بجانب ببدر، فجاء الحباب بن المنذر، وقال: يا رسول الله! أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟، قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يا رسول الله! فإن هذا ليس بمنزل، وأشار عليه بأرض تصلح للحرب، فقال رسول الله ﷺ لقد أشرت بالرأي، ونهض ومن معه من الناس، فأتى أدنى ماء من القوم، فنزل عليه[2].

وسبق رسول الله ﷺ وأصحابه إلى الماء شطر الليل، وصنعوا الحياض وسمح رسول الله ﷺ لمن وردها من الكفار بالشرب[3].

وأنزل الله عز وجل في تلك الليلة مطراً، كان على المشركين وابلاً شديداً، ومنعهم من التقدم، وكان على المسلمين رحمة وطأ الأرض،

---

(١) زاد المعاد ج ١ ص ٣٤٣، وابن هشام ق ١ ص ٦١٨ - ٦١٩.

(٢) ابن هشام ق ١ ص ٦٢٠.

(٣) مستفاد من سيرة ابن هشام؛ ق ١ ص ٦٢٢.

وصلب الرمل، وثبت الأقدام، وربط على قلوبهم[١]. وهو قوله تعالى:

﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾[٢].

الرسول القائد:

وتجلت عبقريته القيادية العسكرية - بجوار رسالته العظمى التي هي الأساس ومصدر الإلهام والهداية - في قيادته للجيش، وتعبئته الحكيمة، وسده لمنافذ الخطر والهجوم، وتقديره الصحيح لقوة العدو الحربية وعدده ومواضع نزوله، جاءت تفاصيلها في كتب السيرة[٣].

استعداد للمعركة:

وبني لرسول الله ﷺ عريش يكون فيه، على تل مشرف على المعركة، ومشى في موضع المعركة، وجعل يشير بيده، هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان، هذا مصرع فلان، إن شاء الله، فما تعدى أحد منهم موضع إشارته.

ولما طلع المشركون، وتراءى الجمعان، قال رسول الله ﷺ: «اللهم هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها جاءت تحاربك، وتكذب رسولك».

وكانت ليلة الجمعة، السابع عشر من رمضان، فلما أصبحوا أقبلت قريش في كتائبها، واصطف الفريقان[٤].

---

(١) زاد المعاد ج ١، ص ٣٤٣.

(٢) سورة الأنفال - آية ١١.

(٣) اقرأ تفاصيل الخطوات الدفاعية والإجراءات العسكرية الحكيمة التي اتخذها رسول الله - ﷺ - قبل معركة بدر في كتاب «حديث الدفاع» للواء «محمد أكبر خان» القائد الباكستاني في «أردو» و«الرسول القائد» للواء الركن المتقاعد محمود شيت خطاب القائد العراقي، في العربية.

(٤) زاد المعاد، ج ١ ص ٣٤٣ - ٣٤٤.

رسم ساحة القتال في غزوة بدر الكبرى ويبدو في جوانبها الحائط الذي بني حولها، وتقع العدوة القصوى في جانب اليسار من الرسم في الجهة الجنوبية من الساحة والتي كان نزول جيش الكفار فيها. أما العدوة الدنيا فإنها تقع في نهاية الرسم من الجانب الشرقي وكانت منزل الجيش الإسلامي، وتقع شرقية منها مقابر شهداء بدر والتي يبدو جزء من حائطها في الرسم.

دعاء وتضرع، ومناشدة وشفاعة:

عدل رسول الله ﷺ الصفوف، ورجع إلى العريش، فدخله، ومعه أبو بكر، ورسول الله ﷺ يكثر الابتهال، والتضرع، والدعاء، وقد علم أن لو وكل المسلمون إلى أنفسهم وقوتهم فالنتيجة معلومة واضحة، نتيجة كل قليل ضعيف أمام قوي كثير العدد، ولما رأى الكفتين: كفة المسلمين وكفة المشركين، غير متكافئتين، وضع صنجة في كفة المسلمين، رجحت بها رجحاناً ظاهراً، فاستغاث بالله الذي لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه (وما النصر إلا من عند الله) وشفع للكتيبة المؤمنة القليلة العدد، الفقيرة في العدد، فقال: «اللهم! إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض»، وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول: «اللهم! أنجزني ما وعدتني، اللهم نصرك» ويرفع يديه إلى السماء، حتى سقط الرداء عن منكبيه، وجعل أبو بكر - رضي الله عنه - يسليه، ويشفق عليه من كثرة الإبتهال[1].

تعريف دقيق بالأمة وتحديد لمركزها ورسالتها:

لقد شفع الرسول ﷺ لهذه العصابة المؤمنة في هذه الساعة الحاسمة الدقيقة، بالكلمة الوجيزة التي تجلت فيها الثقة والاضطراب والسكينة والافتقار جنباً لجنب، فكانت أدق تعريف بهذه الأمة وأدق تحديد لمركزها ومكانتها بين الأمم، وقيمتها وغنائها في هذا العالم، والثغر الذي ترابط عليه، وهو الدعوة إلى الله وإخلاص الدين والعبادة له.

---

(١) راجع «زاد المعاد»، وكتب السيرة، ورواه في الصحيح في كتاب الجهاد والسير عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: «لما كان يوم بدر نزل رسول الله -ﷺ- وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله -ﷺ- القبلة ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجزني ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني؛ اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» (باب الامداد بالملائكة في غزوة بدر).

وقد أثبت الانتصار الرائع المعجز الذي أبطل كل تجربة، صدق هذه الكلمة ودقتها، وأنها كانت تصويراً صادقاً دقيقاً لهذه الأمة.

هذان خصمان اختصموا في ربهم:

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس، فحرضهم على القتال، وخرج عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد، فلما توسطوا بين الصفين، طلبوا المبارزة فخرج إليهم ثلاثة فتية من الأنصار فقالوا: من أنتم؟!.

قالوا: رهط من الأنصار!.

قالوا: أكفاء كرام، ولكن أخرجوا إلينا من بني عمنا.

قال النبي ﷺ قم يا عبيدة بن الحارث (ابن المطلب بن عبدمناف) وقم يا حمزة، وقم يا علي.

قالوا: نعم أكفاء كرام.

وبارز عبيدة - وكان أسن القوم - عتبة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد بن عتبة، فأما حمزة وعلي فلم يمهلا خصمهما أن قتلاهما، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه وكر حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة، فأجهزا عليه، واحتملا عبيدة وهو جريح، ومات شهيدا[1].

التحام الفريقين ونشوب الحرب:

وتزاحم الناس، ودنا بعضهم من بعض، ودنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض».

---

(١) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٦٢٥.

أول قتيل:

وقام عمير بن الحمام الأنصاري، فقال: يا رسول الله! جنة عرضها السماوات والأرض؟، قال: نعم، قال: بخ بخ يا رسول الله!، قال: ما يحملك على قولك بخ بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن حييت حتى آكل من تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل، حتى قتل فكان أول قتيل[1].

والناس على مصافهم، صابرون ذاكرون الله كثيرا، وقاتل رسول الله ﷺ قتالاً شديداً، وكان أقرب الناس من العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً[2]، ونزل الله الملائكة بالرحمة والنصر، وقاتلوا المشركين، وهو قوله تعالى:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[3]

مسابقة الإخوة في قتل أعداء الله ورسوله:

وتسابق الشباب في الشهادة ونيل السعادة، وكانت مسابقة بين أخلاء وأصدقاء، وإخوة أشقاء.

يقول عبد الرحمن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر، إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانها،

---

(١) زاد المعاد ج ١ ص ٣٤٥، وسيرة ابن كثير ج ٢ ص ٤٢١.
(٢) سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٤٢٥.
(٣) سورة الأنفال - ١٢.

إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه: يا عم أرني أبا جهل فقلت: يا ابن أخي ما تصنع به؟، قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، وقال لي الآخر سراً من صاحبه مثله، قال: فما سرني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابناء عفراء »[١].

ولما قتل أبو جهل قال رسول الله ﷺ: « هذا أبو جهل فرعون هذه الأمة »[٢].

الفتح المبين:

ولما أسفرت الحرب عن انتصار المسلمين وهزيمة المشركين، قال رسول الله ﷺ: « الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده ».

وصدق الله العظيم:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكَرُونَ﴾[٣].

وأمر بالقتلى أن يطرحوا بالقليب فطرحوا فيه، ووقف عليهم، فقال: « يا أهل القليب! هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً »[٤].

وقتل من سراة الكفار يوم بدر، سبعون وأسر سبعون[٥]، ومن المسلمين من قريش ستة ومن الأنصار ثمانية[٦].

---

(١) أصل الرواية في الصحيحين واللفظ للبخاري. (كتاب المغازي باب « غزوة بدر »)
(٢) سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٤٤٤.
(٣) سورة آل عمران - ١٢٣.
(٤) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٦٣٨ - ٦٣٩.
(٥) الجامع الصحيح للبخاري عن البراء بن عازب، غزوة بدر من كتاب المغازي.
(٦) سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٤٦٣.

وقع معركة بدر:

وتوجه رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيداً مظفراً، وقد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها، وأسلم بشر كثير من أهل المدينة.

وأرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى المدينة منهما عبد الله بن رواحة، يبشر أهل المدينة، ويقول: «يا معشر الأنصار! أبشروا بسلامة رسول الله ﷺ وقتل المشركين وأسرهم، ويسمي من قتل في بدر من صناديد قريش، يبشرهم داراً داراً، والصبيان، ينشدون الأبيات معه سروراً وشكراً، والناس بين مصدق ومتردد، حتى أقبل رسول الله ﷺ قافلاً إلى المدينة، وجيء بالأسرى وعليهم «شقران» مولى رسول الله ﷺ[1]، حتى إذا كان بالروحا لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين.

ووقعت النياحة في بيوت المشركين بمكة، وكثر البكاء على القتلى[2]، ودخل الرعب في قلوب الأعداء، ونذر أبو سفيان ألا يمس رأسه ماء، حتى يغزو رسول الله ﷺ والمسلمين ووجد المسلمون المستخفون في مكة في أنفسهم قوة وعزاً.

إخاء العقيدة فوق إخاء الولادة:

أسر يوم بدر، أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه، وكان مصعب صاحب اللواء يوم بدر، وأبو عزيز صاحب لواء المشركين، ومر به أخوه مصعب ورجل من الأنصار يشد يديه، فأوصاه بأن يشد الوثاق، قال: إن أمه ذات متاع لعلها تفديه منك،

---

(١) المصدر السابق ص ٤٧٠ - ٤٧٣.

(٢) راجع سيرة ابن هشام ق ١ ص ٦٤٧ - ٦٤٨.

فقال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك به؟! فقال له مصعب إنه أخي بدونك[1].

كيف عامل المسلمون الأسرى؟

وأوصى رسول الله ﷺ بالأسرى، فقال: «استوصوا بهم خيراً» يقول أبو عزيز هذا: «كنت في رهط من الأنصار، حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز، وأكلوا التمر، لوصية رسول الله ﷺ إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها، فأستحي، فأردها، فيردها علي، ما يمسها[2].

وكان من الأسرى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وابن عمه عقيل بن أبي طالب[3]، وأبو العاص بن الربيع، زوج بنت النبي ﷺ وكان حكم الإسلام عاماً، لا يميز بين قريب وبعيد.

تعليم غلمان المسلمين فداء الأسرى:

وعفا رسول الله ﷺ عن الأسرى، وقبل منهم الفداء، وكان يفادي بهم على قدر أموالهم، وكان من لا شيء له منَّ عليه رسول الله ﷺ فأطلقه، وبعث قريش في فداء الأسارى وأطلق سراحهم.

وكان من بين الأسرى، من لم لكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة[4]، فيعلم كل واحد عشرة من المسلمين الكتابة[5]، وكان زيد بن ثابت ممن تعلم بهذا الطريق، وكان في ذلك من تقدير العلم وتشجيع القراءة والكتابة ما لا يحتاج إلى توضيح.

---

(١) سيرة ابن كثير؛ ج ٢ ص ٤٧٥.

(٢) المصدر السابق ج ٢، ص ٤٧٥.

(٣) سيرة ابن هشام ق ٢ ص ٣.

(٤) مسند أحمد ج ١، ص ٢٤٧.

(٥) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٤.

غزوات وسرايا:

كان أبو سفيان قد نذر الا يمس رأسه ماء، حتى يغزو المسلمين، فخرج في مائتي راكب من قريش ليبرّ يمينه، واستأذن على سلام بن مشكم سيد بني النضير، فأذن له، وقراه، وسقاه، وبطن له من خبر الناس، وبعث رجالاً، فقتلوا رجلين من الأنصار.

وخرج رسول الله ﷺ في طلبهم، ورجع أبو سفيان وأصحابه قبل أن يدركهم المسلمون، وألقوا أزواداً كثيرة، عامتها سويق، فسميت «غزوة السويق»[(١)].

وكان بنو قينقاع أول يهود، نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وحاربوا في بدر وأُحُد، وآذوا المسلمين، فحاصرهم رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، حتى نزلوا على حكمه، وشفع فيهم حليفهم عبد الله بن أُبي رأس المنافقين، فأطلقهم له رسول الله ﷺ[(٢)] وكانوا سبعمائة مقاتل، وكانوا صاغة وتجاراً[(٣)].

أصدر النبي ﷺ عفوا عاماً عن هؤلاء اليهود شريطة أن يخرجوا من المدينة إلى أي مكان شاءوا، فجلوا عنها إلى الشام آمنين على أنفسهم، وعلى ما قدروا من حمله من أموالهم، وغادر بنو قينقاع يثرب سالمين بعد أن كانوا يتوقعون الموت جزاء نكثهم وتمرّدهم[(٤)].

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ٢ ص ٤٤ - ٤٥.
(٢) سيرة ابن هشام ق ٢ ص ٤٧ - ٤٩.
(٣) زاد المعاد؛ ج ١ ص ٣٤٨.
(٤) راجع سيرة ابن هشام، ق/٢، ص/٤٨.

يقول Montgomery watt في كتابه، Muhammad, prophet & statesman ص /١٣٠:

=

وكان كعب بن الأشرف أحد رؤساء اليهود، شديد الأذى لرسول الله ﷺ وكان يشبب في أشعاره بنساء الصحابة فلما كانت وقعة بدر، ذهب إلى مكة، فجعل يؤلب على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين، ثم رجع إلى المدينة على تلك الحال، فقال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله»؟، فانتدب له رجال من الأنصار، فقتلوه[1].

= «لقد كان طرد قبيلة بني قينقاع أحد العوامل الهامة التي عملت على تثبيت مركز محمد ودعمه، وسبب هذا الطرد كما ترويه بعض الروايات نزاع طفيف طرأ بين يهود قينقاع وبعض التجار المسلمين في السوق في المدينة الخ».

وينفي مونتجمري وات أن يكون سبب هذا الطرد قصة المرأة المسلمة التي اعتدى عليها في سوق بني قينقاع كما جاءت في كتب السيرة، وهو يقول:

«أما الأسباب التي أدّت بمحمد إلى اتخاذ قرار طرد اليهود فيظهر أنها أكثر عمقا من هذه الحادثة العابرة، فاليهود لم يظهروا استعدادهم التام للإندماج في المجتمع الإسلامي».

ويضيف قائلاً:

«وقد يكون محمد أيضا على علم بالعلاقات الوديّة بين اليهود ومناوئيه من قريش في مكة، وهذا يعدّ مخالفة لروح الاتفاقية المبرمة بين المسلمين واليهود، وتناقضا لها».

راجع للتفصيل «غزوة بني قينقاع» للأستاذ محمد أحمد باشُميل».

(١) زاد المعاد ج ٢؛ ص ٣٤٨، ملخصاً.

غَـزوَةُ أُحُـد

شوّال سنة ثلاث مِنَ الهجْرة

الحمية الجاهلية وأخذ الثأر:

لما أصيب صناديد قريش يوم بدر، ورجع فلهم إلى مكة، عظم المصاب عليهم، ومشى رجال أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم، فكلموا أبا سفيان، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فاستعانوا بهذا المال على حرب المسلمين، ففعلوا واجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ وحرض الشعراء الناس بشعرهم، وأثاروا فيهم الغيرة والحمية.

وخرجت قريش في منتصف شوال سنة ثلاث للهجرة بحدها وحديدها، بأبنائها ومن تابعها من القبائل، وخرجوا معهم بالظعن[1]، لئلا يفروا[2]، وخرج سادة قريش بأزواجهم وأقبلوا حتى نزلوا مقابل المدينة.

وكان من رأي رسول الله ﷺ أن يقيم المسلمون بالمدينة، ويدعهم فان يدخلوا عليهم قاتلوهم فيها، وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج، وكان رأي عبد الله بن أُبي ما رأى رسول الله ﷺ فقال رجال من

---

(١) الظعن: جمع ظعينة، وهي المرأة ما دامت في الهودج.

(٢) ابن هشام ق ٢ ص ٦٠ - ٦٢.

المسلمين ممن فاته بدر: يا رسول الله! أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرونا إنا جبنا عنهم وضعفنا.

فلم يزالوا برسول الله ﷺ حتى دخل رسول الله ﷺ بيته فلبس لأمته، وندم الذين اقترحوا الخروج، فقالوا: استكرهناك يا رسول الله! ولم يكن ذلك لنا، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل[١].

فخرج رسول الله ﷺ في ألف من أصحابه، فلما كانوا بالشوط بين المدينة وأحد، انخذل عنه عبد الله بن أبي بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني[٢].

في ميدان أحد:

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد (وهو جبل على نحو ٣ كيلومتر من المدينة) وجعل ظهره وعسكره إلى أحد[٣]، وقال: لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال، وتعبى رسول الله ﷺ للقتال، وهو في سبعمائة رجل، وأمَّر على الرماة عبد الله بن جبير، وهم خمسون رجلاً، فقال: ادفع الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا[٤] وأمرهم بأن يلزموا مركزهم، وأن لا يفارقوا ولو رأوا الطير تتخطف العسكر[٥].

---

(١) ابن هشام ق ٢ ص ٦٣.

(٢) نفس المصدر.

(٣) راجع لفهم «الوضع الاستراتيجي» في ميدان أُحُد، كتاب «ساحات القتال في العهد النبوي» في (اللغة الأردية) للدكتور حميد الله.

(٤) سيرة ابن هشام ق ٢ ص ٦٦.

(٥) زاد المعاد ج ١، ص ٣٤٩، وراجع صحيح البخاري، باب غزوة أُحُد من كتاب المغازي.

ولبس رسول الله ﷺ درعاً فوق درع، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير - رضي الله عنه -.

مسابقة بين أتراب:

رد رسول الله ﷺ جماعة من الغلمان في يوم أُحُد لصغرهم، فرد سمرة بن جندب، ورافع بن خديج، وهما ابنا خمس عشرة سنة، وشفع أبو رافع لابنه وقال: يا رسول الله! إن ابني رافعاً رامٍ، فأجازه النبي ﷺ.

وعرض على رسول الله ﷺ سمرة بن جندب وهو في سن رافع، ورده رسول الله ﷺ لصغره، فقال سمرة: لقد أجزت رافعاً ورددتني، ولو صارعته لصرعته ووقعت المصارعة بينهما، فصرع سمرة رافعاً فأجيز وخرج وقاتل يوم أحد[1].

المعركة:

والتقى الناس، ودنا بعضهم من بعض، وقامت هند بنت عتبة في النسوة، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال يحرضنهم، واقتتل الناس حتى حميت الحرب، وقاتل أبو دجانة الذي أخذ السيف من رسول الله ﷺ ووعده بأنه يأخذه بحقه، حتى أمعن في الناس، وجعل لا يلقي أحداً إلا قتله[2].

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٦٦.
(٢) سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٦٧ - ٦٨.

رسم ساحة القتال في غزوة أحد

شهادة حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير رضي الله عنهما:

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتالاً شديداً، وقتل عدداً من الأبطال، لا يقف أمامه شيء، وكان وحشي غلام جبير بن مطعم له بالمرصاد، وكان يقذف بحربة له قلما يخطىء بها شيئاً، ووعده جبير بالعتق أن قتل حمزة، وقد قتل عمه طعيمة يوم بدر، وكانت هند تحرضه كذلك على قتل حمزة وشفاء نفسها، وحمل الوحشي على حمزة بحربته، فدفعها عليه حتى خرجت من بين رجليه، فوقع شهيداً[1].

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ حتى قتل وأبلى المسلمون بلاء حسناً[2].

غلبة المسلمين:

وأنزل الله تعالى نصره عليهم، وصدقهم وعده، حتى كشفوا المشركين عن العسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها، وولت النساء مشمرات هوارب[3].

كيف دارت الدائرة على المسلمين؟

وبينما هم كذلك إذ انهزم المشركون، وولوا مدبرين، حتى انتهوا إلى نسائهم، فلما رأى الرماة ذلك، مالوا إلى العسكر، وهم موقنون بالفتح، وقالوا: يا قوم! الغنيمة! الغنيمة! فذكرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ فلم

---

(١) سيرة ابن هشام ق٢؛ ص٧٠ - ٧٢، واقرأ القصة بلسان وحشي في الجامع الصحيح للبخاري غزوة أحد، باب «قتل حمزة - رضي الله عنه -».

(٢) سيرة ابن هشام ق٢، ص٧٣.

(٣) سيرة ابن هشام ق٢، ص٧٧.

يسمعوا، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة فأخذوا الثغر، وأخلوا ظهور المسلمين إلى الخيل[1]، وأصيب أصحاب لواء المشركين، حتى ما يدنو منه أحد من القوم، فأتاهم المشركون من خلفهم، وصرخ صارخ: ألا! ان محمداً قد قتل، فتراجع المسلمون وكر المشركون كرة، وانتهزوا الفرصة، وكان يوم بلاء وتمحيص، وخلص العدو إلى رسول الله ﷺ وأصابته الحجارة، حتى وقع لشقه، وأصيبت رباعيته، وشج في رأسه، وجرحت شفته ﷺ وجعل الدم يسيل على وجهه، فيمسحه ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم؟![2].

ولا يعلم المسلمون بمكانه، فأخذ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بيد رسول الله ﷺ ورفعه طلحة بن عبيد الله، حتى استوى قائماً، ومص مالك بن سنان الدم عن وجهه صلى الله عليه وسلم وابتلعه[3].

ولم تكن فرة، انما كانت جولة يضطر اليها الجيش، ثم يستأنف كرة، وما أصاب المسلمين من نكسة ومحنة، وما أصيبوا من خسارة في النفوس، وشهادة من كان قوة للاسلام والمسلمين، وناصراً لرسول الله ﷺ وللدين، انما كان نتيجة زلة للرماة، وعدم تمسكهم بتعاليم الرسول ﷺ وأمره إلى اللحظة الأخيرة، واخلائهم للجبهة التي عينهم رسول الله ﷺ عليها، وهو قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ، حَتَّى إذا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِن بَعْدِ مَا أَراكُمْ مَا تُحِبُّونَ، مِنْكُم مَنْ يُرِيدُ

---

(١) زاد المعاد ج١، ص٣٥٠.

(٢) سيرة ابن هشام ق٢، ص٧٨ - ٨٠.

(٣) سيرة ابن هشام ق٢، ص٨٠.

الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ، وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ، واللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

روائع من الحب والفداء:

نزع أبو عبيدة بن الجراح احدى الحلقتين من وجه رسول الله ﷺ فسقطت ثنيته، ونزع الأخرى، فكان ساقط الثنيتين، وترس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله ﷺ يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه، حتى كثر فيه النبل، ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ ويناوله النبي ﷺ النبل ويقول: «ارم فداك أبي وأمي[2]».

وأصيبت عين قتادة بن النعمان، حتى وقعت على وجنته فردها رسول الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدَّها[3].

وقصده المشركون، يريدون ما يأباه الله، فحال دونه نفر نحو عشرة، حتى قتلوا عن آخرهم، وجالدهم طلحة بن عبيد الله، وترس عليه بيده، يقي بها النبي ﷺ فأصيبت أنامله وشلت يده، وأراد رسول الله ﷺ أن يعلو صخرة هنالك، فلم يستطع لما به من الجراح والضعف، فجلس طلحة تحته، حتى صعدها، وحانت الصلاة، فصلى بهم جالساً[4].

ولما انهزم الناس، لم ينهزم أنس بن النضر، عم أنس بن مالك - خادم رسول الله ﷺ وتقدم، فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أين يا أبا عمر؟ فقال أنس: واهاً لريح الجنة يا سعد اني أجدها دون أحد[5].

---

(١) سورة آل عمران ١٥٢.

(٢) سيرة ابن هشام ق٢، ص٨٠ - ٨٢، ورواه البخاري في غزوة أحد في باب قوله تعالى: ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾.

(٣) سيرة ابن هشام؛ ق٢ ص٨٢.

(٤) سيرة ابن هشام ق٢؛ ص٨٦، وزاد المعاد ج١؛ ص٣٥٠.

(٥) زاد المعاد ج١، ص٣٥٠، وأصل الرواية في الصحيحين.

وانتهى أنس بن النضر إلى رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟، قوموا وموتوا على ما مات عليه رسول الله، ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قتل.

يقول أنس رضي الله عنه: لقد وجدنا به يومئذ سبعين ضربة فما عرفه إلا أخته، عرفته ببنانه[1].

وقاتل زياد بن السكن في خمسة من الأنصار دون رسول الله ﷺ يقتلون دونه رجلاً ثم رجلاً، فقاتل زياد حتى أثبتته الجراحة، فقال رسول الله ﷺ أدنوه مني، فأدنوه، فوسده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ[2].

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج، وكان له أربعة أبناء شباب، يغزون مع رسول الله ﷺ فلما توجه إلى أحد أراد أن يخرج معه، فقال له بنوه: ان الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد.

وأتى عمرو رسول الله ﷺ فقال: إن بنيّ هؤلاء يمنعوني أن أخرج معك، ووالله أني لأرجو أن استشهد، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال له رسول الله ﷺ: أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد، وقال لبنيه، وما عليكم أن تدعوه، لعل الله يرزقه الشهادة، فخرج مع رسول الله ﷺ فقتل يوم أحد شهيداً[3].

---

(١) سيرة ابن هشام، ق٢، ص٨٢.

(٢) سيرة ابن هشام ق٢، ص٨١.

(٣) زاد المعاد ج١، ص٣٥٣.

يقول زيد بن ثابت - رضي الله عنه - بعثني رسول الله ﷺ يوم أُحد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: ان رأيته فاقرأه مني السلام وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق، وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة سيف، ورمية سهم فقلت: يا سعد! ان رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله السلام، وقل له: يا رسول الله! أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله ان خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته[1].

وقال عبد الله بن جحش في ذلك اليوم: اللهم! اني أقسم عليك أن ألقى العدو غداً، فيقتلوني، ثم يبقروا بطني، ويجدعوا أنفي وأذني، ثم تخذلني فيم ذاك؟ فأقول فيك![2].

عودة المسلمين إلى مركزهم:

ولما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نهضوا به، ونهض معهم نحو الشعب، وأدركه أبي بن خلف، وهو يقول: أي محمد لا نجوت ان نجوت، وقال رسول الله ﷺ دعوه، فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من أحد أصحابه، ثم استقبله وطعنه في عنقه طعنة تقلب بها عن فرسه مراراً[3].

وخرج علي بن أبي طالب، فملأ درقته ماء، وغسل من وجهه الدم، وكانت فاطمة بنت الرسول ﷺ تغسله، وعلي يسكب الماء بالمجن، فلما

---

(١)و(٢) زاد المعاد، ج ١ ص ٣٥٣.
(٣) سيرة ابن هشام؛ ق٢؛ ص٨٤.

رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير، فأحرقتها، وألصقتها، فاستمسك الدم[1].

وكانت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم تنقلان القرب على متونهما تفرغانها في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان، فتفرغانها في أفواه القوم[2]، وكانت أم سليط تزفر[3] لهما القرب[4].

ووقعت هند بنت عتبة، والنسوة اللائي معها يمثلن بالقتلى، من المسلمين، يجدعن الآذان والأنف، وبقرت عن كبد حمزة - رضي الله عنه - فمضغتها، فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها[5].

ولما أراد أبو سفيان الانصراف، أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: إن الحرب سجال، يوم بيوم، أعل هبل فقال النبي ﷺ قم يا عمر، فأجبه، فقل: الله أعلى وأجل، لا سواء، فقتلانا في الجنة وقتلاكم في النار[6]، قال أبو سفيان: لنا العزي ولا عزى لكم، قال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟، قال: قولوا: الله مولانا ولا مولىً لكم[7].

---

(١) رواه البخاري في «غزوة احد» باب «ما أصاب النبي من الجراح يوم أحد» ومسلم في باب «غزوة أحد» باختلاف يسير، وابن هشام؛ ق٢، ص٨٥ وزاد المعاد ج١، ص٣٥٢.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري (غزوة أحد) باب ﴿إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا﴾ ومسلم في باب غزوة النساء مع الرجال.

(٣) تزفر: تستقي.

(٤) الجامع الصحيح للبخاري، باب «ام سليط».

(٥) سيرة ابن هشام ق٢ ص٩١.

(٦) المصدر السابق: ص٩٣.

(٧) الجامع الصحيح للبخاري، باب «غزوة أحد».

ولما انصرف، وانصرف المسلمون، نادى: ان موعدكم بدر للعام القابل، فقال رسول الله - ﷺ - لرجل من أصحابه: قل نعم، هو بيننا وبينكم موعد[١].

وفزع الناس لقتلاهم، وحزن رسول الله - ﷺ - على حمزة، وكان عمه وأخاه من الرضاعة، والمقاتل دونه.

صبر امرأة مؤمنة:

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه، وكان أخاها لأبيها وأمها، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: ألقها، فأرجعها، لا ترى ما بأخيها، فقال لها: يا أمه! ان رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي، قالت: ولم؟ وقد بلغني أن قد مثل بأخي، وذلك في الله لأحتسبن ولأصبرن ان شاء الله، وأتته، فنظرت اليه، وصلت عليه، واسترجعت واستغفرت له، ثم أمر رسول الله ﷺ فدفن[٢].

كيف دفن مصعب بن عمير وشهداء أحد؟

وقتل مصعب بن عمير صاحب لواء رسول الله ﷺ ومن أنعم فتيان قريش قبل الإسلام، فكفن في بردة، ان غطى رأسه بدت رجلاه، وان غطيت رجلاه بدا رأسه، فقال النبي ﷺ «غطوا بها رأسه، واجعلوا على رجله الأذخر»[٣].

وكان رسول الله ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول: أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟ فاذا أشير له إلى أحد، قدمه في

---

(١) سيرة ابن هشام ق٢، ص٩٤.

(٢) سيرة ابن هشام ق٢ ص٩٧.

(٣) رواه البخاري في الجامع الصحيح؛ باب «غزوة أحد».

اللحد، وقال أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصلِّ عليهم ولم يغسلوا[1].

ايثار النساء لرسول الله ﷺ:

عاد المسلمون إلى المدينة، فمروا بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ فلما نعوا لها، قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا خيراً يا أم فلان! هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر اليه، فأشير لها اليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل[2].

اتباع المسلمين أثر العدو واستماتتهم في نصرة الرسول ﷺ:

وتلاوم المشركون، وقال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئا، أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبتروهم، فأمر رسول الله ﷺ بطلب العدو.

هذا، والمسلمون مثخنون بالجراح، فلما كان الغد من يوم الأحد، أذن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بالخروج في طلب العدو، وأذن ألا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس، وما من المسلمين إلا جريح ثقيل، فخرجوا مع رسول الله ﷺ لم يتخلف منهم أحد، وانتهوا إلى «حمراء الأسد»، وهي من المدينة على ثمانية أميال، فأقام بها رسول الله ﷺ والمسلمون الإثنين، والثلاثاء، والأربعاء، ثم رجعوا إلى المدينة[3] وقد أثنى الله تعالى على ذلك وخلد ذكره، فقال:

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري باب «من قتل من المسلمين يوم أحد».
هذا ما جاء في الجامع الصحيح وقد وردت الأحاديث في الصلاة عليهم وفي المسألة تفصيل وخلاف، راجع شروح الحديث وكتب الخلاف.

(٢) سيرة ابن هشام ق٢ ص٩٩.

(٣) سيرة ابن كثير؛ ج٣ ص٩٧.

﴿الَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ للهِ والرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أصابَهُمُ ٱلْقَرْحُ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوا أَجْرٌ عَظِيمٌ، ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ: إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ، فَٱخْشَوْهُمْ، فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ، فَٱنْقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لم يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ، وَٱتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ، واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ، إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾[1].

وقد استشهد من المسلمين يوم أحد سبعون أكثرهم من الأنصار، رضي الله عنهم وقتل من المشركين اثنان وعشرون رجلاً[2].

تربية نفوس المسلمين:

وقد كان ما وقع في أحد من محنة للمسلمين، تمحيصاً وتربية لهم، فلا ثقة بجماعة عاشت على سرور انتصار، ونشوة الفتح، وحلاوة الظفر، ولم تذق مرارة المصائب والخسائر، فانها إذا أصيبت بذلك في يوم من الأيام، عز ذلك عليها واضطرب ايمانها، ولذلك يقول الله تعالى:

﴿فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْ لا تَحْزَنُواْ عَلَى ما فاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصابَكُمْ واللهُ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾[3].

وقد هيأ الله نفوس المسلمين في هذه المعركة، لتتلقى نبأ وفاة رسول الله ﷺ وشهادته، وان تأخر ذلك، والثبات على العقيدة، والدعوة اليها والجهاد في سبيلها والوفاء لها في حياته، وبعد حياته، فلا يجبنون ولا

---

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٧٢ - ١٧٥.
(٢) سيرة ابن هشام، ق٢، ص١٠١ - ١٠٢.
(٣) سورة آل عمران آية ١٥٣.

يتخاذلون، ولا يهنون ولا يستكينون، فقال: ﴿وَمَا مُحمَّدٌ إلا رَسُولٌ، قَدْ خلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُل، أَفإِنْ مَاتَ أَو قُتِلَ، آنْقَلَبْتُم عَلَى أَعْقَابِكُمْ، وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً، وسَيَجْزِي اللهُ الشاكِرِينَ﴾[1].

أحب إلى النفس من النفس:

وفي سنة ثلاث للهجرة طلبت «عضل» و«القارة» نفراً من المسلمين، ليعلموهم، فبعث معهم رسول ﷺ ستة من أصحابه، معهم عاصم بن ثابت، وخبيب بن عدي وزيد بن الدثنة، حتى إذا كانوا على «الرجيع» وهو موضع بين «عسفان» ومكة، غدروا بهم، قالوا: لكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم، فقال بعض المسلمين: لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً، وقاتلوا القوم حتى قتلوا، وأما زيد بن الدثنة، وخبيب ابن عدي وعبد الله بن طارق، فأعطوا بأيديهم، فأسرهم المشركون، وقتل عبد الله بن طارق في الطريق، وأما خبيب وزيد، فباعوهما من قريش، وابتاع خبيباً حجير بن أبي أهاب، ليقتله بأبيه اهاب، وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف.

وأخرجوا زيداً من الحرم ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد! أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك وأنك في أهلك، قال: ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، واني جالس في أهلي[2]، قال أبو سفيان ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً، ثم قتل[3].

---

(١) سورة آل عمران آية ١٤٤.

(٢) ذكره عروة وموسى بن عقبة في قصة خبيب (ابن كثير ج٣؛ ص١٣١).

(٣) رواية ابن اسحاق (ابن هشام ق٢، ص١٧٢).

وأما خبيب، فلما جاؤوا به ليصلبوه، قال لهم: ان رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين، فافعلوا، قالوا: دونك، فاركع، فركع ركعتين، أتمها وأحسنها، ثم أقبل على القوم، فقال: أما والله لولا ان تظنوا أني انما طولت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصلاة، وأنشد بيتين:

فلست أبـــالي حين أُقتـــل مسلماً
علـــى أي شق كـــان في الله مصرعي
وذلـــك في ذات الإلـــه وان يشأ
يبـــارك عـــلى أوصـــال شلو ممزع[1]

بئر معونة:

بعث رسول الله ﷺ نفراً من أصحابه على طلب من عامر بن مالك ليدعوهم إلى الإسلام، وكانوا سبعين رجلاً من خيار المسلمين، فساروا حتى نزلوا بئر معونة، واجتمع عليهم قبائل من بني سليم: «عُصَيّة» و«رعل» و«ذكوان»، فغشوا القوم، وأحاطوا بهم في رحالهم فلما رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوا حتى قتلوا من عند آخرهم، إلا كعب بن زيد، عاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً[2].

كلمة قتيل كانت سبباً لاسلام القاتل:

وفي هذه السرية قتل حرام بن ملحان، قتله جبار بن سلمى، وكان سبب اسلامه كلمة قالها حرام، وهو يجود بنفسه، يقول جبار: ان مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلاً منهم يومئذ برمح بين كتفيه،

---

(١) راجع للتفصيل سيرة ابن هشام ق٢ ص١٦٩ - ١٧٦؛ ورواه البخاري في كتاب المغازي، باب التوحيد والجهاد، باختلاف يسير، وابن كثير ج٣ ص١٢٣ - ١٢٥.

(٢) راجع البخاري ومسلم وسيرة ابن هشام.

فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: فزت ورب الكعبة! فقلت في نفسي: ما فاز؟! ألست قد قتلت الرجل؟! حتى سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: للشهادة، فقلت: فاز لعمر الله، فكان سبباً لاسلامه[1].

اجلاء بني النضير:

خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير - وهم قبيلة عظيمة من اليهود - ليستعينهم في دية قتيلين من بني عامر، وكان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف، فرقوا في الكلام ووعدوا بخير، ولكنهم أضمروا الغدر والاغتيال، وكان رسول الله ﷺ قاعداً إلى جنب جدار من بيوتهم، فناجى بعضهم بعضاً: انكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فمن رجل يعلو هذا البيت، فيلقي عليه صخرة، فيريحنا منه؟، وكان رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي.

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير اليهم، ثم سار بالناس، حتى نزل بهم، وذلك في شهر ربيع الأول سنة أربع، فحاصرهم ست ليال، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم، ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فقبل، واحتملوا من أموالهم ما استقلت بها الإبل، وكان الرجل منهم يهدم بيته عن العتبة والأسكفة، فيضعه على ظهر بعيره، فينطلق به[2]، يقول الله تعالى في هذه الغزوة:

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ

---

(١) القصة رواها البخاري في باب غزوة الرجيع من كتاب المغازي، وابن هشام ق٢ ص١٨٧.

(٢) سيرة ابن هشام ق٢؛ ص١٩٠ - ١٩١.

ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أن يَخرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِن اللهِ، فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ في قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ، يَخرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنينَ، فَٱعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي ٱلأَبْصَارِ﴾[١].

فمنهم من خرج إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وتخلص المسلمون من وكر من أوكار المكيدة والمؤامرة والنفاق والخداع، ﴿وكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنينَ القِتَال﴾[٢].

وقسم رسول الله ﷺ أموالهم إلى المهاجرين الأولين.

غزوة ذات الرقاع:

وفي سنة أربع غزا رسول الله ﷺ نجداً فسار حتى نزل نخلا، وكان ستة رجال - منهم أبو موسى الأشعري - بينهم بعير، فنقبت أقدامهم، وسقطت أظفارها، فكانوا يلفون على أرجلهم الخرق، فسميت «غزوة ذات الرقاع»[٣].

وتقارب الناس، ولم يكن بينهم حرب، وقد خاف الناس بعضهم بعضاً، حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف[٤].

---

(١) سورة الحشر آية ٢.

(٢) سورة الأحزاب آية ٢٥.

(٣) رواه البخاري عن طريق أبي موسى الأشعري باب «غزوة ذات الرقاع». وقد صرّح الإمام البخاري أن غزوة ذات الرقاع كانت بعد خيبر، وقد رواه عن أبي موسى الأشعري.

(٤) سيرة ابن هشام ق٢ ص٢٠٤.

من يمنعك مني؟

ولما قفل رسول الله ﷺ من هذه الغزوة، وقفل معه الناس أدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس في العضاه، يستظلون الشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة، فعلق بها سيفه.

قال جابر: فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا، فاذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: ان هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده مصلتاً، فقال لي: من يمنعك مني؟، قلت: الله، فها هو جالس، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ[1].

غزوات لم يكن فيها قتال:

وخرج رسول الله ﷺ في شعبان سنة أربع، إلى بدر، لميعاد أبي سفيان فنزله وأقام عليه ثماني ليال، ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان، ثم بدا له الرجوع، وقال: ان عامكم هذا عام جدب، وإني راجع فارجعوا، وكفى الله المؤمنين القتال.

وغزا دومة الجندل، ولم يلق كيداً، فرجع إلى المدينة[2].

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي؛ باب «غزوة ذات الرقاع».
(٢) سيرة ابن هشام ق٢، ص٢٠٩ - ٢١٣.

غَـزْوَةُ الخَنْـدَق
أو
غَـزْوَةُ الأَحْـزَابُ
شوّال سنة خمس من الهجرة

وفي شوال سنة خمس كانت غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب[١]، وكانت من الحوادث التي لها أثر بعيد في تاريخ الاسلام والمسلمين، وفي تقرير مصير الدعوة الاسلامية، وفي المد الاسلامي، وكانت معركة حاسمة، ومحنة ابتلي فيها المسلمون ابتلاء لم يبتلوا بمثله.

﴿إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ، وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا، هُنَالِكَ ابْتُلِيَ المُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[٢].

وكان سببها اليهود، فقد خرج نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، فقدموا على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ وكانوا قد جربوها واكتووا بنارها، فصاروا يتهيبونها، ويزهدون فيها، فزينها لهم الوفد اليهودي وهوّن أمرها، وقالوا: انا سنكون معكم حتى

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ق٢ ص٢١٤.
(٢) سورة الأحزاب الآيتين ١٠ - ١١.

نستأصله، فسر ذلك قريشاً، ونشطوا لما دعوهم اليه، واجتمعوا لذلك، واتعدوا له، ثم خرج الوفد، فجاء غطفان، فدعاهم إلى ذلك، وطاف في القبائل، وعرض عليها مشروع غزو المدينة، وموافقة قريش عليه[1].

وتمت اتفاقية عسكرية، كان قريش واليهود وغطفان من أهم أعضائها واتفقوا على شروط، من أهمها أن تشارك غطفان في «جيش الاتحاد» أو عسكر الحلفاء، بستة آلاف مقاتل، وأن يدفع اليهود لقبائل غطفان كل ثمر نخل خيبر لسنة واحدة، وحشدت قريش أربعة آلاف مقاتل، وغطفان ستة آلاف مقاتل، فكانوا عشرة آلاف، وأسندت قيادة الجيش إلى أبي سفيان[2].

الحكمة ضالة المؤمن:

ولما سمع رسول الله ﷺ بزحفهم إلى المدينة، وتحزب الأحزاب لقتال المسلمين، وعزمها على استئصال شأفتهم، أهم المسلمين ذلك، وتهيؤوا للحرب، وقرروا التحصن في المدينة والدفاع عنها، وكان جيش المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل.

هنالك أشار سلمان الفارسي بضرب الخندق على المدينة[3]، وكانت خطة حربية متبعة عند الفرس[4]، قال سلمان يا رسول الله! إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا، وقبل رسول الله ﷺ رأيه

(١) راجع سيرة ابن هشام، ق٢، ص٢١٤ - ٢١٥.
(٢) سيرة ابن هشام ص٢١٩ - ٢٢٠.
(٣) نفس المرجع ص٢٢٤.
(٤) وكلمة خندق معرب كلمة «كنده» وترد كلمة خندك في الفارسية ايضا بنفس المعنى (راجع فرهنك عميد).

فأمر بحفر الخندق في السهل الواقع شمال غرب المدينة وهو الجانب المكشوف الذي يخاف منه اقتحام العدو[١].

وقسم رسول الله ﷺ الخندق بين أصحابه، لكل عشرة منهم أربعون ذراعاً[٢]، وقد بلغ طول الخندق حوالي خمسة آلاف ذراع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة، والعرض من تسعة إلى ما فوقها[٣].

روح المساواة والمواساة بين المسلمين:

وعمل رسول الله ﷺ في حفر الخندق، ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا[٤]، وكان البرد شديداً، ولا يجدون من القوت إلا ما يسد الرمق، وقد لا يجدونه.

يقول أبو طلحة: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حجرين[٥].

وكـــانوا مسرورين، يحمـــدون الله، ويرتجزون، ولا يشكون ولا يتعتبون.

يقول أنس - رضي الله عنه - خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فاذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال:

اللهم ان العيش عيش الآخرة فـاغفر لـلأنصار والمهاجرة

---

(١) وقد تم حفره في شمالي المدينة الشرقي إلى غربيها، وكان حده الشرقي طرف حرة واقم، وحده الغربي غربي وادي بطحان، حيث طرف الحرة الغربية (حرة الوبرة). «آثار المدينة المنورة» للأستاذ عبد القدوس الأنصاري.

(٢) سيرة ابن كثير ج٣ ص١٩٢.

(٣) «غزوة الأحزاب» للأستاذ محمد أحمد باشميل.

(٤) سيرة ابن هشام ق٢ ص٢١٦.

(٥) رواه الترمذي، قال الطيبي: «عادة من اشتد جوعه وخمص بطنه أن يشد على بطنه حجراً، ليتقوم به صلبه». (مشكاة المصابيح مع هامشها؛ ج٢ ص٤٤٨).

فقالوا: مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً[1]

قال: ويؤتون بملء كف من الشعير، فيصنع لهم بإهالة[2] سنخة[3][4].

نور الفتوح الإسلامية في ظلام الحصار والشدة:

عرض للمسلمين في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة، لا تأخذ فيها المعاول، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فلما رآها أخذ المعول، وقال: بسم الله، وضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، فقطع ثلثاً آخر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض، ثم ضرب الثالثة، فقال: بسم الله فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة»[5].

هذا، والمسلمون في شك من حياتهم، يعضهم الجوع، ويؤذيهم البرد، وينذرهم العدو.

المعجزات النبوية في الغزوة:

وظهرت المعجزات على يد الرسول ﷺ فإذا اشتدت على المسلمين في بعض الخندق كدية، دعا بإناء من ماء، فتفل فيه، ثم دعا بما شاء الله

---

(١) رواه البخاري في الصحيح عن أنس رضي الله عنه في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، ورواه مسلم عن أنس نحوه.

(٢) الإهالة: الردكة وكل ما يؤتدم به.

(٣) السنخة: المتغيرة الريح، الفاسدة الطعم.

(٤) سيرة ابن كثير ج ٣، ص ١٨٤؛ نقلا عن البخاري.

(٥) رواه البيهقي بسنده عن البراء بن عازب الأنصاري (ابن كثير، ج ٣ ص ١٩٤).

أن يدعو به، ونضح ذلك الماء على تلك الكدية فانهالت وعادت كالكثيب[1].

وظهرت البركة في طعام قليل، فشبع به عدد كبير، وكفى الجيش كله.

قال جابر بن عبد الله: إنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب فعاد كثيباً أهيل أو أهيم[2]، فقلت يا رسول الله ﷺ! إئذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً ما كان في ذلك صبر، فعندك شيء؟، قالت: عندي شعير وعناق[3]، فذبحت العناق، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم في البرمة[4]، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي[5]، قد كادت أن تنضج فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: كم هو؟ فذكرت له، قال: كثير طيب. قل لها: لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور، حتى آتي، فقال: قوموا، فقام المهاجرون والأنصار.

فلما دخلت على امرأتي، قلت: ويحك! جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم! قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا، فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم ويخمر[6] البرمة

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ٢ ص ٢١٧ - ٢١٨.
(٢) أهيل أو أهيم: السائل.
(٣) العناق: الأنثى من ولد الماعز.
(٤) البرمة: القدر.
(٥) الأثافي: حجارة ثلاثة توضع فيها القدر.
(٦) يخمر: يغطي.

والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه، ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا.

وبقي بقية، قال: كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة[١].

وفي رواية: قال جابر، جئته، فساررته فقلت: يا رسول الله! ذبحنا بهيمة لنا وطحنا صاعاً من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ وقال: يا أصحاب الخندق! إن جابراً قد صنع سوراً[٢][٣].

إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم:

وأقبلت قريش، حتى نزلت أمام المدينة، في عشرة آلاف، وأقبلت غطفان بتوابعهم، فنزلوا أمام المدينة أيضاً، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون في ثلاثة آلاف وبينه وبين قومه الخندق.

وكان بين المسلمين وبين بني قريظة عقد وعهد، فحملهم حيي بن أخطب - سيد بني النضير - على نقض العهد، وقد فعل ذلك بنو قريظة بعد امتناع وتردد، وتحققه رسول الله ﷺ[٤] فعظم عند ذلك البلاء، واشتد الخوف، ونجم النفاق من بعض المنافقين، وهمَّ رسول الله ﷺ بعقد الصلح بينه وبين غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة، رفقاً بالأنصار، وتخفيفاً عنهم، فقد استقلوا بأكبر نصيب من أعباء الحرب.

---

(١) رواه البخاري في الجامع الصحيح باب «غزوة الخندق».
(٢) قال الفتنى في «مجمع بحار الأنوار»: اللفظ فارسية وهو طعام العرس في لغة الفرس.
(٣) رواه البخاري في صحيحه في باب «غزوة الخندق».
(٤) سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

ثم عدل عن ذلك، بعدما رأى من سعد بن معاذ وسعد بن عبادة الثبات والاستقامة، والصمود أمام العدو، والإباء، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله! قد كنا نحن وهؤلاء على الشرك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطعمون منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك[1].

بين فارس الإسلام وفارس الجاهلية:

وأقام رسول الله ﷺ والمسلمون، وعدوّهم محاصروهم، ولم يكن بينهم قتال، إلا أن فوارس من قريش أقبلوا تسرع بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها!

ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق، فضربوا خيلهم، فاقتحمت منه، فجالت بهم في أرض المدينة، ومنهم الفارس المشهور: عمرو بن عبد ود، الذي كان يقوم بألف فارس، فلما وقف قال: من يبارز؟ فبرز عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - فقال: يا عمرو! إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين، إلا أخذتها منه.

قال: أجل.

قال له عليّ: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام.

قال: لا حاجة لي بذلك.

قال: فإني أدعوك إلى النزال.

فقال له: لم يا ابن أخي؟ فوالله، ما أحب أن أقتلك.

---

(١) راجع للتفصيل سيرة ابن هشام، ق ٢ ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

قال له عليّ - رضي الله عنه -: لكني والله أحب أن أقتلك.

فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه، فعقره، وضرب وجهه، ثم أقبل على عليّ - رضي الله عنه - فتنازلا وتجاولا فقتله علي - رضي الله عنه -[1] وكان من فوارسهم نوفل بن مغيرة، وخرجت خيلهم منهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

أم تحرّض ابنها على القتال والشهادة:

تقول عائشة - أم المؤمنين - رضي الله عنها - وكانت مع نسوة مسلمات في حصن بني حارثة وذلك قبل أن يضرب عليهن بالحجاب، مر سعد بن معاذ وعليه درع قصيرة، قد خرجت منها ذراعه كلها، وهو يرتجز، فقالت له أمه: الحق ابني فقد والله أخرت قالت عائشة: فقلت لها: يا أم سعد: والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي.

وكان ما تخوفته عائشة - رضي الله عنها - فرمى سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل[2]، ومات شهيداً في غزوة بني قريظة[3].

ولله جنود السموات والأرض:

أحاط المشركون بالمسلمين، حتى جعلوهم في مثل الحصن من كتائبهم، فحاصروهم قريباً من شهر، وأخذوا بكل ناحية، واشتد البلاء، وتجهر النفاق، واستأذن بعض الناس رسول الله ﷺ في الذهاب إلى المدينة، وقالوا: ﴿إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً﴾.

---

(١) ابن كثير، ج ٣ ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٢) الأكحل: عرق في الذراع.

(٣) ابن كثير ج ٣، ص ٢٠٧.

وبينما رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشدة، إذ جاءه نعيم بن مسعود الغطفاني، فقال: يا رسول الله! إني قد أسلمت، وأن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني ما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة».

فخرج نعيم بن مسعود، فأتى بني قريظة، وتكلم معهم بكلام جعلهم يشكون في صحة موقفهم وولائهم لقريش وغطفان الذين ليسوا من أهل البلد، وعدائهم للمهاجرين والأنصار، الذين هم أهل الدار وجيرانهم الدائمون، وأشار عليهم بألا يقاتلوا مع قريش وغطفان حتى يأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونوا بأيديهم ثقة لهم، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتى أتى قريشاً، فأظهر لهم إخلاصه ونصيحته، وأخبرهم بأن اليهود قد ندموا على ما فعلوا، وسيطلبون منهم رجالاً من أشرافهم تأميناً للعهد، وسيسلمونهم إلى النبي ﷺ وأصحابه فيضربون أعناقهم ثم خرج إلى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش، فكان كلا الفريقين على حذر، وتوغرت صدورهم على اليهود، ودبت الفرقة بين الأحزاب، وتوجس كل منهم خيفة من صاحبه.

ولما طلب أبو سفيان ورؤوس غطفان معركة حاسمة بينهم وبين المسلمين تكاسل اليهود، وطلبوا منهم رهناً من رجالهم، فتحقق لقريش وغطفان صدق ما حدثهم به نعيم بن مسعود، وامتنعوا عن تحقيق طلبهم، وتحقق لليهود صدق حديثه كذلك، وهكذا تخاذل بعضهم عن بعض وتمزق الشمل وتفرقت الكلمة.

وكان من صنع الله لنبيه أن بعث الله على الأحزاب الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تقلب قدورهم وتطرح أبنيتهم، وقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش! إنكم والله أصبحتم بدار مقام، لقد

هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدور، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا، فإني مرتحل.

وقام أبو سفيان إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فما أطلق عقاله إلا وهو قائم.

وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، وأخبره حذيفة بن اليمان الذي أرسله رسول الله ﷺ عيناً إلى الأحزاب ينظر له ما فعل القوم، ثم يرجع، فأخبره بما رأى[1]، فلما أصبح انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة، وانصرف المسلمون ووضعوا السلاح[2]، وصدق الله العظيم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها، وكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾[3].

﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً وكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾[4].

ووضعت الحرب أوزارها، فلم ترجع قريش بعدها إلى حرب المسلمين، وقال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم»[5].

---

(١) اقرأ القصة بطولها في صحيح مسلم باب «غزوة الأحزاب».
(٢) اقرأ للتفصيل ابن كثير ج ٣ ص ٢١٤ - ٢٢١، رواية عن ابن إسحاق.
(٣) سورة الأحزاب - آية ٩.
(٤) سورة الأحزاب آية ٢٥.
(٥) سيرة ابن كثير ج ٣؛ ص ٢٢١.

واستشهد من المسلمين يوم الخندق سبعة على أكثر تقدير، وقتل من المشركين أربعة[1].

(١) سيرة ابن كثير، ج ٣؛ ص ٢٢٢.

غزوة بني قريظة

سنة خمس من الهجرة

نقض بني قريظة العهد:

كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة، كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم، وجاء فيه:

«أنه من تبعنا من يهود، فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن قبائل[١] يهود أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم».

وجاء فيه: «أن بينهم النصر على ما حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب»[٢].

ولكن حيي بن أخطب اليهودي - سيد بني النضير - نجح في حمل

---

(١) جاء في العهد: أسماء القبائل اليهودية كبني عوف، وبني ساعدة، وبني جشم، وبني الأوس وبني ثعلبة.

(٢) سيرة ابن هشام ق ١، ص ٥٠٣ - ٥٠٤.

بني قريظة على نقض العهد، وممالأة قريش، بعدما قال سيدهم كعب بن أسد القرظي: لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء، ونقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

ولما انتهى إلى رسول الله ﷺ خبر نقضهم للعهد، بعث سعد بن معاذ - رضي الله عنه - سيد الأوس - وهم حلفاء بني قريظة - وسعد بن عبادة - سيد الخزرج - في رجال من الأنصار، ليتحققوا الخبر، فوجدوهم على شر مما بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد[١].

وبدأوا بالفعل في الاستعداد للهجوم على المسلمين، وهكذا حاولوا طعن جيش المسلمين من الخلف[٢]، وكان ذلك أشد وأنكى من الهجوم السافر والحرب في الميدان، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾[٣].

واشتد ذلك على المسلمين، حتى قال سعد بن معاذ - وكان من أولى الناس بالحدب عليهم، يحنو عليهم في كل ما يلم بهم - لما أصابه السهم في غزوة الخندق، فقطع منه الأكحل، وأيقن بالموت: «اللهم! لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة»[٤].

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٢٢٠ - ٢٢٣.

(٢) جاء في كتاب Cambridge History of Islam (ج ١ ص ٤٩) بقلم الأستاذ الإنجليزي الشهير Montgomery Watt. «كانت قد بقيت في المدينة قبيلة عظيمة، هي قبيلة بني قريظة؛ وكانت تتظاهر بالإخلاص عندما حاصر المشركون المدينة، ولكن مما لا شك فيه أنها كانت قد تمالأت مع المشركين، وكانت تنتهز أول فرصة للهجوم على المسلمين من خلف».

(٣) سورة الأحزاب - آية ١٠.

(٤) سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٢٢٧. وكان سعد قد أصابه سهم قرشي لا قرظي، وقد جاء اسمه في صحيح البخاري ابن الفرقة القريشي، فلم يكن عند سعد ترة على القرظيين، ودافعاً له إلى هذا الحكم.

المسير إلى بني قريظة:

فلما انصرف رسول الله ﷺ والمسلمون من الخندق راجعين إلى المدينة ووضعوا السلاح، أتى جبرئيل، وقال: أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال جبرئيل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، إن الله عز وجل يأمرك بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم، فمزلزل بهم، فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً، فأذن في الناس: أن من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة[1].

ونزل رسول الله ﷺ ببني قريظة، فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب[2].

ندم أبي لبابة وتوبة الله عليه:

وبعثت بنو قريظة إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة أخا بني عمرو بن عوف - وكانوا حلفاء الأوس - لنستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان، يبكون في وجهه، فرقَّ لهم وقالوا له: يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانها حتى عرفت أني خنت الله ورسوله ﷺ ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ٢ ص ٢٣٣ - ٢٣٤؛ وروى البخاري القصة بزيادة وتفصيل في باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم». ورواه مسلم في كتاب الجهاد والسير في باب «جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال الحصن على حكم عادل حكيم أهل للعدل».

(٢) سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٢٣٥.

رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ مما صنعت، وعاهدت الله ألاَّ أطأ بني قريظة أبداً، ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً.

ولما تاب الله عليه قال:

﴿وَآخَرُونَ إِعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحَاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال لا، والله، حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده، ومر عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح، فأطلقه وقد أقام مرتبطاً بالجذع نحو عشرين ليلة، تأتيه امرأته في كل وقت صلاة، فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع[2].

أتى لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم:

ونزل بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس، وقالوا: يا رسول الله! إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا[3] بالأمس ما قد علمت، فقال رسول الله ﷺ: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: فذاك إلى سعد بن معاذ، فأرسل إليه، فلما جاء إليه، قال له بنو قبيلته: يا أبا عمرو! أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه، قال: لقد أتى لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم، قال سعد:

---

(١) سورة التوبة - ١٠٢.
(٢) سيرة ابن هشام ق ٢؛ ص ٢٣٦ - ٢٣٨.
(٣) يعنون بني قينقاع.

فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبي الذراري والنساء، قال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله[1].

موافقة لشريعة بني اسرائيل:

وقد وافق ذلك قانون الحرب في شريعة بني اسرائيل، فقد جاء في سفر التثنية (الاصحاح العشرون ١٠-١١-١٢-١٣).

«حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح، وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، وتستعبد لك، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حرباً، فحاصرها، وإذا دفع الرب إلهك إلى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك».

وهذه كانت العادة المتبعة في بني إسرائيل في عهد أنبيائهم، فقد جاء في التوراة:

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ص ٢٣٩ - ٢٤٠، وفي رواية البخاري ومسلم قال: قضيت بحكم الله؛ وربما قال: بحكم الملك «صحيح البخاري، كتاب المغازي باب: مرجع النبي ﷺ، من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة».

- وكان عددهم حوالي ثمان مائة (٨٠٠) مقاتل - كما جاء في «الكامل» لابن الأثير (ج/٢، ص/١٢٧).

وقد شكّك في هذا العدد بعض الكتّاب المعاصرين في ضوء القياس واستبعاد وقوع ذلك في بلد صغير كالمدينة وبأمر نبي اتسمت سيرته بالرحمة والرأفة، من غير استناد إلى شهادات تاريخية، راجع كتاب Muhammad & the jews لمؤلفه D. Barakat Ahmad.

والمراجع اليهودية ساكتة عن التعليق على هذا الحادث الذي كان جديرا باستفزاز شعورهم الديني، وقد صنّف مؤلف يهودي سموئيل أسبك كتابا مهما في القرن السادس عشر المسيحي أسماه «مآثر شهداء اليهود»، ولكنه لم يتعرض لجلاء بني قينقاع وبني النضير عن المدينة ولا لإعدام مقاتلي بني قريظة.

«فتجندوا على مديان كما أمر الرب، وقتلوا كل ذكر وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم، أوى، وراقم، وصور، وحور، ورابع، خمسة ملوك مديان، وبلعام بن باعور قتلوه بالسيف، وسبى بنو اسرائيل نساء وكل مديان وأطفالهم، ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم، أحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار. (سفر العدد، الاصحاح الحادي والثلاثون ٧-٨-٩-١٠).

وذلك في عهد موسى - عليه السلام - وبموافقة منه، وقد جاء في التوراة:

«فخرج موسى والعازر الكاهن وكل رؤساء الجماعة لاستقبالهم إلى خارج المحلة، فسخط موسى على وكلاء الجيش رؤساء الألوف ورؤساء المئات القادمين من جند الحرب، وقال لهم موسى: هل أبقيتم كل أنثى حية» (سفر العدد، الاصحاح الحادي والثلاثون ١٣-١٦)[(١)].

ونفذ في بني قريظة حكم سعد بن معاذ، وخلت المدينة من جميع أوكار المؤامرة والمحاربة اليهودية، وأمن المسلمون من الطعن من الخلف، ومن نشر الفوضى في الداخل.

وقتلت الخزرج سلام بن أبي الحقيق، وكان ممن حزب الأحزاب وكانت الأوس قد قتلت من قبل كعب بن الأشرف، وكان مقدماً في عداوته لرسول الله ﷺ والتحريض عليه، فنجا المسلمون من الرؤوس التي كانت تكيد ضد الإسلام والمسلمين، وتقود الحركات ضدهم، واستراح المسلمون[(٢)].

---

(١) الكتاب المقدس؛ مطبعة أوكسفورد، ١٨٧٩ م.
(٢) سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٢٧٣.

وكان ما عامل به رسول الله ﷺ بني قريظة مما اقتضته سياسة الحرب وطبيعة القبائل العربية واليهودية، وكان لا بد من عقوبة صارمة تكون درساً للعابثين بالعهود والمحالفات ونكالاً لما بين يديها وما خلفها، يقول R.V.C. Bodley في كتابه «حياة محمد الرسول»:

«كان محمد وحيداً في بلاد العرب، وكانت هذه البلاد من حيث المساحة ثلث الولايات المتحدة الأمريكية، وكان عدد النفوس فيها يبلغ خمسة ملايين نفس... ولم يكن عنده من الجيوش التي تحمل الناس على امتثال أمره إلا الجيش الذي لا يزيد على ثلاثة آلاف جندي، ولم يكن هذا الجيش مسلحاً تسليحاً كاملاً، فإذا وهن محمد في هذه القضية أو ترك جريمة غدر بني قريظة من غير أن يعاقبهم عليها، لم يكن للإسلام في جزيرة العرب بقاء، انه لا شك أن عملية قتل اليهود كانت عنيفة، ولكن لم يكن ذلك حادثاً فريداً من نوعه في تاريخ الديانات، وقد كان لهذا العمل مبرر من وجهة نظر المسلمين، قد تحتم الآن على القبائل العربية واليهود أن يتأملوا مرة بعد مرة قبل أن يقدموا إلى غدر أو نقض عهد، لأنهم قد عرفوا عواقبه الوخيمة وشاهدوا أن محمداً يستطيع أن ينفذ ما يريده»[١].

وقد كان من فوائد القضاء على آخر حصن من حصون اليهود في المدينة الضعف الذي طرأ على معسكر النفاق، ونشاط المنافقين، فقد أثر ذلك في معنويتهم، وأفقدهم الشيء الكثير من الثقة، والآمال الواسعة، فقد كانوا آخر معقل من معاقلهم الكبيرة، يقول الدكتور اسرائيل ولفنسون معلقاً على غزوة بني قريظة:

---

(1) The Messenger – The Life of Mohammad (London 1946) pp. 202–203.

« وأما المنافقون فقد خفت صوتهم بعد يوم قريظة، ولم نعد نسمع لهم أعمالاً أو أقوالاً تناقض ارادة النبي وأصحابه، كما كان يفهم ذلك من قبل »[1].

العفو عمن ظلم وعطاء من حرم:

بعث رسول الله ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت بثمامة بن أثال - سيد بني حنيفة - فربط إلى سارية من سواري المسجد.

ومر به رسول الله ﷺ وقال: ما عندك يا ثمامة؟، قال: يا محمد! إن تقتل تقتل ذا دم، وأن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال، فاسأل تعط ما شئت، فتركه، ثم مر به مرة أخرى، وقال له مثل ذلك، فرد عليه كما رد عليه أولاً، ثم مرة ثالثة، فقال « أطلقوا ثمامة، فأطلقه ».

وذهب ثمامة إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم جاءه فأسلم، وقال: والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض إلي من دينك، فقد أصبح دينك أحب الأديان إلي، وان خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر.

---

(١) اليهود في بلاد العرب، ص ١٥٥.

وقد أصاب الأستاذ محمد أحمد باشميل اذ قال:

« غزوة الأحزاب - في حد ذاتها - ليست الاّ غزوة يهودية صرفة خطّط لها التفكير الاسرائيلي في خيبر، وقام بتموينها المال اليهودي، الذي لا ينفق (إن انفق) الاّ على إثارة الحروب، وشراء الذمم لبسط النفوذ اليهودي.

وغزوة بني قريظة في حد ذاتها امتداد لمعركة الأحزاب، فقد كان يهود بني قريظة يمثلون الجناح الثالث للاتحاد العسكري الوثني اليهودي الذي قام لسحق المسلمين وإبادتهم إبادة كاملة ».

(غزوة بني قريظة، ص/١٤٩-١٥٥).

فلما قدم ثمامة على قريش، قالوا: صبوت يا ثمامة! قال: لا والله، ولكني أسلمت مع محمد ﷺ لا والله ما يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ وكانت اليمامة ريف مكة.

فانصرف إلى بلاده، ومنع الحمل إلى مكة، حتى جهدت قريش، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يكتب إلى ثمامة يخلي إليهم حمل الطعام، ففعل رسول الله ﷺ[1].

غزوة بني المصطلق وقصة الافك:

وبلغ رسول الله ﷺ في شعبان سنة ست أن بني المصطلق وهم فرع من خزاعة، يجمعون له... فلما سمع خرج اليهم، وقد خرج معه أكبر عدد من المنافقين خرج في غزوة[2]، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، وقد بلغت سطوة المسلمين أوجها بعد انتصارهم في غزوة الأحزاب التي اجتمعت فيها قريش وحزبت الأحزاب للقضاء على الإسلام، اجتماعاً لم تجتمع مثله، فكانت شوكة في حلقوم الكفار في مكة، واليهود والمنافقين في المدينة وحولها، وعرفوا أن المسلمين لن يغلبوا في ساحة القتال بكثرة العدد والعدد، فاعتمدوا أخيراً على اثارة الفتن الداخلية، والتحريش بين المسلمين باحياء النعرة القومية القبلية، والإساءة إلى مقام الرسول ﷺ وتشكيك المسلمين فيه، ونشر القالة حول عرضه وكرامته، وأحب أزواجه اليه، وبذلك يتزلزل كيان هذا

---

(١) زاد المعاد، ج ١ ص ٣٧٧؛ ورواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب «الامداد بالملائكة يوم بدر».

(٢) جاء في «طبقات ابن سعد»: وخرج معه بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قط مثلها (كتاب الطبقات الكبرى، الجزء الثاني؛ القسم الأول، طبع ليدن ١٣٢٥ هـ، ص ٤٥).

المجتمع المثالي الوليد، الذي كان كل عضو من أعضائه مرآة أخيه، إذا سمع عنه ما يريب عاد إلى نفسه، فرآها نزيهة، فنفى هذه التهمة كما ينفيها عن نفسه، ويفقد بعضهم الثقة ببعض، فإذا زالت الثقة بأهل بيت النبوة، زالت عن الجميع، وكانت أعظم مؤامرة حاكها المنافقون وقد تجلت هذه السياسة الماكرة في غزوة بني المصطلق أكثر مما تجلت في اي غزوة.

خرج رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق ولقيهم على ماء لهم، يقال له «المريسيع»[١] من ناحية قديد إلى الساحل، فتزاحف الناس واقتتلوا، وانهزم بنو المصطلق[٢].

واقتتل أجير لعمر بن الخطاب من بني غفار، وحليف للخزرج من جهينة، فصرخ الجهني «يا معشر الأنصار!» وصرخ الأجير «يا معشر المهاجرين!» فغضب عبد الله بن أبي بن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم، فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ليس الأمر إلا كما قيل: «سمن كلبك يأكلك» أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم، لتحولوا إلى غير داركم».

---

(١) ومن هنا سميت هذه الغزوة بغزوة المريسيع أيضاً؛ كما في طبقات ابن سعد وغيرها.

(٢) كانت لغزوة بني المصطلق في المريسيع أهمية سياسية واستراتيجية واقتصادية كبيرة، وهي الطريق الرئيسي للتجارة المكية، وكانت طريقا فرعيا من مكة الى المدينة كان يُمَرُّ بها، الى غير ذلك من الخصائص.

(مستفاد من بحث الدكتور حسين مؤنس المقدم إلى مؤتمر السيرة والسنة النبوية المنعقد في الدوحة في شهر محرم عام ١٤٠٠ هـ).

فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ أمر بالرحيل، لئلا ينشغل الناس بهذه الفتنة، ويجد الشيطان سبيلاً إلى نفوسهم، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس.

ومشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك، حتى أمسى وليلتهم، حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك، حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض، فوقعوا نياماً.

وقدم عبد الله بن عبد الله بن أُبي الناس، حتى وقف لأبيه على الطريق، فلما رآه أناخ به، وقال: لا أفارقك حتى تزعم أنك الذليل، ومحمد العزيز، فمر به رسول الله ﷺ فقال: دعه، فلعمري لنحسنن صحبته ما دام بين أظهرنا[1].

وكان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً، أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وخرج سهم عائشة بنت أبي بكر زوج رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق، فخرج بها رسول الله ﷺ فلما فرغ من سفره ذلك توجه قافلاً، حتى إذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً، فبات به بعض الليل، ثم أذن بالرحيل، وخرجت عائشة لبعض حاجتها، وفي عنقها عقد لها، فانسل من حيث لا تشعر، فلما رجعت إلى الرحل فقدت العقد فذهبت تبحث عنه وقد أخذ الناس في الرحيل، فجاء القوم الذين كانوا يرحلون لها البعير، فأخذوا الهودج، وهم يظنون أنها فيه، وكانت فتاة صغيرة السن، خفيفة اللحم، فلم ينتبهوا لخفتها، ولم يشكوا أنها فيه، ورجعت عائشة إلى العسكر وما فيه داع ولا مجيب، قد انطلق الناس، فتلففت بجلبابها واضطجعت في مكانها.

---

(١) طبقات ابن سعد ج ٢؛ ق ١، ص ٤٦؛ طبع ليدن.

وبينما هي كذلك إذ مر بها صفوان بن المعطل السلمي، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته، فلما رآها استرجع، وقال: ظعينة رسول الله ﷺ ثم قرب البعير واستأخر، فركبت وأخذ برأس البعير، وانطلق سريعاً يطلب الناس فأدركهم، وقد نزلوا، ولحقت بالركب، فلم يرع الناس شيء، فكان مما ألفوه في حياة البادية ومسير القوافل، وكان حفظ الذمار والتعفف عن مثل هذه الخسائس، من الأعراف العربية التي كانوا يحافظون عليها في الجاهلية والاسلام[1]، فيقول الشاعر الجاهلي:

وأغـــض طرفي ان بـــدت لي جـــارتي
حـــتى يوارى جـــارتي مـــأواهـــا[2]

وقد كان الصحابة - رضي الله عنهم - مع الرسول ﷺ كالأبناء للآباء، وأزواجه أمهاتهم، وكان أحب اليهم من والدهم وولدهم والناس أجمعين، وقد عرف صفوان بن المعطل بالدين والصلاح والعفة والحياء، ذكر انه لم يكن له أرب في النساء.

---

(١) ومن أمثلته ما حكته أم سلمة، وقد حال قومها بينها وبين زوجها أبي سلمة، فلم يدعوها تهاجر معه إلى المدينة؛ فكانت تخرج كل غداة إلى الأبطح فما تزال تبكي حتى تمسي، سنة أو قريباً منها، حتى رقوا لها وقالوا الحقي بزوجك ان شئت، فارتحلت بعيرها وما معها أحد؛ فلقيها عثمان بن طلحة الداري فرثى لها، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معها إلى المدينة، قالت أم سلمة: والله ما صحبت رجلا من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه، ثم قيده في الشجر.. إلى أن قالت: فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة ». (سيرة ابن كثير، ج٢، ص٢١٥-٢١٧) وهذا قبل أن يسلم عثمان بن طلحة، فكان صفوان بن المعطل السلمي أحق بهذا الخلق والنزاهة، فقد أسلم قديماً وصحب النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) ديوان الحماسة.

وكانت القضية لا تسترعي انتباهاً، ولكن عبد الله بن أبي تبنى هذه القضية، وتحدث بها بعد عودته إلى المدينة، وشايعه أصحابه من المنافقين، واهتبلوها لاثارة الفتنة بين المسلمين واضعاف الصلة التي تربطهم بمقام صاحب الرسالة العظمى ومن يتصل به من أهل، واضعاف ثقة المسلمين بعضهم بأمانة بعض، وتورط في هذه المكيدة بضع من المسلمين الذين أصبحوا فريسة التشهي للحديث والترديد لكل ما قيل من غير تمحيص[1].

فلما سمعت بذلك عائشة وفوجئت به في المدينة فزعت له، وحزنت حزناً شديداً، لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم، وكبر على رسول الله ﷺ وعرف مصدره، فقام من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي، وهو على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين! من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي والله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلا ما علمت فيه إلا خيراً، وما يدخل على أهلي إلا معي، وغضب رجال من الأوس لرسول الله ﷺ وأبدوا استعدادهم لقتل من تولى كبر هذه المقالة، إن كان من الأوس او من الخزرج، وكان عبد الله بن أبي من الخزرج، فاحتملت بعضهم الحمية، وثار الحيان، وكاد الشيطان أن يلعب بهم لولا حكمة رسول الله ﷺ وحلمه.

هذا، والصديقة بنت الصديق موقنة ببراءتها، عزيزة النفس، مليئة بالثقة والاعتزاز، شأن الأبرياء الذين لا ترتقي اليهم شبهة ولا تلتصق بهم لوثة، تعلم أن الله سيبرئها، ويبعد كل ظنة وتهمة عن ساحة رسول الله ﷺ ولكنها لم تكن تظن أن الله منزل في شأنها وحياً يتلى، ويجعله

---

(١) وذلك ما أشار الله تعالى اليه بقوله: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ، وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ» (سورة النور، آية ١٥).

كلمة باقية في أعقاب هذه الأمة، ولكنها ما تلبث طويلاً أن أنزل الله على رسوله في شأنها القرآن، وأنزل براءتها من فوق سبع سماوات، فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ، لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِنْهُمْ مَا ٱكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ، والَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذابٌ عَظِيمٌ، لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ والْمُؤْمِنَاتِ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً، وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾[1].

وبذلك انطفأت نار الفتنة، وانحسمت مادة الفساد، وخزي الشيطان، وكأن لم يكن شيء، فتشاغل المسلمون بما أمرهم الله به ورسوله، وبما يعود عليهم وعلى الإنسانية بالخير والسعادة[2].

---

(١) سورة النور الآيات ١١-١٢.

(٢) القصة مقتبسة من سيرة ابن هشام ق٢، ص٢٨٩ - ٣٠٢؛ وحديث عائشة الذي رواه البخاري.

صلح الحديبية

ذو القعدة سنة ست من الهجرة

رؤيا رسول الله ﷺ وتهيؤ المسلمين لدخول مكة:

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة، وطاف بالبيت - وذلك في غير تحديد للزمان، وتعيين للشهر والعام[1] - فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة، فاستبشروا به، وفرحوا فرحاً عظيماً، وقد طال عهدهم بمكة والكعبة التي رضعوا بلبان حبها ودانوا بتعظيمها، وما زادهم الإسلام إلا ارتباطاً بها وشوقاً اليها، وقد تاقت نفوسهم إلى الطواف حولها، وتطلعت اليه تطلعاً شديداً.

وكان المهاجرون أشدهم حنيناً إلى مكة، فقد ولدوا ونشأوا فيها وأحبوها حباً شديداً، وقد حيل بينهم وبينها، فلما أخبرهم رسول الله ﷺ بذلك، لم يشكوا أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام، وقد صادف كل ذلك رغبة شديدة في نفوسهم، وأثار كامن الشوق ودفين الحب فتهيأوا للخروج مع رسول الله ﷺ لم يتخلف منهم إلا نادر.

---

(١) راجع سورة الفتح ٢٧، واقرأ تفسيرها في تفسير ابن كثير ﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾ الخ.

إلى مكة بعد عهد طويل:

خرج رسول الله ﷺ من المدينة في ذي القعدة سنة ست معتمراً - لا يريد حرباً - إلى الحديبية ومعه ألف وخمس مائة، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه إنما خرج زائراً للبيت، معظماً له[١].

وبعث رسول الله ﷺ عيناً له من خزاعة، يخبره عن قريش، حتى إذا كان قريباً من «عسفان[٢]» أتاه عينه، فقال: اني تركت كعب بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش[٣] وجمعوا لك جموعاً، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، وسار النبي ﷺ حتى إذا بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت راحلته، فقالوا: خلأت[٤] القصواء[٥]، خلأت القصواء، فقال: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل[٦] والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله، ويسألونني فيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها، فوثبت به، فعدل، حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء، وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه[٧].

---

(١) زاد المعاد ج١ ص٣٨٠، وابن هشام ق٢، ص٣٠٨.
(٢) موضع بين مكة والمدينة.
(٣) الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة.
(٤) خلأ: كفتح، خلوءاً أي لم يبرح مكانه.
(٥) ناقة رسول الله ﷺ.
(٦) إشارة إلى فيل أبرهة الذي حبسه الله عن الدخول في مكة.
(٧) زاد المعاد؛ ج ١، ص ٣٨١.

فزع قريش من دخول المسلمين في مكة:

وفزعت قريش لنزول رسول الله ﷺ عليه، فأحب أن يبعث اليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ليبعثه اليهم، فقال: يا رسول الله! ليس بمكة أحد من بني عدي بن كعب يغضب لي إن أوذيت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وانه مبلغ ما أردت، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان وأرسله إلى قريش، وقال: أخبرهم إنا لم نأت لقتال وإنما جئنا عماراً، وادعهم إلى الإسلام، وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم، ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة حتى لا يستخفي فيها بالايمان[1].

امتحان الحب والوفاء:

وانطلق عثمان حتى جاء مكة، وأتى أبا سفيان، وعظماء قريش، وبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به.

وقالوا حين فرغ عن رسالة رسول الله ﷺ اليهم: ان شئت ان تطوف البيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ[2].

وقال عثمان حين رجع وقال له المسلمون: اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت؟ - «بئس ما ظننتم بي والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ولقد دعتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت»[3].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٣١٥.
(٣) زاد المعاد؛ ج١، ص٣٨٢.

بيعة الرضوان:

بلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة فبايعوه ألا يفروا، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: هذه عن عثمان[1]، فكانت بيعة الرضوان تحت شجرة سمرة في الحديبية التي أنزل الله عنها:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً[2]﴾.

وساطات ومفاوضات:

فبينما هم كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة، فكلمه، وسأله ما الذي جاء به؟

قال رسول الله ﷺ: إنا لم نجيء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين، وأن قريشاً قد نهكتهم الحرب، وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم، ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس، فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري حتى تنفرد سالفتي[3]، أو لينفذن الله أمره.

فلما بلغهم بديل ما قاله رسول الله، قال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها، ودعوني آته، فقالوا: ائته، وجاء عروة بن مسعود الثقفي، فكلمهم رسول الله ﷺ وجعل عروة يرمق أصحاب رسول الله ﷺ فما تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل

---

(١) المصدر السابق.
(٢) سورة الفتح - ١٨.
(٣) السالفة: صفحة العنق عند معلق القرط.

منهم، فدلك بها جلده، ووجهه، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون اليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه وقال: أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك: على كسرى وقيصر والنجاشي والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، ووصف لهم ما رآه، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها[1].

معاهدة وصلح:

وجاء رجل من بني كنانة، ورجل اسمه مكرز بن حفص، وأخبرا قريشاً بما رأيا، ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، وقال: اكتب بيننا وبينكم كتاباً[2].

حكمة وحلم وتنازل:

فدعا الكاتب - وهو علي بن أبي طالب - فقال: أكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم».

فقال سهيل: أما «الرحمن» فوالله ما ندري ما هو، ولكن أكتب: «باسمك اللهم» كما كنت تكتب، فقال المسلمون والله لا نكتبها، إلا «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال النبي ﷺ: أكتب «باسمك اللهم».

ثم قال: أكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: «والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن أكتب «محمد بن عبد الله».

---

(١) زاد المعاد، ج١، ص٣٨٢.

(٢) سيرة ابن هشام، ق٢، ص٣١٦، ورواه البخاري في صحيحه باختلاف يسير؛ راجع كتاب المغازي باب عمرة القضاء.

فقال النبي ﷺ: «اني رسول الله وان كذبتموني، أكتب «محمد بن عبد الله»، فأمر علياً أن يمحوها، فقال علي: لا والله لا أمحوها، فقال رسول الله ﷺ: أرني مكانها، فأراه مكانها، فمحاها[1].

صلح وامتحان:

فقال النبي ﷺ: «هذا ما قاضى عليه رسول الله ﷺ على أن تخلو بيننا وبين البيت، فنطوف به.

فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب إنا أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب.

قال سهيل: وعلى ألا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا، فقال المسلمون: سبحان الله! كيف يردإلى المشركين وقد جاء مسلماً؟!.

وبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل، يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين.

قال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه على أن ترده.

قال النبي ﷺ: إنا لم نقض الكتاب بعد، قال: فوالله إذاً لا أقاضيك على شيء أبداً، قال النبي ﷺ: فأجزه لي.

قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: بلى، فافعل، قال: ما أنا بفاعل، قال أبو جندل: يا معشر المسلمين! أرد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيت؟، وكان قد عذب في الله عذابا شديدا[2]، ورده رسول الله ﷺ.

---

(١) صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية.

(٢) زاد المعاد، ج ١؛ ص ٣٨٣، ورواه البخاري في الجامع الصحيح في باب «الشروط في الجهاد».

وقد اصطلح الفريقان على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وعلى أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد، لم يرده عليه، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم ودخل فيه[1].

بلاء المسلمين في الصلح والعودة إلى مكة:

فلما رأى المسلمون ما رأوه من الصلح والرجوع، وما تحمل عليه رسول الله ﷺ في نفسه، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون، ووقع ذلك من نفوسهم كل موقع، حتى جاء عمر بن الخطاب إلى أبي بكر - رضي الله عنهما - فقال: ألم يكن رسول الله ﷺ يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى! أفأخبرك أنك تأتيه العام؟ قال: لا، قال: فإنك آتيه ومطوف به[2].

فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلح، قام إلى هديه، فنحره، ثم جلس فحلق رأسه، وعظم ذلك على المسلمين، لأنهم خرجوا وهم لا يشكون في دخول مكة والعمرة، ولكن لما رأوا رسول الله ﷺ قد نحر، وحلق، تواثبوا ينحرون ويحلقون[3].

صلح مهين أم فتح مبين؟

ثم رجع إلى المدينة، وفي مرجعه أنزل الله تعالى:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً، لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ٢، ص ٣١٧ - ٣١٨.
(٢) الجامع الصحيح للبخاري باب «الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب».
(٣) راجع للتفصيل زاد المعاد، ج ١، ص ٣٨٣.

تَأَخَّرَ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾[1].

قال عمر - رضي الله عنه - أو فتح هو يا رسول الله؟، قال: نعم![2].

عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم:

ولما رجع إلى المدينة، جاءه رجل من قريش، اسمه أبو بصير عتبة بن أسيد، فأرسلوا في طلبه رجلين، وقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به، فخرج هارباً منهم، حتى أتى سيف البحر، وتفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم، إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم، فمن أتاه منهم فهو آمن[3].

كيف تحول الصلح إلى الفتح والنصر؟

ودلت الحوادث الأخيرة على أن صلح الحديبية الذي تنازل فيه رسول الله ﷺ لقبول كل ما ألحت عليه قريش، ورأوا فيه انتصاراً لهم ومكسباً، وتحمله المسلمون في قوة إيمانهم، وشدة طاعتهم للرسول، كان فتح باب جديد لانتصار الإسلام، وانتشاره في جزيرة العرب بسرعة لم

---

(١) سورة الفتح ١ - ٣.
(٢) راجع صحيح مسلم؛ كتاب الجهاد والسير، باب «صلح الحديبية».
(٣) زاد المعاد؛ ج ١، ص ٣٨٤.

تسبق، وكان باباً إلى فتح مكة، ودعوة ملوك العالم كقيصر وكسرى والمقوقس والنجاشي وأمراء العرب، وصدق الله العظيم:

﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ، واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

كان من مكاسب هذا الصلح اعتراف قريش بمكانة المسلمين، وتسليمهم لهم، كفريق قوي كريم، تبرم معه المعاهدات ويتفق معه على مفاوضات، ثم كان من أفضل ثمار هذا الصلح الهدنة، التي استراح فيها المسلمون عن الحروب التي لا أول لها ولا آخر، والتي شغلتهم واستهلكت قوتهم، فاستطاعوا في هذه الفترة السلمية، أن يقوموا بدعوة الإسلام، في ظل الأمن والسلام، وفي جو من الهدوء والسكينة.

وأتاح هذا الصلح الفرصة للمسلمين والمشركين على السواء لأن يختلطوا بعضهم ببعض، فيطلع المشركون على محاسن الإسلام، وما صنع من عجائب ومعجزات في تهذيب الأخلاق، وتزكية النفوس، وتطهير العقول والقلوب، من ألواث الشرك والوثنية، والعداء والخصومة، والضراوة بالدماء، والولوع بالحرب في بني جلدتهم الذين لا يختلفون عنهم في نسب وبيئة ولغة.

ولم يخف عليهم - رغم عنادهم وجحودهم - أن تعاليم الإسلام وحدها وصحبة النبي ﷺ هي التي ميّزتهم عن أقرانهم وبني أعمامهم، وجعلت منهم أمة غير أمة، ونمطاً من أنماط البشرية غير النمط القديم، فكان في ذلك باعث قويّ على تفهم الإسلام والاعتراف بتأثيره.

---

(١) سورة البقرة ٢١٦.

فلم يمض على هذا الصلح عام كامل حتى دخل في الإسلام من العرب أكثر من الذين دخلوا فيه خلال خمس عشرة سنة - ومكة لم تفتح بعد -.

يقول الإمام ابن شهاب الزهري (م١٢٤ هـ):

«فما فتح في الإسلام فتح قبلة كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس، وكلم الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث، والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر»[١].

قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ قد خرج إلى الحديبية، في ألف وأربعمائة، في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج في عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف»[٢].

واستفاد بهذه الهدنة المستضعفون في مكة، وقد أسلم على يد أبي جندل عدد كبير من أبناء قريش في مكة، وضاقت قريش ذرعاً بهذا الداعي إلى الإسلام، وانتشار الإسلام في مكة.

ولحقوا بأبي بصير، وصار مركز دعوة وقوة للإسلام، وتكلمت في شأنهم قريش، وسألت رسول الله ﷺ أن يلحقهم به في المدينة، ففعل، ونجوا من الضيق الذي كانوا فيه بمكة، وكان كل ذلك من حسنات هذا الصلح وفوائد هذه الهدنة[٣].

---

(١) سيرة ابن هشام؛ ق ٢، ص ٣٢٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) راجع زاد المعاد؛ ج ١، ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

وكان من فوائد الموقف المسالم الذي وقفه رسول الله ﷺ وما بدا منه من زهد في الحرب، ورغبة في الصلح، وحلم وأناة أن تغيرت نظرة القبائل العربية التي لم تدخل في الإسلام بعد، إلى الدين الجديد، والداعي إليه، ونشأ في نفوسهم إجلال للإسلام وتقدير له لم يكن من قبل، وكانت فائدة دعوية لا يستهان بقيمتها وإن لم تكن مقصودة، سعى إليها الرسول ﷺ والمسلمون.

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص:

وكان صلح الحديبية فتحاً للقلوب، دخل في الإسلام خالد بن الوليد الذي كان قائد الفرسان لقريش، وبطل معارك عظيمة، وقد سماه رسول الله ﷺ «سيف الله» وهو الذي أبلى في الله بلاء حسناً، وفتح الله على يده الشام.

ودخل عمرو بن العاص - أحد كبار القادة والأمراء وفاتح مصر من بعد - وقد قدما المدينة بعد صلح الحديبية، فأسلما وحسن إسلامهما[1].

(١) راجع سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.

دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام

أواخر سنة ستّ أو أوائل سنة سبْع من الهجرة

دعوة حكمة:

ولما تم الصلح، وهدأت الأحوال، وجدت الدعوة الإسلامية متنفساً ومجالاً للتقدم، فكتب رسول الله ﷺ كتباً إلى ملوك العالم وأمراء العرب، يدعوهم فيها إلى الإسلام وإلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة[1]، واهتم اهتماماً كبيراً، فاختار لكل واحد منهم رسولاً يليق به، ويعرف لغته وبلاده[2].

---

(١) نرجح أن هذه الرسائل وجهت في شهر ذي الحجة سنة ست بعد صلح الحديبية، كما قال الواقدي وهو يوافق ٦٢٧م، فإن في مقدمة هؤلاء الملوك الامبراطور الإيراني «كسرى أبرويز» ومن المقرر أنه مات في مارس سنة ٦٢٨م؛ ومن هنا يتقرر أن صلح الحديبية في أوائل سنة ٦٢٧م؛ وكان من الصعب وصول الرسالة الموجهة إلى هرقل كذلك؛ إذا كانت وجهت في سنة ٦٢٨م لأنه كان قد توجه في هذه السنة إلى أرمينيا. (راجع «فتح العرب لمصر» لألفرد بتلر، ص ١٣٩ - ١٤٠).

(٢) يشير كلام ابن سعد في الطبقات ج ٢، ص ٢٣، والسيوطي في الخصائص الكبرى، ج ٢، ص ١١؛ إلى أن ذلك كان على سبيل المعجزة، فجاء فيما ساقاه من الرواية: « ... فأصبح كل واحد يتكلم لغة البلاد التي أرسل إليها »..

والمؤلف حين لا يستبعد وقوع المعجزة - فسيرة الرسول ﷺ وسير الأنبياء قبله مليئة بالمعجزات وخوارق العادات، وإنكارها من المكابرة، ولكنه يرجح أن ذلك=

وقيل له: إنهم لا يقبلون كتاباً إلا بخاتم، فصاغ رسول الله ﷺ خاتماً حلقته فضة، ونقش فيه (محمد رسول الله)[1].

وقد دلت هذه الكتب على أن هذا الدين ليس دين العرب، أو دين الجزيرة العربية، وإنما هو دين البشر ودين الإنسانية، وكان إنذاراً للسلطات الحاكمة خارج الجزيرة المالكة للحول والطول، والحاكمة لأوسع رقاع راقية متمدنة، بأنها مُهدَّدة بالإنقراض والزوال، إذا لم تستجب للدعوة أو تسمح - على الأقل - من تمكين رعاياها، للإطلاع على هذه الدعوة، والاستماع إليها، وتقرير مصيرها في شأنها.

الكتب التي أرسلت إلى الملوك:

ومن هؤلاء الملوك الامبراطور الرومي «هرقل» وامبراطور فارس «كسرى أبرويز»، والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر.

وهنا نصوص الكتب التي أرسلت إلى هؤلاء الملوك:

= كان مبنيا على الحكمة وحسن الإختيار من رسول الله ﷺ، فلم يكن وجود من يحسن اللغة الرومية واللغة الفارسية؛ ولغة الأقباط في مصر، ولغة أهل الحبشة، غريباً لكثرة اختلاط العرب بهذه الأمم الأربع وكثرة رحلاتهم التجارية إلى هذه الأقطار وتنقلاتهم فيها، وكانت القضية محدودة، في هذه اللغات الأربع، إذ كان لغة امراء الجزيرة العربية ورؤساء القبائل الذين كتب إليهم رسول الله ﷺ كتبه، ودعاهم إلى الإسلام، اللغة العربية. وفي اختيار رسول الله -ﷺ- دحية الكلبي لحمل رسالته إلى هرقل قيصر الروم، معنى لطيف يؤيد ما أشرنا إليه، من حسن الاختيار، ومراعاة الحكمة، وقد كان شابا جميل الصورة، ذكيا فطنا، صادق الإيمان، وقد قيل في وصفه إن جبرائيل كان - يفد على النبي -ﷺ- في صورته، وكان أجدر بحمل هذا الكتاب إلى قيصر الروم، وإلى بلاد الشام من غيره، كما كانت هذه البلاد وأهلها أليق به من غيرهم.

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب «دعوة اليهود والنصارى وعلى ما يقاتلون» الخ، وشمائل الترمذي.

قد أرسل رسول الله ﷺ كتابه إلى «هرقل» مع دحية الكلبي، وقد دفعه إلى عظيم «بصرى» فدفعه إلى هرقل وهنا نص الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله، إلى «هرقل» عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم اليريسيين، ﴿يا أهل الكتاب! تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[1].

وجاء في كتابه ﷺ إلى كسرى أبويز:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً، أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس»[2].

وكتب إلى النجاشي ملك الحبشة:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى النجاشي عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني،

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري، باب «كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ».
(٢) الطبري ج ٣؛ ص ٩٠.

فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت فاقبل نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى»[1].

وكتب إلى المقوقس عظيم القبط:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى «المقوقس» عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت، فإن عليك إثم أهل القبط، ﴿يا أهل الكتاب! تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[2].

---

(١) طبقات ابن سعد، ج ٣ ص ١٥.

(٢) «المواهب اللدنية»، ج ٣، ص ٢٤٧ - ٢٤٨. وقد اكتشفت حتى الآن خمسة رقوق، فقد عثر المستشرق الفرنسي بارتليمي (Barthelemy) في أحد الأديرة بناحية «أخميم» من صعيد مصر على رق جلدي قديم، وذلك سنة ١٨٥٠م اتضح بالدراسة أنه رسالة النبي -ﷺ- إلى المقوقس عظيم القبط في مصر. وأسهم المسيو بلين (Belin) في تحقيق الرسالة، ومقارنة نصها بما ورد في الأصول، ثم أعلن بعد ذلك عن الثقة في أصالة المخطوط، ونشرت عن ذلك دراسة في المجلة الآسيوية سنة ١٨٥٤م، ثم في مجلة الهلال المصرية في نوفمبر سنة ١٩٠٤م.

كذلك اكتشف مخطوط جلدي يحتمل أن يكون أصل الرسالة النبوية إلى منذر بن ساوي، حاكم البحرين، نشر الدكتور بوش (Busch) الألماني حوله مقالاً في مجلة المستشرقين الألمان،

وفي سنة ١٩٤٠م، نشر المستشرق الانكليزي دنلوب (Dunlop) مقالاً في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية أعلن فيه أنه تحصل على رق جلدي يملكه تاجر سوري، يظن أنه رسالة النبي -ﷺ- إلى نجاشي الحبشة، وذكر أن المالك السوري تحصل على المخطوط من قسيس أثيوبي جاء إلى دمشق وقت الحرب العالمية الثانية.

وفي مايو ١٩٦٣م نشر الدكتور صلاح الدين المنجّد مقالاً في جريدة «الحياة» ببيروت، يعلن فيه الكشف عن رسالة النبي -ﷺ- إلى كسرى، وذكر أن الأصل الجلدي لهذه الرسالة محفوظ لدى الأستاذ هنري فرعون أحد الوزراء اللبنانيين=

إعتبارات حكيمة خاصة بالملوك الذين وجّهت إليهم هذه الرسائل:

ويلاحظ القارىء الذكيّ فوارق دقيقة مؤسسة على حكمة الدعوة والرسالات النبوية، روعي فيها ما يمتاز به هؤلاء الملوك في العقائد التي يدينون بها، و«الخلفيات» التي يمتازون بها، فلما كان هرقل والمقوقس بدينان بألوهية المسيح كليا أو جزئيا، وكونه ابن الله، جاءت في الكتابين اللذين وجّها إليهما كلمة «عبد الله» مع اسم النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم صاحب هاتين الرسالتين، فيبتدىء الكتابان بعد التسمية بقوله: «من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم» وبقوله: «من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط» بخلاف ما

= السابقين، وهو مخطوط بين اللوحين الزجاجيين وفيه تمزيق واضح من أعلى الوسط يتجه إلى يمين الرسالة وإلى أسفلها، وقد خيط هذا التمزيق بمهارة للمحافظة على مظهر الرسالة.

ملخص من بحث الدراسات المتعلقة برسائل النبي -ﷺ- إلى الملوك في عصره «للدكتور عزالدين إبراهيم»، المقدم إلى مؤتمر السيرة، المنعقد في الدوحة شهر محرم ١٤٠٠ هـ).

أما الكتاب الذي وجّه إلى الامبراطور الروماني هرقل، فقد كان محفوظاً في إسبانيا إلى القرن السابع الهجري، وقد أشار إلى وجوده في عصره المحدث والمؤرخ الشهير العلامة السهيلي من رجال القرن السادس الهجري.

وقد جاء في «إرشاد الساري» لشرح صحيح البخاري تأليف أبي العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني، المتوفى سنة ٩٢٣ هـ، الجزء الأول، ص/٨١:

وحكي أن ملك الإفرانج في دولة الملك المنصور قلاوون الصالحي أخرج لسيف الدين قلج صندوقاً مصفحاً بالذهب واستخرج منه مقلمة من ذهب، فأخرج منها كتاباً زالت أكثر حروفه، فقال هذا كتاب نبيكم إلى جدي قيصر، ما زلنا نتوارثه إلى الآن، وأوصانا آباؤنا أنه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملك فينا فنحن نحفظه.».

جاء في كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى أبرويز، فاكتفى بقوله: «من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس».

وجاءت كذلك آية: «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾، في هذين الكتابين، وما جاءت في كتابه إلى كسرى ابرويز لأن الآية تخاطب أهل الكتاب الذين دانوا بألوهية المسيح، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم، وقد كان هرقل امبراطور الدولة البيزنطية والمقوقس حاكم مصر قائدين سياسيين، وزعيمين دينيين كبيرين للعالم المسيحي، مع اختلاف يسير في الاعتقاد في المسيح هل له طبيعة أم طبيعتان»[1].

ولما كان كسرى ابرويز وقومه يعبدون الشمس والنار، ويدينون بوجود الهين، احدهما يمثل الخير وهو يزدان، والثاني يمثل الشرّ وهو اهرمن، وكانوا بعيدين عن مفهوم النبوة والتصور الصحيح للرسالة السماوية، وجاءت في الكتاب الذي وجّه إلى الامبراطور الإيراني عبارة: ﴿وأني رسول الله إلى الناس كافّة لينذر من كان حيّا﴾.

من هم هؤلاء الملوك؟

ولكي نشعر بأهمية هذه الرسائل التي وجهت إلى دول وبلاد مختلفة، وملوكها، ومكانتها الصحيحة في التاريخ المعاصر، ووقعها في القلوب والنفوس، يجب أن نتعرف بهؤلاء الأشخاص الأربعة: «هرقل»

---

(١) راجع للتفصيل كتاب المؤلف «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ص/٣٨-٣٩، دار القلم: الطبعة الثالثة عشرة،

و«كسرى» و«النجاشي» و«المقوقس»، وحجم الحكومات التي كانوا يحكمونها. فقد يتصور القارىء الذي لم يتسع وقته لدراسة التاريخ السياسي في القرن السابع المسيحي، ولم تتوفر عنده معلومات عن هذه الممالك التي كان يحكمها هؤلاء الملوك، أنها رسائل وجهت إلى أمراء، أو أقيال يكثر عددهم في كل زمان ومكان، أما من عرف مكانة هؤلاء الملوك في الخريطة السياسية في ذلك العصر، واطلع على تاريخهم وسيرتهم وأخلاقهم، وما كان لهم من حول وطول، وسطوة ورهبة، عرف ضخامة هذا العمل الذي لا يقدم عليه إلا نبي مأمور من الله، مكلف بالدعوة، بعيد عن كل ظل من ظلال الخوف والضعف تجلى عليه ملكوت السماوات والأرض فتراءى له هؤلاء الملوك دمى كسيت حللاً ملوكية فاخرة، أو تماثيل لا روح فيها ولا حياة.

هرقل الأول قيصر الروم (٦١٠ - ٦٤١م):

هو هرقل قيصر الروم الأمبراطور البيزنطي، كان يحكم امبراطورية واسعة، توزعت مع الامبراطورية الإيرانية: العالم المتمدن في ذلك اليوم وحكمت نصف العالم تقريبا وكانت لها ولايات واسعة غنية متمدنة راقية، في القارات الثلاث: أوربا، وآسيا، وأفريقيا، وخلفت الدولة الرومية الكبرى التي خضع لها العالم القديم[١].

وكان من أسرة يونانية الأصل، ولد في «كيبوديشيا» ونشأ في قرطاجنة «كارتهيج»[٢]، وكان ابن حاكم افريقيا الرومي Exarch of

---

(١) قد ذكرنا حدود هذه المملكة، وما كانت تحكمه من ولايات، ومقاطعات؛ في أوربا وآسيا، وأفريقيا؛ في الباب الأول من هذا الكتاب، تحت عنوان «الدولة الرومية الشرقية».

(٢) مدينة قديمة في افريقيا، أسسها الفينيقيون في ٨١٤ق -م، وبمقربة من أطلالها قامت مدينة تونس.

Africa ولم يكن شيء يدل على عصاميته ونبوغه، أو عبقريته القيادية، إلى أن قتل فوقس (Phocas) المغتصب، امبراطور الدولة البيزنطية الشرعي موريقس (Maurice) سنة ٦٠٢م الذي كان صاحب الفضل على كسرى ابرويز وانتهز الفرس هذه للزحف على الدولة البيزنطية فدوخوها واحتلوها وأهانوها واحتضرت الدولة البيزنطية الشهيرة تلفظ آخر أنفاسها[١]، فدعى هرقل من قرطاجنة، فقتل فوقس، وتسلم زمام الحكم والقيادة في سنة ٦١٠م[٢]، والمملكة في صراع الموت والحياة، وفي براثن المجاعة، والأمراض الوبائية، والفقر، والعجز المالي، وبقي هرقل في سنواته الأولى، لا يبعث أملاً ولا يحرك ساكناً. ولكن حدث فيه انقلاب في سنة ٦١٦م (وهي السنة التي نبأ القرآن فيها بغلبة الروم في بضع سنين)[٣]، فتحول من ملك متخاذل راكن إلى الدعة والترف، إلى قائد متحمس غيور، قد ملكته الفكرة وثارت فيه الحمية، وتوجه إلى مركز الأمبراطورية الإيرانية، يستعيد بلاده وكرامة أمته، ويفتح مدن إيران الشهيرة، ويستولي على مراكزها الكبيرة، حتى أوغل في قلب إيران، وأهان الأمبراطورية الإيرانية العظيمة القديمة، وأثخنها قتلاً وجراحاً، حتى أوشكت الأمبراطورية الساسانية على النهاية، وتزلزلت قوائم عرش آل ساسان، ورجع القائد المنتصر، فدخل القسطنطينية دخول الفاتح

---

(١) اقرأ القصة مفصلة في كتاب «انحطاط دولة روما وسقوطها»، لمؤلفه «جبون» وكتاب «ايران في عهد الساسانيين» لمؤلفه «آرتهركرستن سين».

(٢) وبعد مضي عام على هذا الحادث كانت البعثة المحمدية في الجزيرة العربية.

(٣) اقرأ الآيات الأولى من سورة الروم، واقرأ مقالتنا «نبوة تتحدى ومعجزة تتحقق» المنشورة في مجلة «البعث الإسلامي» العدد الرابع؛ المجلد الخامس عشر؛ رمضان ١٣٩٠هـ - نوفمبر ١٩٧٠م.

العظيم سنة ٦٢٥م[1]، وتوجه إلى بيت المقدس في سنة ٦٢٩م، ليعيد إليه الصليب المقدس، الذي أخذه الفرس، وليفي بنذره، فكان الناس يبسطون له البسط ليمشي عليها، وينثرون عليه الرياحين[2]، إبداء لسرورهم وإجلالهم، وأقيم احتفال كبير بمناسبة عودة الصليب المقدس إلى مكانه، وإظهاراً للسرور بالفتح العظيم في القدس، وهنا وصله كتاب النبي ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام.[3]

وعاد هرقل إلى ما كان عليه من دعة وترف، حتى واجه الزحف الإسلامي الذي أدى إلى زوال ملكه، وانتهاء الحكم البيزنطي من آسيا وأفريقيا وانحصاره في أوربا وآسيا الصغرى، وعلى كل فإنه كان من كبار ملوك العالم في عصره، لا ينافسه في اتساع المملكة، والقوة الحربية، وزهو المدنية، إلا الامبراطور الإيراني خسرو الثاني، ومات سنة ٦٤١م في القسطنطينية، ودفن فيها.

كسرى أبرويز (خسرو أبهرويز الثاني) (٥٩٠-٦٢٨):

كان ابن هرمزد الرابع، وحفيد خسرو الأول المعروف بـ «أنوشيروان» العادل، يسميه العرب «كسرى أبرويز» جرى تتويجه على أثر قتل والده في سنة ٥٩٠م، وثار عليه بهرام جوبين وانهزم خسرو

---

(١) وفي سنة ٦٢٦م كانت واقعة بدر الكبرى التي التقى فيها انتصار المسلمين على مشركي مكة بانتصار الروم أهل الكتاب على منافسيهم الفرس عباد النار، وتحققت نبوءة القرآن عن غلبة الروم في بضع سنين (والبضع مدة دون العشرة).

(٢) فتح الباري ج ١ ص ٣١.

(٣) وقد كان سبب تأخر الكتاب النبوي إلى هرقل - بخلاف كسرى الذي وصله الكتاب قبل ذلك - أولا: أن الكتاب دفع إلى عظيم «بصرى» ليقدمه إلى قيصر، ولعله لم يتمكن من تسليمه إياه لانشغال قيصر بالحرب؛ وبعده عن عاصمته، وثانياً: أن المراجع الغربية تذكر أن هرقل قد اضطر إلى التوجه إلى أرمينيا في سنة ٦٢٨م لقمع ثورة أو غرض آخر، فلم يتمكن من الوفاء بنذره إلا في سنة ٦٢٩م.

فخرج من المملكة الساسانية، والتجأ إلى الأمبراطور البيزنطي موريقس Maurice واستعان به على استرداد ملكه، فأمده موريقس بجيوش جرارة، وبعد حروب دامية انهزم بهرام، وتربع خسرو على عرش آبائه، وفي سنة ٦١٢م زحف خسرو على المملكة البيزنطية ليأخذ ثأر ولي نعمته وأبيه المعنوي موريقس، من قاتله النذل المغتصب لعرش القياصرة فوقس (Phocas) ولم يكفه قتل فوقس عن الاستمرار في الزحف الذي ساءت فيه نيته، فواصله إلى القسطنطينية ووصل إلى ما لم يصل إليه سلفه من تدويخ المملكة المنافسة القديمة، وبلغ انتصاره ومجده أوجها، في سنة ٦١٥م حتى نجح هرقل في دحر الإيرانيين عن بلاده، والهجوم المنتصر على مركز المملكة الساسانية، حتى اضطر خسرو إلى أن يغادر عاصمته، والإلتجاء إلى مكان حريز، ولكنه ما لبث أن قتل في ثورة في سنة ٦٢٨م.

اتفقت كلمة مؤرخي إيران على أن خسرو الثاني كان أعظم ملوك إيران أبهة وعظمة، فقد بلغت الدولة الساسانية في عهده أوجها في الزينة والمدنية، والزهو، ومظاهر الترف والبذخ، وقد دخل جزء من الولاية الشمالية الغربية في الهند في حكمه[١]، وكان يلقب نفسه ويسميه كما يلي:

«في الآلهة إنسان غير فان، وفي البشر إله ليس له ثان، علت كلمته، وارتفع مجده، يطلع مع الشمس بضوئه، وينير الليالي المظلمة بنوره»[٢].

---

(١) «إيران في عهد الساسانيين» ص ٦٠٢.
(٢) أيضاً ص ٦٠٤، نقلا عن تهيو في ليكتس.

وقد بلغت في عهده المملكة الساسانية إلى ما لم تبلغ إليه في عهد من عهودها من الأبهة، والفخفخة، وقد وصف المؤرخ الطبري في تاريخه بقوله:

«كان من أشد ملوكهم بطشاً، وأنفذهم رأياً، وأبعدهم غوراً، وبلغ فيما ذكر من البأس، والنجدة، والنصر والظفر وجمع الأموال والكنوز، ومساعدة القدر ومساعدة الدهر إياه، ما لم يتهيأ لملك أكثر منه، ولذلك سمي «أبرويز» وتفسيره بالعربية «المظفر»[1].

وقد تأنق تأنقاً عظيماً في مظاهر الترف والمدنية، وأبدع في أنواع الأطعمة والأشربة[2]، وبلغ في الألطاف والأدهان والعطور شأواً بعيداً، وقد نشأ في عهده ذوق دقيق للأطعمة اللذيذة والخمور الراقية، والعطور اللطيفة، وارتقى في عهده الغناء والموسيقى، وأقبل الناس عليها اقبالاً عظيماً وكانت عنده نهامة بجمع الأموال، واكتناز الكنوز، وجمع الطرف والنفائس، ولما نقل كنزه في سنة ٦٠٧م-٦٠٨م من البناء القديم إلى البناء الجديد في طيسيفون، كان ما نقله ٤٦٠ مليون وثمانية ملايين مثقال ذهب، وذلك ما يساوي ٣٧٠ مليون وخمسة ملايين فرنك ذهبي، وفي العالم الثالث عشر من جلوسه على العرش كان في خزانته ٨٨٠ مليون مثقال ذهب[3]، وقد حكم ٣٧ سنة، وخلفه ابنه شيرويه.

المقوقس:

هو حاكم الاسكندرية، والنائب العام للدولة البيزنطية في مصر وقد ذكره المؤرخون العرب غالبا باسم «المقوقس» واختلفوا في تسميته

---

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبري ١٣٧/٢، الطبعة الحسينية الطبعة الأولى بمصر.
(٢) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري؛ ص ٩٩٥.
(٣) «إيران في عهد الساسانيين» ص ٦١١.

الحقيقية، وكنيته، اختلافاً كثيراً، أما المؤرخ أبو صالح الذي ألف تاريخه في القرن السادس الهجري (١٢٠٠م) فسماه بـ «جريج بن مينا المقوقس» وقد ذكر ابن خلدون أنه كان من الأقباط، والمقريزي سماه «المقوقس الرومي» فلما هاجم الفرس مصر فر حاكم الاسكندرية من قبل البيزنطيين، واسمه «John the Almoner» من الاسكندرية إلى قبرص ومات هناك، فعين هرقل مكانه نائباً آخر اسمه «جورج»، ولعله هو الذي يسميه العرب بـ «جريج» وولاه رئاسة الكنيسة الملكانية، وقد ذكر بعض المؤرخين أن تعيينه كان في سنة ٦٢١م.

ويرجح «ألفرد بتلر» مؤلف كتاب «فتح العرب لمصر» أن العرب كانوا يعتقدون أن الحاكم الذي كان يحكم مصر من قبل الدولة البيزنطية بعد انتصارها على إيران، كان يلقب بـ «المقوقس» وكان رئيس الكنيسة وحاكم مصر في وقت واحد، فأطلقوا على جورج الذي كان نائباً عن الدولة بهذا اللقب ويرجح أن «المقوقس» لقب لا علم، وقد رد هذا الاسم إلى أصول قبطية، ويمكن أن أسقفاً قبطياً تسلم زمام الحكم، ورئاسة الكنيسة عند استيلاء الفرس على مصر، وقد انسحبت القوات الإيرانية عن مصر في سنة ٦٢٧م، ولكن لم توقع وثيقة الصلح إلا في سنة ٦٦٨م، فيمكن أن كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس، وصل إليه في هذه الفترة، حين كان الحاكم المصري شبه مستقل[١] ولذلك خاطبه النبي ﷺ بـ «عظيم القبط».

وقد كانت مصر من أغنى ولايات الدولة البيزنطية، وأكثرها خصوبة وإنتاجاً وسكاناً، وكانت تمون العاصمة بالمواد الغذائية، وقد

---

(١) Appendix – C– p. 508 – 540، راجع «فتح العرب لمصر» لألفرد بتلر. وقد ورد اسم هذا الحاكم في بعض الكتب الجزكيروس أوقيرس.

وصفها فاتح مصر عمرو بن العاص (م٦٣ هـ) وقد دخلها بعد أن مضى على كتاب الرسول ﷺ إلى المقوقس ١٤ عاماً، في كتابه الذي كتبه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بقوله: «مصر تربة غبراء وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر[١]» ويدل على عمرانها وكثرة نفوسها أن عمرو بن العاص لما تم له فتح مصر سنة ٢٠ هـ (٦٤٠م) أحصى من تستحق عليه الجزية يومئذ، فبلغوا أكثر من ستة ملايين[٢]، وكان الرومان يبلغون مائة ألف، وقد جاء في كتاب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - «أما بعد، فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبحت فيها أربعة آلاف متنة[٣]، بأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودي، وأربعمائة ملهى للملوك»[٤].

النجاشي:

إن هذه البلاد لم تزل تسمى من قديم الزمان بالحبشة (Abyssinia) أو أثيوبيا (Ethiopia)، وهي بلاد من أفريقيا الشرقية، واقعة في الجنوب الغربي من البحر الأحمر ولا يمكن تقدير حدودها في العصر الذي نتحدث عنه.

وحكومتها من أقدم الحكومات في العالم، وتقول الأخبار اليهودية أن ملكة «سبأ» كانت تسكن في الحبشة، وأن ذرية سليمان ما زالت

(١) «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردى، ج ١، ص ٣٢.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين، للأستاذ محمد فريد وجدي راجع مادة «مصر» والمؤلف يشك في صحة هذا العدد في ضوء تجارب تضخم العمران في البلاد المختلفة، فإن عدد النفوس في مصر في عصرنا لا يزيد على أربعين مليوناً.

(٣) هو المكان الصلب المرتفع، كما في القاموس.

(٤) حسن المحاضرة للسيوطي.

تحكم الحبشة، وقد بدأ اليهود يسكنون في الحبشة بعد خراب هيكل سليمان، وبدأت النصرانية تنتشر في الحبشة منذ القرن الرابع الميلادي، ولما بدأ ملك اليمن يضطهد المسيحيين في بلاده طلب جستينين الأول من ملك الحبشة أن يساعد المسيحيين في اليمن، فاستولى على اليمن في سنة ٥٢٥م، ودامت السلطة الحبشية على اليمن العربية نحو خمسين سنة (وفي هذه الفترة هاجم ملك اليمن من قبل الحبشة ابرهة مكة ليخرب البيت، ووقعت حادثة الفيل).

وكانت عاصمة الحبشة (Axum) وكانت حكومة مستقلة لا تخضع لحكومة أجنبية ولا تؤدي إليها الخراج، ولا تتصل بالأمبراطورية البيزنطية إلا عن طريق الصداقة والمشاركة في ديانة واحدة (المسيحية) يدل على ذلك دلالة واضحة أن الأمبراطور البيزنطي «جستينين» عيّن في منتصف القرن الثالث المسيحي رجلاً اسمه «جوليان» (Julian) سفيراً في بلاط الحبشة[١].

ويقول «De Lacy O'Leary» في كتابه «العرب قبل محمد»:

«كانت الحبشة منذ ٥٢٢م حتى ظهور الإسلام مسيطرة على تجارة شرق المحيط الأحمر، وأفريقيا بل لعلها كانت مسيطرة على تجارة الهند أيضاً»[٢].

وكان ملك الحبشة يلقب دائما بـ «النجاشي» Nagusa Nagashi.

وقد اضطربت الأقوال والروايات في تعيين هذا النجاشي الذي كتب إليه رسول الله ﷺ كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، ومما لا شك فيه

(1) A.H.M. Jones & Elizabeth Monroe: A History of Abyssinia (Oxford, 1935) p. 63.

(2) «Arabia Before Mohammad» (London, 1927) p. 120.

أن هنالك شخصيتين متمايزتين، الأول هو الذي هاجر إليه المسلمون من مكة، وكان فيهم جعفر بن أبي طالب، وذلك سنة خمس من النبوة، ويستبعد أنه صلى الله عليه وسلم كتب إليه كتابا يدعوه في ذلك الحين، فإن الأوضاع لم تكن تسمح بذلك ولم يكن قد آن أوانه بعد، ولا نعرف أنه صلى الله عليه وسلم كتب إلى ملك من الملوك قبل الهجرة يدعوه إلى الإسلام، وغاية الأمر أنه طلب منه أن يؤوي المسلمين الذين قست عليهم قريش واضطهدوهم. ويستأنس من الأخبار التي رواها ابن هشام وغيره في كتب السير أنه دخل الإيمان في قلبه، وآمن بأن عيسى بن مريم - عليه الصلاة والسلام - هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم.

أما النجاشي الذي كتب له النبي ﷺ كتاباً يدعوه إلى الإسلام، فهو كما مال إليه الحافظ ابن كثير هو النجاشي الذي ولي بعد المسلم صاحب جعفر بن أبي طالب، يقول ابن كثير: «وذلك حين كتب إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الله قبل الفتح»، ونرجح أنه هو الذي أسلم ونعاه رسول الله ﷺ إلى المسلمين، وصلى عليه، وقد ذكر الأبيّ عن الواقدي، وغيره من أهل السير: «أنه النجاشي الذي صلى عليه رسول الله ﷺ وذلك في رجب سنة تسع منصرف تبوك[1].

وبذلك يحصل التوفيق بين الروايات المختلفة، وتدل عليه القرائن والدراية، والله أعلم.

كيف تلقى هؤلاء الملوك هذه الرسائل الكريمة؟

فأما «هرقل» و «النجاشي» و «المقوقس» فتأدبوا، ورقوا في جوابهم، وأكرم «النجاشي» و«المقوقس» رسل رسول الله ﷺ وأرسل

---

(١) صحيح مسلم؛ طبع مصر، ج ٥ ص ١٦٦.

« المقوقس » هدايا منها جاريتان كانت إحداهما مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ.

وأما كسرى أبرويز، فلما قرىء عليه الكتاب مزقه، وقال: « يكتب إليَّ هذا وهو عبدي »؟ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: « مزق الله ملكه »[1].

وأمر كسرى باذان وهو حاكمه على اليمن بإحضاره، فأرسل بأبويه يقول له: إن ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي فأخبره رسول الله ﷺ بأن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه فقتله[2].

وقد تحقق ما أنبأ به رسول الله ﷺ بكل دقة، فقد استولى على عرشه ابنه « قباذ » الملقب بـ « شيرويه » وقتل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعاز منه سنة ٦٢٨ م، وقد تمزق ملكه بعد وفاته وأصبح لعبة في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة، فلم يعش « شيرويه » إلا ستة أشهر، وتوالى على عرشه في مدة أربع سنوات عشرة ملوك، واضطرب حبل الدولة إلى أن اجتمع الناس على « يزدجرد » وتوجوه، وهو آخر ملوك بني ساسان، وهو الذي واجه الزحف الإسلامي الذي أدى إلى انقراض الدولة الساسانية التي دامت وازدهرت أكثر من أربعة قرون - انقراضاً كلياً، وكان ذلك في سنة ٦٣٧ م، وهكذا تحققت هذه النبوءة في ظرف ثماني سنين[3]، ولم تعد بعد ذلك الأمبراطورية الساسانية، فتحققت به نبوءة

---

(١) راجع الجامع الصحيح للبخاري، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر. وانظر هامش ص ٢٤٧.

(٢) تاريخ الطبري ج ٣، صص ٩٠ - ٩١.

(٣) ملخصاً من كتاب « إيران في عهد الساسانيين » « الباب التاسع » عهد الدولة الساسانية الأخير الزاهر، ص ٥٩٣، والباب العاشر « سقوط المملكة ».

أخرى لرسول الله ﷺ وهو قوله: إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده[1].

وملك الله المسلمين إيران، وهدى أهلها للإسلام، فكان منهم أئمة في العلم والدين، وعباقرة الإسلام، وأعلام المسلمين، وصدق عليهم قول رسول الله ﷺ: «لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء فارس»[2].

حوار بين «هرقل» وأبي سفيان:

وقد أراد «هرقل» أن يتثبت في أمر النبي ﷺ وبحث عمن يستخبره في شأنه، وصادف ذلك وجود أبي سفيان في «غزة»، فأحضر إليه - وقد جاء في تجارة - وكانت استفساراته استفسارات عاقل مجرب خبير بتاريخ الديانات وخصائص الأنبياء وسيرهم وشأن الأمم معهم وسنة الله في أمرهم، وصدقه أبو سفيان شأن العرب الأولين حياء من أن يأثر الناس عليه كذباً، وجرى بينهما الحوار الآتي:

هرقل: كيف نسبه فيكم؟.

أبو سفيان: هو فينا ذو نسب.

هرقل: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟.

أبو سفيان: لا.

هرقل: فهل كان من آبائه من ملك؟.

أبو سفيان: لا.

هرقل: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟.

أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

هرقل: أيزيدون أم ينقصون؟.

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم عن ابن عيينة، ورواه الإمام الشافعي بسنده أيضا، راجع ابن كثير، ج٣، ص ٥١٣.

(٢) مسند الإمام أحمد، ج ٢، ص ٢٩٦.

أبو سفيان: بل يزيدون.

هرقل: فهل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟.

أبو سفيان : لا.

هرقل: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟.

أبو سفيان: لا.

هرقل: فهل يغدر؟.

أبو سفيان: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها؟، (قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة).

هرقل: فهل قاتلتموه؟.

أبو سفيان: نعم.

هرقل: فكيف كان قتالكم إياه؟.

أبو سفيان: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

هرقل: ماذا يأمركم؟.

أبو سفيان: يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت: أن لا، قلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت: أن لا، فقلت: فلو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت: أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت:

أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بِمَ يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه[1]،... وأذن لعظماء الروم في القصر وأمر بأبوابه فغلقت، ثم أطلع فقال: يا معشر الروم! هل لكم في الفلاح والرشد أن يثبت ملككم وتبايعوا هذا النبي؟ ففروا وبادروا إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان قال ردوهم عليّ، وقال: إني قلت مقالتي آنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه[2].

هكذا آثر هرقل الملك على الهداية، ووقعت بينه وبين المسلمين في خلافة أبي بكر وعمرو حروب ومعارك، وكان فيها ذهاب ملكه وسلطانه[3].

---

(١) صحيح البخاري؛ باب «كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ».

(٢) مقتبس من حديث طويل رواه البخاري في باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ.

(٣) نفس المصدر.

من هم الأريسيون؟

وردت كلمة «الأريسيين» أو «اليريسيين» - على اختلاف الروايات - في الكتاب الذي وجه إلى «هرقل» وحده، ولم ترد في كتاب من الكتب التي أرسلت إلى غيره، واختلف علماء الحديث واللغة في مدلول هذه الكلمة، فالقول المشهور أن «الأريسيين» جمع «أريسي» وهم الخول والخدم والأكارون[1] وجاء في «لسان العرب» لابن منظور: «الأرس»: الأصل و«الأريس»: الأكار، نقله عن ثعلب، وذكر عن ابن الأعرابي: أنه قال أرس يأرس أرساً إذا صار أريساً، وأرَّس يؤرس تأريساً إذا صار أكاراً ونقل عن أبي عبيدة أنه قال: الأجود عندي أن يقال أن «الأريس» كبيرهم الذي يمتثل أمره، ويطيعونه إذا طلب منهم الطاعة[2].

وهنا يتساءل القارىء الفطن إذا كان المراد من «الأريسيين» الفلاحون، كان «كسرى أبرويز» أمبراطور إيران أحق بأن يحذر من وقوع اثمهم ومسئوليتهم عليه، وبأن ترد هذه الكلمة في الكتاب الذي كتب إليه، فإن طبقة الفلاحين كانت أعظم وأوسع وأكثر تميزاً في المملكة الساسانية الإيرانية منها في المملكة البيزنطية الرومانية، وكان أكثر اعتماد إيران في دخلها ومواردها على الفلاحة وإلى ذلك نبه الأزهري، كما نقل عنه ابن منظور بقوله: «وكان أهل السواد من هو على دين كسرى أهل فلاحة وإثارة للأرض، وكان أهل الروم أهل أثاث وصنعة، فكانوا يقولون للمجوس «أريسين» نسبوهم إلى «الأريس» وهو الأكار، وكانت العرب تسميهم «الفلاحين»[3].

---

(١) راجع شرح النووي لصحيح مسلم، و«مجمع بحار الأنوار» للعلامة محمد طاهر الفتي.

(٢) راجع «لسان العرب» مادة «أرس».

(٣) المصدر السابق.

ولذلك نرجح أن المراد بالأريسيين هم أتباع «أريوس» المصري («Arius» 280 - 336) وهو مؤسس فرقة مسيحية كان لها دور كبير في تاريخ العقائد المسيحية والإصلاح الديني، وقد شغلت الدولة البيزنطية والكنيسة المسيحية زمناً طويلاً، و«أريوس» هو الذي نادى بالتوحيد، والتمييز بين الخالق والمخلوق والأب والإبن - على حد تعبير المسيحيين - فأثار نقاشاً حول الموضوع وكان الشغل الشاغل في المجتمع المسيحي لعدة قرون، وآراؤه تتلخص في أنه ليس من شأن الإله الواحد أن يظهر على الأرض، لذلك هو ملأ السيد المسيح بالقوة والكلام الإلهي، وأن من صفات الله الأساسية الوحدانية والأبدية وأنه لم يخلق أحداً من ذاته رأساً، وأن الابن ليس هو الإله، بل هو مظهر لحكمة أمر الرب، وأن ألوهيته إضافية لا مطلقة[١].

ويقول «James Mackinon» في كتابه «من المسيح إلى قسطنطين»: «كان «أريوس» يلح على أن الله وحده القديم، كان الأزلي الأبدي، وليس له شريك، وهو الذي خلق الابن من العدم، لذلك ليس الابن هو الأزلي، ولم يكن الله أباً من الأبد، فقد كان حين من الدهر لم يكن فيه وجود للابن، وأن الابن يحمل حقيقة خاصة لا يشاركه فيها الله وهو خاضع للتطورات، وليس هو الله بالمعنى الصحيح، إلا أنه يصلح لأن يكون كاملاً، ولكنه على كل حال مخلوق كامل»[٢].

بينما كانت كنيسة إسكندرية في أوائل القرن الرابع المسيحي تدين بألوهية المسيح اطلاقا من غير تفريق بين الخالق والمخلوق والأب والإبن.

---

(١) راجع للتفصيل دائرة معارف الديانات والأخلاق ج١، مقال «Arianism» ص ٧٧٧.

(2) «From Christ to constantine» (London, 1936).

وقد أقصاه رئيس الكنيسة المصرية البطريق الكساندر (Alexander) في سنة ٣٢١م من الكنيسة الاسكندرية، وغادر «أريوس» المدينة، ولكن لم ينته النزاع بخروجه، وحاول الأمبراطور قسطنطين حسم هذا الخلاف، ولكنه أخفق، وفي سنة ٣٢٥م عقد مجمعاً في نيقية اجتمع فيه ٢٠٣٠ أسقفاً، وكان الأمبراطور يميل إلى ألوهية المسيح فحكم ضد «أريوس» رغم أن أغلبية الحاضرين كانت تؤيد «أريوس»، ولم يوافقه إلا ٣١٨ أسقفاً، فنفاه إلى اليريا (Illyria) وأحرقت كتاباته، وكان من وجدت عنده يعاقب، ولكن هذه المحاولات لم تقلل من أهمية «أريوس» وإقبال الناس عليه، وكان آخر امره أن «قسطنطين» لان في موقفه ورفع الحظر على عقيدته، وبعد موت منافسه الأكبر الكساندر ونفي خليفته «Athanasius» عاد «أريوس» إلى الإسكندرية، وكاد «قسطنطين» يوليه رئاسة الكنيسة المصرية، ويدين بعقيدته ولكن باغتته المنية قبل ذلك[١].

وقد جاء في كتاب «الصراع بين الدين والعلم» لـ «درابر» أن ثلاثة عشر مجمعاً مسيحياً حكمت ضد «أريوس» في القرن الرابع المسيحي، وخمسة عشر مجمعاً حكمت في تأييده. وسبعة عشر مجمعاً أدلت برأي قريب من رأي «أريوس»، وهكذا عقدت خمسة وأربعون مجمعاً للتقرير في هذه القضية.

والحق أن العالم المسيحي لم يكن له عهد بعقيدة التثليث السائدة الآن قبل القرن الرابع، وقد جاء في دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة: «أنه لم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرها إلا في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي.... وكل من يتحدث عن

---

(١) دائرة معارف الديانات والأخلاق، مقال «Arianism».

عقيدة التثليث المطلقة، إنما ينتقل من فجر التاريخ المسيحي إلى ربع القرن الرابع الأخير، فإن القول بأن «الاله الواحد له ثلاثة مظاهر» لم يتغلغل في أحشاء العالم المسيحي في حياته وفكره إلا في هذه الفترة الزمنية»[(١)].

ودامت عقيدة «أريوس» ودعوته تصارعان الدعوة المكشوفة إلى تأليه المسيح وتسويته بالإله الواحد الصمد وكانت الحرب سجالاً، وقد دان بهذه العقيدة عدد كبير من النصارى في الولايات الشرقية من المملكة البيزنطية إلى أن عقد تيوسودس الكبير (Theosodus the Great) مجمعاً مسيحياً في القسطنطينية، قضى بألوهية المسيح وأبنيته، وقضى هذا الإعلان على العقيدة التي دعا إليها «أريوس» واختفت، ولكنها عاشت بعد ذلك، ودانت بها طائفة من النصارى، اشتهرت بـ«الفرقة الأريسية» أو «الأريسيين».

إذاً من المرجح المعقول أن النبي ﷺ إنما عنى هذه الفرقة بقوله: «فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين» فإنها هي القائمة بالتوحيد النسبي في العالم المسيحي الذي تتزعمه الدولة البيزنطية العظمى، التي كان على رأسها القيصر «هرقل»[(٢)].

ومن الغريب أن بعض كبار علماء الإسلام في العصر الأول قد ذهبوا إلى هذا، فجاء في «مشكل الآثار» للإمام أبي جعفر الطحاوي مؤلف «شرح معاني الآثار» المشهور (م٣٢١هـ) ما نصه:

---

(١) The new catholic Encyclopaedia. مقال «الثليث المقدس» ج١٤، ص ٢٩٥.

(٢) اطلعت بعد صدور الطبعة الثالثة للكتاب على بحث قيم لصديقنا الفاضل الدكتور محمد معروف الدواليبي في الأريسيين، يؤيد ما قلناه أن النبي -ﷺ- إنما عنى بقوله: «فإن توليت فإن عليك إثم اليريسيين» أتباعَ أريوس (Arius) الفرقة المسيحية الوحيدة القائلة ببشرية المسيح النافية لألوهيته، وقد جاء هذا البحث القيم في رسالته «نظرات إسلامية» بعنوان: «اريسيون من جديد» ص ٦٨ - ٨٣.

«وقد ذكر بعض أهل المعرفة بهذه المعاني أن في رهط هرقل فرقة تعرف بالأروسية توحد الله، وتعترف بعبودية المسيح له عز وجل، ولا تقول شيئا مما يقول النصارى في ربوبيته وتؤمن بنبوته، فإنها تمسك بدين المسيح مؤمنة بما في انجيله جاحدة لما يقوله النصارى سوى ذلك، وإذا كان ذلك كذلك، جاز أن يقال لهذه الفرقة «الأريسيون» في الرفع و «الأريسيين» في النصب والجر، كما ذهب إليه أصحاب الحديث.»[١].

وقريباً من ذلك قال الإمام محي الدين يحيى النووي شارح صحيح مسلم (م٦٧٦ هـ) فقال: «الثاني أنهم اليهود والنصارى وهم أتباع عبد الله[٢] بن أريس، (الذي تنسب إليه الأروسية) من النصارى، وله مقالة في كتب المقالات، ويقال لهم «الأروسيون»[٣].

رسائل إلى أمراء العرب:

ومن أمراء العرب كتب إلى المنذر بن ساوي صاحب البحرين[٤]،

---

(١) «مشكل الآثار» ج ٣، ص ٣٩٩.

(٢) هذا تسامح من النووي، فإنه كان قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون، ولم يكن اسمه اسما إسلاميا عربيا.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ج ٢، ص ٩٨.

(٤) «البحرين» هي التي تسمى الآن الأحساء، وكان جل سكانها من بني عبد القيس؛ وبكر بن وائل؛ وتميم، أما الوالي عليها في أيام كتابة هذه الرسائل؛ فكان المنذر بن ساوي، وهو من بني تميم.

وليرجع في الاطلاع على نصوص الكتب التي وجّهت إلى الملوك وأمراء العرب ورؤساء القبائل ومعرفة من أرسلت معهم هذه الكتب وأخبار من أرسلت إليهم، وتراجم من حملها، كتاب «إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين» (صلى الله عليه وآله وسلم) تأليف الإمام محمد بن طولون الدمشقي (٨٨٠ - ٩٥٣هـ) طبع مؤسسة الرسالة، بيروت.

وإلى جيفر بن الجلندا[1] وعبد بن الجلندا الأزديين صاحبي عمان، وإلى هوذة بن علي[2] صاحب اليمامة[3]، وإلى حارث بن شمر الغساني.

وأسلم المنذر بن ساوي وجعفر وعبد ابنا الجلندا، وأما هوذة بن علي صاحب اليمامة فطلب من رسول الله ﷺ أن يجعل له بعض الأمر فأبى، ومات هوذة على أثر ذلك[4].

غزوة بني لحيان وغزوة ذي قرد:

وكان بين صلح الحديبية (سنة ست (٦) من الهجرة) وبين غزوة خيبر غزوة بني لحيان، وغزوة ذي قرد[5]، خرج فيها رسول الله ﷺ، واستعمل ابن أم مكتوم على المدينة، وكان سبب الأولى طلب بأصحاب الرجيع خبيب بن عديّ وأصحابه، وسبب الثانية إغارة المشركين على لقاح لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالغابة، وقتل رجل من بني غفار، واحتمال امرأته في اللقاح[6].

---

(١) جيفر بن جلندي وعبد بن جلندي كانا حاكمين على عمان في هذا الوقت؛ وكان جيفر هو الملك منهما، وكان أسن من أخيه؛ (راجع نهاية الأرب ١٨ - ٦٧ وما بعد)، وكلمة الجلندي على ما يظهر من روايات الأخباريين، ليست إسما لشخص. وإنما هي لقب، وقد تعني «قليلا» أو «كاهنا» في لهجات أهل عمان. (ج ٤، ص ٢٠١ «تاريخ العرب قبل الإسلام»).

(٢) (هوذة بن علي الحنفي) كان ملكا على اليمامة، وكان على دين النصرانية. وإليه أرسل رسول الله ﷺ سليط بن عمرو، وحدود اليمامة يومئذ من الشرق إلى البحرين ومن الغرب تنتهي إلى الحجاز؛ ومن مواضع اليمامة (منفوحة) كان يسكنها الأعشى، ومن أبرز قبائل اليمامة؛ في أيام الرسول بنو حنيفة؛ ومنهم كان مسيلمة بن حبيب المعروف بالكذاب لادعائه النبوة.

(٣) تاريخ الطبري ج ٣، ص ٨٤ - ٨٥.

(٤) زاد المعاد ج ٢، ص ٥٨.

(٥) على ما جاء في صحيح مسلم عن سلمة بن الأكوع وقد رجحه ابن حجر في فتح الباري، أما أصحاب السير فهم متفقون على أن غزوة ذي قرد كانت قبل صلح الحديبية.

(٦) راجع سيرة ابن هشام، ق/٢، ص/٢٧٩ - ٢٨٩.

غـزوة خيـبر

سنة سبع من الهجرة

جائزة من الله:

ان الله سبحانه وتعالى بشر أصحاب بيعة الرضوان - في الحديبية - الذين أطاعوا الله ورسوله، وآثروا حكم الله وأمره على ما تهواه أنفسهم، وترشد اليه عقولهم، بالفتح القريب والمغانم الكثيرة، فقال:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا، وكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[١].

وكان مقدمة هذه الفتوح والمغانم، غزوة خيبر، وكانت «خيبر» مستعمرة يهودية تتضمن قلاعاً حصينة[٢]، وقاعدة حربية لليهود، وكانت آخر معقل من معاقلهم في جزيرة العرب وكانوا يتربصون بالمسلمين

---

(١) سورة الفتح الآيتين ١٨ - ١٩.

(٢) وكان من أشهر هذه الحصون، ناعم، قموص، حصن الشق، حصن نطاة؛ حصن السلالم، حصن الوطيح، حصن الكتيبة، ويذكر اليعقوبي أنه كان في خيبر عشرون ألف مقاتل. (ج٢ ص٥٦ نقلا من كتاب «الصحابة والتابعون من أهل الكتاب» للأستاذ مجيب الله الندوي؛ طبع دار المصنفين - الهند).

الدوائر، ولا ينسون ما حل بإخوانهم، ولا يأمنون أن يحل بهم وكانوا يتآمرون مع غطفان لغزو المدينة[1]، فأراد رسول الله ﷺ أن يستريح منهم ويأمن من جهتهم، وكانت في الشمال الشرقي للمدينة على بعد سبعين ميلاً منه.

جيش مؤمن تحت قيادة نبي:

فأقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم سنة سبع إلى «خيبر».

وكان عامر بن الأكوع يرتجز في مسيره اليها، فيقول:

والله لولا الله ما اهتدينا	ولا تصدقنا ولا صلينا
انا إذا قَوْمٌ بغوا علينا	وان أرادوا فتنة أبينا
فأنزلن سكينة علينا	وثبت الأقدام ان لاقينا[2]

وأقبل رسول الله ﷺ بجيشه وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكان معهم مائتا فرس، ولم يأذن لمن تخلف عن الحديبية، وخرجت عشرون امرأة من نساء الصحابة، لمداواة المرضى وخدمة الجرحى، والاسعاف بالماء والطعام أثناء القتال.

وأقبل بالجيش حتى نزل بـ «الرجيع» بين اليهود وغطفان، ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، فقد كانوا لهم مظاهرين، فامتنعوا عن

---

(١) يقول الأستاذ الإنجليزي الشهير W. Montgomery Watt في كتابه Mohammad Prophet and Statesman (محمد النبي والسياسي): «كان يهود خيبر وخاصة رؤساء قبيلة بني النضير التي أجلاها الرسول من المدينة يضمرون الحقد لمحمد، وهم الذين نجحوا في حمل قبائل العرب المجاورة على حمل السلاح على المسلمين والزحف عليهم، بما بذلوه من أموال، وكان ذلك هو السبب الرئيسي في توجه محمد إلى خيبر بجيوشه».

(٢) سيرة ابن كثير ج٣، ص٣٤٤ - ٣٤٥، ورواه مسلم في باب «غزوة خيبر» باختلاف بعض الألفاظ والأبيات.

ذلك، وأقاموا في أموالهم وأهليهم، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر[1].

ودعا رسول الله ﷺ بالأزواد، فلم يؤت إلا بالسويق، فأمر به، فثرى، فأكل المسلمون[2]، ودعا رسول الله ﷺ لما أشرف على خيبر، وسأل الخير، واستعاذ من شرها، وشر أهلها، وكان إذا غزا قوماً لم يغزهم حتى يصبح، فان سمع أذاناً أمسك، فبات رسول الله ﷺ، حتى إذا أصبح لم يسمع أذاناً، فركب وركب القوم، واستقبلوا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم[3] وبمكاتلهم[4]، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش، قالوا: محمد والخميس[5] معه، فأدبروا هرباً فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[6].

قائد منصور:

ونازل رسول الله ﷺ حصون خيبر، وبدأ يفتتحها حصناً حصناً، وكان أول حصن افتتح، حصن ناعم، ومنها - حصن القموص - وقد استعصى حصن القموص، على المسلمين، وكان علي بن أبي طالب رمداً،

---

(١) وكانت غطفان مجموعاً قبلياً متخماً مسرفاً في البداوة، ينزل شرقي جبل السراة، جنوبي خيبر، وتمتد منازله حتى هضبة نجد، وكان هؤلاء يهددون هذه الطرق ويجبون من قوافلها اتاوات كبيرة، وكانت غطفان من القبائل التي سارت لغزو المدينة في غزوة خندق.

«بحث الدكتور حسين مؤنس محاولة وضع أطلس للسيرة النبوية الشريفة والعصر النبوي».

(٢) ابن كثير، ج٣ ص٣٤٥ - ٣٤٦، ورواه البخاري مختصراً في باب (غزوة خيبر).

(٣) المساحي: جمع مسحاة؛ وهي المجرفة من الحديد.

(٤) مكاتل : جمع مكتل؛ وهي قفة كبيرة.

(٥) الخميس: الجيش.

(٦) سيرة ابن هشام ق٢؛ ص٣٢٩ - ٣٣٠.

فقال رسول الله ﷺ ليأخذن الراية غداً رجل يحبه الله ورسوله، يفتح عليه، وتطاول له كبار الصحابة - رضي الله عنهم - وكل منهم يرجو أن يكون صاحب ذلك، ودعا علياً، وهو يشتكي عينيه، فأتى فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، ودعا له، فبرىء، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية[1]، فقال علي - رضي الله عنه - أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا.

قال رسول الله ﷺ انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم[2].

بين أسد وبطل اليهود:

وأتى علي - رضي الله عنه - حصن القموص، فخرج «مرحب» وهو الفارس المشهور، يرتجز فاختلفا ضربتين، فبدره علي بضربة، ففلق مغفره ورأسه، ووقع في الأضراس، وكان الفتح[3].

وكانت لمحمد بن مسلمة مواقف بطولية في هذه المعركة، وأبلى فيها بلاء حسناً، وقتل بعض كبار الفرسان والأبطال من اليهود.

---

(١) الرواية في صحيح البخاري وصحيح مسلم في باب «غزوة خيبر».

(٢) الجامع الصحيح للبخاري، باب «غزوة خيبر» ورواه مسلم والنسائي.

(٣) اختلفت الروايات في تعيين هذا الحصن الذي فتحه علي، والذي يرجح أنه كان حصن القموص هو أن هذا الحصن كان مركز مرحب الفارس اليهودي المشهور، وقد جاء في سيرة ابن هشام أن الذي قتل مرحب هو محمد بن مسلمة (ق٢، ص٣٣٣ - ٣٣٤) والمشهور أن الذي قتله هو علي بن أبي طالب (الطبري ص١٥٧٩) وقد جاء ذلك مصرحاً في رواية مسلم، وجاءت فيه الأبيات التي ارتجز بها علي والذي يرويه مسلم بسنده أولى بالإعتماد والترجيح (راجع صحيح مسلم حديث رقم ١٨٠٧ كتاب الجهاد والسير).

عمل قليلاً وأجر كثيراً:

وجاء عبد أسود حبشي من أهل خيبر، كان في غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي، فوقع في نفسه ذكر النبي، فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ فقال: ماذا تقول؟ وما تدعو اليه؟، قال: أدعو إلى الإسلام، وأن نشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وألا نعبد إلا الله، قال العبد: فمالي ان شهدت وآمنت بالله عز وجل، قال: «لك الجنة ان مت على ذلك».

فأسلم ثم قال: يا نبي الله! ان هذه الغنم عندي أمانة، فقال رسول الله ﷺ أخرجها من عندك وارمها بـ «الحصباء» فإن الله سيؤدي عنك أمانتك، ففعل، فرجعت الغنم إلى سيدها، فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم، فقام رسول الله ﷺ في الناس، فوعظهم، وحضهم على الجهاد، فلما التقى المسلمون واليهود قتل - فيمن قتل - العبد الأسود، واحتمله المسلمون إلى معسكرهم، فأدخل في الفسطاط فزعموا أن رسول الله ﷺ اطلع في الفسطاط، ثم أقبل على أصحابه، وقال: «لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خير، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين، ولم يصلّ لله سجدة قط»[1].

ما على هذا اتبعتك:

وجاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ فآمن به واتبعه، فقال أهاجر معك، فأوصى به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر، غنم رسول الله ﷺ شيئا فقسمه له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوه اليه، فقال: ما هذا؟ قالوا قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه، فجاء به

(١) زاد المعاد ج ١، ص ٣٩٣.

إلى النبي ﷺ فقال: ما هذا يا رسول الله؟! قال: قسم قسمته لك، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أرمي ههنا وأشار إلى حلقه - بسهم، فأموت فأدخل الجنة، فقال: ان تصدق الله يصدقك.

ثم نهضوا إلى قتال العدو، فأتى به إلى رسول الله ﷺ وهو مقتول، فقال: أهو هو؟ قالوا: نعم، قال صدق الله فصدقه، فكفنه النبي ﷺ في جبته ثم قدمه، فصلى عليه، وكان من دعائه له: اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك، قتل شهيداً وأنا عليه شهيد(١).

شرط البقاء في خيبر:

وافتتحت الحصون، حصن بعد حصن، بعد قتال وحصار، دام أياماً، حتى سألوا رسول الله ﷺ الصلح، وأراد رسول الله ﷺ أن يجليهم منها، فقالوا: يا محمد! دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها، ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها وكانوا لا يفرغون يقومون عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع وثمر، ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم(٢) وكان رسول الله ﷺ يبعث اليهم عبد الله بن رواحة، فيخرص عليهم، ويجعل ذلك نصفين، فيخبرهم أن يأخذوا أيها شاءوا، فيقولون: بهذا قامت السموات والأرض(٣).

---

(١) المصدر السابق ج ١، ص ٣٩٤.

(٢) أيضاً، ص ٣٩٤ - ٣٩٥، وراجع للتفصيل سنن أبي داود، باب المساقاة.

(٣) «فتوح البلدان» للبلاذري، ص ٣٤.

روح التسامح الديني:

وكان من بين المغانم التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي ﷺ بتسليمها لهم[1]، ويقول الدكتور اسرائيل ولفنسون معلقاً على هذه القصة:

«ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان، ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة، ويذكرون بازاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم، وفتحوها سنة ٧٠ ب،م اذ حرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة، هـــذا هو البون الشاسع بين الفـــاتحين ممن ذكرنـــاهم وبين رسول الإسلام»[2].

قُدومُ جعفر بن أبي طالب:

وفي هذه الغزوة قدم على رسول الله ﷺ ابن عمه جعفر بن أبي طالب وأصحابه، ففرح به رسول الله ﷺ فرحاً عظيماً، وتلقاه بالبشر، وقبَّل جبهته، وقال: والله ما أدري بأيها أفرح: بفتح خيبر أم بقدوم جعفر[3].

---

(١) تاريخ الخميس ج ٢، ص ٦٠.
(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٧٠.
(٣) زاد المعاد؛ ج ١؛ ص ٣٩٧.

محاولة أثيمة لليهود:

وفي هذه الغزوة سم رسول الله ﷺ؛ أهدت له زينب بنت الحرث اليهودية، امرأة سلام بن مشكم، شاة مشوية قد سمتها، وسألت أي اللحم أحب اليه؟ فقالوا: الذراع، فأكثرت السم في الذراع، فلما انتهش من ذراعها، أخبره الذراع بأنه مسموم، فلفظ الأكلة.

وجمع اليهود، ثم قال: هل أنتم صادقي عن شيء ان سألتكم عنه؟، قالوا: نعم، قال: أجعلتم في هذه الشاة سماً؟ قالوا: نعم، قال: فما حملكم على ذلك؟، قالوا: أردنا ان كنت كاذباً نستريح منك، وان كنت نبياً لم يضرك، وجيء بالمرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: أردت قتلك، فقال: ما كان الله ليسلطك علي، قالوا: ألا نقتلها؟، قال: لا، ولم يتعرض لها، ولم يعاقبها.

ولم يقتلها صلى الله عليه وسلم أولاً، فلما مات بشر بن البراء بن معرور قتلها[1].

أثر غزوة خيبر:

وكان لغزوة خيبر وانتصار المسلمين فيها انتصاراً رائعاً وقع كبير في قلوب القبائل العربية التي لم تسلم بعد، فقد كانت تعرف قوة اليهود في خيبر الحربية، وما كانوا يتمتعون به من غنى ورفاهية، وثروة زراعية غذائية، ووفور السلاح والكراع، وقوة الحصون والآطام، واستعصائها على الزاحفين المهاجمين، ووجود القادة المحنكين، والأبطال المدربين كمرحب، والحارث أبي زينب، وكان له أثر في مجرى الحوادث.

---

(١) زاد المعاد ج ١ ص ٣٩٨، ورواه البخاري مختصراً عن أبي هريرة، في باب «الشاة التي سمت للنبي ﷺ بخيبر».

ويقول الدكتور اسرائيل ولفنسون معلقاً على غزوة خيبر، وأثرها في تاريخ الإسلام:

«ومما لا شك فيه أن غزوة خيبر كانت ذات شأن عظيم في تاريخ الفتوح الاسلامية، اذ كانت كل قبائل الحجاز تراقب نتيجتها باهتمام وتنظم شؤونها على حسب ما كان يتراءى لها من نتيجة صليل السيوف بين الأنصار واليهود، وقد كان أعداء الرسول الكثيرون في بادية العرب وحاضرتها يعلقون آمالاً كبيرة على تلك الغزوة»[1]. والأمر في غزوة خيبر (كما لاحظه الدكتور حسين مؤنس) لم يكن يقتصر على القضاء على مركز المقاومة اليهودي، بل يتخطى ذلك إلى ما لا يقل أهمية عن ذلك، وهو القضاء على مقاومة أكبر القبائل العربية الضاربة فيما بين الحجاز ونجد في الشمال وسط الجزيرة وهي غطفان، ولم يكن من ذلك مفر قبل أن يتجه النبي ﷺ - بقواته كلها نحو مكة للفراغ من أمرها[2].

فتوح ومغانم:

وبعد ما انتهى رسول الله ﷺ من أمر خيبر، انصرف إلى فدك[3]، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك، فقبل ذلك منهم، وكان رسول الله ﷺ يقسمه حيث يرى من مصالحه ومصالح المسلمين[4].

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب، ص١٦٢.

(٢) من بحث الدكتور حسين مؤنس قدمه إلى مؤتمر السيرة والسنة النبوية المنعقد في الدوحة في شهر محرم عام ١٤٠٠ هـ.

(٣) كانت فدك حكومة مستقلة كسائر الواحات والقرى في أعالي الحجاز، أهلها من اليهود وبها قوم من بني مرة، وقوم من بني سعد بن بكر. (نهاية الأرب، ١٧ - ٢٠٩).

(٤) سيرة ابن هشام ق٢، ص٣٦٨.

ثم جاء إلى وادي القرى[1]، وهي مجموعة قرى بين «خيبر» و«تيماء»[2] وقد استعمرها اليهود قبل الاسلام، وأصبحت لهم مركزاً، وانضاف اليهم جماعة من العرب، ودعا رسول الله ﷺ إلى الإسلام، وأخبرهم أنهم ان أسلموا أحرزوا أموالهم، وحقنوا دماءهم، وحسابهم على الله.

وكانت في هذه الغزوة مبارزات، كان الزبير بن العوام - رضي الله عنه - بطلها، وكان الانتصار فيها للمسلمين، وأعطى اليهود من غد ما بأيديهم، وغنم المسلمون أموالاً، وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً، وقسم رسول الله ﷺ ما أصاب على أصحابه، بوادي القرى، وترك الأرض والنخل بيد اليهود، وعاملهم عليها.

ولما بلغ يهود تيماء ما واطأ عليه رسول الله ﷺ أهل خيبر، وفدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله ﷺ وأقاموا بأموالهم وانصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة[3].

تعفف المهاجرين:

ولما وصل المسلمون إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم اياها من النخيل، حين صار لهم بخيبر مال ونخيل، وكانت أم سليم - وهي أم أنس بن مالك - أعطت رسول الله ﷺ عذاقاً فأعطاهن مولاته أم أيمن، فرد رسول الله ﷺ على أم سليم عذاقها،

---

(١) وادي القرى واد كثرت قراه، لذلك قيل له وادي القرى، وأهله عرب ويهود وهو من المواضع المعروفة بالخصب في جزيرة العرب، وبه عيون وآبار.

(٢) معجم البلدان، ج٧.

(٣) ملخصاً من «زاد المعاد» ج١، ص٤٠٥.

وأعطى أم أيمن مكانهن من حائطه مكان كل عذق عشرة[1].

وبعث رسول الله ﷺ بعد خيبر سرايا كثيرة، وأمَّر عليها كبار الصحابة وكان في بعضها قتال، ولم يكن في بعضها قتال[2].

عمرة القضاء:

ولما كان العام المقبل، وذلك في سنة سبع، قدم رسول الله ﷺ والمسلمون، وخلت قريش بينه وبين مكة، وأقفلوا بيوتهم، وطلعوا على جبل قعيقعان[3]، فأقام بها ثلاثاً، واعتمر، وهو قوله تعالى:

﴿لَقَد صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ ومُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ، فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً﴾[4].

التنافس في حضانة البنت وتكافؤ المسلمين في الحقوق:

وقد تغيرت النفوس والعقول بتأثير الإسلام تغيراً عظيماً، فعادت البنت - التي كان يتعير بها أشراف العرب، وجرت عادة وأدها في بعض القبائل، فراراً من العار، وزهداً في البنات - حبيبة يتنافس في كفالتها وتربيتها المسلمون.

وكانوا سواسية، لا يرجح بعضهم على بعض إلا بفضل أو حق، ولما أراد النبي ﷺ الخروج من مكة، تبعته ابنة حمزة تنادي يا عم! يا عم!

---

(١) زاد المعاد ج١، ص٤٠٦، وروى مسلم القصة مفصلة في كتاب الجهاد والسير في باب «رد المهاجرين إلى الانصار منائحهم من الشجر والثمر حين استغنوا عنها بالفتوح» وذكر فيها فتح قريظة والنضير.

(٢) زاد المعاد، ج١، ص٤٠٩ - ٤١٠.

(٣) راجع صحيح البخاري باب «عمرة القضاء».

(٤) سورة الفتح ٢٧.

فتناولها علي، فأخذ بيدها وقال لفاطمة - عليها السلام - دونك ابنة عمك، فحملتها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أخذتها، وهي بنت عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: الخالة بمنزلة الأم، وقال لعلي: أنت مني وأنا منك، وقال لجعفر: أشبهت خلقي وخلقي، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا[1].

(١) الجامع الصحيح للبخاري؛ كتاب المغازي؛ باب «عمرة القضاء».

غزوة مؤتة[1]

جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة

قتل سفير المسلمين وعقوبته:

بعث رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى شرحبيل بن عمرو الغساني، حاكم «بصرى» التابع لقيصر ملك الروم، فأوثقه رباطاً، ثم قدمه، فضرب عنقه[2]، ولم تجر العادة بقتل الرسل والسفراء، عند الملوك والأمراء، مهما اشتد الخلاف، وكرهت الرسالة التي يحملونها، وكان حادثاً لا يجوز التغاضي عنه، ففيه خطر عظيم على الرسل والسفراء، واهانة شديدة للمرسل والرسالة، فكان لا بد من تأديب هذا المعتدي والغضب لهذا المعتدى عليه، حتى لا تهون حياة السفراء ولا تتكرر هذه المأساة.

---

(١) قرية تقع الآن على بعد ١٢ كليومتراً جنوب الكرك: في الأردن، والمسافة بين المدينة ومؤتة ١١٠٠ كيلومتراً تقريباً، وقد قطعها المسلمون على ظهور الإبل والخيل، وانقطع عنهم المدد والميرة والخبر بعد ما خرجوا من بلدهم، وهم يدخلون في لهوات العدو وفي فكيه، يفعل بهم ما يشاء. (مقتبس من كتاب المؤلف «من نهر كابل إلى نهر اليرموك»).

(٢) زاد المعاد، ج١، ص٤١٤.

أول جيش في أرض الروم:

فلما بلغ رسول الله ﷺ الخبر، أراد أن يبعث بعثاً إلى «بصرى»، وذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، فتجهز الناس، وهم ثلاثة آلاف، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وهو مولى رسول الله ﷺ وفي الجيش كبار المهاجرين والأنصار وقال: «ان أصيب فجعفر بن أبي طالب على الناس، فان أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة» فلما حضر خروجهم، ودع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم[1]، وكان أمامهم سفر طويل شاق، وعدو ذو شوكة، يتمتع بحماية أعظم مملكة في ذلك العصر.

ومضى الجيش، حتى نزل بـ«معان» وبلغ المسلمين أن هرقل بـ«البلقاء» في مائة ألف من الروم، وانضم اليهم جمع كثير من قبائل العرب، لخم، وجذام، وبلقين، وبهرا، وبلى، فأقاموا على «معان» ليلتين ينظرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فأما أن يمدنا بالرجال واما أن يأمر بأمره فنمضي له[2].

ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة:

وشجع الناس عبد الله بن رواحة، فقال: يا قوم! والله ان الذي تكرهون للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا به الله، فانطلقوا، فانما هي احدى الحسنيين، اما ظفر واما شهادة، فمضى الناس[3].

---

(١) المصدر السابق؛ وابن هشام؛ ق٢، ص٢٧٣.
(٢) زاد المعاد ج١، ص٤١٥.
(٣) زاد المعاد ج١، ص٤١٥.

قتال المستميتين وصولة الأسود:

فلما كانوا بتخوم البلقاء، لقيتهم الجموع من الروم والعرب، بقرية من قرى البلقاء، يقال لها «مشارف»، ودنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية، يقال لها «مؤتة»، والتقى الناس، واقتتلوا[١].

وقاتل زيد بن حارثة - رضي الله عنه - براية رسول الله ﷺ حتى استشهد، وقد أخذت الرماح منه كل مأخذ ثم أخذها جعفر، فقاتل بها، حتى إذا أرهقه القتال، اقتحم عن فرسه، فعقرها، ثم قاتل، فقطعت يمينه، فأخذ الراية بيساره، فقطعت يساره، فاحتضن الراية بعضديه، حتى قتل، وله ثلاث وثلاثون سنة[٢]، ووجد المسلمون ما بين صدره ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة، ما بين ضربة بالسيف، وطعنة بالرمح كلها في الأمام[٣]، ومات فتى الفتيان وهو يحن إلى الجنة، ويتغنى بنعمائها، ويستهين بالعدو وَعَدده وعُدده، وبزخارف الدنيا.

فلما قتل جعفر، أخذ عبد الله بن رواحة الراية، وتقدم بها، ونزل عن فرسه، وأتاه ابن عم له، بعظم عليه بعض لحم، وقال شد بهذا صلبك، فانك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذ بيده وأخذ منه بفمه يسيراً، ثم القاه من يده، وأخذ سيفه، فتقدم وقاتل حتى قتل[٤].

---

(١) ابن هشام ق٢؛ ص٣٧٧ - ٣٧٨.

(٢) زاد المعاد ج١؛ ص٤١٥ باختصار.

(٣) ابن كثير، ج٣، ص٤٧٤، وزاد المعاد؛ ج١ ص٤١٥، وجاء في (الجامع الصحيح) فوجدناه في القتلى؛ ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين ما بين طعنة ورمية (باب غزوة مؤتة).

(٤) زاد المعاد ج١، ص٤١٥، سيرة ابن هشام ق٢ ص٣٧٩.

قيادة خالد الحكيمة:

واصطلح الناس بعده على خالد بن الوليد - رضي الله عنه - فأخذ الراية، ودافع القوم، وكان شجاعاً حكيماً، يعرف سياسة الحرب، فانحاز بالجيش الإسلامي إلى الجنوب، وانسحب العدو نحو الشمال[١]، وأرخى الليل سدوله، حتى انصرف الناس، وكلا الفريقين اغتنم السلامة، ورأى المصلحة في عدم التحرش ومتابعة القتال.

ومعروف أن عملية الإنسحاب كما يقول الفاضل اللواء الركن محمود شيت خطاب- تعدّ من أصعب العمليات العسكرية لاحتمال انقلاب الإنسحاب الى هزيمة، والهزيمة كارثة تؤدي الى خسائر فادحة بالمنهزمين، ولا تعدّ خسائر المسلمين الضئيلة في مؤتة شيئا يذكر بجانب الفائدة العسكرية التي أفادها الاطلاع على خواص قوات الروم وتنظيمها وتسليحها وأساليب قتالها مما اتضح أثره في المعارك التي خاضها المسلمون فيما بعد[٢].

ووزع خالد عدداً غير قليل من رجاله في خط مؤخرة جيشه، أحدثوا حين أصبح الناس ضجة عظيمة، أدخلت إلى روع العدو ان مدداً جاء من المدينة، فتهيب الروم المسلمين، وقالوا: إذا كان صنع ثلاثة آلاف بنا ما قد رأيناه، فكيف بهم إذا جاءهم المدد، الذي لا يعرف عدده وقوته، فتقاعس الروم عن مهاجمة الجيش الإسلامي، وكفى الله المؤمنين القتال[٣].

---

(١) زاد المعاد، ج١، ص٤١٥؛ وسيرة ابن هشام، ق٢ ص٣٧٩ - ٣٨٠.

(٢) شيت خطاب، الرسول القائد، ص٢٠٦ - ٢٠٧، وعن مؤتة أنظر كذلك
Encyclopaedia of Islam, art, mu'ta.

(٣) راجع المغازي للواقدي.

خبر عيان لا بيان:

وبينما كان المسلمون يخوضون المعركة، كان رسول الله ﷺ يخبر أصحابه في المدينة بما يجري في المعركة، يقول أنس بن مالك - رضي الله عنه - «ان رسول الله ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس، قبل أن يأتيهم الخبر، فقال: أخذ الراية زيد، فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب، وعيناه تذرفان، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم[(١)].

وفي رواية أنه قال وهو على المنبر: «وما يسرهم أنهم عندنا».

الطيار ذو الجناحين:

وقال في جعفر: إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء[(٢)]، ولذلك لقب بـ«جعفر الطيار» و«ذي الجناحين».

حب نبوي وعاطفة إنسانية:

وقال رسول الله ﷺ لزوج جعفر: ائتيني ببني جعفر، فلما حضروا تشممهم، وذرفت عيناه، وأخبر بشهادة جعفر، ولما أتاهم النعي، قال لأهله: اصنعوا لآل جعفر طعاماً، فقد أتاهم أمر يشغلهم، وعرف في وجه رسول الله ﷺ الحزن[(٣)].

---

(١) رواه البخاري، باب غزوة مؤتة.

(٢) روى البخاري في صحيحه؛ كان ابن عمر إذا حيا ابن جعفر قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين، باب غزوة مؤتة، وزاد المعاد، ج١، ص٤١٥.

(٣) سيرة ابن هشام، ق٢؛ ص٣٨٠ - ٣٨١ - باختصار، والرواية في سنن الترمذي.

كرارون لا فرارون:

ولما دنا الجيش من حول المدينة، تلقاهم رسول الله ﷺ والمسلمون، ولقيهم الصبيان يشتدون، ورسول الله ﷺ مقبل مع القوم على دابة، فقال: خذوا الصبيان واحملوهم، وأعطوني ابن جعفر، فأتي بعبد الله، فأخذه، فحمله بين يديه.

وجعل الناس يحثون على الجيش التراب، ويقولون يا فُرَّار! فررتم في سبيل الله، ويقول رسول الله ﷺ ليسوا، بالفرار، ولكنهم الكرار ان شاء الله تعالى[١].

بين مؤتة وفتح مكة:

وكان بين غزوة مؤتة وفتح مكة سرية ذات السلاسل، كانت في جمادى الآخرة، سنة ثمان، وهي وراء وادي القرى، وكانت في بلاد قضاعة، دوخها الجيش الإسلامي.

وسرية الخبط، وكان أميرها، أبا عبيدة بن الجراح، وكانت في رجب سنة ثمان، في ثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار، أرسلهم إلى حي من جهينة، مما يلي ساحل البحر، وأصابهم في الطريق جوع شديد، حتى أكلوا الخبط (وهو ورق الشجر) وألقى اليهم البحر حوتاً عظيماً، يقال له «العنبر» فأكلوا منه نصف شهر، وأدهنوا منه، حتى صلحت منه أجسامهم، ولما سمع رسول الله ﷺ قال: هو رزق أخرجه الله لكم، فتناول من لحمه شيئاً[٢].

---

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل.

(٢) زاد المعاد، ج١، ص٤١٧، والرواية في صحيح البخاري، باب «غزوة سيف البحر» وفي صحيح مسلم.

فَتْحُ مَكَّة

رَمَضَان سَنة ثمَان منَ الهجرَة[1]

تمهيد لفتح مكة:

ولما تم أمر الله في ترسيخ هذا الدين، وتربية المسلمين، وامتحن الله قلوبهم للتقوى وفاضت كأس قريش ظلماً وعدواناً، وجحوداً بالحق، وصداً عن سبيل الله، ومحاربة للاسلام وأهله أراد الله أن يدخل رسوله والمسلمون مكة فاتحين غالبين، يطهروا الكعبة من الرجس من الأوثان وقول الزور، ويعيدوا مكة إلى مكانتها الأولى، فتكون مثابة للناس وأمناً، ويجعلوا البيت كما كان مباركاً وهدى للعالمين.

نقض بني بكر وقريش الحلف:

وقد هيأ الله لذلك أسباباً، وساعدت عليها قريش، بل دعت اليها من حيث لا تشعر، فقد وقع حادث لم يسوغ ذلك فحسب، بل أوجبه، ولله جنود السموات والأرض.

كان قد تقرر في صلح الحديبية أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده، فعل، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش

(١) الموافق ليناير سنة ٦٣٠م.

وعهدهم فعل، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده[1].

وكان بين بني بكر وبين خزاعة ترة قديمة، وعداء متوارث، يرجع تاريخه إلى ما قبل البعثة، وجاء الاسلام، فحجز بينهم، وتشاغل الناس بشأنه، فلما كانت الهدنة، ودخلت القبيلتان في معسكرين متحاربين، أراد بنو بكر أن ينتهزوا هذه الفرصة، ليصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فبيت نفر من بني بكر لخزاعة وهم على ماء لهم فأصابوا منهم رجالاً، وتناوشوا واقتتلوا.

وأعانت قريش بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم أشراف من قريش مستخفين ليلاً، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر لبعض رجالهم: انا قد دخلنا الحرم، إلهك! إلهك! فقال: لا إله اليوم! يا بني بكر، أصيبوا ثأركم، فلا تجدون هذه الفرصة بعد ذلك[2].

الاستغاثة برسول الله ﷺ:

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي، وقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه، وأنشد أبياتاً، ينشده فيها الحلف الذي كان بينه وبين خزاعة، وسأله النصر والنجدة، ويخبره بأن قريشاً اخلفوه الموعد، ونقضوا ميثاقه المؤكد، وأنهم بيتوا وهم على ماء لهم وقتلوا ركَّعاً وسجَّداً، فقال رسول الله ﷺ نصرت يا عمرو بن سالم!

---

(١) سيرة ابن هشام ق٢، ص٣٩٠.

(٢) زاد المعاد ج١؛ ص٤١٩، وابن هشام؛ ق٢، ص٣٩٠.

براءة الذمة واقامة الحجة:

وأراد رسول الله ﷺ أن يستوثق منهم الخبر، ويعذر إلى قريش، فبعث اليهم رجلاً يخيرهم بين احدى ثلاث خلال، بين أن يدفعوا دية قتلى خزاعة أو يبرأوا من حلف من تولى كبر هذا النقض، وقاد الحملة على خزاعة، وهم بنو نفاسة من بني بكر، أن ينبذ اليهم على سواء فأجابه بعض زعمائهم، لكن ننبذ اليهم على سواء، وبذلك برئت ذمة قريش، وقامت عليهم الحجة[1].

محاولة قريش لتجديد العهد:

وقال رسول الله ﷺ للناس حين بلغه الخبر: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في المدة» وهكذا كان، فرهبت قريش مما صنعت، وندمت على الجواب القاسي الذي أجاب به بعض سفهائهم، فبعثوا أبا سفيان إلى رسول الله ﷺ ليشد العقد ويزيد في المدة[2].

إيثار النبي على الآباء والأبناء:

وقدم أبو سفيان على رسول الله ﷺ المدينة ودخل على ابنته «أم حبيبة» زوج النبي ﷺ فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية! ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش ام رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ قال: والله لقد أصابك بعدي شر[3].

---

(١) رواه الزرقاني في المواهب عن ابن عائذ عن ابن عمر، والرجل الذي بعثه رسول الله ﷺ اسمه ضمرة، والذي أجابه من قريش اسمه قرطة بن عمرو، (راجع شرح المواهب اللدنية للزرقاني ج٢، ص٣٤٩).

(٢،٣) زاد المعاد ج١، ص٤٢٠، وابن هشام، ق٢، ص٣٩٥ - ٣٩٦.

حيرة أبي سفيان واخفاقه:

وأتى أبو سفيان رسول الله ﷺ فكلمه فلم يرد عليه شيئاً ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ فقال: ما أنا بفاعل، وراود عمر وعلياً وفاطمة على ذلك، فلم يجبه أحد إلى ذلك، وقالوا: إن الأمر أجل منه، حتى احتار في أمره، وقال لفاطمة: يا بنت محمد! هل لك أن تأمري بنيك هذا - وأشار إلى حسن بن علي، وهو غلام يدب - أن يجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر، قالت: والله ما بلغ بني هذا أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ، ولما رأى علي حيرته، وما فيه من ضيق وكرب، قال له: ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم إلحق بأرضك، قال: أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً؟، قال والله ما أظنه، ولكني لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس! اني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، فانطلق[1].

ولما سمعت قريش القصة، قالوا: جئتنا بما لا يغني عنا، ولا يغني عنك شيئاً.

التأهب لمكة وكتاب حاطب بن أبي بلتعة:

وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، واستعان على أمره بالكتمان، ثم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتجهز، وقال: اللهم! خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها[2].

---

(١) سيرة ابن هشام ق٢، ص٣٩٦ - ٣٩٧.

(٢) زاد المعاد، ج١، ص٤٢١، وابن هشام، ق٢، ص٣٩٧.

ولما كان المجتمع الإسلامي المدني مجتمعاً بشرياً يعيش في واقع الحياة، وبين المشاعر الإنسانية، وخواطر النفس ورغباتها، كان الأفراد فيه يصيبون ويخطئون، وقد يكونون مؤولين في تصرفاتهم وأحكامهم، وقد يجانبهم الصواب في هذا التأويل، وذلك من خصائص المجتمعات البشرية التي تتمتع بالحرية والثقة، وكان رسول الله ﷺ حين لا يقرهم على هذا الخطأ، يلتمس لهم العذر، ويتسامح معهم، وكان من أوسع الناس صدراً مع هؤلاء المخطئين، وأكثرهم معرفة بفضلهم وحسن بلائهم في الجهاد، وسوابقهم في الاسلام، وقد حفظ لنا الحديث، وكتب السيرة النبوية وتاريخ الإسلام مثل هذه الحوادث، النادرة في الوقوع، وهو مما يدل على أمانتها وشهادتها بالحق.

ومن هذه الحوادث ما وقع لحاطب بن أبي بلتعة وهو ممن هاجر من مكة وشهد بدراً، فقد جاء في الروايات أن النبي ﷺ لما أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأسرّ الأمر، فتجهز الناس كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً، يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ اليهم ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً، فجعلته في قرون رأسها، ثم خرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث علياً والزبير، فقال: انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ[1]، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش. فانطلقا تعادي بهما خيلهما حتى وجدا المرأة بذلك المكان، فاستنزلاها وقالا: معك كتاب؟ فقالت: ما معي كتاب! ففتشا رحلها فلم يجدا شيئاً، فقال لها علي - رضي الله عنه - أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، والله لتخرجن الكتاب، أو لنجردنك،

---

(١) موضع بين المدينة ومكة؛ قال الفتني بمعجمتين موضع باثني عشر ميلا من المدينة وقيل بمهملة وجيم، وهو تصحيف؛ (مجمع بحار الأنوار، ج٢، ص١٢٠، طبع حيدر آباد، الهند).

فلما رأت الجد منه، قالت: اعرض! فأعرض، فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته اليها، فأتيا به رسول الله ﷺ فاذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ اليهم.

فدعا رسول الله ﷺ حاطباً، فقال: لا تعجل علي يا رسول الله، والله واني لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت، ولا بدلت، ولكني كنت أمرأ ملصقاً في قريش، لست من أنفسهم ولي فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم، فأحببت اذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، فقال عمر بن الخطاب دعني يا رسول الله أضرب عنقه، فانه قد خان الله ورسوله، وقد نافق. فقال رسول الله ﷺ: انه قد شهد بدراً، وما يدريك يا عمر! لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم، فذرفت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم[١].

وخرج رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان من المدينة ومعه عشرة آلاف[٢]، ومضى حتى نزل «مر الظهران»، وعمى الله الأخبار عن قريش، فهم على وجل وارتقاب.

عفو عمن ظلم:

ولقي رسول الله ﷺ في الطريق ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فأعرض عنه، لما كان يلقاه منه من شدة الأذى والهجو، فشكا ذلك إلى علي، فقال له: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل

---

(١) زاد المعاد ج١، ص٤٢١، وقد وردت القصة في الصحاح.
(٢) باب «غزوة الفتح في رمضان» صحيح البخاري.

له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين﴾، فانه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً، ففعل ذلك فقال له رسول الله ﷺ: ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو ارحم الراحمين﴾، وحسن اسلامه بعد ذلك، وما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه[1].

أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ:

وأمر رسول الله ﷺ الجيش، فأوقدوا النيران، وخرج أبو سفيان ابن حرب يتجسس الأخبار، وهو يقول: «ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكر»، وكان العباس بن عبد المطلب، قد خرج من مكة قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً مهاجراً ولحق بالعسكر، فعرف صوت أبي سفيان، وقال: هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش! فأركبه في عجز بغلته، وخشي عليه أن يدركه أحد المسلمين، فيقتله، وأتى به رسول الله ﷺ.

فلما رآه رسول الله - ﷺ - قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا اله إلا الله؟

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت ان لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئا بعد.

قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟

قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فان في النفس منها حتى الآن شيئاً.

---

(١) زاد المعاد؛ ج١، ص٤٢١.

قال العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قبل أن نضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق(١).

عفو عام وأمن بسيط:

ووسع رسول الله ﷺ في الأمن والعفو، حتى أصبح أهل مكة لا يهلك منهم إلا من زهد في السلامة، وكره الحياة، فقال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن(٢)».

ونهى رسول الله ﷺ جيشه عن أن يستخدموا السلاح عندما يدخلون مكة على أي إنسان إلا من اعترضهم وقاومهم، وأمر بأن يعف الجيش عن أموال أهل مكة وممتلكاتهم وأن يكفوا أيديهم عنها(٣).

أبو سفيان أمام موكب الفتح:

وأمر رسول الله ﷺ العباس بن عبد المطلب أن يجلس أبا سفيان حيث تمر به كتائب الإيمان.

وتحركت كتائب الفتح كأنها بحر يموج، وكانت القبائل تمر على راياتها، كلما مرت قبيلة سأل عباساً عنها وعن اسم القبائل، فيقول: مالي ولبني فلان؟ حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبة خضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله! يا عباس من هؤلاء؟ قال هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال:

---

(١) ابن هشام ق٢، ص٤٠٣؛ وزاد المعاد ج١، ص٤٢٢.

(٢) ابن هشام ق٢، ص٤٠٣، والرواية في البخاري مختصرة، باب «أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح».

(٣) سيرة ابن هشام ق٢، ص٤٠٩.

ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: يا أبا سفيان! انها النبوة، قال: فنعم إذاً[١].

وقام أبو سفيان فصرخ بأعلى صوته، يا معشر قريش! هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله، ما تغني عنا دارك؟، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[٢].

دخول خاشع متواضع، لا دخول فاتح متعال:

ودخل رسول الله ﷺ مكة، وهو واضع رأسه تواضعاً لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح[٣].

وفي دخوله مكة فاتحاً - وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي - رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد[٤]، وهو ابن مولى رسول الله ﷺ ولم يردف أحداً من أبناء هاشم وأبناء أشراف قريش، وهم كثير.

وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمان من الهجرة.

---

(١) نفس المصدر، ص٤٠٤.

(٢) نفس المصدر، ص٤٠٥ وزاد المعاد ج١، ص٤٢٣.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ج٣؛ ص٥٥٤، وجاء في صحيح البخاري رواية عن معاوية ابن قرة، رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح؛ يراجع.

(٤) السيرة النبوية لابن كثير ج٣، ص٥٥٦.

وكلمه رجل يوم الفتح، فأخذته الرعدة، فقال: هوّن عليك فاني لست بملك، وانما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد[1].

مرحمة لا ملحمة:

ولما مر سعد بن عبادة بأبي سفيان في كتيبة الأنصار، قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشاً، فلما حاذاه رسول الله ﷺ في كتيبته شكا اليه ذاك أبو سفيان، قال: يا رسول الله! ألم تسمع ما قال سعد؟، قال: وما قال؟ قال: كذا وكذا.

فاستنكر رسول الله ﷺ مقالة سعد، وقال: «بل اليوم يوم المرحمة، اليوم يعز الله قريشاً، ويعظم الله الكعبة[2]»، وأرسل إلى سعد، فنزع منه اللواء، ودفعه إلى قيس ابنه، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد اذ صار إلى ابنه[3].

ولم يزد الرسول الملهم أن أبدل حرفاً بحرف، وأباً بابن، فعالج نفس أبي سفيان المكلومة - وكان في حاجة إلى تأليف القلب - من غير أن يسيء إلى سعد، صاحب سوابق في الإسلام.

مناوشات قليلة:

وكانت مناوشات قليلة بين صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وبين أصحاب خالد بن الوليد، وأصيب من المشركين ناس قريب من اثني عشر رجلاً، ثم انهزموا[4]، وكان رسول الله ﷺ قد

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب «حجة الوداع».

(٢) رواه الأموي في المغازي (فتح الباري، ج٨؛ ص٧) وروى البخاري القصة باختلاف بعض الألفاظ، ومقالة سعد بن عبادة ورد النبي ﷺ؛ في صحيحه، والأموي هو يحيى ابن سعيد بن أبان، صدوق، روى له الستة، مات سنة ٩٤هـ (راجع ج٢، ص٦١٣).

(٣) زاد المعاد ج١؛ ص٤٢٣.

(٤) سيرة ابن هشام، ق٢، ص٤٠٧ - ٤٠٨ باختصار.

عهد إلى أمرائه من المسلمين، حين يدخلون مكة ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم[1].

تطهير الحرم من الأوثان والأصنام:

ولما نزل رسول الله ﷺ واطمأن الناس، خرج حتى جاء البيت، فطاف به، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، ان الباطل كان زهوقاً، وما يبدىء الباطل وما يعيد»، والأصنام تتساقط على وجوهها[2].

ورأى في الكعبة الصور والتماثيل، فأمر بالصور، وبالتماثيل فكسرت[3].

اليوم يوم بِرّ ووفاء:

ولما قضى طوافه، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، ودخل، وكان قد طلب منه المفتاح يوماً قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول، ونال منه، فحلم عنه، وقال: يا عثمان! لعلك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي، أضعه حيث شئت، فقال لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال: بل عمرت وعزت يومئذ، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعاً، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال[4].

---

(١) المصدر السابق، ص٤٠٩.

(٢) زاد المعاد ج١، ص٤٢٤؛ وراجع القصة في صحيح البخاري، باب «أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح».

(٣) سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٤١١، وزاد المعاد ج ٢؛ ص ٤٢٤.

(٤) زاد المعاد، ج ١، ص ٤٢٥، وراجع القصة في صحيح البخاري.

فلما خرج من الكعبة، قام إليه علي بن أبي طالب، ومفتاح الكعبة في يده صلى الله عليه وسلم قال لرسول الله ﷺ اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك وسلم، فقال رسول الله ﷺ: أين عثمان بن طلحة؟ فدعي له، فقال: هاك مفتاحك يا عثمان! اليوم يوم بر ووفاء[1]، خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم[2].

الإسلام دين توحيد ووحدة:

وفتح رسول الله ﷺ باب الكعبة، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً، ينتظرون ماذا يصنع، فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته، فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة ومال أو دم، فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج».

يا معشر قريش! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3].

نبي المحبة ورسول الرحمة:

ثم قال رسول الله ﷺ: يا معشر قريش! ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم!

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ق ٢، ص ٤١١ - ٤١٢ ملخصاً.

(٢) زاد المعاد؛ ج ١، ص ٤٢٥؛ نقلا عن طبقات ابن سعد.

(٣) سورة الحجرات ١٣. زاد المعاد؛ ج ١؛ ص ٤٢٤.

قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء﴾[1].

وأمر بلالاً أن يصعد، فيؤذن على الكعبة، ورؤساء قريش وأشرافهم يسمعون كلمة الله تعلو، ومكة ترتج بالأذان.

ودخل رسول الله ﷺ دار أم هانيء بنت أبي طالب، فاغتسل، وصلى ثماني ركعات صلاة الفتح شكراً لله عليه[2].

لا تمييز في تنفيذ حدود الله:

وسرقت امرأة من بني مخزوم - اسمها فاطمة - في هذه الغزوة، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد، لمكانته عند رسول الله ﷺ يستشفعونه، فلما كلم رسول الله ﷺ تلون وجهه، وقال: أتكلمني في حد من حدود الله؟!، قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله!

فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد، فإنما هلك الناس قبلكم، إنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة، فقطعت يدها، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت[3].

---

(١) زاد المعاد ج ١، ص ٤٢٤.

(٢) رواه البخاري في باب منزل النبي ﷺ، يوم الفتح، وزاد المعاد ج ١، ص ٤٢٥.

(٣) رواه البخاري ومسلم (الجامع الصحيح للبخاري، باب «مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح») واللفظ للبخاري.

عفو عن الأعداء الألداء:

ولما استقر الفتح، وأمن رسول الله ﷺ الناس كلهم، إلا تسعة نفر، أمر بقتلهم وان وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم من ارتد عن دينه، ومنهم من قتل مسلماً غيلة، ومنهم من كان يشتغل ويتسلى بهجائه ويذيعه بين الناس، وكان منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان قد ارتد.

ومنهم عكرمة بن أبي جهل، وكان قد خرج إلى اليمن كارهاً لدولة الإسلام وخائفاً على نفسه، فاستأمنت له أمرأته بعد أن فر، فأمنه النبي ﷺ وهو ابن أعدى عدو له في الدنيا - وثب إليه رسول الله ﷺ وما عليه رداء، فرحاً به، وترحيباً، وأسلم عكرمة، فسر به رسول الله ﷺ سروراً عظيماً، وحسن إسلامه، وكان له مواقف عظيمة في حروب الردة وحروب الشام.

ومنهم وحشي مولى جبير بن مطعم، وقاتل عم الرسول وأسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب - وكان رسول الله ﷺ قد أهدر دمه - فأسلم، وقبل رسول الله ﷺ إسلامه، ومنهم هبار بن الأسود، وكان قد عرض لزينب بنت الرسول ﷺ حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، ففر، ثم أسلم، وحسن إسلامه، واستؤمن لسارة ولإحدى القينتين اللتين كانتا تغنيان بهجائه، فأمنها فأسلمتا[١].

بين هند بنت عتبة وبين رسول الله ﷺ:

واجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله ﷺ على الإسلام، فجلس لهم، على الصفا وأخذ على الناس السمع والطاعة لله، ولرسوله، فيما استطاعوا.

ولما فرغ من بيعة الرجال، بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان متنقبة متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة.

---

(١) زاد المعاد ج ١، ص ٤٢٥.

قال رسول الله ﷺ لهن: بايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً، فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذ من الرجال.

«ولا تسرقن»، فقالت: والله إني كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة، وما كنت أدري أكان ذلك حلالاً أم لا؟، فقال أبو سفيان - وكان شاهداً لما تقول -: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل، فقال رسول الله ﷺ: «وإنك لهند بنت عتبة»؟، قالت: نعم، فاعف عما سلف، عفا الله عنك.

ثم قال: «ولا تزنين» فقالت: يا رسول الله! وهل تزني الحرة؟[1].

ثم قال: «ولا تقتلن أولادكن»، قالت: ربيناهم صغاراً، وقتلتهم كباراً، فأنت وهم أعلم[2]، فضحك عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حتى استغرق.

ثم قال: «ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن»، فقالت: والله إن اتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل.

ثم قال: «ولا يعصينني»، فقالت: في معروف[3].

المحيا محياكم والممات مماتكم:

ولما فتح الله مكة على رسوله - وهي بلده ووطنه ومولده - تحدث الأنصار فيما بينهم، فقالوا: إن رسول الله ﷺ قد فتح الله عليه أرضه وبلده، فهو مقيم بها، لا يعود إلى المدينة.

وسأل رسول الله ﷺ الأنصار عن حديثهم، ولا يعرفه غيرهم، فاستحيوا ثم أقروا به، فقال: معاذ الله! المحيا محياكم والممات مماتكم[4].

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير؛ ج ٣، ص ٦٠٣.

(٢) السيرة الحلبية ج ٣، ص ١٠٩.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير، ج ٣، ص ٦٠٢ - ٦٠٣، بزيادة يسيرة من غير ابن كثير.

(٤) سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٤١٦.

كيف انقلب العدو محباً والماجن تقياً:

همَّ فضالة بن عمير أن يقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال له: أي فضالة! قال: نعم يا رسول الله! فقال: ماذا كانت تحدث به نفسك؟، قال لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبي ﷺ ثم قال: أستغفر الله، ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، وكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري، حتى ما خلق الله شيئاً أحب إليّ منه.

قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، قالت: هلم إلى الحديث، قال: يأبى الله عليك والإسلام[1].

إزالة آثار الجاهلية وشعائر الوثنية:

وبث رسول الله ﷺ سراياه إلى الأوثان التي كانت حول الكعبة، فكسرت كلها، منها اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ونادى مناديه بمكة:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره»، وبعث رجالاً من أصحابه إلى القبائل، فهدموا أصنامها[2]، وقال جابر: كان بيت في الجاهلية يقال له «ذو الخلصة» و«الكعبة اليمانية» و«الكعبة الشامية»، فقال لي النبي ﷺ: ألا تريحني من «ذي الخلصة»؟ يقول جابر: فنفرت في مائة وخمسين راكباً من أحمس، (وكانوا أصحاب خيل) فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته، فدعا لنا ولأحمس[3].

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢؛ ص ٤١٧، وزاد المعاد ج ١، ص ٤٢٦.
(٢) راجع للتفصيل زاد المعاد ج ١؛ ص ٤٢٦.
(٣) الجامع الصحيح للبخاري، باب «غزوة ذي الخلصة».

وقام رسول الله ﷺ في مكة خطيباً، فأعلن حرمة مكة إلى يوم القيامة: «لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، أو يعضد[1] بها شجرة»، وقال: «لم تحلل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي»، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة[2].

أثر فتح مكة:

وكان لفتح مكة أثر عميق في نفوس العرب، فشرح الله صدر كثير منهم للإسلام، وصاروا يدخلون فيه أرسالاً، وكانت عدة قبائل بينها وبين قريش حلف، وكانت ممتنعة عن الدخول في الإسلام لمكانة هذا الحلف، وكانت قبائل ترهب قريشاً وتجلها، فلما رأتهم استسلموا للإسلام ورغبوا فيه زال الحاجز، وكانت قبائل تعتبر مكة لا يفتحها ولا يدخلها ملك جبار أو من يريد لها سوءاً، ولا يزال فيها من عاصر حادثة الفيل، وشاهد ما فعل بأبرهة، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق[3].

فلما فتح الله لنبيه مكة، وخضعت قريش للإسلام طوعاً أو كرهاً، أقبل العرب على الإسلام إقبالاً لم يعرف قبل ذلك، وصاروا يدخلون في دين الله أفواجاً[4]، وصدق الله العظيم: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً﴾.

---

(١) يعضد: يقطع.

(٢) راجع زاد المعاد ج ١، ص ٤٢٥ - ٤٢٦.

(٣) راجع صحيح البخاري عن عمرو بن سلمة (باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح).

(٤) مستفاد من كتاب «رحمة للعالمين» لمؤلفه الشهير قاضي محمد سليمان المنصور فوري.

أمير شاب حديث السن:

وأمَّر رسول الله ﷺ قبل أن يغادر مكة عتاب بن أسيد[1]، يدبر أمورها، ويقيم الموسم والحج بالمسلمين، وهو دون العشرين سنة، أو فوقها قليلاً، وذلك بمحضر من أهل الأسنان والفضل، فدل على أن المناصب على الجدارة والقوة، وأقره أبو بكر في خلافته[2].

---

(١) ابن هشام، ق ٢، ص ٤٤٠.
(٢) راجع الإصابة وأسد الغابة.

غَزوة حُنَيْن

شوّال سَنة ثمان مِنَ الهجْرَة

محاولة أخرى لإطفاء نور الله بالأفواه:

وبعد أن تم فتح مكة، وبدأ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، أطلق العرب السهم الأخير في كنانتهم على الإسلام والمسلمين، فكانت محاولة يائسة لمحاربة الرسول ﷺ ووقف مد الإسلام في جزيرة العرب.

اجتماع هوازن:

وكانت هوازن قوة كبيرة بعد قريش، وكان بينها وبين قريش تنافس، فلم تخضع لما خضعت له قريش، وأرادت أن يكون لها الفضل والصيت في استئصال شأفة الإسلام، فيقال: إن هوازن استطاعت ما لم تستطعه قريش.

قام مالك بن عوف النصري - سيد هوازن - فنادى بالحرب واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها، ونصر وجشم كلها، وسعد بن بكر، وتخلف عن هوازن كعب وكلاب، وأجمع السير إلى رسول الله ﷺ وحط مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، ليثبتوا ويدافعوا عن الأهل والعرض.

وشهد الحرب دريد بن الصمة، وكان شيخاً، كبير السن، مجرباً، له

رأي وحكمة، ونزلوا بـ «أوطاس»[١]، وللبعير رغاء وللحمير نهاق، وللشاة ثغاء، وللصغار بكاء، وقال مالك للناس: «إذا رأيتم المسلمين فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد[٢].

وخرج رسول الله ﷺ ومعه ألفان من أهل مكة، ومنهم من هو حديث العهد بالإسلام، ومنهم من لم يسلم، وعشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه من المدينة فبلغ عددهم إلى ما لم يبلغه في غزوة قبل ذلك، حتى قال أناس من المسلمين: لن نغلب اليوم من قلة، وأعجبتهم كثرة الناس[٣].

واستعار رسول الله ﷺ من صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً - وهو مشرك - ومضى على وجهه يريد لقاء هوازن[٤].

لا رجعة للوثنية:

قد خرج مع رسول الله ﷺ إلى حنين بعض حديثي العهد بالجاهلية وكانت لبعض القبائل شجرة عظيمة خضراء، يقال لها: «ذات أنواط» يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً.

وبينما هم يسيرون مع رسول الله ﷺ إذ وقع بصرهم على الشجرة، فتحلبت أفواههم على أعياد الجاهلية التي هجروها، ومشاهدها التي طال عهدهم بها، فقالوا: يا رسول الله! إجعل لنا «ذات أنواط» كما لهم «ذات أنواط»، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر! قلتم والذي نفس محمد

---

(١) أوطاس: واد في ديار هوازن عند الطائف كانت فيه وقعة حنين.

(٢) ابن هشام ق ٢، ص ٤٣٧ - ٤٣٩.

(٣) تفسير الطبري، ج ١٠؛ ص ٦٢ - ٦٣.

(٤) ابن هشام؛ ق ٢، ص ٤٤٠.

بيده كما قال قوم موسى لموسى: ﴿إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون﴾، لتركبن سنن من كان قبلكم[1].

في وادي حنين:

واستقبل المسلمون وادي حنين، وذلك في عاشر شوال، سنة ثمان، وهم ينحدرون فيه انحداراً في ظلام الصبح، وكانت هوازن قد سبقتهم إلى الوادي، وكمنوا لهم في شعابه وأحنائه ومضايقه، فما راع المسلمين إلا أن رشقوهم بالنبال، وأصلتوا السيوف، وحملوا حملة رجل واحد وكانوا قوماً رماة[2].

وانشمر عامة المسلمين راجعين، لا يلوي منهم أحد على أحد[3]، وكانت فترة حاسمة، يوشك أن تدور الدائرة على المسلمين، فلا تقوم لهم قائمة بعد ذلك، وكانت شبيهة بما وقع يوم أحد حين طار في الناس أن النبي قد قتل، وانحسر عنه المسلمون:

شماتة الأعداء وتزلزل ضعاف الإيمان:

ولما رأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة، والذين لما يدخل الإيمان في قلوبهم، هذه الهزيمة، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال بعضهم: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر» وقال بعضهم: «ألا بطل السحر اليوم»[4].

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ٢، ص ٤٤٢، والرواية في الصحاح.
(٢) أيضاً، ص ٤٤٢ - ٤٤٣.
(٣) زاد المعاد، ج ١؛ ص ٤٤٦.
(٤) سيرة ابن هشام، ق ٢ ص ٤٤٢ - ٤٤٤، مختصراً.

الفتح والسكينة:

ولما تم ما أراد الله من تأديب المسلمين الذين أعجبتهم الكثرة، وأذاقهم الله مرارة الهزيمة بعد حلاوة الفتح، ليقوي إيمانهم، فلا يبطرهم الفتح، ولا تـؤيسهم الهزيمة، رد لهم الكرة على الأعداء، وأنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين، وكان رسول الله ﷺ واقفاً في موقفه، على بغلته الشهباء، غير وجل ولا هياب، وقد بقي معه نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، والعباس بن عبد المطلب آخذ بحكمة بغلته، ورسول الله ﷺ يقول:

أنـــا النـــبي لا كـــذب أنـــا ابن عبـــد المطلـــب[1]

ولما استقبلته كتائب المشركين، أخذ قبضة من تراب، ورمى بها إلى عيون الأعداء إلى البعد فملأت أعين القوم.

ولما رأى انشغال الناس بأنفسهم، قال: يا عباس! أصرخ «يا معشر الأنصار! يا معشر أصحاب السمرة!» فأجابوا لبيك لبيك، وكان رجلا صيتاً، فيؤمّ الرجل الصوت ويقتحم عن بعيرة، ويأخذ سيفه وترسه، حتى ينتهيى إلى رسول الله ﷺ حتى إذا اجتمع اليه منهم طائفة، استقبلوا الناس، فاقتتلوا، وأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلى القوم يجتلدون، فقال: «الآن حمي الوطيس[2]»، ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه الكفار، يقول عباس: «فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً[3]».

---

(١) رواه البخاري في صحيحه؛ باب قوله تعالى: ﴿إذ أعجبتكم كثرتكم الخ﴾، وفيه أن أبا سفيان بن الحارث أخذ بغلته البيضاء. وراجع للتفصيل سيرة ابن هشام ق٢، ص٤٤٤ - ٤٤٥، ورواه مسلم في صحيحه في باب «غزوة حنين».

(٢) سيرة ابن هشام؛ ق٢، ص٤٤٥؛ يعني: استعرب الحرب، وهي من الكلم التي لم يسبق النبي اليها.

(٣) رواه مسلم.

واجتلد الناس، فلما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم، حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله ﷺ[1] وأنزل الله ملائكته بالنصر، فامتلأ بهم الوادي[2]، وتمت هزيمة هوازن، وذلك قوله تعالى:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ، وَيَوْمَ حُنَيْنٍ، إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ، فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ، وَذَلِكَ جَزَاءُ ٱلْكَافِرِينَ﴾[3].

آخر غزوة ضد الإسلام والمسلمين:

وبغزوة حنين طفئت جمرة العرب، فقد استفرغت قواهم، واستنفدت سهامهم، وأذلت جمعهم، فانشرحت صدورهم للدخول في الإسلام.

في أوطاس:

ولما تمت الهزيمة لهوازن، ذهبت فرقة منهم - فيهم الرئيس مالك بن عوف - فلجأوا إلى الطائف، فتحصنوا بها، وسارت فرقة، فعسكروا بـ «أوطاس» فبعث اليهم رسول الله ﷺ سرية من أصحابه، عليهم أبو عامر الأشعري، فقاتلوهم فغلبوهم[4].

---

(١) سيرة ابن هشام ق٢، ص٤٤٥.
(٢) أيضا؛ ص٤٤٩، ورواه مسلم مطولا في كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين.
(٣) سورة التوبة ٢٥ - ٢٦.
(٤) السيرة النبوية لابن كثير ج٣، ص٦٤٠.

وجمعت إلى رسول الله ﷺ سبايا حنين وأموالها، فأمر بالسبايا والأموال إلى «الجعرانة»[1] فحبست بها[2].

وكان السبي ستة آلاف رأس، والابل أربعة وعشرين ألفاً، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، وكان أكبر مغنم غنمه المسلمون.

وكان رسول الله ﷺ قد نهى أصحابه يوم حنين، أن يقتلوا وليداً، أو امرأة، أو أجيراً، أو عبداً مستعاناً به، وتأسف على امرأة قتلت في حنين[3].

---

(١) بخفف ويثقل، تقع على الطريق الشمالي الشرقي من مكة إلى الطائف على مسافة أكثر من ٢٠ كليومتر وهي خارج الحرم وقد أحرم منها رسول الله ﷺ للعمرة وعليها كان يلتقي الطريقان من مكة والمدينة إلى الطائف في العهد النبوي (مقتبس من كتاب «الحج ومقامات الحج» للأستاذ محمد الرابع الندوي).

(٢) ابن هشام ق٢، ص٤٥٩.

(٣) سيرة ابن كثير؛ ج٣، ص٦٣٨.

غزوة الطائف

شوّال سنة ثمان من الهجرة

فلول ثقيف:

وقدم فل ثقيف الطائف، وأغلقوا عليهم أبواب مدينتها، ورموا حصنهم، وأدخلوا فيه ما يصلح لهم لسنة، وأعدوا للحرب عدتها، فسار رسول الله ﷺ وذلك في شوال سنة ثمان اليهم، ومضى حتى نزل قريباً من الطائف، ولم يقدروا على أن يدخلوه، فقد أغلقوه دونهم، ورمت ثقيف المسلمين بالنبل رمياً شديداً، كأنه رجل جراد، وكانوا رماة.

حصار الطائف:

فنقل رسول الله ﷺ العسكر إلى مكان آخر، وحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة، وقاتلهم قتالاً شديداً، وتراموا بالنبل، واستخدم رسول الله ﷺ في هذا الحصار المنجنيق لأول مرة، واشتد الحصار، وقتل رجال من المسلمين بالنبل[1].

---

(١) سيرة ابن هشام ق٢، ص٤٧٨ - ٤٨٣ باختصار، وزاد المعاد، ج١، ص٤٥٧ ملخصاً.

الرحمة في ميدان الحرب:

ولما ضاق الحصار، وطالت الحرب، أمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف وهي مما يعتمدون عليها في معاشهم، ووقع الناس فيها يقطعون، فسألوه أن يدعها لله، وللرحم، فقال: فاني أدعها لله وللرحم.

ونادى منادي رسول الله ﷺ أيما عبد نزل من الحصن وخرج الينا فهو حر، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً، فيهم أبو بكرة، فأعتقهم رسول الله ﷺ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة(١).

رفع الحصار:

ولم يؤذن لرسول الله ﷺ في فتح الطائف، فأمر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأذن في الناس بالرحيل، فضج الناس من ذلك، وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله ﷺ: فاغدوا على القتال، فغدوا، فأصابت المسلمين جراحات، فقال رسول الله ﷺ: انا قافلون غداً إن شاء الله، فسروا بذلك، وأظعنوا، وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك(٢).

سبايا حنين ومغانمها:

ونزل رسول الله ﷺ «الجعرانة» فيمن معه من الناس، واستأنى بهوازن أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة، ثم بدأ بالأموال، فقسمها ،وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، وأجزل لأبي سفيان بن حرب

---

(١) زاد المعاد، ج١ ص٤٥٧، نقلا عن ابن اسحاق.

(٢) أيضاً، والقصة في صحيح البخاري «غزوة الطائف» وفي صحيح مسلم، باب «غزوة الطائف».

وابنيه: يزيد ومعاوية، وأعطى حكيم بن حزام، والنضر بن الحارث، والعلاء بن الحارثة، وغيرهم من أشراف قريش، فأكثر وأجزل، ثم أمر باحضار الغنائم والناس، ففرضها عليهم[1].

حب الأنصار وايثارهم:

وتقاول شباب من الأنصار في هذا الفرض الذي كان لأشراف قريش ومؤلفة القلوب، النصيب الأكبر فيه، ولم يكن للأنصار إلا نصيب ضئيل.

فأمر رسول الله ﷺ بالأنصار، فجمعوا في حظيرة، فخطب خطبة عظيمة مست قلوبهم، ففاضت لها عيونهم وثار فيهم الحب والحنان، قال فيها: «ألم آتكم ضلالاً، فهداكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟!».

قالوا: الله ورسوله أمنٌّ وأفضل.

ولما سكتوا قال: ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟.

قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله! لله ورسوله المن والفضل.

قال: «أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم، ولصدقتكم: أتيتنا مكذباً فصدقناك، ومخذولاً، فنصرناك، وطريداً، فآويناك، وعائلاً، فواسيناك».

ثم انعطف عليهم بكلمة فيها الثقة، وفيها الدالة، وفيها حكمة هذا التفاوت في الفرض والعطاء، فقال: «أوجدتم علي يا معشر الأنصار، في أنفسكم، في لُعاعة[2] من الدنيا، تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى اسلامكم».

---

(١) زاد المعاد ج١، ص٤٤٨، باختصار.

(٢) لعاعة: بقلة خضراء وناعمة، شبه بها زهرة الدنيا ونعمها.

ثم قال كلمة لم يتمالكوا أمامها، فانفجر الإيمان والحنان في نفوسهم، وتدفق، قال:

«ألا ترضون يا معشر الأنصار! أن يذهب الناس بالشاء والبعير، وترجعون برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟، فوالذي نفس محمد بيده، لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، ولولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وواديأ، وسلكت الأنصار شعباً وواديأ لسلكت شعب الأنصار وواديها، الأنصار شعار، والناس دثار، اللهم ارحم الانصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».

وبكى القوم حتى اخضلوا لحاهم، وقالوا: «رضينا برسول الله قسماً وحظاً»[1].

رد السبايا على هوازن:

وقدم وفد هوازن على رسول الله ﷺ وهم أربعة عشر رجلاً، فسألوه أن يمن عليهم بالسبي والأموال، فقال: «ان معى من ترون، وان أحب الحديث الي أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم؟».

قالوا: ما كنا نعدل بالأبناء والنساء شيئاً، وقال: إذا صليت الغداة فقوموا وقولوا: انا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد علينا سبينا، فلما صلى الغداة، قاموا، فقالوا ذلك فقال رسول الله ﷺ: «أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وسأسال لكم الناس» فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

---

(١) أصل الرواية في الصحيحين، وساقه ابن القيم في «زاد المعاد» أجمع وأشمل الطرق فاعتمدنا عليه، راجع الجامع الصحيح للبخاري «باب غزوة الطائف».

وأبى ثلاثة من بني تميم، وبني فزارة، وبني سليم، أن يتنازلوا عن سبيهم، فقال رسول الله ﷺ: «ان هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين، وقد كنت استأنيت بهم، وقد خيرتهم، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً، فمن كان عنده منهن شيء، فطابت نفسه بأن يرده، فسبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقه، فليرد عليهم، وله فريضة ست فرائض، من أول ما يفيء الله علينا».

فقال الناس: قد طيبنا لرسول الله ﷺ فقال: «إنا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض، فارجعوا، حتى يرفع الينا عرفاؤكم أمركم، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، ولم يتخلف منهم أحد، وكسا رسول الله ﷺ السبي قبطية قبطية»[1].

رقة وكرم:

وكان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله ﷺ الشيماء بنت حليمة السعدية، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، وعنفوا عليها في السوق، وهم لا يدرون فقالت للمسلمين: تعلمون والله اني لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله ﷺ ولما انتهت الشيماء إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله! اني أختك من الرضاعة، قال ما علامة ذلك؟ قالت عضة عضضتنيها في ظهري، وأنا متوركتك[2]، وعرف رسول الله ﷺ العلامة، وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، وخيرها، وقال: ان أحببت فعندي محببة مكرمة، وان أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت، فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي[3].

---

(١) زاد المعاد ج١؛ ص٤٤٩، وروى البخاري القصة في باب قوله تعالى: ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم الخ﴾، باختلاف بعض الألفاظ.

(٢) يعني حاملتك على وركي.

(٣) ابن كثير، ج٣، ص٦٨٩.

ومتعها رسول الله ﷺ فأسلمت، وأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية ونعماً وشاء[١].

عمرة الجعرانة:

ولما انتهى رسول الله ﷺ من غزوة حنين، وقسمت السبايا والمغانم في الجعرانة، وهي على مرحلة من مكة وميقات أهل الطائف، أحرم منها للعمرة، واعتمر وانصرف راجعاً إلى المدينة[٢]، وذلك في شهر ذي القعدة[٣]، سنة ثمان.

طائعون لا كارهون:

ولما ارتحل المسلمون من الطائف، واستقبلوا، قال رسول الله ﷺ: قولوا آيبون، تائبون، عابدون لربنا حامدون، قيل يا رسول الله! ادع الله على ثقيف، قال: اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم.

ولحق عروة بن مسعود الثقفي، وأدرك رسول الله ﷺ قبل أن يدخل المدينة، فأسلم ورجع يدعو قومه إلى الإسلام، وكان محبباً اليهم، صاحب منزلة فيهم، فلما دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل، فقتل شهيداً.

وأقام ثقيف بعد قتله أشهراً، ثم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا، فأرسلوا وفداً إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) زاد المعاد، ج١، ص٤٤٩.

(٢) ابن هشام ق٢، ص ٥٠٠.

(٣) الجامع الصحيح، كتاب: باب «غزوة الحديبية».

لا هوادة مع الوثنية:

وقدموا على رسول الله ﷺ وضرب عليهم قبة في ناحية مسجده، وأسلموا وسألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم «اللات» لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ عليهم وما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم رسول الله ﷺ حتى سألوا شهراً واحداً بعد قدومهم، فأبى عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة - وهو من قومهم - يهدمانها، وسألوه أن يعفيهم من الصلاة، فقال: لا خير في دين لا صلاة فيه.

ولما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين، بعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة، فهدمها المغيرة، وانتشر الإسلام في ثقيف، حتى أسلم أهل الطائف عن آخرهم[1].

اسلام كعب بن زهير:

لما قدم رسول الله ﷺ من الطائف، جاءه كعب بن زهير - الشاعر ابن الشاعر - وكان قد هجا رسول الله ﷺ ثم ضاقت به الأرض، وضاقت عليه نفسه، وحثه أخوه «بجير» على أن يأتي رسول الله ﷺ تائباً مسلماً، وحذره من سوء العاقبة ان لم يفعل ذلك، فقال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ والتي اشتهرت بـ«قصيدة بانت سعاد».

فقدم المدينة، وغدا إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح، ثم جلس اليه، ووضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال لرسول الله ﷺ: ان كعب بن زهير جاء يستأمنك تائباً مسلماً، فهل أنت قابل منه؟ فوثب عليه رجل من الأنصار، فقال يا رسول الله دعني وعدو

---

(١) زاد المعاد ج ٤ ص٤٥٨ - ٤٥٩ ملخصاً.

الله، أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: دعه عنك، فقد جاء تائباً نازعاً، وأنشد كعب قصديته اللامية التي أولها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول

وقال مادحاً فيها:

ان الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

فخلع عليه رسول الله ﷺ بردته[1].

---

(١) زاد المعاد، ج١ ص٤٦٦ - ٤٦٨.
قال القسطلاني في المواهب في رواية أبي بكر بن الأنباري أنه لما وصل إلى قوله: «ان الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول»، رمى عليه الصلاة والسلام بردة كانت عليه، وأن معاوية بذل فيها عشرة آلاف، فقال: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحداً؛ فلما مات كعب، بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفا فأخذها منهم، قال: وهي البردة التي عند السلاطين (الزرقاني على المواهب ج٣، ص٧٠).

غَزوَةُ تَبُوك[1]

رَجَب سَنة تِسْع مِن الهِجْرَة

أثر غزوة تبوك النفسي وسببها:

كانت غزوة تبوك نظير فتح مكة في قدف الرعب في قلوب الأعداء، ورفع الغشاوة عن عيون كثير من الذين كانوا يعتقدون أن الاسلام سراج يلتهب ثم ينطفىء أو سحابة صيف عن قليل تنقشع، وكانت هذه الغزوة احتكاكاً بأعظم قوة وأكبر دولة في العصر، وكانت عظيمة الشوكة مرهوبة الجانب في نظر العرب، وقد قال أبو سفيان حين رأى اهتمام هرقل - الأمبراطور الرومي - بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعثه مع دحية الكلبي، وحسابه لظهور النبي في جزيرة العرب: «لقد أمر ابن أبي كبشة، أنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً أنه سيظهر، حتى أدخل الله عليّ الإسلام»[2].

---

(١) موضع من بلاد العرب بين المدينة المنورة ودمشق على نصف الطريق، واقع الى الجنوب الشرقي من أيلة وفي معجم البلدان لياقوت عن أبي زيد «تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر؛ ويقال إن أصحاب الأيكة الذين بعث اليهم شعيب كانوا هناك» انتهى؛ وتبوك على ست مراحل من بحر القلزم بين جبلي حسمي وشروى، (ملخصاً من دائرة المعارف للبستاني) وهي الآن ثكنة تابعة لامارة المدينة في المملكة العربية السعودية على بعد ٧٠٠ كيلومتر تقريباً من المدينة المنورة.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري، باب «كيف كان بدء الوحي إلى النبي ﷺ».

وكان العرب لا يحلمون بغزو الروم والزحف عليهم، بل كانوا يخافون أن يغزوهم في عقر دارهم، بل كانوا يرون أنفسهم أصغر من ذلك، وكان المسلمون في المدينة إذا حزبهم أمر، أو دهمهم خطر ابتدرت أذهانهم إلى هجوم غسان وغزوهم، وهم تبع لقيصر ملك الروم وعماله. جاء في قصة الايلاء التي وقعت سنة ثمان، يقول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «كان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب، كنت آتيه بالخبر، ونحن حينئذ نتخوف ملكاً من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير الينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فأتى صاحبي الأنصاري يدق الباب، وقال: افتح افتح، فقلت: جاء الغساني؟!»[1].

وقد كانت الدولة الرومية في أوجها، وقد دحرت جيوشها في قيادة هرقل جيوش إيران وأوغلت في ديارها، وهزمتها هزيمة منكرة، ومشى هرقل من حمص إلى «ايلياء» في موكب الملك المنتصر، والقائد المظفر شكراً[2] على هذا الانتصار الرائع، وذلك سنة سبع للهجرة، يحمل الصليب الذي استرده من الفرس، وقد بسطت له البسط، ووزعت عليه الرياحين، فمشى عليها[3]، فما مضى على هذا الانتصار الرائع عامان، حتى خرج رسول الله ﷺ من المدينة يريد الروم.

وقد مهد الله بهذا الغزو الذي كان له أثر عميق في نفوس العرب، لغزو المسلمين للشام في عهد الخليفتين: أبي بكر وعمر، وكان ذلك سنداً له.

---

(١) رواه البخاري في تفسير سورة التحريم ومسلم في كتاب الطلاق (باب بيان أن تخييره امرأة لا يكون طلاقاً).

(٢) صحيح مسلم (كتاب الجهاد والسير)، باب «كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام».

(٣) فتح الباري، ج١، ص٣١.

ويقال في سبب هذه الغزوة أن رسول الله ﷺ اتصل به نبأ تهيؤ الروم لغزو حدود العرب الشمالية، قال ابن سعد وشيخه الواقدي: «ان رسول الله ﷺ بلغه من أنباط أنّ هرقل رزق أصحابه لسنة وأجلبت معهم لخم وجذام وعاملة وغسان، وغيرهم من متنصّرة العرب، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء»[1].

وسواء صحت هذه الرواية أو لم تصح، فقد كانت الغاية الحقيقية من هذه الغزوة ارهاب الدولة المجاورة، التي كانت تخاف معرتها على مركز الإسلام والمسلمين، وعلى الدعوة الإسلامية الزاحفة وقوتها الناشئة، ومنعها من أن تطمع في غزو المسلمين في عقر دارهم، وأن تعتبرهم مالاً سائباً أو لقمة سائغة، فمن كان هذا شأنه لا يتقدم بجيوشه إلى هذه الأمبراطورية العظيمة، ويدخل في حدودها متحدياً متهدداً، وتلك هي الحكمة التي ذكرها القرآن في سياق الآيات التي نزلت في غزوة تبوك، وقال: ﴿يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[2].

وقد تحققت هذه الغاية، فلم يقابل الروم هذا الزحف بزحف مقابل، وبتحركات عسكرية، بل كان هنالك نوع انسحاب مقابل هذا التحدي السافر، وصاروا يحسبون لهذه القوة الناشئة حساباً لم يحسبوه من قبل.

والحكمة الثانية في هذه الغزوة الجريئة، بل في هذه المغامرة الخطرة، هي ادخال الرعب في قلوب القبائل العربية التي لم تدخل في الإسلام في جزيرة العرب، والقبائل العربية المتنصّرة الخاضعة لنفوذ

---

(١) الزرقاني على المواهب، ج٢ ص٦٣ - ٦٤.

(٢) سورة التوبة ١٢٣.

الأمبراطورية الرومانية، والتابعة لها، واتاحة الفرصة لها للتفكير في أهمية الدين الإسلامي جدياً، وأنه ليس من الفقاقيع والنفاخات التي تعلو سطح الماء ثم تغيب، وأن له مستقبلاً زاهراً، لعل ذلك يفتح لها الطريق في الدخول في الإسلام، الذي ظهر في أرضهم وبلادهم، وذلك ما أشار اليه القرآن بقوله في الذين خرجوا في هذه الغزوة:

﴿وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ، وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾[١].

وقد كان الروم لا يزالون يذكرون غزوة مؤتة التي لم يقضوا منها حاجة في نفوسهم ولم يشفوها، وقد أسفرت عن انسحاب كل فريق راضياً من الغنيمة بالإياب، وقد أضعفت رهبة الدولة البيزنطية وجيوشها الجرارة في نفوس العرب.

وبالجملة فقد كانت لهذه الغزوة أهمية كبيرة في السيرة النبوية وتاريخ الدعوة الإسلامية وتحققت منها غايات كانت بعيدة الأثر في نفوس المسلمين والعرب، ومجرى الحوادث في تاريخ الإسلام.

زمن الغزوة:

وكانت هذه الغزوة في رجب سنة تسع[٢]، غزاها رسول الله ﷺ في

---

(١) سورة التوبة، آية ١٢٠.

(٢) انه من الصعب تحديد زمن غزوة تبوك؛ طبق التقويم الشمسي الميلادي، وتعيين الشهر الإفرنجي الذي كان فيه الخروج من المدينة إلى تبوك؛ وقد جعل بعض مؤلفي السيرة شهر نوفمبر مقابل رجب سنة ٩ هـ. منهم العلامة شبلي النعماني في كتابه الشهير «سيرة النبي». ولكن الشواهد الداخلية، والتصريحات التي جاءت في نص الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان وغيرهما من أصحاب الصحاح والسنن، تحتم أن تكون هذه الغزوة قد وقعت في زمن الصيف، لقد جاء في صلب الحديث على لسان كعب ابن مالك «أن رسول الله ﷺ غزاها في حر شديد حين طابت الثمار والظلال»، فليكن =

حر شديد حين طابت الثمار والظلال واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً،[١] وعدوا كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد[٢]، وكان الزمن زمن عسرة الناس وجدب البلاد.

وتعلل المنافقون بعلل، وكرهوا الخروج مع رسول الله ﷺ إشفاقاً من العدو القوي القاهر، وفراراً من الحر الشديد، زهادة في الجهاد، وشكاً في الحق، في ذلك يقول الله تعالى:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُواْ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا: لاَ تَنْفِرُوا فِي الحَرِّ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾[٣].

= ذلك هو الميزان والحاكم في تحديد زمن هذه الغزوة، وكل ما لا يتفق معه لا يعول عليه.

وفي رواية موسى بن عقبة عن ابن شهاب: «في قيظ شديد في ليالي الخريف والناس خارفون في نخيلهم، وأكثر من كل ذلك قول المنافقين الذي نقله القرآن في سورة التوبة، ثم رده عليهم، فقال: ﴿وقالوا لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون» (آية - ٨١).

وشهر نوفمبر في المدينة والحجاز، مبدأ الشتاء، وتطبيق التقويمين الشمسي الميلادي، والهلالي الهجري، من الأمور الصعبة، وقد كثر فيه الاضطراب لاختلاف أهل السير في مبدأ التقويم الهجري، هل كان من ربيع الأول أو من المحرم.

وقد توصل الأستاذ إسحق الرامفوري بعد استعراض طويل للحوادث والغزوات، وتطبيق بين التقويمين، أنه كان شهر أبريل (نيسان) ولا يبعد عن الصواب، لأنه مبدأ الصيف في المدينة، إلا أنه ذكر أنه كان ذلك في سنة ٦٣٠م والعلامة شبلي النعماني عينها بسنة ٦٣٥م، والله أعلم.

(١) مفاز: فلاة لا ماء فيها.

(٢) مقتبس من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه الذي رواه الشيخان.

(٣) سورة التوبة، آية ٨١.

تنافس الصحابة في الجهاد والمسير:

وجدَّ رسول الله ﷺ في سفره، وأمر الناس بالجهاز، وحض أهل الغنى على النفقة في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى، واحتسبوا، وجهز عثمان بن عفان جيش العسرة، وأنفق ألف دينار، ودعا له رسول الله ﷺ واستحمل رجال رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة، فاعتذر رسول الله ﷺ لعدم وجود الظهر، فاشتد حزنهم على ذلك، وأسقط الله عنهم الحرج، يقول الله تعالى:

﴿وَلاَ عَلَىٰ الَّذِينَ إِذَا مَا أَتُوكَ لِتَحْمِلَهُمْ، قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَأَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنْفِقُونَ﴾(١).

وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية، حين تخلفوا عن هذه الغزوة من غير شك ولا إرتياب.

مسير الجيش إلى تبوك:

خرج رسول الله ﷺ في ثلاثين ألفاً من الناس من المدينة إلى تبوك، وكان أكبر جيش خرج به في غزوة، وضرب عسكره على ثنية الوداع، واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري، وخلف على أهله علي بن أبي طالب، وقال له حين شكا إليه إرجاف المنافقين وقالتهم: «أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي»(٢).

ونزل بـ «الحجر» ديار ثمود، وأخبرهم بأنها ديار المعذبين، وقال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون خوفاً أن يصيبكم

---

(١) سورة التوبة ٩٢.

(٢) صحيح البخاري باب «غزوة تبوك».

ما أصابهم[1]، وقال: لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضأوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئاً.

وأصبح الناس ولا ماء لهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فدعا، فأرسل الله سبحانه سحابة، فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء[2].

تخوف العرب من الروم:

وكان رهط من المنافقين يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فيقول بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال[3].

الصلح بين الرسول وأصحاب أيلة:

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يوحنة بن رؤبة صاحب أيلة - وهو أحد الأمراء المقيمين بالحدود - فصالح رسول الله ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل «جرباء»، و«أذرح» وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاب أمن، كان فيه كفالة الحدود وتأمين المياه، والطرق البرية والبحرية، والضمان لسلامة الفريقين، وأكرمه رسول الله ﷺ[4].

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٣ - ٤؛ وسيرة ابن هشام ق ٢ ص ٥٢٢، ومعناه في الصحيحين.

(٢) سيرة ابن هشام ق ٢؛ ص ٥٢٢.

(٣) المصدر السابق ص ٥٢٤ - ٥٢٦.

(٤) نفس المصدر، ق ٢، ص ٥٢٥ - ٥٢٦.

عودة الرسول إلى المدينة:

وهنا بلغ خبر انسحاب الروم وعدولهم عن فكرة الزحف واقتحام الحدود، فلم ير رسول الله ﷺ محلاً لتتبعهم داخل بلادهم، وقد تحقق الغرض، وكان أكيدر بن عبدالملك الكندي النصراني أمير دومة[1]، وكان ردءاً لجيوش الروم، إذ جاءت من ناحيته، فبعث رسول الله ﷺ إليه خالد بن الوليد في خمسمائة فارس، وأسر خالد أكيدر، وبعث به إلى رسول الله ﷺ فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، وخلى سبيله[2].

وأقام رسول الله ﷺ بـ «تبوك» بضع عشرة ليلة، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة[3].

في جنازة مسلم مسكين:

ومات عبد الله ذو البجادين في «تبوك»، وكان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك، ويضيقون عليه، حتى تركوه في بجاد – وهو الكساء الغليظ – ليس عليه غيره، فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ فلما كان قريباً منه، شق بجاده بإثنين، فاتزر بواحد، واشتمل عليه، ثم أتى رسول الله ﷺ فقيل له: «ذو البجادين» ولما مات في تبوك شيعه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر في ظلام الليل، وفي يد بعضهم مشعل،

---

(١) دومة الجندل كانت قرية عامرة، يقصدها الأعراب للبيع والشراء، كانت قد خربت على مر الزمن، فنزل بها «أكيدر» فأعاد إليها رواءها، وغرس الزيتون بها، فتوافد إليها الأعراب؛ يحميها سور قديم؛ وفي داخل السور حصن منيع، اشتهر بين أعراب الشمال، بذلك اكتسبت المدينة أهمية «استراتيجية»، وكان أكثر سكانها من كلب، وكان «أكيدر» يلقب نفسه، بلقب ملك، على عادة ذلك الوقت، وكان أهل دومة على النصرانية في ذلك الحين. (راجع تاريخ العرب قبل الإسلام).

(٢) نفس المصدر ص ٥٢٦.

(٣) المصدر السابق ص ٥٢٧.

يسيرون في ضوئه، وقد حفروا له، ونزل رسول الله ﷺ في حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: أدنيا إليّ أخاكما، فدلياه إليه، فلما هيأه لشقه، قال: اللهم! إني أمسيت راضياً عنه، فارض عنه، قال عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة[1].

ابتلاء كعب بن مالك ونجاحه فيه:

وكان من بين من تخلف عن هذه الغزوة من غير شك ولا ارتياب، كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وكانوا من السابقين الأولين، ولهم حسن بلاء في الإسلام، وكان مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، ممن شهد بدراً، ولم يكن التخلف عن الغزوات من خلقهم وعادتهم، ولم يكن ذلك إلا من حكمة إلهية، وتمحيصاً لأنفسهم، وتربية للمسلمين، وإنما هو التسويف، وضعف الإرادة، والاعتماد الزائد على الوسائل الموجودة وعدم الجد والإسراع في الأمر، وكم جنى ذلك على أناس لم يكونوا أقل من إخوانهم إيماناً وحباً لله ولرسوله، وذلك ما عبر عنه ثالث ثلاثتهم كعب بن مالك بقوله:

«فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئاً.. فأقول في نفسي، وأنا قادر عليه، ولم يزل يتمادى بي، حتى اشتد الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئاً، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم فغدوت - بعد أن فصلوا - لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئاً ثم غدوت فرجعت فلم أقض شيئاً.

فلم يزل بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك»[2].

---

(١) نفس المصدر ق ٢، ص ٥٢٧ - ٥٢٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي.

وقد امتحن الله إيمان هؤلاء الثلاثة، ومدى حبهم للرسول ﷺ ووفائهم للإسلام، والبقاء عليه في السراء والضراء، وإكرام الناس وجفوتهم، وفي حال إقبال رسول الله ﷺ وإعراضه، امتحاناً قل نظيره في تاريخ المجتمعات البشرية التي تقوم على أساس الإيمان والعقيدة والحب والعاطفة.

وقد صدقوا رسول الله ﷺ حين كذب الناس، وشهدوا على أنفسهم، حين برأها المنافقون.

يقول كعب بن مالك في حديثه البليغ الطويل:

«جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله فجئته، وسلمت عليه، فلما سلمت عليه، تبسَّم تبسُّم المغضب ثم قال: تعال، فجئت أمشي، حتى جلست بين يديه فقال لي: ما خلفك؟، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؛ فقلت: بلى والله؟ اني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر من حين تخلفت عنك».

وجاءت الساعة الرهيبة، فنهى رسول الله ﷺ عن كلامهم، وما كان من المسلمين إلا السمع والطاعة، فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم، حتى تنكرت في نفوسهم الأرض، فما هي التي يعرفونها، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة، فأما مرارة بن الربيع وهلال بن أمية، فاستكانا وقعدا في بيوتها يبكيان، وأما كعب بن مالك، فكان أشب الثلاثة وأجلدهم، وكان

يخرج فيشهد الصلاة مع المسلمين، ويطوف في الأسواق ولا يكلمه أحد[1].

وكل ذلك لم يؤثر في رابطة الحب والولاء، التي كانت تربطه برسول الله ﷺ ولم يؤثر كذلك في عطف رسول الله ﷺ عليه ورأفته به، بل لم يزده هذا العتاب إلا رسوخاً في المحبة، ولوعة وجوى، يقول:

« وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا، ثم أصلي قريباً منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل علي، وإذا التفت نحوه، أعرض عني ».

فتنكرت له الدنيا وأعرض عنه من كانت له دالة عليه، يقول: « حتى طال عليَّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد عليّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة! أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟، فسكت فعدت له، فنشدته، فسكت فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار »[2].

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل تعدى إلى أزواج هؤلاء الثلاثة، فأمروا أن يعتزلوهن، ففعلوا.

وجاءت أدق مرحلة من مراحل هذا الامتحان للحب والوفاء، والثبات والاستقامة وذلك حين خطب وده ملك غسان، الذي كانت منادمته وحضور مجلسه شرفاً يتنافس فيه المتنافسون، ويتغنى به

---

(١) مقتبس من حديث كعب بن مالك نصه وهو يصور الحال ويذكر القصة.

(٢) حديث كعب بن مالك في صحيح البخاري.

شعراء العرب سنين طوالاً،[1] فجاءه (وهو في ضيق النفس، وجفوة الناس، واعراض رسول الله ﷺ عنه) رسول ملك غسان، فيدفع إليه كتاباً منه يقول فيه: «أنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة فالحق بنا، نواسك»، فتثور في كعب الغيرة، ويهيج الحنان، فيقصد تنوراً، ويرمي هذا الكتاب فيه.

ولما تم ما أراده الله من تمحيص هؤلاء الثلاثة المؤمنين وتخليد ذكرهم في القرآن، ودرسهم للمسلمين إلى آخر الأبد، وإقامة برهان على قوة إيمان وحسن إسلام، وقد ضاقت عليهم أنفسهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أفرج عنهم، وأنزل توبتهم من فوق سبع سماوات.

ولم يفردهم بالتوبة حتى يشعروا بغربتهم وبكونهم شامة بين الناس، بل مهد لتوبتهم التوبة على سيد الأنبياء والمهاجرين والأنصار الذين لم يتخلفوا، تكريماً لهم، وجبراً لخاطرهم، ورفعاً لمكانتهم، فقال:

﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَىٰ النَّبِي وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ، مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ، إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، وَعَلَىٰ الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ، وَظَنُّواْ أَن لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[2].

---

(١) اقرأ قصيدة حسان بن ثابت الأنصاري في مدح آل جفنة، يقول فيها:

لله در عصابة نادمتهم ... يوماً بجلق في الزمان الأول
يسقون من ورد البريص عليهم ... بردي يصفق بالرحيق السلسل

(٢) سورة التوبة ١١٧ - ١١٨.

نظرة على الغزوات:

وبغزوة تبوك التي كانت في رجب سنة تسع للهجرة انتهت الغزوات النبوية، التي بلغ عددها سبعاً وعشرين غزوة،[1] والبعوث والسرايا التي بلغ عددها ستين،[2] ولم يكن في كلها قتال.

وقد أريق في جميع هذه الغزوات والسرايا التي بعثها النبي ﷺ أقل دم عرف في تاريخ الحروب والغزوات، فلم تتجاوز القتلى كلها ١٠١٨ قتيلاً من الفريقين. وكانت حاقنة لدماء لا يعلم عددها إلا الله، عاصمة لنفوس وأغراض لا يحصيها إحصاء، باسطة الأمن في أرجاء الجزيرة حتى استطاعت الظعينة أن ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، ولا تخاف أحداً إلا الله[3]، والمرأة من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف[4] بعدما كانت الجزيرة كلها كفة حابل، وشبكة دقيقة من ترات وثارات، وحروب وغارات، لا تمشي فيها قوافل الحكومات الكبيرة إلا بخفارة ساهرة، وبذرقة ماهرة.

وكانت هذه الحروب مؤسسة على الأصلين القرآنيين الحكيمين: ﴿والفتنة أشد من القتل﴾ و ﴿لكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾، موفرة على النوع الإنساني والمجتمع البشري قدراً كبيراً من الوقت والجهد في تغيير الأحوال ودرء الأخطار، وكانت خاضعة لآداب خلقية وتعليمات رحيمة جعلتها أشبه بعملية التأديب، منها بعملية التعذيب.

---

(١) على تحقيق ابن القيم في «زاد المعاد». ومن رأي اللواء الركن محمود شيت خطاب وتحقيقه إن عددها يبلغ ثماني وعشرين (٢٨) غزوة (بحث تاريخ جيش النبي ﷺ).

(٢) كما حققها مؤلف السيرة الشهيرة القاضي محمد سليمان المنصور فوري في الجزء الثاني من كتابه:
«رحمة للعالمين»، وهو مبني على استقراء دقيق.

(٣) صحيح البخاري، باب «علامات النبوة».

(٤) سيرة ابن هشام، ق ٢، ص ٥٨١.

أما بالنسبة إلى نجاح العملية وسرعتها فقد استمر التوسع بنسبة ٢٧٤ ميلاً مربعاً في ظرف عشر سنوات ولم يخسر المسلمون فيها إلا بنسبة شخص واحد في الشهر، وكان أقصى خسائر العدو في النفوس ١٥٠ شخصاً فلما اكتملت السنوات العشر خضع أكثر من مليون ميل مربع للحكم الإسلامي[١].

وكان رسول الله ﷺ إذا ودع جيشاً، قال:

«أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيراً، اغزوا باسم الله، في سبيل الله، من كفر بالله، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا منعزلاً بصومعة، ولا تقربوا نخلاً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناءً»[٢].

قارن ذلك بقتلى الحربين العالميتين: الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨م والثانية ١٩٣٩ - ١٩٤٥م، فقد ذكر الكاتب المحقق في دائرة المعارف البريطانية في هذا الموضوع، أن عدد المقتولين في الحرب العالمية الأولى بلغ ستة ملايين وأربعمائة ألف نفس (٦,٤٠٠,٠٠٠)[٣] وعدد المقتولين في الحرب العالمية الثانية بين خمسة وثلاثين مليوناً وستين مليون نفس (بين ٣٥,٠٠٠,٠٠٠ و ٦٠,٠٠٠,٠٠٠)[٤].

ولم تخدم هاتان الحربان - كما يعلم الجميع - مصلحة إنسانية، ولم يستفد منها العالم البشري في قليل أو كثير.

---

(١) مستفاد من كتاب «حديث دفاع» للواء محمد أكبر خان ص ٢٧٢.
(٢) رواه الواقدي عن زيد بن أرقم في غزوة مؤتة.
(٣) ج ١٩، ص ٦٦٩.
(٤) ص ١٠١٣، (طبعة ١٩٧٤م).

وقد بلغ عدد ضحايا محاكم التفتيش في أوربا في القرون الوسطى، والاضطهاد الكنسي إلى اثني عشر مليونا (١٢,٠٠٠,٠٠٠) نفس[١].

أول حج في الإسلام:

وفرض الحج سنة تسع[٢]، وبعث رسول الله ﷺ، أبا بكر أميراً للحج هذه السنة، ليقيم للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم[٣] وخرج مع أبي بكر من أراد الحج من المسلمين في ثلاثمائة رجل من المدينة[٤].

ونزلت سورة براءة على رسول الله ﷺ فدعا علي بن أبي طالب، فقال له: اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن في الناس يوم النحر - إذا اجتمعوا بمنى - أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته، فخرج علي بن أبي طالب على ناقة رسول الله ﷺ العضباء، حتى أدرك أبا بكر بالطريق، قال: أمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج، حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ[٥].

---

(1) John Davenport: Apology For Muhammad and Quran.

(٢) ذهب بعض العلماء إلى أن فرض الحج كان في السنة السادسة من الهجرة، واختاره العلامة الشيخ محمد الخضري في «تاريخ التشريع الإسلامي» ص٥٢.

(٣) ابن هشام ق٢، ص٥٤٣.

(٤) زاد المعاد ج٢، ص٢٤.

(٥) ابن هشام ق٢، ص٥٤٣ - ٥٤٦.

عَامُ الوُفُود

سَنة تِسْع مِنَ الهجْرة

تقاطر الوفود إلى المدينة وأثرها في الحياة:

وبعد أن فتح الله مكة، وعاد نبيُّه من تبوك، سالماً غانماً، وكان قد كتب قبل ذلك إلى الملوك والأمراء، كتباً دعاهم فيها إلى الإسلام، فلقي من بعضهم الاستجابة الكريمة، ومن بعضهم رداً رقيقاً رفيقاً، ووقف بعضهم أمامها خاشعاً متردداً، وردها بعضهم رداً قبيحاً، وتلقاها بالاهانة والكبر، فلقي عقوبة عاجلة أطاحت ملكه ونفسه، وقد تسامع ذلك العرب كلهم وتحدثوا به.

وكان لفتح مكة - عاصمة الجزيرة الروحية والاجتماعية - ودخول رؤساء قريش في الإسلام، وسقوط أكبر حصن من حصون المقاومة أمام دين الله، أثر عميق في نفوس المترددين والمتربصين من العرب، فزال الحاجز بينهم وبين الإسلام، وطويت المسافة بينهم وبين قبوله.

قال العلامة محمد طاهر الفتني (٩٨٦هـ) في السير من كتابه «مجمع بحار الأنوار»:

«وهذه السنة[١] سنة الوفود، فإن العرب تربصوا بالإسلام أمر

---

(١) يعني سنة تسع ٩ للهجرة.

قريش، لأنهم إمام الناس، وأهل بيت الله، فلما دانوا، وفتح مكة، وأسلم ثقيف عرفوا أنه لا طاقة بهم، ووفدت الوفود من كل وجه يدخلون في دين الله أفواجاً»[١].

فكان لكل ذلك أثره الطبيعي في النفس، فتح الطريق للدخول في الإسلام ولقاء رسول الله ﷺ في المدينة، وتقاطرت وفود هداية واستطلاع إلى مركز الإسلام كأنها عقد انفرط، فتساقطت لآليه في حجر الإسلام.

وكانت تعود إلى مراكزها تحمل روحاً جديدة، وشحنة إيمانية، وحماساً في الدعوة إلى الإسلام، وكراهة شديدة للوثنية وآثارها، والجاهلية وشعائرها.

كان من هذه الوفود وفد بني تميم، فيه اشراف قومهم المشهورون، جرت مساجلة بين خطيبهم وشاعرهم، وبين خطيب المسلمين وشاعرهم، ظهر فيها فضل الإسلام وتفوق خطيبه وشاعره، أقر بذلك رؤساؤهم وأسلموا، وأجازهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم[٢].

وقدم وفد بني عامر، وقدم ضمام بن ثعلبة وافداً عن بني سعد بن بكر، ورجع إلى قومه داعياً، فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست «اللات» و«العزى»، قالوا: مه يا ضمام! اتق البرص، اتق الجذام، واتق الجنون، وقال: ويلكم! انهما والله لا يضران ولا ينفعان ان الله قد بعث رسولاً، ونزّل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، واني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم

---

(١) «مجمع بحار الأنوار» ج٥، ص٢٧٢.
(٢) سيرة ابن هشام ق٢، ص٥٦٠ - ٥٦٨.

من عنده، بما أمركم به وما نهاكم عنه، فما أمسى من ذلك اليوم في حيه رجل ولا امرأة إلا مسلماً[1].

وقدم وفد بني حنيفة، معهم مسيلمة الكذاب، وأسلم وارتد، وتنبى وتكذب لهم، وكان مثير فتنة الردة، وقتل فيها.

وقدم وفد بني طي، وفيهم زيد الخيل - الفارس المشهور - وسماه رسول الله ﷺ «زيد الخير» وحسن اسلامه.

وقدم عدي بن حاتم - ابن الجواد المشهور - وأسلم بعد ما رأى أخلاق رسول الله ﷺ وتواضعه، حتى قال: والله ما هذا بأمر ملك.

وقدم وفد من بني زبيد، وفيهم فارس العرب المشهور عمرو بن معد يكرب، ووفد كندة فيهم الأشعث بن قيس، ووفد من الأزد، ورسول ملوك حمير بكتابهم يخبرون فيه بإسلامهم.

وبعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل وأبا موسى إلى اليمن، للدعوة إلى الإسلام، وأوصاهما، وقال: يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفّرا[2].

وبعث فروة بن عمرو الجذامي إلى رسول الله ﷺ رسولاً بإسلامه، وكان عاملاً للروم على العرب في «معان» وما حولها من أرض الشام.

وأسلم بنو الحارث بن كعب بـ«نجران» على يد خالد بن الوليد، وأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام، وأقبل خالد ومعه وفد بني الحارث وعادوا إلى بلادهم، فبعث إليهم عمرو بن حزم ليفقههم في الدين، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم، وقدم وفد همدان[3].

---

(١) سيرة ابن هشام، ق٢، ص٥٧٤.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري (كتاب المغازي، باب «بعث معاذ وأبي موسى إلى اليمن»).

(٣) ابن هشام ق٢، ص٥٧٥ - ٥٩٦.

وبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة، فكسر «اللات»، ثم علا أعلى سورها وعلا الرجال معه، فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً، حتى سوّوها بالأرض، وأقبل الوفد حتى دخل على رسول الله ﷺ من يومه، وحمده[1].

وقدم وفد عبد القيس، ورحب بهم رسول الله ﷺ وأمرهم، ونهاهم عن الأوعية التي يسرع فيها الاسكار، سداً للذرائع، ولأنهم كانوا يكثرون منها[2].

وقدم وفد الأشعريين وأهل اليمن، وكانوا يرتجزون «غداً نلقى الأحبة: محمداً وحزبه»[3] وقال رسول الله ﷺ أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوباً، الإيمان يمان؛ والحكمة يمانية[4].

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أهل اليمن، يدعوهم إلى الإسلام في نفر من المسلمين، فأقاموا ستة أشهر، يدعوهم خالد إلى الإسلام، فلم يجيبوه، ثم بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمت همدان جميعاً، فكتب علي - رضي الله عنه - إلى رسول الله ﷺ يخبره بإسلامهم فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خرَّ ساجداً ثم رفع رأسه، وقال:

السلام على همدان، السلام على همدان[5].

---

(١) سيرة ابن كثير ج٤؛ ص٦٢ - ٦٣.

(٢) زاد المعاد؛ ج٢ ص٢٨، والحديث في الصحيحين عن ابن عباس.

(٣) زاد المعاد، ج٢، ص٣٢.

(٤) رواه البخاري في باب «قدوم الأشعريين وأهل اليمن» وفي رواية زيادة «الفقه يمان».

(٥) زاد المعاد، ج٢، ص٣٣، نقلا عن صحيح البخاري.

وقدم وفد مزينة في أربعمائة رجل، وقدم وفد نصارى نجران وهم ستون راكباً، منهم أربعة وعشرون رجلاً من أشرافهم، فيهم أبو حارثة - أسقفهم وحبرهم - وكانت ملوك الروم قد شرفوه، ومولوه وأخدموه، وبنوا له الكنائس، ونزلت فيهم آيات كثيرة من القرآن[1].

وكتب رسول الله ﷺ الى أهل نجران كتاباً، يدعو فيه إلى الإسلام، فلما قرأوه بعثوا وفداً إلى رسول الله ﷺ وسألهم وسألوه، ونزلت في جواب أسئلتهم آيات كثيرة من سورة آل عمران، وأراد رسول الله ﷺ أن يباهلهم، وأبى شرحبيل ذلك، وخاف، فلما كان من الغد أتوه، فكتب لهم كتاباً، وضرب عليهم الخراج[2]، وبعث معهم رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح، وقال: هذا أمين هذه الأمة[3].

وقدم وفد تجيب، وسر بهم رسول الله ﷺ وأكرم منزلهم وسألوا رسول الله ﷺ أشياء، فكتب لهم بها، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن فازداد بهم رسول الله ﷺ رغبة، وأمر بلالاً أن يحسن ضيافتهم، وأقاموا أياماً، ولم يطلبوا اللبث فقيل لهم: ما يعجلكم؟ قالوا: نرجع إلى من وراءنا، فنخبرهم برؤيتنا رسول الله ﷺ وكلامنا اياه، وما رد علينا، وانطلقوا راجعين، ثم وافوا رسول الله ﷺ في الموسم بـ «منى» سنة عشر[4].

وكان من ضمن الوفود وفد بني فزارة ووفد بني أسد، ووفد بهراء، ووفد عذرة، وأسلموا وبشرهم رسول الله ﷺ بفتح الشام ونهاهم

---

(١) اقرأ للتفصيل زاد المعاد ج٢، ص٣٥ - ٣٦.
(٢) المصدر السابق، ص٣٧.
(٣) ابن كثير ج٤، ص١٠٠ ورواه البخاري مختصراً في باب «قصة أهل نجران».
(٤) زاد المعاد، ج٢، ص٤٣.

عن سؤال الكاهنة، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها، وأخبرهم أن ليس عليهم إلا الأضحية، ووفد بلى، ووفد ذي مرة، ووفد خولان، وسألهم رسول الله ﷺ عن صنم لخولان[١]، الذي كانوا يعبدونه قالوا: أبشر، بدلنا الله به ما جئت به، وقد بقيت منا بقايا من شيخ كبير، وعجوز كبيرة، متمسكون به ولو قدمناه عليه لهدمناه ان شاء الله[٢]، ووفد محارب، ووفد غسان وغامد، ووفد النخع[٣].

وكانت الوفود تتعلم الإسلام، وتتفقه في الدين، ويشهدون أخلاق رسول الله ﷺ وعشرة أصحابه، وقد تضرب لهم خيم في فناء المسجد، فيسمعون القرآن، ويرون المسلمين يصلون، ويسألون رسول الله ﷺ عما يجول في خاطرهم في بساطة وصراحة، ويجيبهم رسول الله ﷺ في بلاغة وحكمة، ويستشهد بالقرآن، فيؤمنون، ويطمئنون.

بين وثني جاهل وبين نبي معلم:

وهذا حديث دار بين كنانة بن عبد ياليل وبين رسول الله ﷺ:

كنانة: أفرأيت الزنا، فانا قوم نعتزب، ولا بد لنا منه؟

رسول الله ﷺ: هو عليكم حرام، وان الله تعالى يقول: ﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَا، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً، وَسَاءَ سَبِيلاً﴾[٤].

كنانة: أفرأيت الربا فإنه أموالنا كلها؟.

رسول الله ﷺ: لكم رؤوس أموالكم، ان الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ، وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٥].

---

(١) نفس المصدر، ص٤٤ - ٤٧.
(٢) أيضا ص٤٧.
(٣) أيضاً، ص٤٧ - ٥٥.
(٤) سورة الإسراء، آية ٣٢.
(٥) سورة البقرة آية، ٢٧٨.

كنانة: أفرأيت الخمر فإنها عصير أرضنا لا بد لنا منها؟.

رسول الله ﷺ: ان الله قد حرمها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

كنانة: أفرأيت الربة، ما نصنع فيها؟

رسول الله ﷺ: اهدموها.

كنانة وقومه: لو تعلم الربة أنك تريد هدمها لقتلت أهلها، وهنا تدخل عمر بن الخطاب في الحديث، فقال: ويحك، يا ابن عبد ياليل، ما أجهلك! إنما الربة حجر.

كنانة وقومه: انا لم نأتك يا ابن الخطاب، وقال لرسول الله ﷺ: تول أنت هدمها، فأما نحن فانا لا نهدمها أبداً.

رسول الله ﷺ: سأبعث اليكم من يكفيكم هدمها، وأذن لهم رسول الله ﷺ في الرجوع، وأكرمهم وحياهم.

وقالوا: يا رسول الله! أمّر علينا رجلاً يؤمنا من قومنا، فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان أصغرهم سناً، لما رأى من حرصه على الإسلام، وكان قد تعلم سوراً من القرآن قبل أن يخرج[2].

وكان عام الوفود عام القضاء على نفوذ الوثنية وتصفية الوجود الوثني في جزيرة العرب.

---

(١) سورة المائدة آية، ٩٠.

(٢) زاد المعاد، ج٢، ص٢٥.

فرض الزكاة والصدقات:

وفي السنة التاسعة للهجرة[1] بعث رسول الله ﷺ امراءه وعماله على الصدقات إلى كل ما دخل فيه الإسلام من البلدان.

---

(١) المرجح أن فرض الزكاة كان في السنة الخامسة، قال الحافظ ابن حجر: «وما يدل على أن فرض الزكاة كان قبل التاسعة حديث النبي - ﷺ - في قصة ضمام بن ثعلبة، وكان قدوم ضمام سنة خمس، وأنّ الذي وقع في التاسعة هو بعث العمال لأخذ الصدقات وذلك يستدعي تقدم فرضية الزكاة قبل ذلك.

حجة الوداع

سنة عشر من الهجرة

حجة الوداع وأوانها:

ولما تم ما أراده الله، من تطهير نفوس الأمة، من شوائب الوثنية، وعادات الجاهلية، وإنارتها بنور الإيمان، واشعال مجامرها بالحب والحنان، وتم ما أراده الله، من تطهير بيته من الرجس والأوثان، وتاقت نفوس المسلمين الذين بعد عهدهم عن حج البيت، وطفحت كأس الحب والحنان، حتى فاضت ودنت ساعة الفراق، وألجأت الضرورة إلى وداع الأمة، آذن الله لنبيه في الحج، ولم يكن قد حج النبي ﷺ في الإسلام.

قيمتها البلاغية والتربوية:

فخرج من المدينة ليحج البيت، ويلقى المسلمين، ويعلمهم دينهم ومناسكهم، ويؤدي الشهادة، ويبلغ الأمانة، ويوصي الوصايا الأخيرة، ويأخذ من المسلمين العهد والميثاق، ويمحو آثار الجاهلية، ويطمسها ويضعها تحت قدميه، وكانت هذه الحجة تقوم مقام ألف خطبة وألف درس، وكانت مدرسة متنقلة ومسجداً سياراً، وثكنة جوالة، يتعلم فيها الجاهل وينتبه الغافل، وينشط فيها الكسلان، ويقوى فيها الضعيف، وكانت سحابة رحمة تغشاهم في الحل والترحال، وهي سحابة صحبة النبي ﷺ وحبه وعطفه، وتربيته واشرافه.

تسجيل دقائق حجة النبي:

وقد سجل الرواة العادلون من الصحابة كل دقيقة من دقائق هذه الرحلة، وكل حادث من حوادثها الصغيرة، تسجيلاً لا يوجد له نظير في رحلات الملوك والعظماء، والعلماء والنبغاء[١].

سياق حجته ﷺ اجمالياً:

ونحن نلخص[٢] هذه الحجة التي سميت بـ« حجة الوداع » و« حجة البلاغ » و« حجة التمام » وكانت كل ذلك أو أكثر، وحج معه أكثر من مائة ألف إنسان[٣].

كيف حج النبي ﷺ؟

عزم رسول الله ﷺ على الحج، وأعلم الناس أنه حاج، فتجهزوا وذلك في شهر ذي القعدة سنة عشر للخروج معه.

وسمع بذلك من حول المدينة، فقدموا يريدون الحج مع رسول الله ﷺ ووافاه في الطريق خلائق لا يحصون، فكانوا من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، مد البصر، وخرج من المدينة نهاراً بعد الظهر لخمس بقين من ذي القعدة يوم السبت، بعد أن صلى الظهر بها أربعاً، وخطبهم قبل ذلك خطبة علمهم فيها الاحرام وواجباته وسننه.

ثم سار وهو يلبي، ويقول: « لبيك، اللهم لبيك، لبيك، لا شريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك » والناس معه

---

(١) اقرأ كتاب « حجة الوداع وجزء عمرات النبي ﷺ » للعلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي وتقديمه بقلم كاتب هذه السطور (طبع بيروت).

(٢) اعتمدنا في هذا التلخيص على كتاب « زاد المعاد » النفيس؛ للعلامة ابن قيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١ هـ، وقد استوعب الموضوع رواية وتاريخاً وفقهاً.

(٣) روى عددهم من مائة وأربعة عشر ألفاً إلى مائة وثلاثين ألفاً.

يزيدون وينقصون، وهو يقرهم، ولا ينكر عليهم، ولزم تلبيته، ثم سار حتى نزل بـ «العرج» وكانت زاملته وزاملة أبي بكر واحدة.

ثم مضى حتى أتى «الأبواء» فوادي «عسفان» في «سرف»، ثم نهض إلى أن نزل بـ «ذي طوى» فبات بها ليلة الأحد، لأربع خلون من ذي الحجة، وصلى بها الصبح، ثم اغتسل من يومه، ونهض إلى مكة، فدخلها نهاراً من أعلاها، ثم سار، حتى دخل المسجد، وذلك ضحى، فلما نظر إلى البيت أن قال: «اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة» ويرفع يديه ويكبر، ويقول: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، حيِّنا ربنا بالسلام.

ولما دخل المسجد عمد إلى البيت، فلما حاذى الحجر الأسود، استلمه، ولم يزاحم عليه، ثم أخذ عن يمينه، وجعل البيت عن يساره، ورمل في طوافه هذا ثلاثة الأشواط الأول.

وكان يسرع في مشيه، ويقارب بين خطاه، واضطبع بردائه، فجعله على أحد كتفيه، وأبدى كتفه الآخر ومنكبه، وكلما حاذى الحجر الأسود، أشار اليه، واستلمه بمحجنه، فلما فرغ من طوافه، جاء الى خلف المقام، فقرأ ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1] فصلى ركعتين، فلما فرغ من صلاته، أقبل الى الحجر الأسود فاستلمه، ثم خرج إلى الصفا من الباب الذي يقابله، فلما قرب منه قرأ «ان الصفا والمروة من شعائر الله»، أبدأ بما بدأ الله به، ثم رقي عليه، حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة، فوحد الله وكبره، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

---

(١) سورة البقرة، آية ١٢٥.

وأقام بمكة أربعة أيام: يوم الأحد، والاثنين، والثلاثاء والأربعاء، فلما كان يوم الخميس ضحى، توجه بمن معه من المسلمين إلى منى نزل بها، وصلى بها الظهر والعصر، وبات بها، وكان ليلة الجمعة، فلما طلعت الشمس، سار منها إلى عرفة، ووجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها، حتى إذا زالت الشمس، أمر بناقته القصواء، فرحلت، ثم سار، حتى أتى بطن الوادي من أرض عرفة فخطب الناس وهو على راحلته، خطبة عظيمة قرر فيها قواعد الإسلام، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية، وقرر فيها تحريم المحرمات التي اتفقت الملل على تحريمها، وهي الدماء والأموال والأعراض، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه، ووضع ربا الجاهلية كله، وأبطله، وأوصاهم بالنساء خيراً، وذكر الحق الذي لهن وعليهن، وأن الواجب لهن الرزق والكسوة بالمعروف.

وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله، وأخبر أنهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به، ثم أخبر أنهم مسئولون عنه، واستنطقهم بماذا يقولون وبماذا يشهدون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فرفع اصبعه إلى السماء واستشهد الله عليهم ثلاث مرات، وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم، فلما أتم الخطبة، أمر بلالاً، فأذن ثم أقام الصلاة، فصلى الظهر ركعتين، ثم أقام فصلى العصر ركعتين أيضاً، وكان يوم الجمعة.

فلما فرغ من صلاته ركب حتى أتى الموقف، فوقف وكان على بعيره، فأخذ في الدعاء والتضرع والابتهال إلى غروب الشمس، وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره، كاستطعام المسكين، يقول فيهم: «اللهم! إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، لا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، والوجل المشفق، المقر المعترف بذنوبي، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل اليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته وفاضت

لك عيناه، وذل جسده، ورغم أنفه لك، اللهم! لا تجعلني بدعائك رب شقياً، وكن لي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسئولين، ويا خير المعطين!».

وهنالك أنزلت عليه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً﴾[1]، فلما غربت الشمس، أفاض من عرفة، وأردف أسامة بن زيد خلفه، وأفاض بالسكينة ضم اليه زمام ناقته، حتى أن رأسها ليصيب طرف رحله، وهو يقول: أيها الناس عليكم السكينة، وكان يلبي في مسيره ذلك، لا يقطع التلبية حتى أتى المزدلفة، وأمر المؤذن بالأذان فأذن، ثم أقام، فصلى المغرب قبل حط الرحال وتبريك الجمال، فلما حطوا رحالهم، أمر، فأقيمت الصلاة ثم صلى العشاء، ثم نام، حتى أصبح.

فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت، ثم ركب حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، وأخذ في الدعاء والتضرع، والتكبير والتهليل والذكر، حتى أسفر جداً، وذلك قبل طلوع الشمس، ثم سار من مزدلفة، مردفاً للفضل بن عباس، وهو يلبي في مسيره، وأمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات، فلما أتى بطن محسر، حرك ناقته، وأسرع السير، فإن هنالك أصاب أصحاب الفيل العذاب، حتى أتى منى، فأتى جمرة العقبة، فرماها راكباً بعد طلوع الشمس، وقطع التلبية.

ثم رجع إلى منى، فخطب الناس خطبة بليغة، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه، وفضله عند الله، وحرمة مكة على جميع البلاد، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه، وأمر الناس ألا يرجعوا بعده كفاراً، يضرب بعضهم رقاب بعض،

---

(١) سورة المائدة، آية ٣.

وأمر بالتبليغ عنه، وقال في خطبته تلك:

«اعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم»، وودع الناس حينئذ فقالوا؟ «حجة الوداع».

ثم انصرف إلى المنحر بمنى، فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سنين عمره، ثم أمسك وأمر علياً أن ينحر ما بقي من المائة، فلما أكمل صلى الله عليه وآله وسلم نحره استدعى بالحلاق، فحلق رأسه، وقسم شعره بين من يليه، ثم أفاض إلى مكة راكباً، وطاف طواف الافاضة، وهو طواف الزيارة، ثم أتى زمزم، فشرب وهو قائم، ثم رجع إلى منى من يومه ذلك، فبات بها، فلما أصبح انتظر زوال الشمس، فلما زالت مشى من رحله إلى الجمار، فبدأ بالجمرة الأولى، ثم الوسطى، ثم الجمرة الثالثة، وهي جمرة العقبة، وخطب الناس بمنى خطبتين: خطبة يوم النحر، وقد تقدمت، والخطبة الثانية في ثاني يوم النحر.

وتأخر حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة، ثم نهض إلى مكة، فطاف للوداع ليلاً سحراً، وأمر الناس بالرحيل، وتوجه إلى المدينة[١].

ولما وصل إلى غدير خم[٢]، خطب صلى الله عليه وسلم وذكر فيها فضل علي - رضي الله عنه - وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم! وال من والاه وعاد من عاداه»[٣].

---

(١) ملخصاً من «زاد المعاد» ومقتبساً منه ج ١، ص ١٨٠ - ٢٤٩، بحذف المباحث التي توسع فيها المؤلف وأفاض، ومواضع الخلاف بين الفقهاء والمحدثين.

(٢) غدير بين مكة والمدينة، بينه وبين الجحفة ميلان.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير، ج ٤، ص ٤١٥ - ٤١٦. نقلا عن الإمام أحمد والنسائي، وسبب ذلك أن بعض الناس كانوا قد اشتكوا علياً وعتبوا عليه. وتكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن بسبب ما كان صدر منه اليهم من المعدلة التي ظنها بعضهم جوراً، وتضييقاً وبخلا؛ والصواب كان مع علي في ذلك (ابن كثير، ج ٤، ص ٤١٤).

فلما أتى « ذا الحليفة » بات بها ، فلما رأى المدينة ، كبر ثلاث مرات ، وقال: لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، آيبون تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم دخلها نهاراً[1]

خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع:

ونذكر هنا نص الخطبة التي خطبها رسول الله ﷺ يوم عرفة ونص الخطبة التي خطبها في أوسط أيام التشريق ، للموعظة البليغة ، والفوائد الكثيرة التي تشتملان عليها هاتان الخطبتان العظيمتان.

فقال في خطبة عرفة:

« ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وأن أول دم أضعه من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع من ربانا ربا العباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله ، فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ،ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ان اعتصمتم به كتاب الله ، وأنتم تسألون عني ، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال باصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكبها إلى الناس: اللهم أشهد ثلاث مرات »[2].

وهذا نص الخطبة التي - خطبها - صلى الله عليه وسلم في أوسط

(١) زاد المعاد ج١ ؛ ص٢٤٩.

(٢) رواه مسلم وأبو داود وغيرهما عن جابر ، ورواه مسلم في صحيحه عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جابر.

أيام التشريق:

«يا أيها الناس! هل تدرون في أي شهر أنتم وفي أي يوم أنتم وفي أي بلد أنتم؟ فقالوا: في يوم حرام، وبلد حرام، وشهر حرام، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، وفي بلدكم هذا، إلى يوم تلقونه، ثم قال: اسمعوا مني تعيشوا، ألا! لا تظلموا، ألا! لا تظلموا، ألا! لا تظلموا، إنه لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه، ألا! وأن كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه، إلى يوم القيامة وأن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل، ألا! وأن كل ربا في الجاهلية موضوع، وأن الله عز وجل قضى أن أول ربا يوضع ربا العباس بن عبد المطلب، لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون، ألا! وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض، ثم قرأ« إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض، منها أربعة حرم، ذلك الدين القيم، فلا تظلموا فيهن أنفسكم » ألا! لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا! ان الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون، ولكنه في التحريش بينكم، واتقوا الله في النساء، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وأن لهن عليكم حقاً، ولكم عليهن حقاً ألا يوطئن فرشكم أحداً غيركم، ولا يأذن في بيوتكم لأحد تكرهونه، فإن خفتم نشوزهن، فعظوهن، واهجروهن في المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله عز وجل، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وبسط يديه، وقال: ألا! هل بلغت؟! ألا! هل بلغت، ثم قال: ليبلغ الشاهد الغائب، فإنه رب مبلغ أسعد من سامع»[١].

---

(١) رواه الإمام أحمد عن أبي حرة الرقاشي عن عمه.

الوفاة

ربيع الأول السنة الحادية عشرة للهجرة

كمال مهمة التبليغ والتشريع ودنو ساعة اللقاء:

ولما بلغ هذا الدين ذروة الكمال، ونزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً﴾[1].

وبلغ رسول الله ﷺ الرسالة، وأدى الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده، وربى أمة تقلدت مهام النبوة ومسؤولياتها، من غير نبوة، وكلفت النهوض بالدعوة، وصيانة الدين من التحريف، فقال الله تعالى:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[2].

وضمن الله لهذا القرآن الذي هو أساس هذا الدين، ومصدر الإيمان واليقين، بالبقاء والنقاء، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة، آية ٣.

(٢) سورة آل عمران، آية ١١١.

(٣) سورة الحجر آية ٩.

وأقر الله عين نبيه بدخول الناس في هذا الدين أفواجاً، وبدت طلائع انتشاره في العالم، وظهوره على الأديان كلها.

فقال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ، وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أفواجاً، فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[١].

مدارسة القرآن ومضاعفة اعتكاف رمضان:

وكان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين[٢].

وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، ولكنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك العام: «انه عارضني المرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي»[٣].

أذن الله لنبيه باللقاء الذي لم يكن أحد أشد شوقاً له منه، وقد أحب الله لقاءه كما هو أحب لقاءه.

وقد هيأ الله الصحابة - رضي الله عنهم - الذين لم يكن أحد أشد حباً له منهم، لسماع نبأ وفاته، واحتمال فراقه الذي لم يكن بد منه، مهما تأخرت ساعة الفراق، ففوجئوا بنبأ شهادته في معركة أحد، ثم تحقق أنه كان ارجافاً من الشيطان، وأن الله ممتعهم بحياة نبيهم إلى حين، ولكن لا بد من وقوع هذا الحادث، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً، وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[٤].

---

(١) سورة النصر، الآيات - ١ - ٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الاعتكاف، باب «الاعتكاف في العشر الأوسط من رمضان».

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب «علامات النبوة».

(٤) سورة آل عمران آية ١٤٤.

فكان المسلمون - الذين أحسن رسول الله ﷺ تربيتهم، وربط قلوبهم بالله تعالى، وشغلهم بتبليغ رسالة الإسلام إلى أقصى الحدود وأبعد الأمم، وإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده - على يقين بأن رسول الله ﷺ مودعهم في يوم من الأيام، ومفارق لهذا العالم الفاني، وراجع إلى ربه، ليجزيه الجزاء الأوفى، فلما نزلت ﴿إذا جاء نصرُ اللهِ والفتحِ﴾ فهم منها الصحابة أنه إيذان بدنو ساعة الفراق، فقد تمت المهمة، وجاء نصر الله والفتح[١].

وقد استشعر كبار الصحابة وفاته حين نزلت الآية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾[٢].

الشوق إلى لقاء الله وتوديع الدنيا:

وقد ظهر من رسول الله ﷺ بعدما عاد من حجة الوداع التي أشار فيها إلى دنو أجله[٣]، ما يدل على التأهب للسفر، واللحوق بالرفيق الأعلى، فصلى على قتلى أحد، كأنه مودع أصحابه عن قريب - بعد ثماني سنين - كالمودع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر، فقال: «اني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وأن موعدكم الحوض، واني لأنظر إليه من مقامي هذا واني قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض، واني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم»[٤].

---

(١) يقول ابن عباس: «هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له»؛ وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس، قال: لما نزلت ﴿إذا نصر الله والفتح﴾ قال رسول الله ﷺ: «نعيت إلى نفسي» راجع تفسير ابن كثير.

(٢) راجع ابن كثير، ج ٤؛ ص٤٢٧.

(٣) روى مسلم في صحيحه عن جابر أن رسول الله ﷺ، وقف عند جمرة العقبة وقال لنا: «خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا».

(٤) حديث متفق عليه.

شكوى رسول الله ﷺ:

وقد ابتدأ شكوى رسول الله ﷺ في آخر شهر صفر[١] سنة ١١ للهجرة، وكان مبدأ ذلك أنه صلى الله عليه وسلم خرج إلى «بقيع الغرقد» من جوف الليل، فاستغفر لهم، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح ابتدىء بوجعه من يومه ذلك[٢].

قالت عائشة - أم المؤمنين رضي الله عنها - رجع رسول الله ﷺ من البقيع فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي، وأنا أقول: وا رأساه، فقال: بل أنا، والله يا عائشة وا رأساه[٣]، واشتد به وجعه، وهو في بيت ميمونة - رضي الله عنها - فدعا نساءه، فاستأذنهن في أن يمرّض في بيت عائشة، فأذنَّ له، وخرج يمشي بين رجلين من أهله، أحدهما الفضل بن عباس، والآخر علي بن أبي طالب، عاصباً رأسه، تخط قدماه، حتى دخل بيت عائشة رضي الله عنها[٤].

تقول عائشة - رضي الله عنها - وكان يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة! ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بـ«خيبر» فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري[٥] من ذلك السم[٦].

---

(١) على القول الراجح وتتبع الأحاديث، والمرجح أنه كان يوم الإثنين.

(٢) سيرة ابن هشام ق٢؛ ص٦٤٢، وابن كثير ج٤ ص٤٤٣.

(٣) ابن هشام ق٢، ص٦٣٣.

(٤) صحيح البخاري (باب مرض النبي ﷺ ووفاته).

(٥) أبهر: عرق مستبطن بالصلب يتصل بالقلب فاذا انقطع مات صاحبه.

(٦) رواه البخاري معلقاً باب «مرض النبي ﷺ ووفاته» أسنده الحافظ البيهقي عن الحاكم عن الزهري به (راجع ابن كثير؛ ج٤ ص٤٤٩).

آخر البعوث:

وبعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء و«الداروم»[1] من أرض فلسطين.

وانتدب كثير من الكبار من المهاجرين والأنصار في جيشه، كان من أكبرهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بعثه رسول الله ﷺ واشتد به المرض، وجيش أسامة مخيم بـ«الجرف»[2] وأنفذ أبو بكر جيش أسامة بعد وفاة الرسول ﷺ تحقيقاً لرغبته واكمالاً لمراده.

الاهتمام ببعث أسامة:

واستبطأ رسول الله ﷺ الناس في بعث أسامة بن زيد وهو في وجعه، فخرج عاصباً رأسه، حتى جلس على المنبر، وقد كان الناس قالوا: في إمرة أسامة أمر غلاماً حدثاً على جلة المهاجرين والأنصار، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له، ثم قال: أيها الناس أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وانه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقاً لها، ثم نزل رسول الله ﷺ وأسرع الناس في جهازهم، وثقل برسول الله ﷺ وجعه، خرج أسامة بجيشه حتى نزلوا «الجرف» من المدينة على فرسخ فضرب به عسكره، حتى تتام إليه الناس.

وثقل رسول الله ﷺ فأقام أسامة والناس ينظرون ما الله قاض في رسول الله ﷺ[3].

---

(١) ابن هشام ق٢، ص٦٤٢.

(٢) ابن كثير ج ٤ ص ٤٤١.

(٣) سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٦٥٠، ورواه البخاري في كتاب المغازي باب «غزوة زيد بن حارثة» وفيه: «أن تطعنوا في إمارته فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله؛ وأيم الله لقد كان خليقاً للإمارة، وإن كان من أحب الناس إليّ وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده».

وأوصى المسلمين في مرضه أن يجيزوا الوفد بنحو مما كان يجيزهم وألا يتركوا في جزيرة العرب دينين، قال: «أخرجوا منها المشركين»[١].

دعاء للمسلمين وتحذير لهم عن العلو والكبرياء:

وفي يوم من أيام شكواه اجتمع نفر من المسلمين في بيت عائشة، فرحب بهم رسول الله ﷺ وحياهم، ودعا لهم بالهدى والنصر والتوفيق، وقال: أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم، وأستخلفه عليكم، إني لكم منه نذير مبين ألا تعلو على الله في عباده وبلاده، فإن الله قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢]، وقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[٣].

زهد في الدنيا وكراهة لما فضل من المال:

قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة ما فعلت الذهب؟»، فجاءت ما بين الخمسة إلى السبعة أو الثمانية أو التسعة، فجعل يقلبها بيده، ويقول: «ما ظن محمد بالله عز وجل، لو لقيه، وهذه عنده، أنفقيها»[٤].

---

(١) راجع صحيح البخاري باب «مرض النبي ﷺ ووفاته».

(٢) سورة القصص، آية ٨٣.

(٣) سورة الزمر، آية ٦٠.

(٤) مسند الإمام أحمد: ج ٦ ص ٤٩.

اهتمام بالصلاة وإمامة أبي بكر:

وثقل برسول الله ﷺ وجعه، فقال: أصلى الناس؟، قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله! فقال: ضعوا لي ماء في المخضب، ففعلوا، فاغتسل ثم ذهب لينوء، فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: أصلى الناس؟ قالوا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله! والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء، فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس، وكان أبو بكر رجلاً رقيقاً، فقال: يا عمر صلّ بالناس، فقال: أنت أحق بذلك مني، فصلى بهم تلك الأيام.

ثم أن رسول الله ﷺ وجد خفة، فخرج بين رجلين، أحدهما العباس، والآخر علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - لصلاة الظهر، فلما رآه أبو بكر، ذهب ليتأخر فأومأ إليه ألا يتأخر، وأمرهما، فأجلساه إلى جنبه فجعل أبو بكر يصلي قائماً، ورسول الله ﷺ يصلي قاعداً.

وعن أم الفضل بنت الحارث، قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً، ثم ما صلى لنا بعدها، حتى قبضه الله»[١].

خطبة الوداع:

وكان فيما تكلم[٢] به رسول الله ﷺ وهو جالس على المنبر، عاصباً

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، في باب «مرض النبي ﷺ ووفاته».

(٢) يدل التتبع للأحاديث أنها كانت الخطبة الأخيرة، وقد ذهب الحافظ ابن حجر إلى أنها كانت يوم الخميس قبل الوفاة بخمسة أيام، والمرجح أن هذه الصلاة كانت صلاة الظهر؛ وكل ما روي من خطب مختلفة في فضل أبي بكر رضي الله عنه، وسد الأبواب النافذة في المسجد إلا خوخة أبي بكر، وفضل الأنصار والوصية لهم، قطع من هذه الخطبة؛ رواها الصحابة مفردة، وكانت هذه الصلاة، الصلاة الأخيرة التي صلاها النبي ﷺ جماعة وهو إمام، ولم يحضر صلاة المسلمين في المسجد بعد هذه الصلاة، وبذلك تجمع الأقوال والروايات المختلفة (مستفاد من «أصح السير» للشيخ عبد الرؤوف الدانا بوري رحمه الله).

رأسه: «إن عبداً من عباد الله، خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله» وفهم أبو بكر معنى هذه الكلمة، وعرف أن رسول الله ﷺ يعني نفسه، فبكى، وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا.

فقال: على رسلك يا أبا بكر! إنه ليس من الناس أحد أمنَّ عليّ في نفسه وماله من أبي بكر، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خلة الإسلام أفضل[1].

وقال: سدوا عني كل خوخة[2] في المسجد، غير خوخة أبي بكر[3].

وصية للأنصار:

وكان أبو بكر والعباس - رضي الله عنهما - مرا بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا وأخبر النبي ﷺ بذلك، فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد، فصعد المنبر[4] ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله، ثم أثنى عليه، ثم قال:

«أوصيكم بالأنصار فإنهم كرشي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم»[5].

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في الصلاة).

(٢) الباب الصغير.

(٣) صحيح البخاري (كتاب الصلاة؛ باب الخوخة والممر في الصلاة).

(٤) المرجح أنه كانت هذه الخطبة الأخيرة يوم الخميس بعد صلاة الظهر لأن راوي الحديث وهو أنس بن مالك قال: «صعد المنبر، ولم يصعده بعد ذلك اليوم؛ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له».

(٥) صحيح البخاري (فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: «اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم»).

آخر نظرة إلى المسلمين وهم صفوف في الصلاة:

وكان أبو بكر يصلي بالمسلمين، حتى إذا كان يوم الإثنين، وهم صفوف في صلاة الفجر، كشف النبي ﷺ ستر الحجرة، ينظر إلى المسلمين، وهم وقوف أمام ربهم، ورأى كيف أثمر غرس دعوته وجهاده، وكيف نشأت أمة تحافظ على الصلاة، وتواظب عليها بحضرة نبيّها وغيبته، وقد قرت عينه بهذا المنظر البهيج، وبهذا النجاح الذي لم يقدر لنبي أو داع قبله، واطمأن إلى أن صلة هذه الأمة بهذا الدين وعبادة الله تعالى، صلة دائمة، لا تقطعها وفاة نبيها، فملىء من السرور ما الله به عليم، واستنار وجهه وهو منير، يقول الصحابة - رضي الله عنهم -:

«كشف النبي ﷺ ستر حجرة عائشة، ينظر إلينا وهو قائم، كأن وجهه ورقة مصحف، ثم تبسم يضحك، فهممنا أن نفتتن من الفرح، وظننا أن النبي ﷺ خارج إلى الصلاة، فأشار إلينا أن أتموا صلاتكم، وأرخى الستر وتوفي من يومه صلى الله عليه وسلم[1].

تحذير من عبادة القبور واتخاذها مساجد:

كان آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: «قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقين دينان على أرض العرب»[2].

تقول عائشة وابن عباس - رضي الله عنهما - لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة[3] له على وجهه، فإذا اغتم كشفها

---

(١) رواه البخاري (باب «مرض النبي ﷺ ووفاته»).
(٢) رواه الإمام مالك في الموطأ، ابن كثير، ج ٤، ص ٤٧١.
(٣) الخميصة: كساء أسود، مربع له علمان.

عن وجهه، فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا من قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا[١].

الوصية الأخيرة:

كانت عامة وصية رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة «الصلاة وما ملكت أيمانكم» حتى جعل يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه[٢].

يقول علي - رضي الله عنه -: أوصى رسول الله ﷺ بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم[٣].

وتقول عائشة - رضي الله عنها -: ذهبت أعوده، فرفع بصره إلى السماء وقال: في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى.

ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر، وبيده جريدة رطبة، فنظر إليها، فظننت أن له بها حاجة قالت: فأخذتها، فنفضتها، فدفعتها إليه، فاستن بها أحسن ما كان مستناً، ثم ذهب يناولنيها فسقطت من يده[٤].

قالت: وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل يدخل يده في الماء، فيمسح بها وجهه ثم يقول: لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات، ثم نصب أصبعه اليسرى، وجعل يقول: في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى، حتى قبض ومالت يده في الماء[٥].

---

(١) رواه البخاري (باب «مرض النبي ﷺ ووفاته»).
(٢) رواه البيهقي وأحمد (ابن كثير؛ السيرة النبوية، ج ٤، ص ٤٧٣).
(٣) رواه الإمام أحمد (ابن كثير، ج ٤؛ ص ٤٧٣).
(٤) سيرة ابن كثير، ج ٤ ص ٤٧٤ - ٤٧٥ والرواية في البخاري (باب مرض النبي ﷺ ووفاته).
(٥) رواه البخاري (باب مرض النبي ﷺ ووفاته).

وقالت: نزل برسول الله ﷺ ورأسه على فخذي، غشي عليه ساعة، ثم أفاق فأشخص بصره إلى سقف البيت، وقال: اللهم الرفيق الأعلى، وكانت آخر كلمة تكلم بها رسول الله ﷺ[1].

كيف فارق رسول الله ﷺ الدنيا:

فارق رسول الله ﷺ الدنيا، وهو يحكم جزيرة العرب، ويرهبه ملوك الدنيا، ويفديه أصحابه بنفوسهم وأولادهم وأموالهم، وما ترك عند موته ديناراً ولا درهماً، ولا عبداً ولا أمة، ولا شيئاً، إلا بغلته البيضاء، وسلاحه وأرضاً جعلها صدقة[2].

وتوفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً[3] من شعير، ما وجد ما يفك به، حتى مات صلى الله عليه وسلم[4].

وأعتق رسول الله ﷺ في مرضه هذا أربعين نفساً، وكانت عنده سبعة دنانير أو ستة، فأمر عائشة - رضي الله عنها - أن تتصدق بها[5].

تقول عائشة - أم المؤمنين رضي الله عنها -: توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال عليّ فكلته ففنى[6].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أيضاً.

(٤) رواه البيهقي، ص ٥٦٢.

(٥) «السيرة الحلبية» ج ٣، ص ٣٨١.

(٦) متفق عليه (البخاري، كتاب الرقاق، باب الفقر) ومسلم، كتاب الزهد.

وكان ذلك يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول، سنة ١١ للهجرة بعد الزوال[١]، وله صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون[٢]، وكان أشد الأيام سواداً ووحشة ومصاباً على المسلمين، ومحنة للإنسانية، كما كان يوم ولادته أسعد يوم طلعت فيه الشمس.

يقول أنس وأبو سعيد الخدري - رضي الله عنهما -: كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة اضاء منها كل شيء فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء، وبكت أم أيمن، فقيل لها ما يبكيك على النبي ﷺ قالت: اني قد علمت أن رسول الله ﷺ سيموت ولكن إنما أبكي على الوحي الذي رفع عنا[٣].

كيف تلقى الصحابة نبأ الوفاة؟

ونزل وفاة رسول الله ﷺ على الصحابة كالصاعقة، لشدة حبهم له، وما تعودوه من العيش في كنفه، عيش الأبناء في حجر الآباء، بل أكثر من ذلك قد قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٤].

وقد كان كل واحد منهم يحسب أنه أكرم عليه وأحب لديه من صاحبه، ولم يكد بعضهم يصدق بنبأ وفاته، وكان في مقدمتهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فأنكر على من قال: مات رسول الله ﷺ

---

(١) وقد جاء في بعض الروايات وقت الضحى أو الضحوة كما جاء في الاستيعاب ص ٤٧ ج ١.
(٢) على أرجح الأقوال.
(٣) «السيرة النبوية» لابن كثير؛ ج ٤؛ ص ٥٥٤ - ٥٤٦.
(٤) سورة التوبة آية ١٢٨.

وخرج إلى المسجد وخطب الناس، وقال: إن رسول الله ﷺ لا يموت حتى يفني الله المنافقين[1].

موقف أبي بكر الحاسم:

وكان أبو بكر - رضي الله عنه - وهو الذي هيأه الله لخلافة النبوة والوقوف موقف العزيمة والحكمة - رجل الساعة المطلوب والجبل الراسي الذي لا يحول ولا يزول، فأقبل من منزله حين بلغه الخبر، حتى نزل على باب المسجد، وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شيء، حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة وهو مسجى[2]، فكشف عن وجهه، ثم أقبل عليه، فقبَّله، ثم قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً، ورد البرد على وجهه صلى الله عليه وسلم.

ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: على رسلك يا عمر! وأنصت، فأبى إلا أن يتكلم، فلما رآه أبو بكر لا ينصت، أقبل على الناس، فلما سمعوا كلامه أقبلوا عليه، وتركوا عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أيها الناس! إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ، قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾[3].

---

(١) سيرة ابن كثير ج ٤، ص ٤٧٩.

(٢) مغطى ببرد.

(٣) سورة آل عمران، آية ١٤٤.

يقول من شهد هذا الموقف: والله كأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ، وأخذها الناس عن أبي بكر، فإنما هي في أفواههم، ويقول عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت[1] حتى وقعت إلى الأرض، ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات[2].

بيعة أبي بكر بالخلافة:

وبايع المسلمون أبا بكر بالخلافة، في سقيفة بني ساعدة، حتى لا يجد الشيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم، وتمزيق شملهم، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم، وليفارق رسول الله ﷺ هذه الدنيا وكلمة المسلمين واحدة، وشملهم منتظم، وعليهم أمير يتولى أمورهم، ومنها تجهيز رسول الله ﷺ ودفنه.

كيف ودع المسلمون رسولهم وصلوا عليه؟

وهدأ الناس، وانجلى عنهم ما كانوا فيه من حيرة وغمرة، وتشاغلوا بما علمهم رسولهم من عملهم لمن فارق الدنيا.

ولما فرغ من غسله وتكفينه صلى الله عليه وسلم وقد تولى ذلك أهل بيته، وضع سريره في بيته، وحدثهم أبو بكر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ما قبض نبي إلا دفن حيث قبض، فرفع فراش رسول الله ﷺ الذي توفي فيه وحفر له تحته، وتولى ذلك أبو طلحة الأنصاري.

---

(١) تحيرت ودهشت.
(٢) سيرة ابن هشام، ق ٢ ص ٦٥٥ - ٦٥٦ ورواه البخاري مطولا في باب «مرض النبي ﷺ ووفاته».

ثم دخلوا يصلون عليه أرسالاً، دخل الرجال حتى إذا فرغوا، أدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء، أدخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد[١].

وكان ذلك يوم الثلاثاء[٢].

وكان يوماً حزيناً في المدينة، وأذن بلال بالفجر، فلما ذكر النبي ﷺ بكى وانتحب، فزاد المسلمين حزناً، وقد اعتادوا أن يسمعوا هذا الأذان ورسول الله ﷺ فيهم، تقول أم سلمة - أم المؤمنين - يا لها من مصيبة، ما أصابنا بعدها بمصيبة إلا هانت، إذا ذكرنا مصيبتنا به صلى الله عليه وسلم[٣] وقد قال النبي ﷺ بنفسه: يا أيها الناس أيما أحد من الناس (أو من المؤمنين) أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بي، عن المصيبة التي تصيبه بغيره، فإن أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشد عليه من مصيبتي[٤].

وقالت فاطمة - رضي الله عنها - حين دفن النبي ﷺ: يا أنس أطابت أنفسكم، أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب[٥]، ولكن مع تعلقهم به لم ينح عليه، فقد نهى عن النياحة أشد النهي.

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٦٦٣.
(٢) طبقات ابن سعد، نقلا عن السيرة النبوية لابن كثير؛ ج ٤؛ ص ٥٠٧، رواية عن الأوزاعي وابن جريج وأبي جعفر.
(٣) السيرة النبوية لابن كثير ج ٤، ص ٥٣٨ - ٥٣٩.
(٤) نفس المصدر ج ٤ ص ٥٤٩، نقلا عن ابن ماجه.
(٥) صحيح البخاري (باب مرض النبي ﷺ ووفاته).

أزواجه أمهات المؤمنين وأولاده وأسباطه ﷺ

أولاهن خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية - رضي الله عنها - تزوجها قبل النبوة ولها أربعون سنة، وهي التي وازرته على النبوة وجاهدت معه، وواسته بنفسها ومالها، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، وجميع أولاده صلى الله عليه وسلم (غير سيدنا ابراهيم) منها، وكان دائم الذكر لها، والاعتراف بفضلها، وربما إذا ذبح الشاة يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة - رضي الله عنها -[١].

ثم تزوج بعد موتها بأيام سودة بنت زمعة القرشية، ثم تزوج بعدها عائشة الصديقة حبيبة رسول الله ﷺ وهي أفقه نساء الأمة وأعلمهن، وكان الأكابر من أصحاب النبي ﷺ يرجعون إلى قولها، ويستفتونها، ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ثم تزوج زينت بنت خزيمة، وتوفيت عنده بعد شهرين، ثم تزوج أم سلمة هند بنت أبي أمية حذيفة بن المغيرة القرشية المخزومية وهي آخر نسائه موتاً، ثم تزوج زينب بنت جحش وهي ابنة عمته أميمة، وتزوج جويرية بنت الحارث

---

(١) متفق عليه، ومما جاء في رواية عائشة فيها: «ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة، وما رأيتها قط».

ابن أبي ضرار المصطلقية، ثم أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب، ثم صفية بنت حيي بن أخطب سيد بني النضير ومن ولد هارون بن عمران أخي نبي الله موسى، ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية، وهي آخر من تزوج بها.

ولا خلاف أنه صلى الله عليه وسلم توفي عن تسع زوجات وهن من ذكرنا، غير خديجة وزينب بنت خزيمة، فقد توفيتا في حياته صلى الله عليه وسلم وكلهن ثيبات غير عائشة[١].

وتوفي عن سريتين: مارية بنت شمعون القبطية المصرية أهداها اليه صلى الله عليه وسلم المقوقس عظيم مصر، وهي أم ولده ابراهيم - عليه السلام - وريحانة بنت زيد من بني النضير[٢] أسلمت فأعتقها ثم تزوجها[٣].

وحرم الله زواجهن بعد وفاة رسول الله ﷺ لأنهن أمهات المؤمنين وفي ذلك حفظ للصلة الدقيقة الحساسة التي تربط الأمة بنبيها صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوْا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُواْ أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ، أَبَداً، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً[٤]﴾.

قال ابن كثير في تفسير الآية:

«أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده، لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين[٥]».

---

(١) ملخصاً من زاد المعاد لابن قيم ج١ ص٢٦ - ٢٩.
(٢) ويقال من بني قريظة.
(٣) ابن كثير ج ٤، ص٦٠٤ - ٦٠٥.
(٤) سورة الأحزاب، آية ٥٣.
(٥) ابن كثير ج ٤، ص٤٩٣ (دار الأندلس).

وقفة قصيرة عند تعدد الزوجات:

قضى رسول الله ﷺ شطراً من عمره في العزوبة، مدة خمسة وعشرين عاماً، وهي فترة الشباب التي استوفت أفضل شروطه وصفاته، وكان مثلاً للفتوة الإنسانية العربية السليمة، والصحة التي كان فيها نصيب للنشأة في البادية، والبعد عن أدواء المدنية، والتحلي بأفضل صفات الفروسية والرجولة التي تفاخر بها العرب، وأشاد بها علماء النفس والأخلاق، ولم يجد أشد أعدائه له مغمزاً في هذه الفترة الحاسمة الدقيقة في حياته قبل النبوة وبعد النبوة إلى هذا اليوم، فكان مثالاً للطهر والعفاف والنزاهة والبراءة والعزوف عن كل ما لا يليق به.

فلما بلغ خمساً وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد، وهي أيم، قد بلغت من عمرها أربعين سنة، وقد تزوجت قبله برجلين، ولها أولاد، وبينه وبينها من التفاوت في السن ١٥ سنة على القول المشهور - ثم تزوج بعدها - وقد جاوز الخمسين - سودة بنت زمعة، وقد توفي زوجها في الحبشة مسلماً، مهاجراً، ولم يتزوج صلى الله عليه وسلم بكراً إلا عائشة بنت أبي بكر، وما تزوج زوجاً إلا ولهذا الزواج مصلحة راجحة من مصالح الدعوة والإسلام، أو المروءة ومكارم الأخلاق، أو جلب منفعة عامة، ودرء خطر اجتماعي كبير، فقد كان للأرحام والمصاهرة، تأثير كبير في حياة العرب القبلية، والاجتماعية، وقيمة ليست في أمة أخرى، فكانت لهذه المصاهرة أثرها البعيد في تاريخ الدعوة الإسلامية، والمجتمع الإسلامي المثالي، وحقن الدماء والتوقي من معرة القبائل العربية.

ولم تكن حياته معهن حياة ترف ورفاهية، وتوسع في المطاعم والمشارب وخفض العيش - وتلك غاية تعدد الزوجات في نظر كثير من الناس - بل كانت حياة زهد وتقشف، وايثار وقناعة، لا يطيقها

أعاظم الرجال وكبار الزهاد في القديم والحديث، ويمر شيء منها بالقارىء في جزء الأخلاق والشمائل، وحسب القارىء المنصف أن يقرأ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها النَّبيّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا، فَتعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً، وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُوْلَهُ والدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾[1].

وكان من أثر هذه الغاية المتوخاة، والنفسية السامية، والتربية العميقة المؤثرة، إن اخترن كلهن - رضي الله عنهن وأرضاهن - من غير استثناء وتلكؤ الله ورسوله والدار الآخرة، ويكفي مثالاً، ما أجابت به عائشة - رضي الله عنها - فلما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية، وقال لها: لا عليك ألا تستعجلي حتى تستأمري أبويك، قالت له: أفي هذا استأمر أبوي؟، فاني أريد الله ورسوله والدار الآخرة[2]، قالت: ثم فعلت أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت[3].

ولم يشغل رسول الله ﷺ تعدد الزوجات، وما يستلزم ذلك نفسياً واقتصادياً واجتماعياً، عن النهوض بأعباء الدعوة، والجهاد والتقشف، والحياة المثالية، والقيام بالأمور الجسام، برهة من الزمان، بل زاده ذلك نشاطاً وقوة، وكن أعواناً له على القيام بما أكرمه الله به، من تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وتعليم المسلمين دينهم، ذكوراً وإناثاً، وكن يرافقنه في الحروب والغزوات، فيداوين الجرحى ويمرضن المرضى، ويشرن بالخير، ويواسين في الشدة، وبهن قام نحو ثلث الدين - مما

---

(١) سورة الأحزاب ٢٨ - ٢٩.
(٢) رواه البخاري في الجامع الصحيح عن عائشة.
(٣) رواه البخاري؛ ورواه ابن أبي حاتم وأحمد.

يتعلق بحياته المنزلية والعشرة وكثير من الأحكام - تعلمها المسلمون منهن، وحفظوه ونشروه[1].

وناهيك بأم المؤمنين: عائشة - رضي الله عنها - فقد قال إمام علم الرجال والطبقات الحافظ أبو عبد الله شمس الدين الذهبي (م٧٤٨ هـ) في كتابه المشهور «تذكرة الحفاظ».

«كانت أكبر فقهاء الصحابة، كان فقهاء أصحاب رسول الله ﷺ يرجعون اليها، يروى عن قبيصة بنت ذؤيب، قالت: كانت عائشة أعلم الناس، يسألها أكابر الصحابة، وقال أبو موسى ما أشكل علينا - أصحاب محمد ﷺ حديث قط، فسألنا عائشة، إلا وجدنا عندها منه علماً، وقال حسان: ما رأيت أحداً من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال وحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا النسب من عائشة رضي الله عنها[2]».

وأما مكارم الأخلاق، وعلو الهمة، والجود، والمواساة، فعن البحر حدث ولا حرج، وحسبك ما رواه هشام عن أبيه: أن معاوية بعث إلى عائشة مائة ألف، فوالله ما غاب علينا الشهر حتى فرقتها، فقالت مولاة لها: لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحماً، فقالت: ألا ذكرتني[3]، وكانت صائمة[4].

---

(١) وقد أحسن الكلام في موضوع تعدد الزوجات وما كان فيه من حكم ومصالح وما يحيط به من أحوال وظروف؛ مؤلف السيرة الهندي القاضي محمد سليمان المنصور فوري في ج٢ من كتابه النفيس «رحمة للعالمين» راجع ص١٤١ - ١٤٤؛ والكاتب المصري الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه «عبقرية محمد» تحت عنوان «تعدد الأزواج» وعنوان «أسباب تعدد زوجاته».

(٢) تذكرة الحفاظ ج١، ص٢٧ - ٢٨، طبعة دار احياء التراث العربي.

(٣) نفس المصدر، ص٢٨.

(٤) زيادة من رواية أم ذرة (المصدر السابق).

وقد نشأت «مشكلة تعدد الزوجات» في حياة محمد ﷺ وشغلت عقول كثير من الباحثين الغربيين وأقلام الكتاب المستشرقين، وكثر التساؤل عنها، بسبب اخضاعهم الحياة الزوجية في بلاد العرب وفي الشريعة الإسلامية، وفي العصر الذي ظهر فيه الإسلام، للقيم والتصورات والأعراف الغربية، وتسليط الموازين والمقاييس الغربية (التي ما أنزل الله بها من سلطان - وإنما هي وليدة حضارة خاصة ومجتمع خاص) على ما تقبله الفطرة السليمة والبيئة العربية، وتقتضيه المصالح الخلقية والاجتماعية، ويأذن به الله، وتلك نقطة ضعف في التفكير الغربي وفي الكتابات الغربية يجعلون الغرب هو الميزان، ثم يطلقون أحكاماً قاسية على كل ما جانبه أو اختلف عنه، فيخلقون مشكلة ثم يعالجونها، وما هي إلا نتيجة كبريائهم، وتقديسهم الزائد للقيم والمثل الغربية وقد كان مؤلف السيرة الانجليزي المستر R.V.C Bobdley منصفاً وجريئاً في نقد هذا الشعور الغربي نحو تعدد الزوجات في حياة النبي ﷺ يقول في كتابه محمد الرسول»:

«انه لا داعي إلى قياس حياة محمد الزوجية بالمقاييس الغربية، ولا الحكم عليها من وجهة نظر التقاليد والقوانين التي سنتها المسيحية في الغرب، فلم يكن أولئك الرجال - العرب - غربيين ولا مسيحيين، إنما نشأوا في بلاد وفي عصر كان يسود عليه نظامهم الخلقي الخاص، ورغم كل ذلك لا مبرر لتفضيل النظام الخلقي الأمريكي أو الأوربي على النظام الخلقي العربي، ان الغربيين لا يزالون في حاجة إلى بحث دقيق وتمحيص كبير لتفضيل نظامهم الخلقي وطريقة حياتهم على غيرها، فعليهم أن يتجنبوا الطعن في ديانات أخرى ومدنيات أخرى[١].

---

(1) R. V. C. Bodley: The Messenger–The Life of Mohammad, (London, 1946) pp. 202–203.

وليست «شناعة» تعدد الزوجات (التي تخيلها الغرب، وآمن بها أبناؤه في تقليد وحماس واعتبروها حقيقة بديهية مسلمة، وجسمها كتّابه ومشرعوه)، شناعة دائمة على مر العصور والأجيال، قائمة على أسس علمية ثابتة، أو الفطرة الإنسانية السليمة، بل هي شناعة خيالية عاطفية، ناتجة عن دعاية قوية متحمسة، تخف وقد تزول مع الزمان بتغير الاتجاهات والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتربوية[١].

أولاده وأسباطه صلى الله عليه وسلم:

ولدت له خديجة القاسم، وبه كان يكنى، ومات طفلاً، ثم زينب ثم رقية وأم كلثوم وفاطمة، واختلفوا في عبد الله، والطيب، والطاهر، فعدهم بعضهم ثلاثة أولاد، والصحيح عند ابن قيم أن الطيب والطاهر لقبان لعبد الله، وهؤلاء كلهم من خديجة - رضي الله عنها -[٢].

أما فاطمة فهي أحب بناته اليه، وأخبر بأنها سيدة نساء لأهل الجنة[٣]، وقال: فاطمة بضعة مني، يريبني ما أرابها، ويؤذيني ما أذاها[٤]، وهي أول أهل بيته لحوقاً به.

وولدت له ماريا القبطية ابراهيم، فتوفي وقد ملأ المهد، وقد قال صلى الله عليه وسلم حين توفي: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب،وانا بك يا ابراهيم لمحزونون[٥]» وكسفت الشمس يوم

---

(١) وإلى ذلك أشار الكاتب الغربي العصري «Alwin Toffler» في كتابه الحديث «Future Schock» الذي أحدث دوياً في الأوساط العلمية أخيراً: اقرأ (على سبيل المثال) ص٢٢٧ - ٢٣٢، (طبع لندن ١٩٧٥م).

(٢) زاد المعاد ج١، ص٢٥ - ٢٦.

(٣) جامع الترمذي ج٢؛ ص٢٢١ (الطبعة الهندية).

(٤) حديث متفق عليه.

(٥) رواه مسلم في صحيحه عن أسماء بنت يزيد بن السكن مطولا.

موته، فقال الناس: كسفت الشمس لموت ابراهيم، فخطب رسول الله ﷺ فقال: ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا ينكسفان لموت أحد ولحياته[1].

وولدت زينب - وقد تزوجها أبو العاص بن الربيع وهو ابن أخت خديجة - ابناً اسمه علي، وبنتاً اسمها امامة، وتزوج رقية عثمان بن عفان، فولدت له ابنه عبدالله، وماتت ورسول الله ﷺ ببدر، وكان عثمان قد أقام عندها يمرضها، وتزوج بعدها بأختها أم كلثوم، ولهذا كان يقال له «ذو النورين» وتوفيت عنده أيضاً في حياة رسول الله ﷺ.

وتزوجت فاطمة علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب، ابن عم رسول الله ﷺ فولدت له حسناً، وبه كان يكنى، وحسيناً وفيهما قال رسول الله ﷺ: «هما ريحانتاي من الدنيا[2]» وفيهما قال: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة[3]».

وقد بارك الله في ذريتها، ونفع بها الإسلام والمسلمين، وكان منهم سادة وقادة، وأئمة في العلم والدين والجهاد والزهادة.

وولدت فاطمة لعلي زينب وأم كلثوم، وتزوج زينب ابن عمها عبدالله بن جعفر ابن أبي طالب، أحد أجواد العرب في الإسلام،

---

(١) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الكسوف يقول المرحوم محمود باشا الفلكي في كتابه «التقويم العربي قبل الإسلام وتاريخ ميلاد الرسول وهجرته - ﷺ -» ١٨، ١٩ «قد قمت بحساب دقيق بيّن لي ان الشمس قد كسفت حقيقة كسوفاً كلياً تقريباً بالمدينة عند الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين بعد منتصف الليل يوم السابع والعشرين من شهر يناير (كانون الثاني سنة ٦٣٢ ميلادية ١ هـ».
وذلك يوافق اليوم التاسع والعشرين من شوال سنة عشر للهجرة.

(٢) مقتبس من هامش مطلع الأنوار لابن الديبع ص٦٧.

(٣) الجامع الصحيح للبخاري، (كتاب المناقب، باب «مناقب الحسن والحسين»).

(٤) رواه الترمذي ج٢؛ ص٢٢١ (الطبعة الهندية).

وولدت له علياً وعوناً، وتزوج أم كلثوم بنت علي عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فولدت زيداً ومات عنها[1].

وكل أولاده صلى الله عليه وسلم توفي قبله إلا فاطمة، فإنها تأخرت بعده بستة أشهر[2].

الفرق بين نبيّ مرسل وزعيم سياسي:

لو كان مكان رسول الله ﷺ في هذه المناسبة الحزينة أي داع من الدعاة، أو زعيم من الزعماء، أو قائد دعوة وحركة وجماعة، لسكت على هذا الكلام - اذا لم يوفق الى نفيه - ظنا منه أن ذلك الكلام انما هو في صالح دعوته وحركته، وظن أنه لم يسترع الانتباه الى هذه الناحية، بل ان الناس بأنفسهم فكروا في ذلك وقالوا ان الشمس انما انكسفت لوفاة ابن رسول الله ﷺ، اذن فهو ليس مكلفا بنفي هذا التفكير.

وذلك هو الفرق بعينه بين النبي وغيره، فان الأحداث التي يستغلّها أصحاب التفكير السياسي - وان كانت حوادث طبعية - يرى الأنبياء الكرام عليهم السلام استغلالها على حساب الدين حراما، وأمرا يرادف الكفر، ولا أدري أن أحدا سوى محمد ﷺ يكون قد صدق في هذا الامتحان من غير الأنبياء، ومن مؤسسي الجماعات وزعماء السياسة.

---

(١) مقتبس من «السيرة النبوية» لابن كثير وغيره ج٤، ص٥٨١ - ٥٨٢.
(٢) زاد المعاد لابن قيم الجوزية، ج١، ص٢٦.

الأخلاق والشمائل

صفة رسول الله ﷺ خَلقاً وخُلقاً:

وصفه صلى الله عليه وسلم هند بن أبي هالة (ابن خديجة أم المؤمنين وخال الحسن والحسين رضي الله عنهما) وكان رجلاً وصافاً، فقال:

«كان رسول الله ﷺ متواصل[١] الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه[٢]، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل[٣]، لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي[٤]، ولا المهين[٥]، يعظم النعمة وان دقت[٦]، لا يذم منها

---

(١) أي لا ينفك حزن عن حزن يعقبه.

(٢) جمع شدق بالكسر: طرف الفم، أي أنه يستعمل جميع فمه للتكلم؛ ولا يقتصر على تحريك شفتيه كفعل المتكبرين.

(٣) الفاصل بين الحق والباطل.

(٤) الغليظ الطبع السيء الخلق.

(٥) يروى بضم الميم أو بفتحها، فالضم على الفاعل من «أهان» أي لا يهين من يصحبه، والفتح على المفعول من المهانة: أي الحقارة، والابتذال؛ فالمعنى لم يكن غليظ الخلق ولا ضعيفه، بل كان معتدلا بين أنواع المهابة والوقار والجلالة».

(٦) صغرت وقلت.

شيئاً، غير أنه لم يكن يذم ذواقاً[1] ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا ولاما كان لها[2]، فإذا تعدى الحق، لم يقم لغضبه شيء، حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها، وضرب براحته اليمنى بطن ابهامه اليسرى وإذا غضبْ أعرض وأشاح[3] وإذا فرح غض طرفه.

جل[4] ضحكه التبسم، يفتر[5] عن مثل حب الغمام[6].

ووصفه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وهو من أعرف الناس به، وأكثرهم عشرة له، وأقدرهم على الوصف والبيان، فقال:

«لم يكن فاحشاً[7]، متفحشاً[8]، ولا صخاباً[9]، في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح[10]، ما ضرب بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا ضرب خادماً ولا امرأة، وما رأيته منتصراً[11] من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء، فإذا انتهك من محارم الله، كان من أشدهم غضباً، وما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما، وإذا دخل بيته كان بشراً من البشر، يفلي[12] ثوبه،

---

(١) المأكول والمشروب، فعال بمعنى المفعول من الذوق.
(٢) أي ولا يغضبه أيضاً ما كان له علاقة بالدنيا.
(٣) جد في الإعراض وبالغ فيه.
(٤) معظمه وأكثره.
(٥) من افتر: ضحك ضحكاً حسناً حتى بدت أسنانه من غير قهقهة.
(٦) بفتحتين: البرد.
(٧) أي ذو فحش من القول والفعل، وإن كان استعماله في القول أكثر منه في الفعل والصفة.
(٨) أي ولا المتكلف به، أي ولم يكن الفحش له خلقياً ولا كسبياً.
(٩) أي صياحاً.
(١٠) صفح عنه: أعرض عنه وتركه، بابه فتح.
(١١) منتقماً.
(١٢) فلى يفلي فلياً رأسه أو ثوبه، نقاهما من القمل.

ويحلب شاته ويخدم نفسه.

كان يخزن لسانه إلا فيما يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم، من غير ان يطوي على أحد منهم بشره[١]، ولا خلقه، ويتفقد[٢] أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهيه[٣]، معتدل الأمر غير مختلف، ولا يغفل مخافة أن يغفلوا ويملوا، لكل حال عنده عتاد[٤] ولا يقصر عن الحق، ولا يجاوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة، أحسنهم مواساة[٥] وموازرة[٦] ولا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يعطي كل جلسائه نصيبه، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو فاوضه[٧] في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف، ومن سأله حاجته، لم يرده إلا بها أو بميسور من القول، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة، ولا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن[٨] فيه الحرام، ولا تثنى[٩] فلتاته[١٠]، متعادلين[١١] يتفاضلون فيه بالتقوى، ويوقرون فيه

---

(١) بالكسر: طلاقة الوجه وبشاشته.

(٢) أي يتعرف ويطلب من غاب منهم.

(٣) بتشديد الهاء وتخفيفها من التوهية والايهاء: يضعفه.

(٤) بالفتح هو العدة والتأهب مما يصلح لكل ما يقع؛ ج أعتد، وعتد، وأعتدة.

(٥) المُداراة وهي اصلاح أحوال الناس بالمال والنفس.

(٦) المعاونة.

(٧) عامله في حاجة أو خالطه.

(٨) بضم التاء وسكون الهمزة من الإبن وهو العيب والتهمة؛ أي لا تقذف ولا تعاب.

(٩) بضم التاء وسكون النون وفتح المثلثة أي لا تشاع ولا تذاع.

(١٠) أي زلاته ومعايبه على تقدير وجود وقوعها، جمع فلتة وهي ما يصدر من الرجل من سقطة.

(١١) متساوين.

الكبير، ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة، ويحفظون الغريب.

وقال: «كان دائم البشر، سهل الخلق، لين[1] الجانب، ليس بفظ[2]، ولا غليظ، ولا صخاب، ولا عياب، ولا مشاح[3] يتغافل عما لا يشتهي، ولا يؤيس منه، ولا يجيب فيه[4]، قد ترك نفسه من ثلاث «المراء[5]، والاكبار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه، وإذا تكلم أطرق[6] جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، لا يتنازعون عنده الحديث ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم[7] يضحك مما يضحكون، ويتعجب مما يتعجبون، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته، حتى كان أصحابه يستجلبونهم، ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه[8]، ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء[9]، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز[10] فيقطعه بنهي أو قيام.

---

(١) أي سريع العطف، كثير اللطف، جميل الصفح، وقليل الخلاف وقيل: كناية عن السكون والوقار والخشوع والخضوع.

(٢) الغليظ السيء الخلق، الخشن الكلام، ج ألفاظ؛ وفي القرآن «ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك».

(٣) اسم فاعل من المفاعلة من الشح؛ وهو البخل؛ وقيل أشده.

(٤) أي لا يجيب أحداً فيما لا يشتهي بل يسكت عنه عفواً وتكرماً.

(٥) الجدال.

(٦) أمالوا رأسهم، وأقبلوا ببصرهم إلى صدورهم.

(٧) أي حديث أفضلهم وكأول تكلمهم؛ أي لا عن ملال وسآمة.

(٨) الارفاد الاعطاء والاعانة.

(٩) أي مقارب في مدحه، لا يجاوز عن حد مثله، ولا مقصر به عما رفعه الله اليه من علو مقامه.

(١٠) أي يتجاوز عن الحد والحق.

«أجود الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة[1]، وألينهم عريكة[2]، وأكرمهم عشيرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم[3].

وقد كسا الله نبيه لباس الجمال، وألقى عليه محبة ومهابة منه، وصفه هند بن أبي هالة، فقال:

«كان فخماً[4] مفخماً[5]، يتلألأ[6] وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر[7].

ووصفه البراء بن عازب - رضي الله عنه - فقال: «كان رسول الله ﷺ مربوعاً[8]، وقد رأيته في حلة حمراء، ما رأيت شيئاً قط أحسن منه[9]»، ووصفه أبو هريرة - رضي الله عنه - فقال: «كان ربعة[10]، وهو إلى الطول أقرب، شديد البياض، أسود شعر اللحية، حسن الثغر، أهدب[11] أشعار العينين، بعيد ما بين المنكبين (إلى أن قال): «لم أر مثله قبل ولا بعد[12]»، ويقول انس - رضي الله عنه -: «ما مسست

---

(١) اللسان.
(٢) الطبيعة؛ ج عرائك.
(٣) ملتقطاً من جزء الشمائل للترمذي.
(٤) بفتح الفاء وسكون الخاء: أي عظيما في نفسه.
(٥) اي المعظم في الصدور والعيون.
(٦) أي يستنير.
(٧) عن الحسن بن علي عن خاله هند بن أبي هالة (الشمائل للترمذي).
(٨) وسيط القامة.
(٩) متفق عليه.
(١٠) الوسيط القامة.
(١١) الطويل الأشعار.
(١٢) الأدب المفرد للبخاري (باب إذا التفت التفت جميعاً).

ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ[(١)].

مع الله تعالى:

كان رسول الله ﷺ مع ما أكرمه الله به من الرسالة والخلة والاصطفاء وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، أعظم الناس اجتهاداً في العبادة، وحرصاً عليها، وولعاً بها.

يقول المغيرة بن شعبة: «قام النبي ﷺ حتى تورمت قدماه، فقيل له: وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، قال: أفلا أكون عبداً شكوراً[(٢)]؟».

وقالت عائشة - رضي الله عنها -: «قام النبي ﷺ بآية من القرآن ليلة[(٣)]».

وقال أبو ذر: «قام رسول الله ﷺ حتى أصبح بآية، والآية «إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم[(٤)]».

وعن عائشة أيضاً: «كان يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم».

---

(١) متفق عليه (البخاري في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، ومسلم في كتاب الفضائل، باختلاف يسير).

(٢) رواه البخاري في تفسير سورة الفتح ومسلم والترمذي والنسائي في باب «احياء الليل».

(٣) رواه الترمذي.

(٤) رواه النسائي في باب «ترديد الآية»؛ وابن ماجة في باب «ما جاء في القراءة في الليل.

وقال أنس: «كان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته، ولا نائماً إلا رأيته[1]».

وعن عبدالله بن الشخير، قال: «أتيت رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل، من البكاء[2]».

وكان لا يكاد يتسلى عن الصلاة، ويرغب عنها إلى غيرها فيقول: «وجعل قرة عيني في الصلاة[3]».

ويقول الصحابة - رضي الله عنهم - كان إذا حزبه أمر صلى[4]، وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - كان رسول الله ﷺ إذا كان ليلة ريح شديدة، كان مفزعه إلى المسجد، حتى تسكن الريح، وإذا حدث في السماء حدث من خسوف شمس أو قمر، كان مفزعه إلى الصلاة حتى ينجلي[5].

وكان يحن إلى الصلاة، ويتحينها، فلا يهدأ له بال، ولا يقر له قرار، حتى يقبل عليها، وكان يقول أحياناً لمؤذنه بلال: يا بلال! أقم الصلاة، أرحنا بها[6].

نظرته صلى الله عليه وسلم إلى الحياة وزهده فيها:

أما نظرته إلى الدينار والدرهم، والمال والمتاع فأكبر مجموعة من الألفاظ، وقدرة بيانية لا تفي بالغرض، فإن تلاميذ مدرسته الايمانية، الربانية، وتلاميذ تلاميذهم من العرب والعجم، في مشارق الأرض

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في باب «قيام النبي ﷺ ونومه» من كتاب التهجد.
(٢) رواه الترمذي في الشمائل.
(٣) رواه النسائي (كتاب عشرة النساء، في باب «حب النساء»).
(٤) رواه أبو داود.
(٥) رواه الطبراني في الكبير.
(٦) رواه أبو داود (كتاب الأدب، باب «في صلاة العتمة»).

ومغاربها، نظروا إلى الدينار والدرهم كالخزف والحصا والرمل والتراب، وروي عنهم من الزهادة في الدنيا، والاستهانة بزخارف الحياة، والغرام بانفاق المال على غيرهم، وايثارهم عليهم، والقناعة بالكفاف وأقل من الكفاف، ما يحير الألباب[1]، فكيف بالرسول الأعظم ﷺ الذي كان قدوتهم في كل خير وفضل، وإمامهم ومعلمهم، ولكننا نترك ما رواه الصحابة - رضي الله عنهم - في هذا الباب - وما جرى على لسانه من الأقوال ينطق بذلك، فلا كلام أبلغ من الحوادث والأخبار، ولا أنطق منها.

كان قوله المأثور المشهور، وبه كان عمله، وعليه تدور حياته صلى الله عليه وسلم «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «ما لي وللدنيا، وما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها»[2].

ورآه عمر مضطجعاً على رمال حصير، قد أثر في جنبه، فهملت عينا عمر، فقال: ما لك؟» فقال: «يا رسول الله! أنت صفوة الله من خلقه، وكسرى وقيصر فيما هما فيه» فاحمر وجهه، وقال: «أوفي شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا»[3].

وكان لا يحب هذا الطراز من المعيشة لنفسه فقط، بل كان يحبه لأهله وعياله، ويؤثره لهم، فروي عنه أنه قال: «اللهم اجعل رزق آل

---

(١) وليراجع في ذلك الكتب التي ألفت في هذا الموضوع، ككتاب الزهد لعبدالله بن المبارك، وكتاب الزهد للبيهقي و«صفة الصفوة» لابن الجوزي، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم.

(٢) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده.

(٣) راجع الحديث بطوله في الصحيحين.

محمد قوتاً[١] » وقال أبو هرير - رضي الله عنه - « والذي نفس أبي هريرة بيده، ما شبع نبي الله وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا[٢] »، وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: « إن كنا آل محمد ليمر بنا الهلال ما نوقد ناراً، إنما هو الاسودان: التمر والماء »[٣].

وقد كانت له درع عند يهودي، فما وجد ما يفكها، حتى مات[٤]، وانه صلى الله عليه وسلم حج حجة الوداع، والمسلمون معه مد البصر، والجزيرة خاضعة له، على رحل رث، عليه قطيفة، لا تساوي أربعة دراهم، فقال: « اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة »[٥].

وقد قال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر - رضي الله عنه - ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً، تمضي علي ثلاثة أيام، وعندي منه دينار، إلا شيء أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا، وهكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله وعن خلفه[٦].

ويقول جابر بن عبد الله - رضي الله عنه -: « ما سئل رسول الله ﷺ عن شيء، فقال: لا[٧] »: وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان النبي ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة[٨] »، وعن

---

(١) متفق عليه، البخاري (كتاب الرقاق) ومسلم (كتاب الزهد).
(٢) رواه البخاري وأحمد، واللفظ لأحمد؛ ورواه مسلم في كتاب الزهد.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) رواه الترمذي في الشمائل عن أنس.
(٦) متفق عليه واللفظ للبخاري (كتاب الرقاق، باب « قول النبي ﷺ: ما أحب أن لي أحداً ذهباً »).
(٧) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب « حسن الخلق ».
(٨) صحيح البخاري، باب « بدء الوحي ».

أنس - رضي الله عنه - «أن رجلاً سأله، فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى بلاده، وقال: أسلموا، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى فاقة، وحمل اليه صلى الله عليه وسلم تسعون ألف درهم، فوضعت على حصير، ثم قام اليها يقسمها، فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

مع الناس:

وكانت لا تمنعه هذه العبادة والزهد في الدنيا، والاقبال إلى الله بقلبه وقالبه، والاشتغال به، ومناجاته، عن دوام البشر، وطلاقة الوجه، وتفقد القلوب، وملاطفة الناس، وايتاء كل ذي حق حقه، وذلك شيء لا يقوى عليه غيره، وقد كان يقول: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»[١].

وقد كان أوسع الناس صدراً، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشيرة، وكان يمازح أصحابه، ويخالطهم ويحادثهم، ويداعب صبيانهم، ويجلسهم في حجره، ويجيب دعوة الحر والعبد، والأمة والمسكين، ويعود المرضى في أقصى المدينة، ويقبل عذر المعتذر[٢]، ولم ير ماداً رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد.

يقول عبد الله بن الحارث - رضي الله عنه - ما رأيت أكثر تبسماً من رسول الله ﷺ[٣]، وعن جابر بن سمرة - رضي الله عنه - قال: جالست رسول الله ﷺ أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه - يتناشدون الشعر، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية، وهو ساكت وربما تبسم معهم.

---

(١) متفق عليه.
(٢) من كلام أنس بن مالك رضي الله عنه، رواه أبو نعيم في الحلية.
(٣) الترمذي في الشمائل.

ويقول الشريد: «استنشدني نبي الله شعر أمية بن أبي الصلت فأنشدته»[1].

وكان حنوناً ودوداً، تجلت فيه العواطف الإنسانية، والمشاعر اللطيفة في أسمى مظاهرها وأجملها، يقول أنس بن مالك - رضي الله عنه -: «وكان رسول الله ﷺ يقول لفاطمة: ادعي لي ابني (يعني الحسن والحسين رضي الله عنهما) فيشمهما ويضمهما اليه[2]، ودعا سبطه حسن بن علي مرة، فجاء يشتد، فوقع في حجر رسول الله ﷺ ثم أدخل يده في لحيته ثم جعل النبي ﷺ يفتح فاه، فيدخل فاه في فيه[3].

وتقول عائشة - رضي الله عنها -: قدم زيد بن حارثة (وهو مولى رسول الله ﷺ) المدينة، ورسول الله ﷺ في بيته، فأتاه، فقرع الباب، فقام اليه النبي ﷺ عرياناً، يجر ثوبه، فاعتنقه وقبله[4].

وعن أسامة بن زيد - رضي الله عنه - أن ابنة لرسول الله ﷺ أرسلت اليه أن ابني قد احتضر، فأشهدنا، فأرسل يقرأ السلام، ويقول: «ان لله ما أخذ وما أعطى، وكل شيء عنده مسمى، فلتصبر ولتحتسب، فأرسلت اليه تقسم عليه، فقام وقمنا معه، فلما قعد رفع اليه، فأقعده في حجره، ونفس الصبي تقعقع، ففاضت عينا رسول الله ﷺ فقال سعد: ما هذا يا رسول الله؟!، قال: «هذه رحمة يضعها الله في قلوب من يشاء من عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء[5]».

---

(١) الأدب المفرد للبخاري: ص١٢٧.

(٢) رواه الترمذي في أبواب المناقب، باب «مناقب الحسن والحسين».

(٣) الأدب المفرد للبخاري ص١٧٣.

(٤) رواه الترمذي في أبواب الاستيذان، باب: «ما جاء في المعانقة».

(٥) رواه البخاري (كتاب المرضى؛ باب «عيادة الصبيان») وفي (كتاب الجنائز، باب «قول النبي ﷺ: يعذب الميت ببكاء أهله»).

ولما شد وثاق العباس في أسرى بدر، فسمعه رسول الله ﷺ يئن لم يأخذه النوم، فبلغ الأنصار، فأطلقه الأنصار، ولم تحمله تلك الشفقة على التمييز بينه وبين سائر أسرى بدر، فلما فهم الأنصار رضا رسول الله ﷺ بفك وثاقه، سألوه أن يتركوا له الفداء طلباً لتمام رضاه، فلم يجبهم إلى ذلك[١].

وجاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: أتقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم؟ فقال النبي ﷺ: «أو أملك لك إذا نزع الله من قلبك الرحمة»؟[٢].

وكان عطوفاً على الصبيان، رفيقاً بهم، روي عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ مر على صبيان يلعبون، فسلم عليهم[٣] يقول أنس بن مالك: كان النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير! ما فعل النُّغير»[٤].

وكان شديد الرأفة بالمسلمين، كثير المراعاة لاختلاف أحوالهم، وما يعتري النفوس من فتور وملل.

يقول ابن مسعود - رضي الله عنه -: «كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة كراهة السآمة علينا، وكان مع شدة ولعه بالصلاة يتجوزها إذا سمع بكاء صبي. فقد روي عنه أنه قال: اني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي

---

(١) فتح الباري ج٨؛ ص٣٢٤، (الطبعة المصرية).
(٢) عن عائشة رضي الله عنها، رواها البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الولد.
(٣) رواه البخاري في كتاب الاستيذان.
(٤) الأدب المفرد، ص٤٠.

كراهية أن أشق على أمه[1].

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رجلاً قال: «والله يا رسول الله! اني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا، فما رأيت رسول الله ﷺ في موعظة أشد غضباً منه يومئذ، ثم قال: «إن منكم منفرين، فأيكم صلى بالناس فليتجوز، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة[2]».

ومن ذلك أن أنجشة كان يحدو بالنساء، وكان حسن الصوت، والابل تسرع إذا سمعت الحداء، فيشق ذلك على النساء، فقال النبي ﷺ: «يا أنجشة! رويدك سوقك بالقوارير»[3].

وقد برأه الله من الحقد، ومن أن يضمر لأحد سوءاً، روي عنه أنه كان يقول: لا يبلغني أحد منكم من أصحابي شيئاً، فاني أحب أن أخرج اليكم، وأنا سليم الصدر[4].

وكان لهم أباً رحيماً، وأصبح المسلمون كلهم له عيالاً، يحنو عليهم حنو المرضعات على الفطيم، لا شأن له بما متعهم الله به من مال، ووسع لهم في الرزق، أما ديونهم، وما يثقل كواهلهم، فكان يستقلُّ به، ويقول: من ترك مالاً فلورثته ومن ترك كلا فإلينا[5]، وفي رواية أنه قال: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة، اقرأوا ان شئتم: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فأيما مؤمن مات، وترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا، ومن ترك ديناً أو ضياعاً، فليأتي فأنا مولاه»[6].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصلاة (باب «من أخف الصلاة»).
(٢) رواه البخاري في كتاب الأذان «باب تخفيف الإمام القراءة».
(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» ص١٨٥؛ ورواه البخاري ومسلم في صحيحها.
(٤) «كتاب الشفاء» ص٥٥، رواه عن طريق أبي داود.
(٥) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الاستقراض، باب «الصلاة على من ترك ديناً».
(٦) المصدر السابق.

اعتدال الفطرة وسلامة الذوق:

وقد خلقه الله في أتم خلق وخلق، واليه المنتهى - عبر القرون والأجيال - في اعتدال الفطرة، وسلامة الذوق، ورقة الشعور، والسداد والاقتصاد، والبعد عن الافراط والتفريط، تقول عائشة - رضي الله عنها -: ما خير رسول الله ﷺ في أمرين قط إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن اثماً، فإن كان اثماً، كان أبعد الناس[١].

وكان أبعد الناس عن التكلف، والمغالاة في الزهد، وحرمان النفس حقوقها، روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «ان الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[٢]، وقال: «مه عليكم بما تطيقون، فوالله ما يمل الله حتى تملوا»، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: سئل النبي ﷺ أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: الحنيفية السمحة»[٣].

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ هلك المتنطعون[٤] وقال لبعض من بعثهم للدعوة والتعليم: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا». وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[٥].

---

(١) رواه مسلم في باب «مباعدته - ﷺ - للآثام».
(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب «الدين يسر».
(٣) الأدب المفرد ص٨١ (طبع المطبعة السلفية).
(٤) أي المتشددون المتعمقون، رواه مسلم.
(٥) رواه الترمذي في أبواب الآداب؛ باب «ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده».

في منزله ومع أهله وعياله:

وكان في منزله بشراً من البشر، كما تقول عائشة - رضي الله عنها - كان يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، وقالت: كان يرقع الثوب، ويخصف النعل، ونحو هذا قيل لعائشة - رضي الله عنها - ما كان رسول الله ﷺ يصنع في أهله؟ قالت: «كان في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة، خرج إلى الصلاة»[١].

وفي رواية «كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، كما يعمل أحدكم في بيته[٢]» وقالت عائشة: كان ألين الناس، وأكرم الناس، وكان ضحاكاً بساماً[٣] وعن أنس - رضي الله عنه - قال: ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ[٤] وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «قال رسول الله ﷺ خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي[٥]» وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط، ان اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه[٦].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصلاة، باب «من كان في حاجة أهله» ورواه أحمد وعبد الرازق في المصنف.

(٢) رواه عبد الرازق في المصنف رقم الحديث ٢٠٤٩٢، ج١١، ص٢٦٠.

(٣) ابن عساكر.

(٤) رواه أحمد في مسنده عن أنس، ورواه مسلم.

(٥) رواه ابن ماجه في باب «حسن معاشرة النساء».

(٦) متفق عليه: رواه البخاري في كتاب الأطعمة، باب «ما عاب النبي ﷺ - طعاماً» ورواه مسلم في صحيحه.

تقديم الأقربين في المخاوف والمغارم وتأخيرهم في الرخاء والمغانم:

وكان شعاره الدائم في أهل بيته وعياله، وأقرب الناس اليه تقديمهم في المخاوف والمغارم، وتأخيرهم في الرخاء والمغانم، طلب عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة - وهم كانوا من أبطال العرب المرموقين - من يبارزهم من قريش، وممن فارق دينهم من أهل مكة، وهاجر منها، وكان رسول الله ﷺ من أعرف الناس بمكانتهم وبغنائهم في الحرب وكان في قريش من ينهض لذلك من الأبطال والفرسان، فلم يزد أن قال: قم يا حمزة! قم يا علي! قم يا عبيدة!، وهم من أقرب الناس اليه رحماً ودماً، وأحبهم اليه ولم يؤثر أحداً عليهم، ضناً بحياتهم وابقاء عليهم، وكان من صنع الله تعالى أن كتب لهم الغلبة والانتصار على منافسيهم، ورجع حمزة وعلي سالمين مظفرين، وحمل عبيدة جريحاً.

ولما أراد أن يحرم الربا، ويهدر دم الجاهلية القديمة، بدأ بعمه العباس بن عبد المطلب، وابن أخ له من بني هاشم، ربيعة بن الحارث ابن عبد المطلب، فقال في خطبته في حجة الوداع: «وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا: ربا عباس بن عبد المطلب، ودماء الجاهلية موضوعة، وأن أول دم أضع من دمائنا دم ربيعة بن الحارث»[1].

أما في الرخاء وعند المغانم، فكان دائماً يؤخرهم ويؤثر عليهم غيرهم - خلافاً للملوك والقادة والزعماء - يقول علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: إن فاطمة - عليها السلام - اشتكت ما تلقى من

---

(١) رواه مسلم في كتاب الحج، باب «حجة النبي ﷺ، وأبو داود عن جابر ابن عبد الله».

الرحى مما تطحن، فبلغها أن رسول الله ﷺ أتى بسبي، فأتته تسأله خادماً، فلم توافقه، فذكرت لعائشة، فجاء النبي ﷺ فذكرت عائشة له، فأتانا، وقد دخلنا مضاجعنا، فذهبنا لنقوم، فقال: على مكانكما، حتى وجدت برد قدميه على صدري، فقال: ألا أدلكما على خير مما سألتماني، إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا الله أربعاً وثلاثين، واحمدا ثلاثاً وثلاثين، وسبحا ثلاثاً وثلاثين، فإن ذلك خير لكما مما سألتماني[1]، وفي رواية في هذه القصة أنه صلى الله عليه وسلم قال: «والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيعهم، وأنفق عليهم أثمانهم»[2].

رقة الشعور الإنساني ونبل العاطفة:

كان رسول الله ﷺ مع أعباء النبوة والدعوة، وهم الإنسانية والأحزان والأثقال التي لا تحملها الجبال الراسيات - قد تجلى فيه الشعور الإنساني الرقيق، والعاطفة الإنسانية النبيلة، في أجمل مظاهرها، فمع صرامته وقوة عزيمته التي يمتاز بها الأنبياء، والتي كانت لا تقيم في سبيل الدعوة واعلاء كلمة الله، وامتثال أوامره لشيء قيمة أو وزناً، لم ينس أصحابه الأوفياء الذين لبوا دعوته، وبذلوا في سبيل الله مهجهم وأرواحهم، واستشهدوا في معركة أحد إلى آخر يوم من أيام حياته، فكان يذكرهم، ويدعو لهم، ويزورهم، وسرى هذا الحب إلى المكان الذي قامت فيه هذه المعركة، والجبل الذي شاهدها، والبلد الذي احتضنه، فروى عنه الصحابة - رضي الله عنهم - أنه قال:

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب «الدليل على أن الخمس لنوائب رسول الله ﷺ».

(٢) أخرجه أحمد (فتح الباري ج٧، ص٢٣ - ٢٤).

«هذا جبل يحبنا ونحبه»[١] وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ طلع له أحد، فقال: هذا جبل يحبنا ونحبه، وعن أبي حميد قال: «أقبلنا مع النبي ﷺ من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة، قال: «هذه طابة، وهذا جبل يحبنا ونحبه»[٢].

وعن عقبة أن رسول الله ﷺ خرج يوماً، فصلى على أهل أحد صلاته على الميت[٣]، وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا ذكر أصحاب أحد، أما والله، لوددت أنني غودرت مع أصحابه بحصن[٤] الجبل[٥].

وقد احتمل شهادة عمه وأخيه في الرضاعة، والذي غضب له، ودافع عنه بمكة، واستشهد في معركة أحد، ومثل به تمثيلاً لم يمثل بأحد من القتلى، فاحتمل كل ذلك في صبر أولي العزم من الرسل، ولكنه لما دخل المدينة راجعاً من أحد، ومر بدار بني عبد الأشهل، فسمع البكاء، ونوائح على قتلاهم، فحرك ذلك في نفسه الشعور الإنساني النبيل، فذرفت عيناه، ثم قال: لكن حمزة لا بواكي له[٦].

ولكن هذا الشعور الإنساني النبيل لم يستطع أن يقهر الشعور بمسئولية النبوة والدعوة والوقوف عند حدود الله، فقد روى أصحاب السير أنه لما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير - رضي الله عنهما - إلى دار بني عبد الأشهل أمر نساءهم أن يحتزمن، ثم يذهبن، ويبكين

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري؛ كتاب المغازي؛ باب «أحد يحبنا».
(٢) صحيح البخاري (كتاب المغازي) قصة تبوك
(٣) المصدر السابق.
(٤) سفح الجبل.
(٥) تفرد به أحمد، (ابن كثير، ج ٣؛ ص ٨٩).
(٦) ابن كثير ج ٣، ص ٩٥، وقد أسنده الامام أحمد عن ابن عمر، قال ابن كثير: «وهذا على شرط مسلم».

على عم رسول الله ﷺ ففعلن، ولما سمع رسول الله ﷺ بكاءهن على حمزة، خرج عليهن، وهن في باب المسجد يبكين، فقال: «ارجعن يرحمكن الله، فقد آسيتن بأنفسكن» وروي أنه قال: ما هذا؟ فأخبر بما فعلت الأنصار بنسائهم، فاستغفر لهم، وقال لهم خيراً، وقال ما هذا أردت، وما أحب البكاء ونهى عنه[1]. وأدق من هذه المواقف كلها موقف وقفه مع وحشي، قاتل أسد الله وأسد رسوله حمزة - رضي الله عنه - فلما فتح الله للمسلمين مكة، ضاقت عليه المذاهب، وفكر في اللحوق بالشام واليمن وببعض البلاد، وأظلمت عليه الدنيا، فقيل له: ويحك إنه رسول الله ﷺ ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه، فتشهد شهادة الحق، وقدم على رسول الله ﷺ فقبل منه الإسلام، ولم يفزعه، وسمع منه قصة قتل حمزة، فلما فرغ عن حديثه تحرك فيه ذلك الشعور الإنساني الرقيق، من غير أن يزاحم طبيعة منصب النبوة الرفيع، فيرفض إسلامه أو يثور فيه الغضب، فيقتله شفاء للنفس، ولم يزد أن قال: ويحك غيب عني وجهك، فلا أرينك، قال وحشي: وكنت أتنكب رسول الله ﷺ لئلا يراني، حتى قبضه الله صلى الله عليه وسلم[2].

وفي رواية البخاري: فلما رآني قال: أنت وحشي؟ قلت: نعم قال: أنت قتلت حمزة؟ قلت: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني؟[3].

ومن مظاهر هذا الشعور الإنساني الرقيق، والعاطفة النبيلة أنه صلى الله عليه وسلم انتهى إلى رسم قبر فجلس، وأدركته الرقة، فبكى،

---

(١) ابن كثير ج ٣ - ص ٩٦.

(٢) ابن هشام ق ٢؛ ص ٧٢، وروى البخاري هذه القصة في كتاب المغازي، باب قتل حمزة رضي الله عنه.

(٣) الجامع الصحيح للبخاري، باب قتل حمزة.

وقال: هذا قبر آمنة بنت وهب، وذلك، حين مضت على وفاتها مدة طويلة[1].

كرمه وحلمه:

وقد كان رسول الله ﷺ إمام الخلق أجمعين، ومعلمهم في حسن الخلق وكرم النفس، والتواضع، لقد قال الله تعالى: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، وعن جابر أن النبي ﷺ قال: «إن الله بعثني لتام مكارم الأخلاق، وكمال محاسن الأفعال»[2]، وسئلت عائشة - رضي الله عنها - عن خلقه، فقالت: «كان خلقه القرآن»[3].

وكان في العفو والحلم ورحابة الصدر وقوة الاحتمال، حيث لا يبلغه ذكاء الأذكياء، وخيال الشعراء، ولو لم يرو عن طريق لا يتطرق اليه شك، ولا ترتقي اليه شبهة، لما قبلته أذهان الناس، ولكن روى بإسناد صحيحة متصلة ونقل عادل عن عادل، وتواتر، واستفاض ذلك، فكان أثبت من التاريخ الأمين، ونحن هنا نكتفي بقليل مما روي في هذا الباب.

فمن كرمه صلى الله عليه وسلم وعفوه عن أشد أعدائه وإحسانه اليه أنه أتى عبدالله بن أبي[4] - رأس المنافقين - بعدما أدخل

---

(١) رواه البيهقي عن طريق سفيان الثوري مطولا، راجع ابن كثير ج ١، ص ٢٣٦.

(٢) رواه في شرح السنة، مشكاة المصابيح، ص ٥١٤.

(٣) رواه الامام مسلم في صحيحه، من حديث عائشة بطوله.

(٤) وهلك سنة تسع في ذي القعدة بعد الانصراف من تبوك (الزرقاني؛ ج٣؛ ص ١١٢-١١٣).

حفرته، فأمر به رسول الله ﷺ فأخرج، فوضعه على ركبتيه، ونفث فيه من ريقه، وألبسه قميصه[1].

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه برد نجراني، غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد! مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت اليه، فضحك، ثم أمر له بعطاء[2].

وجاء زيد بن سعنة قبل إسلامه يتقاضاه ديناً عليه، فجبذ ثوبه عن منكبه، وأخذ بمجامع ثوبه، وأغلظ له، ثم قال: إنكم يا بني عبد المطلب مطل، فانتهره عمر، وشدد له في القول، والنبي ﷺ يبتسم، فقال رسول الله ﷺ: أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر!، تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي، ثم قال: لقد بقي من أجله ثلاث، وأمر عمر يقضيه ماله، ويزيده عشرين صاعاً لما روعه، فكان سبب إسلامه[3].

يقول أنس - رضي الله عنه - ان ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل «التنعيم» متسلحين، يريدون غرة النبي[4]، فأخذهم سلماً[5] فاستحياهم[6].

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، ملخصاً.

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد: باب «ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم ورواه الامام أحمد في المسند، ج٣ ص١٥٣ باختلاف في اللفظ.

(٣) رواه البيهقي مفصلا وابن حبان والطبراني.

(٤) الغرة: الغفلة.

(٥) السلم: الأسر.

(٦) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير باب «قول الله»: ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم﴾.

وعن جابر - رضي الله عنه - قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة نجد، فأدركته القائلة، وهو في واد كثير العضاه، فنزل تحت سمرة، واستظل بها، وعلق سيفه، فتفرق الناس في الشجر يستظلون، وبينا نحن كذلك، إذ دعانا رسول الله ﷺ فجئنا، فإذا اعرابي قاعد بين يديه، فقال: إن هذا أتاني وأنا نائم، فاخترط سيفي، فاستيقظت، وهو قائم على رأسي مخترط صلتا، قال: من يمنعك مني؟ قلت: الله! فشامه[1]، ثم قعد، فهو هذا، قال: ولم يعاقبه رسول الله ﷺ[2].

وقد كان حلمه يسع ما لا يسعه حلم الصحابة - وهم أصحاب حلم وأناة - وكان في كل ذلك معلماً رفيقاً، ومصلحاً رحيماً، من ذلك ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: بال اعرابي في المسجد فقام الناس اليه، ليقعوا فيه، فقال النبي ﷺ دعوه، وأريقوا على بوله سجلاً من الماء، أو ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين[3].

وعن معاوية بن الحكم بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله! فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أماه! ما شأنكم تنظرون إلـي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى النبي ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما نهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، فقال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير، وقراءة القرآن»[4].

---

(١) أي رده إلى غمده، وقيل: هو بمعنى سله ونظر إليه (مجمع بحار الأنوار ج٣).
(٢) صحيح البخاري (كتاب المغازي، باب «غزوة بني المصطلق»).
(٣) القصة رواها البخاري في كتاب الوضوء.
(٤) رواه مسلم في باب تحريم الكلام في الصلاة.

ويقول أنس بن مالك - رضي الله عنه - كان النبي ﷺ رحيماً، وكان لا يأتيه أحد إلا وعده، وأنجز له، إن كان عنده، وأقيمت الصلاة، وجاء أعرابي، فأخذ ثوبه فقال: إنما بقي من حاجتي يسيرة، وأخاف أنساها، فقام معه، حتى فرغ من حاجته، ثم أقبل فصلى.

ومن أمثلة قوة احتماله، وسعة صدره، وعظم صبره، ما شهد به خادمه أنس بن مالك - رضي الله عنه - وقد كان حديث السن، قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف ولا لما صنعت، ولا ألا صنعت![1].

وروى سعاد بن عمر، قال: أتيت النبي ﷺ وأنا متخلق، فقال: ورس ورس، حط، حط، وغشيني بقضيب في يده بطني، أوجعني، فقلت: القصاص يا رسول الله فكشف لي[2].

الحفاظ على أصالة الدين والغيرة على روحه وتعاليمه:

وكان رسول الله - ﷺ - على رفقه ولين كنفه وقوة احتماله وتغاضيه عن سقطات الناس وزلاتهم - إلى حد لا يتصور فوقه - شديد الحفاظ على أصالة الدين، شديد الغيرة على روحه وتعاليمه وعلى عقيدة التوحيد، شديد الحذر مما يعرض أمته لخطر التورط في الأوهام والمغالاة، وتقديس الأشخاص، والعودة إلى الجاهلية، لا تأخذه في ذلك هوادة، ولا تمنعه من الإنكار عليه مصالح قيادية أو اعتبارات سياسية، وكان في ذلك يختلف عن قادة الجماعات والزعماء السياسيين اختلافاً واضحاً.

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب «حسن خلقه صلى الله عليه وسلم».
(٢) كتاب الشفاء.

ومن أوضح أمثلته ما وقع عند وفاة ابنه سيدنا ابراهيم[١]، فقد كسفت الشمس يوم موته فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فخطب رسول الله - ﷺ - فقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله - عز وجل - لا ينكسفان لموت أحد ولحياته، فاذا رأيتم ذلك فادعوا الله وكبروا، وصلّوا وتصدقوا[٢].

ولو كان مكان رسول الله - ﷺ - في هذه المناسبة الحزينة العاطفية أي داع من الدعاة أو زعيم من الزعماء، أو قائد دعوة وحركة وجماعة كان أقل مواقفه من هذا التعليق أو التفسير للحادث، السكوت لأنه كان في صالح دعوته وحركته، ولأنه يضفي على شخصه وأسرته ما يستطيع أن يستعين به، في بسط نفوذه على قلوب الناس وعقولهم، وتقوية ثقتهم به، واعجابهم له، وذلك شيء يتمناه قادة الشعوب والجماعات، ومنشئو الدول والحكومات، ويعملون له ألف حيلة، وقد هيأ الله له ذلك من طريق الغيب، فلا عليه إن سكت، ولكنه -ﷺ - لم يحتمل سماع هذا الكلام، ولم يسكت عليه لدقيقة، بل بادر إلى ازالة هذا الوهم الذي يجر إلى فساد العقيدة، وربط الحوادث الكونية، وسنن الله - تعالى - في خلقه بما يقع لأفراد البشر، ولو كانوا من الأنبياء أو أولادهم وأفراد أسرتهم من ولادة وموت وصحة ومرض، وذلك مدخل قديم، دخل منه الشرك وتقديس العباد في الأمم السابقة فنفى هذا الأسلوب من التفكير الجاهلي، وأوضح الحقيقة، وشرع لذلك صلاة مخصوصة - هي صلاة الخسوف - لتوثيق الصلة بالله تعالى وعبادته واقتلاع هذه الجرثومة الجاهلية من النفوس والعقول.

---

(١) كان ذلك في العام العاشر من الهجرة، وكان ابن سنة ونصف.

(٢) حديث متفق عليه.

وكذلك لم يسعه السكوت حين قال رجل: «ما شاء الله وشئت» فقال - صلى الله عليه وسلم - : «أجعلتني لله نداً» وقال رجل - وهو يخطب -: «من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى» فقال: «بئس خطيب القوم أنت»[1].

وفي هذه المواقف يتجلى «الموقف النبوي» وما يمتاز به الأنبياء عن القادة والزعماء وعظماء البشر، من تجرد عن الأنانية، واستغلال الحوادث وضعف العقول في صالحهم، والسماح للمدح والاطراء ولو تخطّى الحدود، وكان رسول الله - ﷺ - إمام الانبياء في ذلك والأسوة الكاملة، وقد قال: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فانما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله[2].

تواضعه صلى الله عليه وسلم:

أما تواضعه صلى الله عليه وسلم فقد بلغ الغاية فيه، فلم يكن يحب التمييز في شيء، ولا أن يقوم له الناس، وأن يبالغوا في مدحه، فيطروه، كما أطرت الأمم السابقة أنبياءها، أو أن يرفعوه من منزلة العبودية والرسالة، قال أنس: لم يكن شخص أحب الينا من رسول الله ﷺ وكنا إذا رأيناه، لم نقم له لما نعلم من كراهيته لذلك[3]، وقيل له: يا خير البرية! فقال: ذاك ابراهيم - عليه السلام -[4].

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) حديث متفق عليه.

(٣) رواه الترمذي باب «ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل»؛ ورواه أحمد في المسند ج٣؛ ص ١٣٢.

(٤) رواه مسلم في كتاب الفضائل (باب «من فضل ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم»).

وروي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنـا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله[١].

وعن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ لا يستنكف أن يمشي مع العبد، ولا مع الأرملة، حتى يفرغ لهم من حاجتهم[٢]، وعن أنس قال: كانت الأمة من اماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت[٣].

ولما قدم عليه عدي بن حاتم الطائي، دعاه إلى منزله فألقت اليه الجارية وسادة يجلس عليها، فجعلها بينه وبين عدي، وجلس على الأرض، قال عدي: فعرفت أنه ليس بملك[٤].

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجيب دعوة العبد[٥].

وعن جابر - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير فيزجي[٦] الضعيف ويدعو له[٧].

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء.
(٢) رواه البيهقي في باب تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم.
(٣) رواه أحمد في المسند ج ٣، ص ١٩٨-٢١٥، وجمع الفوائد ج ٢، كتاب المناقب باب صفاته وأخلاقه صلى الله عليه وسلم.
(٤) زاد المعاد ج ١، ص ٤٣.
(٥) رواه الترمذي في الشمائل؛ باب «تواضع النبي صلى الله عليه وسلم».
(٦) أي يسوق.
(٧) رواه المنذري في «الترغيب والترهيب».

وعن أنس - رضي الله عنه - أنه كان صلى الله عليه وسلم يدعى إلى خبز الشعير والاهالة[1] السنخة، فيجيب[2].

وروي عنه أنه قال: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد[3]، ويقول عبد الله بن عمرو بن العاص: دخل على رسول الله ﷺ فألقيت له وسادة من أدم حشوها ليف، فجلس على الأرض، وصارت الوسادة بيني وبينه[4].

وكان صلى الله عليه وسلم يقم البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق[5].

شجاعته وحياؤه:

وقد كان يجمع بين الحياء والشجاعة، وقد اعتبرهما كثير من الناس من الأضداد، أما الحياء فقد روي عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أنه كان أشد حياء من العذراء في خدرها وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه[6]، وكان يمنعه الحياء عن أن يواجه أحداً بما يكرهه، فيكل ذلك إلى غيره، روى أنس - رضي الله عنه - أنه كان عنده صلى الله عليه وسلم رجل له أثر صفرة، فكان صلى الله عليه وسلم لا

---

(١) الاهالة: كل شيء من الأدهان مما يؤتدم به، والسنخة: المتغيرة الريح.
(٢) رواه الترمذي في الشمائل في باب «تواضع النبي صلى الله عليه وسلم؛ ورواه أحمد في المسند ج٣ ص٢١١.
(٣) الشفاء ص ١٠١.
(٤) الأدب المفرد ص ١٧٢.
(٥) كتاب الشفاء، ص ١٠١، رواية عن البخاري.
(٦) رواه البخاري في كتاب المناقب؛ باب «صفة النبي صلى الله عليه وسلم».

يكاد يواجه أحداً بشيء يكرهه، فلما قام، قال للقوم: لو قلتم: يدع هذه الصفرة[١].

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن أحد ما يكرهه، لم يقل ما بال فلان يقول كذلك، ولكن يقول: ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهي عنه، ولا يسمي فاعله[٢].

أما الشجاعة، فناهيك بشهادة علي فارس الفرسان، وفتى الفتيان، قال - رضي الله عنه -: إنا كنا إذا اشتد البأس، واحمرت الحدق، اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو[٣].

يقول أنس - رضي الله عنه - كان النبي ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس وأشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق الناس قبل الصوت، فاستقبلهم النبي ﷺ قد سبق الناس إلى الصوت، وهو يقول: لن تراعوا لن تراعوا، وهو على فرس لأبي طلحة عري، ما عليه سرج، وفي عنقه السيف، فقال: لقد وجدته بحراً، أو أنه لبحر[٤].

وقد ثبت في معركة أحد، ويوم حنين، حين انكشف عنه الشجعان، وخلا الميدان، وهو ثابت على بغلته، كأن لم يكن شيء ويقول:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل، باب «خلق رسول الله ﷺ».
(٢) معنى الحديث في سنن أبي داود باب «حسن العشرة».
(٣) الشفاء ص ٨٩.
(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد؛ ص ٤٦، ورواه الشيخان في الصحيحين.

رأفة عامة ورحمة واسعة:

وكان مع شجاعته هذه، رقيق القلب، سريع الدمعة، يرق للضعفاء، ويرحم الحيوانات والدواب، ويوصي بالرفق بها، يروي عنه شداد بن أوس، فيقول: قال رسول الله ﷺ: إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته[١].

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رجلاً أضجع شاة وهو يحد شفرته، فقال النبي ﷺ: أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها[٢].

وقد أوصى أصحابه بالاحسان في علف الدابة وسقيها وعدم ارهاقها وتكليفها ما لا تطيق وعدم اتخاذها غرضاً، ونوه بما في ازالة الكربة عن الحيوانات واراحتهم من الأجر والثواب والقرب عند الله. روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه، ثم أمسكه بفمه، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له، قالوا: يا رسول الله! وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر[٣].

---

(١) رواه مسلم في باب «الأمر باحسان الذبح» (كتاب الذبائح).

(٢) رواه الطبراني والحاكم، وقال صحيح على شرط البخاري.

(٣) رواه البخاري في كتاب المساقاة، باب «فضل سقي الماء»، ومسلم في باب «فضل سقي البهائم».

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: عذبت امرأة في هرة لم تطعمها، ولم تسقها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض[1].

وعن سهل بن عمرو (وقيل سهل بن الربيع بن عمرو) قال: مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه، فقال: اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة! فاركبوها صالحة وكلوها صالحة[2].

وعن عبد الله بن جعفر - رضي الله عنهما - قال: دخل رسول الله ﷺ حائطا لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلما رأى رسول الله ﷺ حن وذرفت عيناه، فأتاه النبي ﷺ فمسح سراته[3]، وذفراه، فسكن، فقال: من رب هذا الجمل؟. لمن هذا الجمل فجاء فتى من الأنصار، فقال : هذا لي يا رسول الله! قال: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله اياها؟، فإنه يشكو إلي أنك تجيعه وتدئبه[4].

وروى أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ إذا سافرتم في الخصب، أعطوا الإبل حظها من الأرض، وإذا سافرتم بالجدب، فأسرعوا عليها السير، وبادروا بها نقيها، وإذا عرستم فاجتنبوا الطريق، فإنها طريق الدواب ومأوى الهوام بالليل[5].

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حمرة، معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجعلت تفرش، فجاء النبي ﷺ فقال: من فجع هذه بولدها ردوا ولدها

---

(١) وهي هوام الأرض وحشراتها، ذكره النووي، رواه مسلم.
(٢) رواه أبو داؤد في باب «ما يؤمر به من القيام على الدواب».
(٣) أي سنامة.
(٤) رواه أبو داود في باب «ما يؤمر به من القيام على الدواب».
(٥) رواه مسلم في باب «مراعاة مصلحة الدواب».

إليها، ورأى قرية نمل قد حرقناها قال: من حرق هذه؟ فقلنا نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار[١].

هذا فضلاً عما أوصاه للخادم والأجير، وهما بشر من البشر، ولهما فضل على السيد والمستأجر، فقد أوصى صلى الله عليه وسلم بالخدم والعبيد خيراً. روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه كان النبي ﷺ يوصي بالمملوكين خيراً، ويقول: أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم من لبوسكم، ولا تعذبوا خلق الله عز وجل[٢]. ان اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم[٣]، فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم.

وروي عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله! كم أعفو عن الخادم كل يوم؟ قال: سبعين مرة[٤].

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه[٥].

أسوة كاملة وقدوة عامة:

ونختم هذا الفصل بقطعة جميلة نقتبسها من كتاب «الرسالة المحمدية» لمؤلف السيرة النبوية الشهير، أستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي، ذكر فيها كيف كان النبي ﷺ أسوة لجميع طبقات البشر، ويصلح

---

(١) رواه أبو داود في كتاب الجهاد، باب «كراهية حرق العدو بالنار».
(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» ص٣٠.
(٣) رواه البخاري في صحيحه في باب قول النبي ﷺ «العبيد اخوانكم» وأبو داود في باب «حق المملوك».
(٤) رواه الترمذي وأبو داود.
(٥) رواه ابن ماجه في أبواب الرهون (باب أجر الأجراء).

أن يكون قدوة لجميع أفراد بني آدم - على اختلاف صنائعهم ومهنهم وظروفهم وبيئاتهم في كل زمان؟، يقول - رحمه الله -:

«لقد مثلت حياة النبي ﷺ أعمالاً كثيرة متنوعة، بحيث تكون فيها الأسوة الصالحة، والمنهج الأعلى، للحياة الإنسانية في جميع أطوارها، لأنها جمعت بين الأخلاق العالية والعادات الحسنة، والعواطف النبيلة المعتدلة، والنوازع العظيمة القويمة.

إذا كنت غنياً مثرياً، فاقتد بالرسول ﷺ عندما كان تاجراً يسير بسلعه بين الحجاز والشام، وحين ملك خزائن البحرين، وإن كنت فقيراً معدماً فلتكن لك أسوة به وهو محصور في شعب أبي طالب، وحين قدم إلى المدينة مهاجراً اليها من وطنه، وهو لا يحمل من حطام الدنيا شيئاً، وإن كنت ملكاً فاقتد بسننه وأعماله حين ملك أمر العرب، وغلب على آفاقهم، ودان لطاعته عظماؤهم وذوو أحلامهم، وان كنت رعية ضعيفاً، فلك في رسول الله أسوة حسنة أيام كان محكوماً بمكة في نظام المشركين، وإن كنت فاتحاً غالباً، فلك من حياته نصيب أيام ظفره بعدوه في بدر وحنين ومكة، وإن كنت منهزماً - لا قدر الله ذلك - فاعتبر به في يوم أحد وهو بين أصحابه القتلى ورفقائه المثخنين بالجراح، وإن كنت معلماً، فانظر اليه وهو يعلم أصحابه في صحن المسجد، وان كنت تلميذاً متعلماً، فتصور مقعده بين يدي الروح الأمين جاثياً مسترشداً، وإن كنت واعظاً ناصحاً ومرشداً أميناً، فاستمع اليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوي، وإن أردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف، وأنت لا ناصر لك ولا معين، فانظر اليه وهو ضعيف بمكة، لا ناصر ينصره، ولا معين يعينه، ومع ذلك فهو يدعو إلى الحق ويعلن به، وإن هزمت عدوك وخضدت شوكته، وقهرت عناده، فظهر الحق على يديك، وزهق الباطل، واستتب لك الأمر، فانظر إلى النبي ﷺ يوم دخل مكة، وفتحها وإن أردت أن تصلح أمورك، وتقوم

على ضياعك، فانظر اليه صلى الله عليه وسلم وقد ملك ضياع بني النضير وخيبر، وفدك، كيف دبَّر أمورها، وأصلح شؤونها، وفوضها إلى من أحسن القيام عليها، وإن كنت يتيماً، فانظر إلى فلذة كبد آمنة وزوجها عبد الله، وقد توفيا، وابنهما صغير رضيع، وإن كنت صغير السن، فانظر إلى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الحنون حليمة السعدية، وإن كنت شاباً فاقرأ سير راعي مكة، وإن كنت تاجراً مسافراً بالبضائع، فلاحظ شئون سيد القافلة التي قصدت « بصرى » وإن كنت قاضياً أو حكماً فانظر الى الحكم الذي قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الأسود في محله، وقد كاد رؤساء مكة يقتتلون، ثم ارجع البصر اليه مرة أخرى، وهو في فناء مسجد المدينة يقضي بين الناس بالعدل، يستوي عنده منهم الفقير المعدم، والغني المثري، وإن كنت زوجاً، فاقرأ السيرة الطاهرة والحياة النزيهة لزوج خديجة وعائشة، وإن كنت أبا أولاد، فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء، وجد الحسن والحسين، وأياً من كنت، وفي أي شأن كان شأنك، فإنك مهما أصبحت أو أمسيت، وعلى أي حال بتّ أو أضحيت، فلك في حياة محمد ﷺ هداية حسنة، وقدوة صالحة تضيء لك بنورها دياجي الحياة، وينجلي لك بضوئها ظلام العيش، فتصلح ما اضطرب من أمورك، وتثقف بهديه أودك، وتقوّم بسننه عوجك، وأن السيرة الطيبة الجامعة لشتى الأمور هي ملاك الأخلاق، وجماع التعاليم، لشعوب الأرض، وللناس كافة، في أطوار الحياة كلها، وأحوال الناس على اختلافها وتنوعها، فالسيرة المحمدية نور للمستنير، وهديها نبراس للمستهدي وارشادها ملجأ لكلّ مسترشد[١].

---

(١) « الرسالة المحمدية »؛ ص١٣٥ - ١٣٧. (تعريب الأستاذ محمد ناظم الندوي).

فضل البعثة المحمدية على الإنسانية ومنحها العالمية الخالدة[1]

اعلان فريد في تاريخ الرسالات والديانات:

قال الله تعالى مخاطباً لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[2]، هذا اعلان فريد من نوعه، جاء في كتاب خالد قدر الله سبحانه وتعالى له أن يتلى في كل مكان وزمان، ويبلغ عدد قرائه ملايين الملايين، وقال عنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[3].

ان سعة هذا الاعلان، واطاره الكبير، ومساحته بحساب الزمان والمكان، تجعلان هذا الاعلان خارقاً للعادة لا يمكن أن يمر به الإنسان

---

(١) محاضرة ألقاها المؤلف في ٢٠ ربيع الآخر ١٣٩٥هـ (١٩٧٥/٥/٢م) في قاعة المحاضرات الكبرى بمدينة لكهنؤ - الهند، حضرها جم غفير من المثقفين من جميع طبقات الشعب؛ من المسلمين وغير المسلمين؛ نقلها إلى العربية الأستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» وتناولها الحاضر بالتنقيح والتهذيب وشيء من الحذف والزيادة. ولما كانت هذه المحاضرة وثيقة الصلة بالسيرة النبوية، وفضلها على الإنسانية والمدنية، جعلها المؤلف الفصل الأخير لهذا الكتاب.

(٢) سورة الأنبياء - ١٠٧.

(٣) سورة الحجر - ٩.

الواعي مراً عابراً سريعاً، فإن مساحته الـزمنيـة تحوي جميع الأجيال، والأدوار التاريخية التي تتلو البعثة المحمدية، ومساحته المكانية تسع العالم كله، فإن الله سبحانه وتعالى لم يقل إننا أرسلناك رحمة لجزيرة العرب، أو للشرق أو الغرب أو لقارة، مثل آسيا مثلاً، بل إنه قال: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

الحق أن سعة هذا الاعلان وشموله، وعظمته وسموه، واستمزاره وخلوده، كل ذلك يقتضي أن يقف عنده مؤرخو العالم وفلاسفته، ونوابغه وأذكياؤه حيارى مشدوهين، بل يقف أمامه الفكر الإنساني كله حائراً مشدوهاً، وينقطع اليه كلياً - ردحة من الزمن - يبحث في مدى صدق هذا الإعلان، أو صحة هذا الواقع، لأننا لم نجد في تاريخ الأديان والنحل، وفي تاريخ الحضارات والفلسفات وتاريخ الحركات الاصلاحية والمحاولات الثورية، بل في تاريخ العالم كله، وفي المكتبة الإنسانية بأسرها مثل هذا الاعلان المحيط بالكون كله، والأجيال البشرية كلها، والأدوار التاريخية بأجمعها، حول أي شخصية من شخصيات العالم، حتى أن خلاصة تعاليم الأنبياء السابقين، ونبذة من أحوالهم وسيرتهم التي وصلت الينا هي أيضاً مجردة عن مثل هذا الاعلان.

أما اليهودية - وهي ديانة قديمة مشهورة - فإنها تنظر إلى الله كرب بني اسرائيل، وإله بني اسرائيل في الغالب، ان صحف العهد القديم، والكتب المقدسة الدينية عند اليهود تخلو عن ذكر الله كرب العالمين، ورب الكون بتاتاً، ولذلك فالبحث في سيرة نبي من أنبيائهم، مثل موسى وهارون، أو داود وسليمان، عن مثل هذا الاعلان، عبث واضاعة وقت، فإن هذه الديانة لم تكن - في أي مرحلة من مراحلها - رسالة رحمة ومساواة للجيل الإنساني كله من غير تمييز

عنصري ولم تشجع فيها الدعوة إلى هذه الديانة خارج شعب إسرائيل أبداً[١].

أما المسيحية التي عرفت بتسامحها وحماسها للدعوة، وعطفها على الإنسانية، فقد جاء في الانجيل تصريح - والعهدة على الكتاب - بأن المسيح صرّح بأنه لم يبعث إلا ليرعى خراف بني اسرائيل الضالة[٢]، وحين لفت نظره إلى بعض المرضى الذين لم تكن لهم صلة رحم ونسب ببني اسرائيل اعتذر وقال: «إني لست ذلك الرجل الذي يعطي خبز الأولاد للكلاب»[٣].

أما الديانات الشرقية والآسيوية الأخرى، وخاصة الهندوكية فإنها لا تختلف كثيراً عن النموذج السابق، بل إنها تسبق الديانات السابقة أحياناً في تقديس النسب والسلالة، وتوزيع الناس في طبقات توزيعاً ظالماً جائراً، لا يعرف اللين والمرونة، فقد كان المنبوذون في المجتمع الهندي محرومين من كل نوع من التكريم والشرف والمساواة، ومن أولى حقوق الإنسان، وأبسط مبادىء الإنسانية، لا يجوز لهم تحصيل العلم، والتعليم والتدريس، والتطلع الى الهضبة الروحية، فقد خص دراسة «ويدا» وتقديم القرابين، والنذر لآلهتهم وأوثانهم بالبراهمة فحسب[٤]، وكان النظر في كتب «ويدا» ودراستها مقصوراً على فئة الشتري والويش[٥] وقد صرح «منوشاشتر» أن المنبوذين لم يخلقهم الله إلا لغرض واحد، وهو خدمة الطبقات الثلاث التي مضى ذكرها[٦]، إن أهل الهند

---

(١) انظر للتوسع والتفصيل في هذا الموضوع كتاب المهتدية الأمريكية الفاضلة مريم جميلة:
«Islam Versus Ahl-El-Kitab, past & Present 22-23.

(٢) انجيل متى، باب ١٥ - آية ٢٤، وباب ١٠ آية ٦ - ٧.
(٣) متى، باب ١٥ - آية ٢٦.
(٤) منوشاشتر؛ الباب الأول - ٨٨.
(٥) الباب الأول - آية ٨٩ - ٩٠.
(٦) الباب الأول - ٩١.

القدامى لم يكونوا يعرفون وراء جبال «هملايا» دنيا، لا صلة لهم بالعالم الخارجي، وبالشعوب الأخرى، ولا رغبة لهم في الاطلال عليها، لذلك فإن البحث عن مثل هذا الاعلان عن نبي أو ولي أو مصلح فيهم عبث واضاعة جهد ووقت، الحقيقة أن البحث عن نبي يكون رحمة للعالمين في ديانة لا تحمل عقيدة «رب العالمين» غير معقول وغير منطقي.

قيمة الرحمة التي اقترنت بالبعثة المحمدية كماً وكيفاً:

إن لتقدير شيء ووضعه في محله المناسب ومكانه اللائق مقياسين بصورة عامة، الأول مقداره وحجمه الذي يعبر عنه في المصطلح الحديث بالكمية Quantity والثاني جوهره ووصفه الذي يقال له الكيفية Quality، وهذا الاعلان الذي نادى به القرآن يشمل هذين النوعين، ويجمع بين الناحيتين، فإن بعثته ﷺ وشخصه العظيم، وتعاليمه السامية الخالدة، أفاضت على الإنسانية مسحة جديدة من الحياة والنشاط، وكانت السبب المباشر في شفائها من أسقامها وعلاتها، وفي حل معضلاتها، ونهاية آلامها وأحزانها، وهطول أمطار الرحمة والبركة، واليمن والسعادة، والخير والفلاح على أرضها المجدبة القاحلة، وكانت هذه المعطيات المحمدية الغالية، منقطعة النظير بحساب السعة والوفرة، والحجم والكمية Quantity وبحساب النفع والإفادة والجوهر والكيفية Quality أيضاً.

«الرحمة» لفظ شاع استعماله في حياتنا اليومية، وهو يطلق على كل شيء ينال به الإنسان نفعاً وراحة، أما أنواع الرحمة وأقسامها، ودرجاتها ومدارجها، فلا حصر لها، يقدم أحدنا الماء البارد إلى أخيه العطشان، ويدل المسافر والغريب على الطريق، ويحرك له المروحة في يوم صائف شديد الحر، الأم تحنو على طفلها، الأب يربي ولده ويعلمه،

ويزوده بحاجيات الحياة، المدرس يدرّس تلاميذه، ويمنحهم ما عنده من نعمة العلم، وهكذا اطعام الجائع المسكين، وإكْرام الضيف، وكساء العريان، كل ذلك من مظاهر الرحمة العامة، وألوانها المختلفة الزاهية، وهي تستحق منا كل تقدير، واعتراف وشكره.

ولكن أكبر مظهر من مظاهر الرحمة، وأروع صورة من صورها الجميلة أن ينقذ أحدنا أخاه من مخالب الموت، هناك طفل صغير بريء نراه في حالة الاحتضار، كاد يلفظ نفسه الأخير، الأم تقف إلى جواره تبكي، قد أظلمت الدنيا في ناظريها، وانقطع أملها في فلذة كبدها، ومأوى حنانها وحبها، الأب يسعى هنا وهناك هائماً على وجهه، فلا يجد راقياً وأنيساً، هنالك يأتي طبيب حاذق، كما ينزل الملك من السماء ويقول مهلاً.. لا داعي للقلق، ولا موجب لليأس، ولا يلقي في فم الطفل قطرات قليلة من الدواء حتى يفتح عينيه وينشط. تصور ماذا يقال لهذا الطبيب، ألا يقال له أنه ملك الرحمة، أرسله الله لإنقاذ هذا الطفل، وإعادة الحياة إليه؟ هنالك تتلاشى كل هذه الأنواع من الرحمة التي قدمناها أولاً، وتذوب أمام هذا المظهر الرائع الأخاذ من الرحمة، إنها ليست منة على الطفل فقط، بل على أسرته كلها.

نرى أعمى يمشي متوكئاً على عصاه، قد شارف هوة عميقة أو بئراً، قد تكون خطواته التالية خطوة الموت، فيهرول إليه عبد من عباد الله ويأخذ بحجزه ويمنعه عن الوقوع في هذه الهوة، أفلا نسميه ملك الرحمة؟.

هذا شاب يافع، قرة عين أبويه، وكفيل عائلته الفقيرة قد أشرف على الغرق في نهر فائض يحاول أن يطفو على الماء، ولكن بدون جدوى، فيقفز إليه رجل مجازفاً بحياته، ويأخذ به إلى ساحل النجاة، فيحمله رب الأسرة أو إخوة هذا الشاب، على أعناقهم ويضمونه إلى صدورهم،

بحرارة وحب، ولا ينسون فضله على أسرتهم الصغيرة مدى الدهر! ترى هل تساوي مظاهر الرحمة الأولى، هذه الرحمة العظيمة الغالية؟

البعثة المحمدية أنقذت الجيل البشري من الشقاء والهلاك:

ولكن آخر مظهر من مظاهر الرحمة وقمتها وذروة سنامها، هي أن ينقذ رجل الإنسانية كلها من الهلاك، وهناك فرق عظيم بين هلاك وهلاك، وبين خطر وخطر، ذلك هلاك محدود سطحي، وخطر عابر قد يزول، وهذا هلاك أبدي، وخطر مستمر لا يزول، لذلك فإن رحمة الأنبياء بالنوع البشري لا تقاس أبداً على هذه الرحمات، رغم أهميتها وعظمتها.

إن أمامنا بحراً هائجاً مائجاً من الحياة لم يلتقم الأفراد والآحاد فحسب، بل إنه ابتلع الأمم والبلاد، وهضم الحضارات والمدنيات، ترتفع أمواجه العاتية الهائلة، كأفواه التماسيح الفاغرة، وتنقض على الجماعات البشرية كالأسد الضاري، والمشكلة أنه كيف نعبر هذا البحر الهادر الزاخر الذي لا يعرف الرحمة، وكيف ننزل بسفينة الإنسانية على بر الأمان، ولا يكون صاحب الفضل الأكبر في هذا المجال، ولا يعتبر أكبر منقذ للإنسانية وصاحب المنة عليها، والإحسان إليها، إلا من يجدف هذه السفينة، التي تلعب بها العواصف الهوجاء والأمواج الهائلة كالجبال، والتي غاصت بركابها، وغاب الملاح والربان ثم يوصلها بسلامة إلى ساحل النجاة!

إن النوع البشري شاكر لهؤلاء الذين منحوه هدية العلم، ويشكر هؤلاء الذين جمعوا له هذه الأكداس من المعلومات، ويشكر الذين هيأوا له كل هذه التسهيلات، وزودوه بوسائل الراحة والرخاء، وذللوا صعاب الحياة، واقتحموا عقباتها وشعابها، انه لا يبخس حق أحد من هؤلاء، ولا ينكر فضلهم عليه، ولكن قضيته الكبرى، ومشكلته الأولى هي أنه

كيف ينقذ نفسه من أعدائه الذين وقفوا له بالمرصاد، وأحاطوا به من كل جانب، وكيف يصل بسفينته إلى بر السلامة والأمان.

فما هي أمواج هذا البحر، وما هي تماسيحه الضارية الشرسة؟.

إنها الجهل عن خالق هذا الكون ورب العالمين، وعن صفاته العليا، وأسمائه الحسنى والوقوع في حبائل الشرك والوثنية، وعبادة الأصنام، والاسترسال مع الخرافات والأوهام، إنها بلادة حسّ الإنسانية، وذهولها عن نفسها، وغفلتها عن خالقها وبارئها.

إنها عبادة المادة والمعدة، وتعدي الحدود، وانتهاك الحرمات، وسورة النفس الأمّارة بالسوء، والتهرب من أداء الواجبات والحقوق، والإصرار على المنافع والحظوظ.

إن أكبر خطر على الإنسانية أن يحدث في بنائها خلل، وتحيد لبنتها الأساسية عن مكانها الصحيح، فينسى الإنسان قيمته ومداركه، وغاية حياته، ويظن نفسه ذئباً مفترساً، أو أفعى أو ثعباناً، فحين يذهل الإنسان عن هذه الحقائق الكبرى يتحول بحر هذه الحياة إلى نار متأججة، ولهب مرتفع، هنالك يزدرد الإنسان أخاه، ويفترسه، ولا يحتاج إلى الثعابين، والعقارب، والذئاب، والفهود... فقد ينقلب الإنسان أكبر ذئب في هذه الغابة الإنسانية... تخجل أمامه ذئاب، ويتحول شيطاناً مارداً، تستحي منه الشياطين، هنالك يحترق الإنسان، ويشوي في ناره التي أشعلها بنفسه، ولا يحتاج إلى أن يستوردها من الخارج.

في هذه الفترة الرهيبة المظلمة تهب نفحة من نفحات الرحمة الإلهية، وتنعش رفات الإنسانية الخامدة الهامدة، وتزودها بملاحين يجدفون سفينتها بنجاح ومهارة.

مهمة النبوة ودورها في الإنقاذ والإسعاد وطبيعة عمل الأنبياء:

وأضرب - لتوضيح مهمة النبوة، وطبيعة عمل الأنبياء مثلاً - سوف نفهم به مهمة النبوة وموقفها من غير دلائل فلسفية دقيقة.

يحكى أن فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينة للنزهة في البحر، أو للوصول إلى البر، وكان في النفس نشاط وفي الوقت سعة، وكان الملاح الجدف الأمي خير موضوع للدعابة والتنادر، وخير وسيلة للتلهي، وترويح النفس، فخاطبه تلميذ ذكي جريء وقال: يا عم ماذا درست من العلوم؟ قال الملاح: ولا شيء يا عزيزي! قال: أما درست العلوم الطبيعية يا عمي؟ قال: كلا وما سمعت بها.

وتكلم أحد التلاميذ، فقال: ولكنك لا بد درست الأقليدس والجبر والمقابلة! قال: وهذا أغرب، وتصدقون أني أول مرة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة.

وتكلم ثالث «شاطر» فقال:ولكني متأكد من أنك درست الجغرافية والتاريخ؟ فقال: هل هما اسمان لبلدين، أو علمان لشخصين؟.

وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة، وعلا صوتهم بالقهقهة، وقالوا: ما سنك يا عم؟ قال أنا في الأربعين من سني! قالوا: لقد ضيعت نصف عمرك يا عمنا، وسكت الملاح الأمي على غصص ومضض، وبقي ينتظر دوره والزمان دوار.

وهاج البحر وماج، وارتفعت الأمواج، وبدأت السفينة تضطرب، والأمواج فاغرة أفواهها لتبتلعها، واضطرب الشباب في السفينة - وكانت أول تجربتهم في البحر - وأشرفت السفينة على الغرق.

وجاء دور الملاح الأمي، فقال في هدوء ووقار: ما هي العلوم التي درستموها يا شباب؟ وبدأ الشباب يتلون قائمة طويلة للعلوم والآداب

التي درسوها في الكلية، ويتوسعون فيها في الجامعة، من غير أن يفطنوا لغرض الملاح الجاهل، الحكيم، ولما انتهوا من عد العلوم المرعبة أسماؤها، قال في وقار تمزجه نشوة الانتصار: لقد درستم يا أبنائي هذه العلوم الكثيرة فهل درستم علم السباحة؟، وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة - لا قدر الله - كيف تسبحون وتصلون إلى الساحل بسلام؟، قالوا: لا والله يا عم، هو العلم الوحيد الذي فاتتنا دراسته والإلمام به.

هنالك ضحك الملاح، وقال إذا كنت ضيعت نصف عمري، فقد أتلفتم عمركم كله، لأن هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان، إنما كان ينجدكم العلم الوحيد، هو علم السباحة الذي تجهلونه[1].

هذه مهمة النبوة ودورها في إنقاذ البشرية المشرفة على الغرق، وهذه طبيعة عمل الأنبياء والرسل، وامتيازه عن سائر أصناف التعليم والتربية، والترويح والتسلية، يمنحون الجيل البشري «علم النجاة» ويعلمونه فن السباحة، وتجديف سفينة الحياة.

إن التاريخ الإنساني يدل دلالة واضحة على أنه لما غرقت سفينة الحياة لفساد أخلاق الناس، وسيئات أعمالهم، غرقت بكل ما فيها من مجموعة بشرية، ورصيد حضاري، ومحصول فكري، وإنتاج علمي وفلسفي، وبكل ما فيها من روائع الشعر والأدب والبيان، وأن هذه السفينة لم تغرق أبداً من أجل الانحطاط الأدبي، وقلة المدارس والجامعات، وفقدان التعليم العالي، أو من قلة المال وانخفاض مستوى المعيشة، إنها غرقت لأن الإنسان أعد نفسه للانتحار، انه صار معولاً هداماً لذلك البناء الذي فيه متاعه وأهله، إن التاريخ يدلنا على أن

---

(١) القصة مقتبسة من كتاب المؤلف «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن».

الفكر الإنساني أصيب في كثير من الأحيان بنوبات عصبية دفعته إلى التدمير والإبادة، بدلا من التعمير والبناء، فقد رأينا مستغربين مأخوذين بالحيرة والدهشة، ورأينا بأم أعيننا، ونحن لا نكاد نصدق هذا الواقع لهول المنظر وبشاعة الوضع. إن الإنسان قام يهدم أساسه بكل قوة وحماس، ذلك الأساس الذي قام عليه صرحه الحضاري والفكري العظيم، وظل مشتغلاً بهذه العملية المجنونة بكل شوق ورغبة، كأنها عملية بناءة ومأثرة إنسانية رائعة، وخدمة ممتازة، وصار يلح على الوقوع في خندق الموت، وقد تملكته السآمة من الحياة، واستبد به الشوق إلى الهلاك، كأن الحياة عذاب وجحيم، والهلاك جنة ونعيم.

تصوير العصر الجاهلي وتهيؤه للإنهيار والانتحار:

ذلك هو الوضع الذي ساد على العالم في القرن السادس المسيحي، فإننا نجد هناك استعدادات عامة للإنتحار الاجتماعي العام. لم يكن النوع البشري في ذلك الزمان راضياً بالإنتحار فحسب، بل كان يتساقط عليه، ويتهالك فيه، كأنه نذر به وحلف، فيريد أن يفي بنذره ولا يحنث في قسمه، ولقد صور القرآن العظيم هذا المنظر وهذا الوضع تصويراً دقيقاً، لا يصوره أي رسام أو أديب، أو روائي أو مؤرخ:

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً، وكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾[1].

رحم الله المؤرخين، فإنهم لم يصوروا الجاهلية حين سردوا لنا وقائع البعثة المحمدية - تصويراً صحيحاً دقيقاً، وهم معذورون ومأجورون،

---

(١) سورة آل عمران - ١٠٣.

مثابون ومشكورون، فإن ذخيرة الأدب واللغة لا تسعفهم كل الإسعاف، الحقيقة أن هذا الوضع في قمة من الهيبة والفظاعة، وفي منتهى الدقة والتعقيد، لا يمكن وصفه بريشة قلم، والتعبير عنه بأي قدرة بيانية، وصلاحية لغوية.

هل كان العصر الجاهلي - الذي بعث فيه محمد ﷺ - قضية انحطاط اجتماعي أو خلقي، هل انه كان قضية وثنية مجردة، أو قضية خمر وقمار، وعبث واستهتار أو ظلم واستبداد، قضية قوانين اقتصادية جائرة، وتعسف الحكام الغاشمين، هل إنه كان قضية وأد البنات، كلا، إنه كان قضية وأد الإنسانية كلها،

لقد انتهى هذا الدور، وانقرض هذا الجيل، وغاب هذا التصوير البشع عن أعين الناس فكيف نعيده ونمثله، ونجعله حسياً شاخصاً تراه الأبصار، وتلمسه البنان، وجل ما نستطيع أن نقول، انه عصر جاهلي لا يفهمه حق الفهم إلا من عاش فيه واكتوى بناره، ولو كان لمصور يحاول التصوير يمكن أن يمثل البشرية في صورة إنسان في غاية الجمال والصحة، والأناقة وحسن الهندام، الإنسان الذي هو نموذج بديع فريد، لصنع الله الذي أتقن كل شيء، والذي هو محسود الملائكة، وغاية الخلق، الذي كلله الله بتاج خلافته، فصار زينة الوجود، ولب لباب الحقيقة والعرفان، وبه تحولت هذه الأرض الخراب اليباب إلى روضة غنَّاء، وحديقة فيحاء، ثم يصور هذا الإنسان يريد أن يقفز في خندق عظيم هائل ترتفع منه ألسنة اللهيب، وقد تحفز واستجمع قواه، وجمع ثيابه، ورفع رجله في الفضاء فعلاً، وكاد يقع فيه، وما هي إلا دقائق وثوان حتى يغيب في هذا الظلام المهيب، ظلام الموت، فلعل هذا التصوير يصور بعض الجانب من العصر الجاهلي عند بعثة النبي ﷺ وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة، فقال في إيجاز وفي إعجاز: ﴿وكنتم على شفا

حفرة من النار فأنقذكم منها﴾، وذلك ما شرحه لسان النبوة بمثال رائع بليغ، فقال عليه الصلاة والسلام:

«مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت من حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه، فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقحمون فيها، وقال في آخرها: «فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني وتقحمون فيها»[1].

لقد كانت القضية الكبرى في هذه القصة كلها، أن تصل سفينة الإنسانية بسلامة الله وفي حفظه ورعايته إلى شاطىء النجاة، لأنه حين يستوي الإنسان ويعتدل طبعه، وتتحلى الحياة بالاقتصاد والإتزان، تنفعه - إذاً - كل هذه المشروعات البنائية والإنمائية، أو الأدبية والعلمية التي أوتي مواهبها كثير من أصدقاء الإنسانية وأنصارها. ومن هنالك، فإن الإنسانية كلها مدينة للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لأنهم أنقذوها من تلك الأخطار المحدقة التي سلطت على رأسها كالسيف المصلت، ولا يتحرر من منتهم وفضلهم مشروع علمي، وتخطيط اجتماعي، ولا مدرسة فكرية، أو فلسفية، كما أن العالم المعاصر مدين لهم في هذا البقاء والاستمرار، وجدارة الحياة، لأن الإنسان اعترف - أحياناً كثيرة - بلسان حاله، إن لم يقل بلسان مقاله، أنه فقد حق البقاء في هذه الأرض، وأنه لا يحمل الآن أي رحمة وبركة، وفيض وإفادة، ودعوة رسالة للإنسانية، إنه رفع الدعوى في المحكمة الإلهية ضد نفسه، وشهد عليه، لقد كانت ملفاته مهيأة للحكم العادل الأخير، وقد نصب الإنسان نفسه لأكبر عقوبة تتصور، بل لعقوبة الإعدام، ولا

---

(١) متفق عليه، برواية أبي هريرة رضي الله عنه.

عجب في ذلك، فحينما تتعدى المدنية حدودها الطبيعية وتخرج من طورها، وتنسى القيم الخلقية كلياً، أو تكفر بها صراحة وعلناً، ويتغافل الإنسان عن كل غاية نبيلة، ومقصد شريف، وعن كل واقع وحقيقة غير الحقائق المادية، وتحقيق مآربه الجسدية، وإرواء ظمئه الحيواني، وحينما يحل محل القلب الإنساني قلب الذئب والنمر والفهد، وتتكون في جسمه معدة خيالية أو صناعية، ونفس أمارة بالسوء، لا يقر لها قرار، ولا يضبطها وازع أو رادع، وحينما تصيب الإنسانية نوبة شديدة من الجنون، يبعث الله لها جماعة من الجراحين، أو عصابة من السفاحين، وتأتي لأورامها المنتفخة سكاكين من ظهر الغيب تقضي عليها وتقطع دابرها وتستأصل شأفتها.

إن فساد المدنية وهوسها وجنونها أشد من جنون الملكية والحكم الشخصي، وأوسع منه شراً لأنه حين يجن جنون شخص ضعيف نحيل واحد يقضّ مضاجع أهل الحارة كلها، وينغص عيشهم الهادىء. تصور ماذا يحدث في العالم، إذا جن جنون النوع البشري أجمع، وتنخر هيكل المدنية وتعفن، وفسدت طبيعة الإنسانية؟ هل له من رقية أو علاج؟

إلا أنه لم تفسد المدنية فحسب في العصر الجاهلي، بل تفسخت جثتها، وتعفنت ونشأت فيها ديدان قذرة، وأصبح الإنسان يقتنص الإنسان ويصطاده، ويتلذذ بسكراته وشدائده عند الموت، ويتمتع بحالة الاحتضار، كما يتمتع أحدنا بمنظر البساتين والأشجار والورود والأزهار ويطرب ويهتز لاضطرابه وتقلبه على الحجر، ويفرح بأنين المصاب والمريض والمنكوب، وصراخه وعويله، كما يفرح بالشراب الهنيء، والطعام الشهي أو بالمنظر السار الجميل.

سرح طرفك في تاريخ رومة التي تغنت أوربا - وما تزال - بفتوحها وبطولاتها، وأمجادها وتشريعها وحضارتها، تجد نموذجاً حياً للقسوة

البشرية التي بلغت قمتها في هذا العصر يقول «ليكي» في كتابه «تاريخ أخلاق أوربا» يصور جانباً من همجية الإنسان وضراوته، ووحشيته النادرة، يقول:

«إن أكثر المناظر سحراً على نفوس أهل رومة، وأعظم تسلية ومتعة لهم، كان حين يسقط الجريح في مبارزة أحد الأبطال من بني جنسه، أو مصارعة سبع ضار يتشحط في دمه، هنالك كان يفلت الزمام، ويغلب الناس على أمرهم، ويفقدون رشدهم، فيتهالك الحشد الحاشد - وفيه النساء والأطفال، والشيوخ العجز - على الدنو من هذا المنظر الرهيب، والإنسان البائس الشقي، وهو من بني جلدتهم وأبناء بلادهم ليمتعوا نفوسهم بمشاهدة احتضاره، وليرنّ في آذانهم رنين أنينه، فقد كان أجمل من كل غناء وموسيقى، وسجع الطيور، وكان رجال الشرطة الذين كان من واجبهم المحافظة على النظام، يقفون مشدوهين مكتوفي الأيدي أمام هذه الموجة العارمة من المتعة الظالمة الآثمة، لا يملكون من أمرهم شيئاً»[1].

لقد كانت قصة الجاهلية الأولى أن حجرها الأساسي حاد عن موضعه، بل تحطم وتهشم ولم يبق أمل في إصلاحه، ووضعه في محله الصحيح، ووقف الإنسان أمام المحكمة الإلهية ينتظر الحكم النهائي الأخير في مصيره، هنالك بعث محمد ﷺ ونادى صوت السماء ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

---

(١) راجع «تاريخ أخلاق أوربا» للمؤلف الإنجليزي «ليكي» ج١، ص ٢٣٠.

العالم الجديد في حساب البعثة المحمدية ومنحها:

الحقيقة التي لا مراء فيها أن هذا الدور الذي نعيشه، وما يليه من الأدوار التاريخية القادمة، كلها في حساب البعثة المحمدية، ودعوته العامة الخالدة، وجهوده المشكورة المثمرة، لأنه رفع - أولاً - هذا السيف المصلت على رقاب الإنسانية الذي كاد يقضي عليه، ثم أغناها بمنح غالية ومعطيات خالدة، وهدايا طريفة جديدة، بعث فيها الحيوية والنشاط، والهمة والطموح، والعزة والكرامة، والهدف الصحيح، والغاية النبيلة، واستهل - بفضل هذه المنح والمعطيات - عهد جديد من السمو الإنساني، والثقافة والمدنية، والربانية والإخلاص، وإنشاء الإنسان وتكوينه الخلقي والاجتماعي.

منح البعثة المحمدية الستة، وأثرها في تاريخ الإنسان:

ونذكر الآن - على سبيل المثال لا الحصر - ستة من معطياته الهامة، ومنحه الأساسية الغالية التي كان لها الدور الأكبر في توجيه النوع البشري، وإصلاحه وإرشاده، ونهضته وازدهاره والتي خلقت عالماً مشرقاً جديداً لا يشبه العالم الشاحب القديم في شيء.

عقيدة التوحيد النقية الواضحة:

مأثرته الأولى صلى الله عليه وسلم أنه منح الإنسانية عقيدة التوحيد الصافية الغالية، فهي عقيدة ثائرة معجزة، متدفقة بالقوة والحياة، مقلبة للأوضاع، مدمرة للآلهة الباطلة، لم تنل ولن تنال الإنسانية مثلها إلى يوم القيامة.

هذا الإنسان الذي يحمل دعاوى فارغة، ومزاعم جوفاء من الشعر والفلسفة والسياسة والإجتماع، والذي استعبد الأمم والبلاد مراراً كثيرة، والذي حول الأحجار الصماء أزهاراً عابقة فيحاء، وفجر الأنهار من

بطون الجبال، والذي ادعى الربوبية أحياناً، هذا الإنسان كان يسجد لأشياء تافهة لا تضر ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع، ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾[1]، وكان يركع أمام أشياء صنعها بنفسه، ويخافها، ويرجو منها الخير، إنه لم يخر ساجداً للجبال والأنهار، والأشجار والحيوانات، والأرواح والشياطين، وسائر مظاهر الطبيعة فحسب، بل سجد للحشرات والديدان أيضاً، وقضى حياته كلها بين هواجس ووساوس وبين أخيلة وأوهام، وأمان وأحلام، كانت نتيجته الطبيعية الجبن والوهن، والفوضى الفكرية، والقلق النفسي وفقدان الثقة، وعدم الاستقرار، فأغناهﷺ بعقيدة صافية نقية سهلة سائغة، حافزة للهمم، باعثة للحياة، فتخلص عن كل خوف ووجل، وصار لا يخاف أحداً إلا الله، وعلم علم اليقين، أنه وحده، هو الضار والنافع، والمعطي والمانع، وأنه وحده الكفيل لحاجات البشر، فتغير العالم كله في نظره بهذه المعرفة الجديدة، والاكتشاف الجديد، وصار مصوناً عن كل نوع من العبودية والرق، وعن كل رجاء وخوف من المخلوق، وعن كل ما يشتت البال، ويشوش الأفكـار، فقد شعر بوحدة في هذه الكثرة، واعتبر نفسه أشرف خلق الله، وسيد هذه الأرض، وخليفة الله فيها، يطيع ربه وخالقه، وينفذ أوامره، ويحقق بذلك هذا الشرف الإنساني العظيم، والعظمة الإنسانية الخالدة التي حرمتها الدنيا منذ زمن بعيد.

إنها البعثة المحمدية التي أتحفت الإنسانية بهذه التحفة النادرة - عقيدة التوحيد - التي كانت مجهولة مغمورة، مظلومة مغبونة، أكثر من أي عقيدة في العالم، ثم ردد صداها العالم كله، وتأثرت بها الفلسفات العالمية والدعوات العالمية كلها في قليل أو كثير.

---

(١) سورة الحج ٧٣.

إن بعض الديانات الكبيرة التي نشأت على الشرك وتعدد الآلهة، وامتزجت به لحماً ودماً، اضطرت في الاخير إلى أن تعترف - ولو بصوت خافت، وهمسة في الآذان - إن الله واحد لا شريك له - وأرغمت على تأويل معتقداتها المشركة تأويلاً فلسفياً يبرئها من تهمة الشرك والبدعة، وتجعلها متشابهة بعقيدة التوحيد في الإسلام بقدر ما، وبدأ رجالها وسدنتها، يستحون من الاعتراف بالشرك ويخجلون من ذكره، وأصيبت هذه الأنظمة المشركة كلها بمركب النقص، والشعور بالصغار والهوان Inferiority complex فكانت هذه التحفة أغلى التحف التي سعدت بها الإنسانية بفضل بعثته صلى الله عليه وسلم.

مبدأ الوحدة الإنسانية والمساواة البشرية:

ومأثرته الثانية العظيمة، ومنته الباقية السائرة في العالم، هو تصور الوحدة الإنسانية، كان الإنسان موزعاً بين قبائل وأمم وطبقات بعضها دون بعض، وقوميات ضيقة، وكان التفاوت بين هذه الطبقات تفاوتاً هائلاً كتفاوت بين الإنسان والحيوان، وبين الحر والعبد، وبين العابد والمعبود، لم تكن هناك فكرة عن الوحدة والمساواة إطلاقاً، فأعلن النبي ﷺ بعد قرون طويلة من الصمت المطبق، والظلام السائد، ذلك الاعلان الثائر، المدهش للعقول، المقلب للأوضاع: «أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله اتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى»[١].

وهذا الإعلان يتضمن إعلانين، هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما الأمن والسلام، وعليهما قام السلام في كل زمان ومكان، وهما وحدة الربوبية والوحدة البشرية، فالإنسان أخو الإنسان من جهتين، والإنسان

---

(١) كنز العمال.

أخو الإنسان مرتين، مرة «وهي الأساس» لأن الرب واحد، ومرة ثانية لأن الأب واحد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[1]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[2].

انها كلمات خالدة جرت على لسان النبي ﷺ في حجة الوداع وحينما قام النبي ﷺ بهذا الاعلان التاريخي العظيم، لم يكن العالم في وضع طبيعي هادىء يسيغ فيه هذه الكلمات الجريئة الصريحة، ويطيقها، إن هذا الإعلان لم يكن أقل من زلزال هائل عنيف، إن هناك أشياء قد نتحملها بصورة تدريجية، أو من وراء ستار، مثل التيار الكهربائي، فقد نلمسه إذا كان مغطى، أو داخلاً في باطن الأسلاك،... ولكننا إذا لمسناه عارياً أصابتنا صدمة عنيفة، أو قضي علينا بتاتا.

إن هذه الأشواط البعيدة، والمسافات الشاسعة من العلم والفهم، والفكر الإنساني التي قطعتها الإنسانية اليوم بفضل الدعوة الإسلامية، وظهور المجتمع الإسلامي، وبجهود الدعاة، والمصلحين والمربين، جعلت هذا الإعلان الهائل، الثائر الفائر، المزلزل لأوكار الجاهلية، ومعاقل الشرك والوثنية والعنصرية، حقيقة يومية عادية، تنادي بها اليوم كل مؤسسة سياسية واجتماعية في العالم، منها ميثاق حقوق الإنسان **Human Rights Charter** الذي حملت لواءه الأمم المتحدة، وتصريحات تقوم بها كل جمهورية وكل مؤسسة عن الحقوق الإنسانية، والمساواة الإنسانية، فلا

---

(١) سورة النساء، آية ١.

(٢) سورة الحجرات، آية ١٣.

يستغربها أحد، ولكن أتى على الإنسان حين من الدهر، سادت فيه عقيدة أشرفية بعض الأمم والأسر وكونها فوق مستوى البشر، وكانت بعض الأسر والسلالات تعزو نسبها إلى الشمس والقمر، وإلى الله سبحانه، ﴿تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً﴾ إن القرآن حكى لنا قول اليهود والنصارى، فقال: ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[1]، وكان فراعنة مصر يزعمون أنهم تجسيد لإله الشمس «رع» (Ray) ومظهر له.

أما في الهند فقد عرفت فيها أسرتان سميتا «سورج بنسي» يعني أبناء الشمس، و«جندربنسي» أبناء القمر، أما في إيران فقد كانت أكاسرتها يزعمون أنه يجري في عروقهم الدم الإلهي، وكان أهل البلاد ينظرون إليهم نظرة تقديس وتأليه، وكان من ألقاب كسرى أبرويز (٥٩٠ - ٦٢٨م) ووصفه «في الآلهة إنسان غير فان، وفي البشر إله ليس له ثان، علت كلمته، وارتفع مجده، يطلع مع الشمس بضوئه وينير الليالي المظلمة بنوره»[2].

وكذلك كانت للقياصرة آلهة، فكان كل من تملك زمام البلاد كان إلهاً، وكان لقبهم «August» يعني «المهيب الجليل»[3].

أما الصينيون فكانوا يعتبرون الامبراطور ابن السماء ويعتقدون أن السماء ذكر والأرض أنثى وباتصالهما خلق هذا الكون، وأن الأمبراطور ختا الأول هو بكر هذين الزوجين[4].

---

(١) سورة المائدة، آية ١٨.

(٢) إيران في عهد الساسانيين ص ٦٠٤.

(٣) راجع العالم الروماني «The Roman World» تأليف Victor Chopart ص٤١٨.

(٤) أنظر «تاريخ الصين» بقلم جيمس كاركرن.

أما العرب فكانوا يعتبرون كل من سواهم «العجم» وكانت قبيلة قريش ترى نفسها أشرف قبائل العرب، وتحافظ على امتيازها في الموسم، فلا تشارك الناس في مواقفهم ومساكنهم[1] ولم تكن تدخل عرفات[2] مع الحجيج، بل تبقى في الحرم وتقف بالمزدلفة، وتقول نحن أهل الله في بلدته، وقطان بيته، وتقول نحن حمس[3].

اعلان كرامة الإنسان وسموه:

والمنة الثالثة العظيمة على النوع البشري، هو إعلان كرامة الإنسان وسموّه، وشرف الإنسانية وعلو قدرها، لقد بلغ الإنسان قبل البعثة المحمدية إلى حضيض الذل والهوان، فلم يكن على وجه الأرض شيء أصغر منه وأحقر، وكانت بعض الحيوانات «المقدسة» وبعض الأشجار «المقدسة» التي علقت بها أساطير ومعتقدات خاصة، أكرم وأعز عند عبادها، وأجدر بالصيانة، والمحافظة عليها من الإنسان، ولو كان ذلك على حساب قتل الأبرياء، وسفك الدماء، وكانت تقدم لها القرابين من دم الإنسان ولحمه من غير وخز ضمير وتأنيب قلب، وقد رأينا بعض نماذجها وصورها البشعة في بلاد متقدمة راقية، كالهند في القرن العشرين، فأعاد سيدنا محمد ﷺ إلى الإنسانية كرامتها وشرفها، ورد إليها اعتبارها وقيمتها، وأعلن أن الإنسان أعز وجود في هذا الكون وأغلى جوهر في هذا العالم، وليس هنا شيء أشرف وأكرم، وأجدر بالحب، وأحق بالحفاظ عليه من هذا الإنسان، انه رفع مكانته حتى صار الإنسان خليفة الله ونائبه، خلق له العالم، وهو خلق لله وحده،

---

(١) أنظر كتب الحديث والسيرة.
(٢) عرفات خارج الحرم.
(٣) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾[1] وأنه أشرف خلق الله، وفي مكان الرئاسة والصدارة، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[2].

وليس أدل على كرامته والاعتراف بعظمته من قوله: «الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله»[3].

وليس هنا أبلغ في الدلالة على سمو الإنسانية، والتقرب إلى الله بخدمتها، والعطف عليها، من الحديث الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تعدني! قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده! أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني! قال: رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي، يا ابن آدم! استسقيتك فلم تسقني! قال: يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟، قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي»[4].

هل يتصور إعلان أوضح وأفصح بسمو الإنسانية، وعلو مكانة الإنسان من هذا الإعلان وهل فاز الإنسان بهذه المكانة السامقة، والشرف العالي في أي ديانة وفلسفة في العالم القديم والحديث؟.

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٩.

(٢) سورة الإسراء، آية ٧٠.

(٣) رواه البيهقي.

(٤) رواه مسلم في صحيحه.

انه صلى الله عليه وسلم جعل الرحمة على بني آدم الشرط اللازم لجلب رحمة الله، فقال عليه السلام: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[١].

ترى ما كان عليه وضع العالم، وحالته الاجتماعية والسياسية، قبل أن ينهض النبي ﷺ بهذه الدعوة، دعوة الوحدة الإنسانية، والكرامة الإنسانية، ويجاهد في سبيلها أبلغ جهاد؟

لقد كان ثمن شهوة فرد واحد، وهوى شخص واحد، قبل بعثته صلى الله عليه وسلم أكبر، وأغلى من أرواح الآلاف ومئات الآلاف من البشر، ينهض ملك واحد، وامبراطور واحد، يكتسح البلاد، ويستعبد العباد، ويضرب الرقاب، ويهلك الحرث والنسل، ويأتي على الأخضر واليابس، لتحقيق مأرب حقير في نفسه، ويزحف الاسكندر حتى يبلغ الهند، ويدمر في طريقه حضارات ومدنيات، وينهض سسرو ويقتنص الفئات البشرية، كما يقتنص أحدنا حيوانات الغابة، واندلعت في زماننا حربان عالميتان ذهب ضحيتها ملايين، ولم يكن ذلك إلا نتيجة صلف قومي، وأنانية فردية، وشهوة الحكم، والسيطرة على الأسواق التجارية العالمية.

محاربة اليأس والتشاؤم، وبعث الأمل والرجاء، والثقة والاعتزاز في نفس الإنسان:

المأثرة الرابعة أن أكثر أفراد النوع الإنساني كانوا مصابين باليأس من رحمة الله، وبسوء الظن بالفطرة الإنسانية السليمة، وكان في إيجاد هذا الجو الخاص، والحالة العقلية الخاصة دور كبير لبعض الديانات الشرقية القديمة، والمسيحية المحرفة في أوربا، وفي الشرق الأوسط، فقد دانت الديانات القديمة في الهند بعقيدة التناسخ، وفلسفته التي لا مجال

(١) رواه أبو داود.

عندها في إرادة الإنسان وتصرفه مطلقاً، وأن كل إنسان مضطر لا محالة لنيل عقوبة ما، لما قدمت يداه في حياته الأولى، وذلك بالظهور في شكل سبع مفترس، أو دابة سائمة، أو حيوان خسيس، أو إنسان شقي معذب.

بينما نادت المسيحية بأن الإنسان عاص ومذنب بالولادة والفطرة، والمسيح صار كفارة وفداءً له عن هذه الذنوب، فأنشأت هذه العقيدة - بطبيعة الحال - في نفوس الملايين في العالم المتمدن المعمور الذين اعتنقوا المسيحية، سوء ظن بنفوسهم، ويأساً عن مستقبلهم، وعن الرحمة الإلهية.

هنالك أعلن النبي ﷺ بكل قوة وصراحة، أن فطرة الإنسان هي كاللوح الصافي، الذي لم يكتب عليه بعد، ويمكن أن ينقش فيه أروع نقش، ويحرر فيه أجمل تحرير، وأن الإنسان يستهل حياته بنفسه، ويستحق الثواب والعقاب، والجنة والنار بعمله، وهو غير مسئول عن عمل غيره، فقد ذكر القرآن في مواضع كثيرة، أن الإنسان مسئول عن عمله فحسب، وانه مثاب ومشكور على سعيه: ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ، ثُمَّ نُجْزِيهُ الجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾[1].

هذا الاعلان أعاد إلى الإنسان ثقته المفقودة بفطرته ومواهبه الطبيعية، وانطلق إلى الأمام بعزم قوي، وحماس زائد، وعاطفة جياشة ليصنع مصيره ومصير الإنسانية، ويجرب حظه وقدرته في تلك الإمكانيات الهائلة، والفرص الغالية.

إن محمداً ﷺ قرر أن المعاصي والذنوب، والأخطاء والزلات فترة عابرة، زائلة، في حياة الإنسان، يقع فيها الإنسان بجهله وغروره،

---

(١) سورة النجم، الآيات ٣٨ - ٤٠.

وقصر نظره حيناً، وبإغواء الشيطان، وإغراء النفس بعض الأحيان، وأن الصلاح والصلاحية، والاعتراف بالذنب، والندامة أصل من أصول فطرته، وجوهر إنسانيته، وأن الابتهال إلى الله، والتضرع إليه، والعزم الأكيد على عدم العودة إلى الذنب، دليل على شرف الإنسان، وأصالة معدنه، وهو ميراث آدم عليه السلام.

إن محمداً ﷺ فتح أمام المذنبين الخطائين، الغارقين في حمأة المعصية والرذيلة إلى آذانهم، باباً واسعاً للتوبة، ودعا إليها الناس دعوة عامة، وشرح فضل التوبة شرحاً وافياً، وأفاض فيه إفاضة نستطيع بها القول بأنه أحيا هذا الركن الخاص العظيم من الدين ولذلك سمي «بنبي التوبة» من بين أسمائه الجميلة الأخرى،لأنه ما دعا إلى التوبة كوسيلة اضطرارية يتدارك بها الإنسان ما فاته فحسب، بل إنه رفع من شأنها حتى صارت من أفضل العبادات، والقربات عند الله، وصارت طريقاً سهلاً للوصول - في أقرب وقت - إلى أقصى درجات القرب والولاية، يغبط عليها النساك والزهاد، والأبرياء والأطهار من عباد الله.

إن القرآن شرح فضل التوبة وسعتها، ونقاء الإنسان من أكبر ذنب وأعظم معصية، يتصورها الإنسان، وذلك بأسلوب جميل يستهوي القلوب، ودعا العصاة والمذنبين، وصرعى النفس والشيطان إلى اللجوء إلى الله سبحانه، والفرار إليه، والتفيؤ بظلال رحمته، والترامي في أحضان رأفته وعطفه وصور بحار رحمته الزاخرة، الواسعة الأرجاء، المحيطة بالأنفس والآفاق، تصويراً رائعاً جميلاً، شائقاً مثيراً، يبدو منه أن الله سبحانه وتعالى ليس حليماً رحيماً، وجواداً كريماً فحسب، بل انه - إذا صح هذا التعبير - يحب التوابين، ويشتاق إليهم، ويشكر سعيهم البليغ، ويقدره كل التقدير، اقرأ الآيات التالية، وتذوّق أسلوب

هذا اللطف والعطف، وجو الود الذي يغشى هذه الآيات:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1].

وأكثر من ذلك وأروع ما نجد في الآية التالية حيث ذكر الله سبحانه جماعات مختلفة من عباده الصالحين، فاستهل هذه القائمة المشرقة النورانية بالتائبين، إنها آية من سورة «التوبة»:

﴿التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ، السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

هذا التكريم وتبرئة العبد التائب من ذنبه، وإظهار الثقة به تجلي واضحاً حين أعلن القرآن قبول ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ الذين تخلفوا عن غزوة تبوك[3] من غير عذر صحيح مقبول، وبقوا في المدينة، فبدأ القرآن بذكر النبي ﷺ والمهاجرين والأنصار، الذين لم يتخلفوا عن هذه الغزوة، ثم ثنى بهؤلاء الثلاثة الذين خلفوا، حتى لا يشعر هؤلاء المخلفون بإفرادهم بالتوبة ويكونوا بمعزل عن الشعور بالهوان، وما يسمى في علم النفس «بمركب النقص»، ويتضح للمؤمنين إلى يوم القيامة أن مكانتهم الطبيعية في الصف الأول من الصادقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فلا داعي للاستحياء، ولا مكان للعار.

---

(١) سورة الزمر، آية ٥٣.

(٢) سورة التوبة، آية ١١٢.

(٣) اقرأ للتفصيل كتب السيرة، والتفسير، والحديث؛ «غزوة تبوك» وقد مرت القصة في هذا الكتاب في موضعها.

هل هناك مثال أروع وأجمل، وأدق وأعمق، وأحلى وأزهى لقبول التوبة، وتكريم التائب، ومسح غاشية الكآبة عنه بلطف وود، وحب وحنو في تاريخ الأديان والأخلاق، والتربية والإصلاح، من هذا المثال؟.

- اقرأ معي الآيات التالية:

﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَىٰ النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ، وَعَلَىٰ الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَنْ لاَ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيهِ، ثُمَّ تَابَ عَلَيهِم لِيَتُوبُواْ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

ثم أعلن أيضاً كمبدأ عام أن رحمة الله تسع كل شيء، وتسبق غضبه وجلاله، يقول القرآن: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2]، وجاء في حديث قدسي: «إن رحمتي سبقت غضبي» إنه جعل اليأس مرادفاً للكفر والجهل والضلال، وبين ذلك على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رُوحِ اللهِ إِلاَّ القَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[3]، وذكر في موضع آخر قول إبراهيم - عليه السلام - فقال: ﴿وَمَنْ يَقْنُطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾[4].

وهكذا أسعف النبي ﷺ بهذه الدعوة المفتوحة العامة إلى التوبة وبيان فضائلها، وسعتها وشمولها، الإنسانية المذعورة الخائفة التي كانت تئن تحت وطأة اليأس، والقنوط، وترتعد فرائصها بإنذارات العقاب

---

(١) سورة التوبة، الآيتين ١١٧ - ١١٨.
(٢) سورة الأعراف، آية ١٥٦.
(٣) سورة يوسف، آية ٨٧.
(٤) سورة الحجر، آية ٥٦.

والعذاب، ومظاهر الغضب والجلال، (وقد كان في ذلك لعلماء اليهود، وشراح الكتب المقدسة، ورهبان المسيحية الغلاة المتطرفين أكبر نصيب) ومنحها فرصة جديدة جميلة من الحياة، ونفخ في قلبها الضعيف المتواني، وجسدها الهامد البارد روحاً جديدة، وحرارة جديدة، وهيأ لجروحها بلسماً، ورفعها من حضيض التراب إلى أوج العزة والسيادة، والثقة والاعتزاز، والاعتداد بالنفس، والاعتماد على الله.

الجمع بين الدين والدنيا، وتوحيد الصفوف المتنافرة، والمعسكرات التجارية:

لقد وزعت الديانات القديمة، خاصة المسيحية، الحياة الإنسانية في قسمين: قسم للدين، وقسم للدنيا، ووزعت هذا الكوكب الأرضي في معسكرين: معسكر رجال الدين، ومعسكر رجال الدنيا وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب، بل حال بينهما خليج كبير ووقف بينهما حاجز سميك، وظلا متشاكسين متحاربين وكان كل واحد يعتقد أن هناك خصومة وعداء بين الدين والدنيا، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما، لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر، بل يعلن الحرب عليه، فلا يمكنه - على حد قولهم - أن يركب سفينتين في وقت واحد، وأنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصادي ورخائه من غير غفلة عن الدار الآخرة، وإعراض عن فاطر السماوات والأرض، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية، والتجرد عن خشية الله، ولا إمكان للتدين من غير رهبانية، وقطع صلة عن الدنيا وما فيها.

المعلوم المقرر أن الإنسان محب لليسر مجبول عليه، وكل فكرة دينية لا تسمح بالاستمتاع المباح، والنهضة، والعزة، والحصول على القوة والحكم، لا تصلح للنوع البشري في الغالب، انه صراع مع الفطرة السليمة، وكبت للغرائز الطبيعية البريئة في الإنسان، وكانت نتيجة

هذا الصراع أن العدد الأكبر من أصحاب الفطنة والذكاء، والكفاءات العلمية، آثر الدنيا على الدين، ورضي بها - كحاجة اجتماعية، وواقع حي - واطمأن إليها، وعكف على تحسين هذه الحياة، والحصول على ملذاتها، ولم يبق له أمل في الرقي الديني، والتقدم الروحي.

وأكثر الذين هجروا الدين بصورة عامة، هجروه على أساس التناقض الذي حسبوه حقيقة بديهية مسلمة، وثار البلاط الذي كان يتزعم الحكم الدنيوي، على الكنيسة التي كانت تمثل الدين، وتجرد عن سائر قيوده، فصارت الحكومات - بطبيعة المنطق - كفيل هائج مائج، تخلص من سلاسله وقيوده، أو كجمل هائم حبله على غاربه، هذا الانفصال النكد بين الدين والدنيا، وذلك العداء المشئوم بين «رجال الدين ورجال الدنيا» فتح الباب على مصراعيه للإلحاد واللادينية، وكانت فريسته الغرب أولاً، والأمم التي دانت له في الفكر والعلم والثقافة، أو عاشت تحت رايته ثانياً.

وزاد الطين بلة دعاة المسيحية المتطرفون والمفرطون، الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق في التزكية الروحية والاتصال بالسماء، والذين لم يدخروا وسعاً في إذلالها وتعذيبها بأنواع من الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة[١] وقدموا صورة وحشية كالحة مفزعة للدين، تقشعر منها جلود الذين آمنوا، وآل الأمر في نهاية الشوط إلى تقلص ظل الدين، وبلغت عبادة النفس والهوى - في أوسع معناها - إلى ذروتها، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي نقيض، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الديني، أو فقدان الحاسة الدينية في هوة عميقة من

---

(١) أنظر «تاريخ أخلاق أوربا» ج٢، لمؤلفه ليكي.

اللادينية، والفوضى الخلقية العامة[1].

وأعظم هدية للبعثة المحمدية، ومنَّتها العظيمة نداؤها الذي دوت به الآفاق أن أساس الأعمال والأخلاق، هو الهدف الذي ينشده المرء، والذي عبر عنه الشارع بلفظ مفرد بسيط، ولكنه واسع عميق « النية »، فقال: « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى »[2].

وإن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله، وبدافع الإخلاص، وامتثال أمره وطاعته، هو وسيلة إلى التقرب إلى الله، والوصول إلى أعلى مراتب اليقين، ودرجات الإيمان وهو دين خالص لا تشوبه شائبة، ولو كان هذا العمل جهاداً وقتالاً وحكماً وإدارة، وتمتعاً بطيبات الأرض، وتحقيقاً لمطالب النفس، وسعياً لطلب الرزق والوظيفة، واستمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة، والحياة العائلية والزوجية، وكل عبادة وخدمة دينية - بالعكس من ذلك - تعتبر دنيا إذا تجردت من طلب رضا الله سبحانه، والخضوع لأوامره ونواهيه، وغشيتها غاشية من الغفلة، ونسيان الآخرة، ولو كانت صلوات مكتوبة، ولو كانت هجرة وجهاداً وذكراً وتسبيحاً وقتالاً في سبيل الله، ولا يثاب عليه العامل، والعالم، والمجاهد، والداعي، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه

---

(١) اقرأ للتفصيل كتاب « الصراع بين الدين والعلم » (Conflict Between Religion & Science) لدرابر (Draper) أو « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » الباب الرابع « العصر الأوربي ».

(٢) الحديث الصحيح الذي بلغ عند بعض المحدثين حد الاستفاضة والشهرة، والذي افتتح به الإمام البخاري كتابه « الجامع الصحيح »، وتمام الحديث « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » (حديث متفق عليه).

وبالاً، وتكون بينه وبين الله حجاباً[1].

إن المأثرة الخامسة من مآثر سيدنا محمد ﷺ أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين، اللذين عاشا في خصام دائم، وعداء سافر، وحقد مستمر، يتعانقان في ألف وود، ويتعايشان في سلام ووئام، انه صلى الله عليه وسلم رسول الوحدة، وبشير ونذير في الوقت ذاته، انه أخذ النوع البشري من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحدة من الإيمان، والاحتساب، والعطف على البشرية، وابتغاء رضوان الله، وعلمنا هذا الدعاء الجامع، المعجز الواسع، ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2].

إنه أعلن بالآية القرآنية: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾[3] إن حياة المؤمن ليست مجموع وحدات متفرقة مضادة، بل هي وحدة تسيطر عليها روح العبادة والاحتساب، ويقودها الإيمان بالله والإسلام لأوامره، وهي تشمل شعب الحياة كلها، وميادين الكفاح كلها، وأصناف العمل كلها، إذا تحقق الإخلاص، وصحت النية، وأريد بها وجه الله، وكانت على المنهج الصحيح الذي جاء به الأنبياء فدل ذلك على أنه رسول الوحدة والوئام والإنسجام بالكمال والتمام، وأنه البشير والنذير في نفس الوقت، انه قضى على نظرية الانفصال بين الدين والدنيا، فجعل الحياة كلها عبادة، وجعل الأرض كلها مسجداً،

---

(١) كتب الحديث زاخرة بالآثار الدالة على ذلك، أنظر أبواب الاخلاص والنية؛ والإيمان؛ والاحتساب.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٠١.

(٣) سورة الأنعام، آية ١٦٣.

وأخذ بيد الإنسان من معسكرات متحاربة متصارعة، إلى جبهة واحدة واسعة من العمل الصالح، وخدمة الإنسانية النافعة، وابتغاء مرضاة الله، فترى هناك ملوكاً في أطمار الفقراء، وزهاداً في زي الملوك والأمراء، جبال حلم وينابيع علم، عباد ليل وأحلاس خيل، من غير تناقض أو صعوبة، واختلال أو تعسف.

تعيين الأهداف والغايات وميادين العمل والكفاح:

المأثرة السادسة، أو الانقلاب السادس الذي أحدثه محمد ﷺ في الحياة البشرية، أنه هدى الإنسان إلى محل لائق كريم يصرف فيه قواه، ورفعه إلى أجواء فسيحة عالية يحلق فيها.

كان الإنسان قبل البعثة المحمدية جاهلاً لهدفه الحقيقي، لا يدري إلى أين يتجه، وإلى أين المصير؟، وما هو المجال الأفضل والحقيقي لمواهبه وطاقاته وجهوده؟.

انه وضع لنفسه مقاصد وهمية صناعية، وحصر نفسه في دوائر ضيقة محدودة، كانت تستنفد قواه وطاقاته وذكاءه، وكان المثل الأعلى عنده للرجل الناجح واللامع من يكون أكثر جمعاً ومالاً، وأوسع نفوذاً وقوة، متحكماً في أكبر مجموعة من البشر، وأوسع بقعة من بقاع المعمورة. كان هناك ملايين لم يزد طموحهم على التمتع بألوان زاهية، وأصوات مطربة، وأطعمة لذيذة، وأكثر من تقليد البلبل في صوته، أو الطاووس في لونه، بل أكثر من مسايرة الماشية والغنم، والأنعام والدواب، كان هناك آلاف عاشوا دائماً بين بلاط الملوك، وحاشيتهم، وبذلوا نبوغهم وذكاءهم في التزلف إلى الأمراء، والتملق أمام الأغنياء، أو الخضوع للجبابرة والأقوياء، أو التسلي بالأدب الفارغ الذي لا قيمة له في الدنيا والآخرة، فجاء محمد ﷺ وجعل غايته الأخيرة الحقيقية، وهدفه الأعلى المنشود نصب عينيه، وأرسخ في قلب الإنسان، أن المجال الحقيقي لجهده

واجتهاده، ومواهبه وأشواقه، وطموحه وسموه وطيرانه وتحليقه، هو معرفة فاطر السماوات والأرض واطلاع على صفاته، وقدرته وحكمته، وسعة ملكوت السماوات والأرض وعظمتها وخلودها، والحصول على الإيمان واليقين، والفوز برضوان الله وحده، والرضا به وبقدره، والبحث عن وحدة تؤلف بين الأجزاء المتناثرة أحياناً، والمتناقضة أحياناً أخرى، وتنمية قواه الباطنة، ومداركه الروحية، للوصول إلى درجات القرب واليقين، والحثّ على خدمة الإنسانية، والإيثار والتضحية، والوصول بذلك إلى مكان لا تصل إليه الملائكة المقربون، وتلك هي السعادة الحقيقية للإنسان، ونهاية كماله، ومعراج قلبه وروحه.

ولادة عالم جديد، وإنسان جديد:

لقد تغيرت الدنيا بعد بعثة النبي ﷺ وبفضل تلك التعاليم السامية، كما يتغير الطقس، وانتقلت الإنسانية من فصل كله جدب وخريف، وسموم وحميم، إلى فصل كله ربيع وأزهار، وجنات تجري من تحتها الأنهار، تغيرت طباع الناس، وأشرقت القلوب بنور ربها، وعم الإقبال على الله، واطلع الإنسان على طعم جديد لم يألفه، وذوق لم يجربه، وهيام لم يعرفه من قبل.

انتعشت القلوب الخاوية الضامرة الباردة الهامدة، بحرارة الإيمان وقوة الحنان، استضاءت العقول بنور جديد، وسكرت النفوس بنشوة جديدة، وخرجت الإنسانية أفواجاً تطلب الطريق الصحيح ومحلها الرفيع، وتحنّ إلى مكانتها السامقة العالية، فلا ترى أمة من الأمم، وبلداً من البلاد، إلا وهو يريد السباق في هذا المضمار، ويتنافس فيه، فما ترى العرب والعجم، ومصر والشام، وتركستان وإيران، والعراق وخراسان، وشمالي افريقية، والأندلس وبلاد الهند، وجزائر شرق الهند، إلا سكارى هذا الحب العلوي، والفيض السماوي، وعشاق هذا

الهدف السامي، وفقراء على هذا الباب العالي.

كان يبدو أن الإنسانية أفاقت واستيقظت، وفتحت عيونها بعد سبات عميق طويل، دام قروناً طويلة، فأرادت أن تتدارك ما فاتها حتى عمر كل جزء من أجزائها، وكل ركن من أركانها بدعاة ربانيين مخلصين، مجاهدين مصلحين، مربين، عارفين بالله.. متحرقين لخلق الله، باذلين نفسهم ونفيسهم لخير الإنسانية، وإنقاذها من الخطر المحدق بها من كل جانب، رجال تحسدهم الملائكة، فأشعلوا مجامر القلوب الباردة، وأزكوا شعلة الحب الإلهي، وفجروا أنهار العلوم والآداب، والحكم والمعارف، وفتحوا ينبوعاً فياضاً، متدفقاً من العلم والعرفان، والإيمان والحنان، وأنشأوا في نفوس البشر مقتاً شديداً للظلم والجور، والعدوان والبغضاء، ولقنوا الشعوب المضطهدة، المهانة الذليلة دروس المساواة، وضموا المنبوذين والمهجورين، والمساكين الذين لفظهم المجتمع، وطردهم أهلهم وعشيرتهم إلى صدورهم العامرة بالحب والحنان، إنك تجد آثارهم، وتلمس آياتهم على كل جزء من أجزاء البسيطة كمواقع القطر، لا يخلو منها بيت وبر، ولا مدر.

وانظر في جوهر أعمالهم وكيفيتها Quality فضلاً عن كميتها Quantity وشاهد سمو أفكارهم، وتحليقها في أجواء وآفاق رفيعة، وانظر شعورهم المرهف، وروحهم اللطيفة الوادعة الرقيقة، وذكاءهم الوقاد، وطبعهم السليم، وكيف كانوا يتوجعون للإنسانية ويذوبون لها كالشمعة، وكيف كانت نفوسهم وأرواحهم تتلوى وتذوب في نار الأسى والإشفاق، والعطف على الخلق، والحرص على ما فيه نفعه وصلاحه، كيف كانوا يقعون في المهالك، ويرحبون بالخسائر لإنقاذ الناس، ودفع البلاء عنهم، كيف كان حكامهم وولاة أمورهم، يصرفون الأمور، ويشعرون بالمسئولية، يعسون بالليل ويترابطون على الثغر، وكيف كان الشعب منسجماً معهم، مطيعاً لأوامرهم، واقرأ - أيضاً - أخبار

عبادتهم، وزهدهم، وحالتهم في الدعاء، ومكارم أخلاقهم، وشهادتهم على نفوسهم، واحتسابهم لها، وحبهم للصغار، والضعفاء، ولين قلوبهم مع الإخوان والأصدقاء، وكرمهم وسماحهم، وعفوهم وصفحهم عن الأعداء، وسوف ترى أن أحلام الشعراء والأدباء، وخيالهم الخصيب، وقريحتهم الفياضة، لا تصل إلى تلك القمة العالية التي وصل إليها هؤلاء في عالم الحقيقة والواقع، ولولا تواتر ما جاء في هذا الباب واستفاضته، ولولا شهادات التاريخ الموثوق بها، بدت هذه الأخبار كقصص وأساطير نسجها الخيال.

إن هذا الانقلاب العظيم، والدور الزاهر الجديد معجزة من معجزات محمد ﷺ ومأثرة من مآثر بعثته، ونفحة من نفحات الرحمة الإلهية التي عمَّت الأمكنة كلها، والأزمنة كلها.

وصدق الله العظيم:

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

فهرس الأعلام

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ش -

- ص -

- ف -

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس القبائل والأقوام

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- ز -

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

- ل -

- م -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس الأمكنة والمواضع

- ح -

- ش -

- ص -

- ط -

- ظ -

- ع -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

فهرس المراجع العربيّة والأوروبيّة

القرآن الكريم:

كتب الحديث:

الجامع الصحيح	للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.
الصحيح لمسلم	للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري.
الجامع للترمذي	للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي.
سنن أبي داود	للإمام أبي داؤد سليمان بن الأشعث السجستاني.
سنن النسائي	للقاضي أحمد بن شعيب بن علي النسائي.
سنن ابن ماجة	للعلامة أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني.
موطأ الإمام مالك	للإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي.
مسند أحمد	للإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني.
السنن الكبرى للبيهقي	للعلامة أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي.
سنن الدارمي	للعلامة أبي محمد عبد الله بن عبدالرحمن الدارمي.

المستدرك للحاكم	للحافظ أبي عبد الله بن محمد بن عبدالله المعروف بالحاكم النيسابوري.
الأدب المفرد	للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.
شمائل الترمذي	للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي.
شرح معاني الآثار	للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي.
مشكل الآثار	للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي.
مسند أبي داؤد	للحافظ أبي داؤد الطيالسي.
شرح السنة	للعلامة ابن محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي.
المصنف	للحافظ أبي بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني.
مشكاة المصابيح	للعلامة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي والشيخ ولي الدين محمد الخطيب التبريزي.
الترغيب والترهيب	للحافظ زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري.
زاد المعاد	للعلامة شمس الدين ابن قيم الجوزية.
كنز العمال	للعلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين البرهان بوري.
شرح مسلم	للعلامة محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي.
فتح الباري	للعلامة الحافظ أحمد بن علي بن محمد المعروف بابن حجر العسقلاني.

عمدة القاري	للعلامة بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني.
جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد	للعلامة محمد بن محمد بن سليمان بن الفاسي المغربي.
(المعجم الكبير)	للعلامة سليمان بن أحمد بن أيوب الشامي الطبراني.
المواهب اللدنية	للعلامة الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني.
شرح المواهب اللدنية	للعلامة محمد بن عبد الباقي الزرقاني.
مجمع بحار الأنوار	للعلامة محمد طاهر الفتني
التراتيب الإدارية	للعلامة عبد الحي الكتاني.
حلية الأولياء	للعلامة أبي نعيم الأصبهاني.

كتب التفسير:

جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري)	للعلامة أبي جعفر محمد بن جرير الطبري
تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)	للعلامة الحافظ عماد الدين بن كثير.
تفسير ماجدي	للأستاذ الكبير عبد الماجد الدريابادي (اللغة الأوردية والانجليزية).

كتب السيرة النبوية:

السيرة النبوية	للعلامة أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن هشام.

الكتاب	المؤلف
كتاب الشفاء	للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي.
السيرة النبوية	للعلامة الحافظ عماد الدين بن كثير.
السيرة الحلبية	للشيخ علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي.
المغازي	للعلامة محمد بن عمر الواقدي.
الروض الأنف	للحافظ عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي المغربي.
كتاب الفصول	للعلامة محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري.
الخصائص الكبرى	للعلامة جلال الدين محمد بن أحمد السيوطي.
امتاع الأسماع، بما للرسول من الأبناء والأحوال والحفدة والمتاع	للعلامة تقي الدين أبي محمد المقريزي.
الرسالة المحمدية	للعلامة السيد سليمان الندوي (تعريب الأستاذ محمد ناظم الندوي).
خاتم النبيين	للعلامة محمد أبو زهرة المصري.
عبقرية محمد	للأستاذ عباس محمود العقاد
الرسول القائد	للركن المتقاعد محمود شيت الخطاب
حجة الوداع وجزء عمرات النبي	للعلامة الشيخ محمد زكريا الكاند هلوي.
غزوة الأحزاب	للأستاذ محمد أحمد باشميل.
سيرة النبي	للعلامة شبلي النعماني (اللغة الأوردية).
رحمة للعالمين	للقاضي محمد سليمان المنصور فوري (اللغة الأوردية).
أصح السير	للشيخ عبد الرؤوف الدانابوري (اللغة الأوردية).

عهد نبر كى ميدان جنك
ساحات القتال في العهد
النبوي) للدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي المقيم بباريس (اللغة الأوردية).

حديث دفاع للواء محمد أكبر خان الباكستاني (اللغة الأوردية).

محمد رسول الله للدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادي المقيم بباريس، (اللغة الانجليزية).

كتب التاريخ والتراجم والأخبار:

طبقات ابن سعد للعلامة محمد بن سعد كاتب الواقدي.

تاريخ الأمم والملوك
تاريخ الطبري للعلامة أبي جعفر محمد بن جرير الطبري.

البداية والنهاية للعلامة الحافظ عماد الدين بن كثير.

الكامل للإمام فخر الدين بن الأثير الجزري.

فتوح البلدان للعلامة أحمد بن يحيى بن جابر الشهير بالبلاذري.

تاريخ ابن خلدون للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون.

تاريخ الخميس للقاضي حسين بن محمد بن الحسن الدياربكري المالكي.

الاستيعاب في معرفة
الأصحاب للعلامة الحافظ ابن عبد البر المالكي الأندلسي.

الإصابة في تمييز الصحابة للعلامة الحافظ أحمد بن علي بن محمد المعروف بابن حجر العسقلاني.

أسد الغابة	للعلامة عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير.
صفة الصفوة	للعلامة الحافظ عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي.
تذكرة الحفاظ	للعلامة الحافظ شمس الدين أبي عبد الله الذهبي.
كتاب الزهد	للإمام عبد الله بن المبارك.
الشعر والشعراء	لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري.
أهل كتاب صحابة وتابعين	(الصحابة والتابعون من أهل الكتاب) للأستاذ مجيب الله الندوي (الأوردية).
الأغاني	لأبي الفرج الأصبهاني.

تاريخ البلاد والأمم:

معجم البلدان	للإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي البغدادي.
النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة	للعلامة الأمير يوسف بن تغري بردي.
المغانم المستطابة في معالم طابة	للعلامة مجد الدين الفيروزآبادي.
وفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى	للعلامة علي بن عبد الله بن أحمد السمهودي الشافعي.

بلوغ الأرب في معرفة
أحوال العرب — للسيد محمود شكري الآلوسي
أخبار مكة — للإمام أبي الوليد محمد الأزرقي.
تاريخ مكة — للأستاذ أحمد السباعي.
منزل الوحي — للدكتور محمد حسين هيكل.
حج ومقامات حج — للأستاذ محمد الرابع الندوي (اللغة الأوردية).
آثار المدينة المنورة — للأستاذ عبد القدوس الأنصاري.
مكة والمدينة في الجاهلية
وعهد الرسول — للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف.
تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي.
تاريخ اليهود في بلاد العرب
في الجاهلية وصدر الإسلام للدكتور إسرائيل ولفنسون (أبو ذؤيب).
إيران بعهد ساسانيان — ترجمة الدكتور محمد اقبال معلم الكلية الشرقية بلاهور.
(إيران في عهد الساسانيين) (اللغة الأوردية).
تاريخ إيران — لشاهين مكاريوس.
نامهء تنسر — (وثيقة إيرانية تاريخية - طبع مينوى).
تاريخ جين (تاريخ
الصين) — لجيمس كاركرن.
بنو إسرائيل في القرآن
والسنة. — للدكتور محمد سيد الطنطاوي.
هندوستاني تمدن
(الهند القديمة) — لاشور أتوبا (اللغة الأوردية).

كتب الشريعة الإسلامية والأديان والمذاهب:

حجة الله البالغة	لشيخ الإسلام أحمد ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي.
تاريخ التشريع الإسلامي	للعلامة الشيخ محمد الخضري.
فقه الزكاة	للأستاذ يوسف القرضاوي.
الكنز المرصود في قواعد التلمود (اليهود على حسب التلمود)	للدكتور يوسف حنا نصر الله.
الكتاب المقدس: الانجيل التوراة	
ستيارته بركاش (في الديانة الهندوكية) منوشاستر	لديانندسر سوتي (اللغة الأوردية).

المعاجم، وكتب الأدب والمحاضرات والموسوعات:

لسان العرب	للعلامة أبي الفضل جمال الدين محمد المعروف بابن منظور المصري.
المخصص	للعلامة أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي المعروف بابن سيدة.
أدب الكاتب	لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري.
فقه اللغة	للعلامة الشيخ أبي منصور الثعالبي.
فرهنك عميد	للأستاذ عميد (اللغة الفارسية).

شرح السبع المعلقات	للعلامة أبي عبدالله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني.
ديوان الحماسة	لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي.
العقد الفريد	للعلامة الشيخ شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبدربه الأندلسي.
حسن المحاضرة	للعلامة جلال الدين محمد بن أحمد السيوطي.
دائرة المعارف للبستاني	للمعلم بطرس البستاني.
دائرة معارف القرن العشرين	للأستاذ محمد فريد وجدي.

BIBLIOGRAPHY

Alwin Toffler – Future Shock, London. 1975.

Bodley, R.V.C. – the Messenger: the Life of Mohammed, London. 1946.

Bosworth Smith – Mohammed and Mohammedanism, London. 1976.

Briffault Robert – The Making of Humanity,

Butler Alfred j. – the Arab conquest of Egypt and the Last Thirty Years of the Roman Dominion, Oxford. 1902.

Cambridge – History of Islam, vol. 1, Cambridge. 1970.

Christensen A. – L'Iran Sous les Sassanides (Urdu Trans. Muhammad Iqbal).

De Lacy O'Leary – Arabia Before Muhammad, London. 1927.

Drapper John William – Conflict Betwen Religion and Science, London. 1910.

Dutt R.C., – Ancient India, Vol. 3, 1891.

Encyclopaedia Britannica, Vol. XII, Ninth Edition

Encyclopaedia of Religions and Ethics, 1939.

Georges Roux – Ancient Iraq, 1972.

Gibbon Edward – The Declind and Fall of Roman Empire, London. 1911.

Hamidullah Dr. Muhammad – Muhammad Rassulullah, Hyderabad. 1974 (the) History of Christianity in the Light of Modern Knowledge, Glasgow. 1929.

Hitti P.K – History of Syria, London. 1951.

James Mackinon – From Christ to Constantine, London. 1936.

Jewish Encyclopaedia, Vol. XII, 1916.

John Davenport – Apology for Muhammad and the Quran, London. 1869.

Jones A.H.M., and Elizabeth Monroe, – A History of Abyssinia, Oxford. 1835.

Lamartine – Histoire de la Turquie, vol. II.

Locky W.E.H. – History of European Morals, NewYork. 1855.

Maryam Jameelah – Islam Versus Ahl – Kitab Past and Present, Lahore 1968.

Montgomery Watt, W. – Muhammad, Prophet and Statesman, London. 1961.

Muir sir William – Life of Mahomet, Vol, I London 1856.

Nehru Jawahar Lal – Discovery of India, Calcutta. 1948.

(The) New Catholic Encyclopaedia. Vol XIV, 1967.

O'Malley L.S.S – Popular Hinduism the Religion of the Masses, Cambridge. 1935.

Thilly Prof. Frank – History of Philosophy, NewYork. 1945.

Vaidya C.V – History of Medieval Hindu India, Vol. I, Poona. 1921.

Victor Chaport – The Roman World, London. 1928.

Vidyadhar Mahajan – Muslim Rule in India, New Delhi. 1970.

Wallbank T. Walter and Alastair M. Taylor – Civilizations Past and Present, (Scott Froesment & co.) 1954.

Wells H.G. – A Short History of the World, London. 1924.

Williams Henry Smith – Historians, History of the World, V Ed. 1926.

Zaki Ali Dr. – Islam in the World, Lahore. 1947.

المحتويات

الموضوع	الصفحة

قبل البعثة:

٦٣ - ٨٢

مكة زمن البعثة وعند ظهور الإسلام:

٨٣ - ٩٨

من الولادة الكريمة إلى البعثة العظيمة؟

٩٩ - ١١٤

بعد البعثة:

١١٥ - ١٦٩

تصوير المدينة عند الهجرة:

١٧١ - ١٩٣

في المدينة:

١٩٥ - ٢١٣

معركة بدر الحاسمة:

٢١٥ - ٢٢٨

غزوة أحد:

٢٢٩ - ٢٤٦

غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب:

٢٤٧ - ٢٥٧

غزوة بني قريظة:

٢٥٦ - ٢٧٢

صلح الحديبية:

٢٧٣ - ٢٨٣

دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام:

٢٨٥ - ٣٠٩

غزوة خيبر:
٣١١ - ٣٢٢

غزوة مؤتة:

٣٢٣ - ٣٢٨

فتح مكة:

٣٢٩ - ٣٤٦

غزوة حنين:

٣٤٧ - ٣٥٢

غزوة الطائف:

٣٥٣ - ٣٦٠

غزوة تبوك:

٣٦١ - ٣٧٥

عام الوفود:

٣٧٧ - ٣٨٤

حجة الوداع:

٣٨٥ - ٣٩٢

الوفاة:

٣٩٣-٤٠٧

أزواجه أمهات المؤمنين:

٤٠٩ - ٤١٧

الأخلاق والشمائل:

٤١٩ - ٤٥١

فضل البعثة المحمدية على الإنسانية ومنحها العالمية الخالدة:

٤٥٣ - ٤٨٦